المفاهيم القرآنية

رسالة في تفسير مفاهيم
القرآن الكريم

تأليف
أ. أحمد عبد الرزاق مربوش

التعريف بالمؤلف/

المحامي / احمد عبد الرزاق مربوش سلام العامري

تاريخ ومحل الميلاد / من مواليد ١٩٧٣م بمنطقة حرف الاعمور اعرواق حيفان محافظه تعز اليمن وبها درس الا بتدائيه بمدرسه الشهيد عبد الرحمن مهيوب انعم بالعرين اعرواق ثم درس فى مدينه القاعده مديريه ذى سفال ثم بمعهد مصعب بن عمير بالحديدة ثم درس بمعهد المعلمين العام(مدرسه سباء بمدينة القاعده) ثم التحق بكلية الشريعه والقانون وعمل فى مجال المحاماه

الاقامه / ذى سفال اب الجمهوريه اليمنيه

العمل الحالى / محام مهتم بالفكر الاسلامى ودراسه القران الكريم وعلومه

المؤهل / ليسانس شريعه وقانون

الحاله الاجتماعيه متزوج من ثلاث نساء وله سبعه اولاد ثلاثه ذكور واربع بنات

بسم الله الرحمن الرحيم

###** إهداء**

إلى الباحثين عن الحقيقة وسط ضجيج الفتن..

إلى الصابرين الذين اتخذوا من الوحي دليلا ً، ومن العمل سبيلا ً..

إلى كل من يسعى لبناء لبنة في صرح أمتنا، لتكون كالبنيان المرصوص لا كبيت العنكبوت..

أهدي إليكم هذا العمل..

لعله يكون سراجاً في دروب البناء، ومدداً في ميادين المجاهدة.

المحامي احمد عبد الرزاق مربوش سلام العامري
اب اليمن 777308003

بسم الله الرحمن الرحيم
مقدمه الكتاب : خارطة طريق بناء الأمة) تأملات في سورة العنكبوت**(
اولا جوهر ومحتوى الكتاب:
يقدم هذا الكتاب قراءة فكرية وحضارية معمقة لسورة العنكبوت، متجاوزاً التفسير التقليدي إلى استنباط القوانين السننية لبناء الأمم .يتمحور جوهر العمل حول فكرة أن "الإيمان ليس مجرد كلمة تقال، بل هو نار تختبر في معمل الواقع" .يتناول الكتاب السورة كدليل تشغيل للأمة في لحظات المخاض الصعبة، رابطاً بين مفاهيم الابتلاء والتمحيص وبين النهضة الحضارية الشاملة.
اهداف المؤلف
يسعى المؤلف من خلال هذا العمل إلى تحقيق عدة أهداف استراتيجية:
* إعلان حالة "طوارئ فكرية" لإيقاظ الأمة من وهم "الإسلام المجاني" الذي يطلب الحقوق دون أداء الواجبات.
* تقديم خارطة طريق عملية للنهضة تبدأ من بناء "الروح" وصولا ً إلى استقرار "العقل" وتجنب سقوط "الجسد".
* تحويل النص القرآني من مجرد "تأملات" إلى "منهج حياة" يوجه السلوك الإداري، الاقتصادي، و السياسي.
*أسلوب الكاتب ومنهجه البياني**
اعتمد الكاتب أسلوباً يجمع بين** التحليل البلاغي الدقيق **و**الاسقاط الواقعي المعاصر .**ويتميز منهجه ب-:
** * التفكيك اللغوي: **الغوص في دلالات الألفاظ) مثل الفرق بين "حسب" و"ظن" (لاستخراج المفاهيم الكامنة.
*** التصوير الفني: **استخدام المشاهد القرآنية لرسم صور ذهنية تؤثر في الوجدان قبل العقل.
*** الربط السنني: **ربط الآيات بالقوانين الكونية والتاريخية التي تحكم صعود الحضارات وسقوطها.
ما يمتاز به هذا الكتاب عن غيره**
يختلف هذا الكتاب عن كتب التفسير الموضوعي التقليدية في كونه يعتمد** "المنهج الوظيفي"**؛ فهو لا يكتفي بشرح المعنى، بل يستنبط "مهارات إدارة الأزمات" من قصص الأنبياء، ويحلل الواقع الا جتماعي بناءً على نماذج فكرية حديثة) مثل رؤية مالك بن نبي.(
هيكل المفاهيم**
ينتظم الكتاب وفق هيكل مفاهيمي ثلاثي الأبعاد:
** .1 مرحلة الروح) الآيات1 -(13: **تركز على بناء الجوهر الصلب، الصبر على الابتلاء، وتجرد الفرد من حظوظ نفسه.
** .2 مرحلة العقل) الآيات14 -(40: **تتناول تجارب الأنبياء ككتالوج للنجاح التراكمي وتشكيل العقلية المنظمة للأمة.
** .3 مرحلة الجسد) الآيات41 -(69: **تحذر من الهشاشة الحضارية) بيت العنكبوت (وتقدم حلول البقاء عبر المجاهدة والاتصال بالوحي.
*المنهج المعتمد**
اعتمد المؤلف** منهجاً تكاملياً **يربط بين الوحي كعنصر هادٍ، والعقل كأداة للتحليل، والواقع كميدان للتطبيق .كما وظف منهج "المقارنة الحضارية" بين النماذج الناجحة) الأنبياء (والنماذج الفاشلة) قارون وفرعون (لاستخلاص قوانين الاستخلاف.
الجمهور المستهدف**
الكتاب موجه لكل من:
*** الباحثين والمصلحين: **الساعين لفهم جذور النهضة المجتمعية.
*** المربين والقادة: **الذين يحتاجون لنماذج عملية في إدارة الأزمات وبناء الشخصيات القيادية.
*** جيل الشباب: **الذي يواجه فتن التكنولوجيا والمادية ويبحث عن بوصلة إيمانية ثابتة.
لماذا يجب عليك أن تقرأ هذا الكتاب؟**
لأننا نعيش في زمن "الفتن المتعددة") من فتن الأهل والمال إلى فتن التكنولوجيا والحضارة المادية .(هذا الكتاب يمنحك "درع التوكل" و"سيف الثبات" عبر فهم أعمق لسنن الله، ويحول شعورك بالوحدة أو الغربة إلى قوة دافعة للبناء.
ثمار قراءة هذا الكتاب**
* التحول من الإيمان القولي إلى** الإيمان العملي المنتج.**
* اكتساب القدرة على** تحليل الواقع **بعين البصيرة القرآنية.
* تحقيق** الطمانينة النفسية **عبر اليقين بالمعية الإلهية) وإن الله لمع المحسنين.(
الخاتمة**
إن هذا الكتاب ليس مجرد إضافة للمكتبة القرآنية، بل هو "نداء للعمل"؛ يبدأ بصدمة "أحسب الناس" وينتهي ببشرى "لنهدينهم سبلنا" .إنه يدعوك لتكون من الصادقين الذين يجتازون اختبارات الروح ليبنوا

حضارة لا تفتك بها خيوط العنكبوت الواهية.
واخيرا فإن الكتاب من تأليف احمد عبد الرزاق مربوش العامري

وتمت المراجعه والتدقيق لمحتوى هذا الكتاب لغويا وفنيا وموضوعيا من قبل الاستاذ القدير منير عبده عثمان الصلوى

بسم الله الرحمن الرحيم
بطاقة تعريفية: سورة العنكبوت) خارطة طريق بناء الأمة(
1.**عدد آيات السورة:**
(69) * آية.
2.**مكان نزولها:**
* مكية) نزلت في مكة المكرمة(، ويُشار إليها كواحدة من أواخر ما نزل قبل الهجرة، مما يفسر تركيزها على التمحيص والابتلاء.
3.**الأجواء التي نزلت فيها السورة:**
* نزلت في فترة حرجة من تاريخ الدعوة، حيث كان المسلمون يئنون تحت وطأة الاضطهاد و التعذيب .هي سورة "اللحظات الانتقالية" من الفكرة إلى الدولة، ومن النظرية إلى التطبيق، حيث كانت الحاجة ملحة لفرز الصفوف وتمييز الصادق من الكاذب قبل تأسيس كيان الأمة في المدينة.
4.**ترتيب السورة:**
*** في المصحف الشريف: **السورة رقم.(29)
*** من حيث النزول: **نزلت بعد سورة الروم وقبل سورة المطففين.
5.**علاقة السورة بما قبلها) سورة القصص(:**
* ختمت سورة القصص بوعد الله لنبيه بالتمكين والعودة) إن الذي فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد(، فجاءت سورة العنكبوت لتبين "الثمن" والقانون الذي يحكم هذا التمكين، وهو الابتلاء والفتنة)أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون.(
6.**أسماء السورة وسبب التسمية:**
*** الاسم: **سورة العنكبوت.
*** سبب التسمية: **لورود مَثَل العنكبوت فيها) الآية .(41 ويرمز هذا الاسم إلى "الهشاشة الحضارية" لكل كيان أو فكرة تتخذ من دون الله ولياً أو سنداً، مهما بدا هذا الكيان منظماً أو معقداً في ظاهره.
7.**خصائص السورة وفضائلها:**
* تعد من السور التي بدأت بالحروف المقطعة) الم(، ولكنها انفردت بكونها لم تتبع هذه الحروف بـ الحديث عن الكتاب مباشرة، بل بالحديث عن الابتلاء.
* تتميز بتركيزها المكثف على مفهوم "الفتنة" بأنواعها) فتنة الأهل، المال، السلطة، والعقل.(
8.**المناسبة بين مطلع السورة وخاتمتها:**
*** المطلع: **بدأ بسؤال صادم عن الابتلاء) أحسب الناس (...لكسر الرتابة وإعلان مبدأ الاختبار.
*** الخاتمة: **جاءت بالبشرى لمن اجتازوا هذا الاختبار) والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا .(فالمطلع يحدد "المشكلة/الاختبار"، والخاتمة تحدد "الحل/النتيجة"، وهي المعية الإلهية والهداية للمحسنين.
9.**أهم المواضيع والقضايا التي تتحدث عنها السورة:**
*** سنة الابتلاء: **حتمية الاختبار لكل من يدعي الإيمان.
*** الصراع بين الحق والباطل: **من خلال استعراض قصص الأنبياء) نوح، إبراهيم، لوط، شعيب (ومواجهتهم للطواغيت.
*** النماذج الفاسدة: **تحليل شخصيات) قارون، فرعون، هامان (كنماذج للاستكبار المالي والسياسي والعقلي.
*** مفهوم الوهن الحضاري: **ضرب مَثَل بيت العنكبوت للدلالة على ضعف الولاءات لغير الله.
10.**أهداف السورة:**
* بناء "الصلابة النفسية" للفرد المسلم.
* توضيح أن الأمة لا تُبنى بالمعلومات فقط، بل بالتجارب والتمحيص.
* تحذير المؤمنين من الركون إلى الأسباب المادية الواهية) بيت العنكبوت.(
11.**مقاصدها وأغراضها:**
*** المقصد الروحي: **تجريد الإيمان من الأغراض الدنيوية وتثبيت قلوب المؤمنين.
*** المقصد المنهجي: **تقديم "خارطة طريق" للانتقال من مرحلة الاستضعاف إلى مرحلة التمكين عبر "المجاهدة" المستمرة.
*** المقصد الفكري: **تصحيح المفاهيم حول طبيعة النصر، وأنه لا يأتي إلا بعد تنقية الصفوف من المنافقين والمترددين.

المقطع الاول

المبحث الأول

تأملات في فاتحة سورة العنكبوت: خارطة طريق بناء الأمة بين الروح والجسد

المشهد الافتتاحي: عندما كسرت "الم" القاعدة

تخيل نفسك في مكة، قبل الهجرة بقليل .المسلمون يئنون تحت وطأة التعذيب، والهجرة إلى الحبشة قد مضت، وهجرة المدينة تلوح في الأفق .إنها لحظة تحول كبرى، لحظة انتقال من فكرة إلى دولة، من نظرية إلى تطبيق .وفي هذه اللحظة الحاسمة، ينزل الوحي:

"الم (1) أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ"

تأمل معي هذا المشهد الافتتاحي الفريد .في خمس سور أخرى تبدأ بـ"الم") البقرة، آل عمران، الروم، لقمان، السجدة (يأتي الرد مباشرة: "ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ"، "تنزِيلُ الْكِتَابِ" وهكذا .الحديث عن الوحي والكتاب .لكن هنا؟ هنا فجأة! لا حديث عن كتاب، بل سؤال صادم يهز الوجدان: "أَحَسِبَ النَّاسُ"؟
هل شعرت بالصدمة؟ هذا هو المقصود .إنها رسالة مباشرة:"لن ينفعك الكتاب إن لم تختبره الحياة .لن يغني عنك الوحي إن لم تمر عبر نار الابتلاء."

لماذا هذا الافتتاح ؟ لأن الأمة ليست مجرد معلومات

دعني أسألك سؤالا ً: كم مرة قرأت كتاباً عن النجاح، ثم عدت إلى حياتك كما أنت؟ كم مرة حفظت نظريات القيادة، لكنك فشلت في موقف حقيقي؟

هذا هو جوهر سورة العنكبوت .إنها تعلن أن الإيمان ليس مجرد كلمة تقال، بل نار تختمر .وأن القرآن ليس كتاب تأملات، بل منهج حياة يُختبر في معمل الواقع.

لاحظ كيف كررت السورة المعنى نفسه مرتين: "أَحَسِبَ النَّاسُ" في الآية2 ، ثم "أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ" في الآية4 ، ثم "وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ" في الآية 10.
إنه إصرار على ترسيخ فكرة: لا إيمان بلا امتحان، لا بناء بلا هدم، لا قيام بلا سقوط مؤقت.
مراحل بناء الامه: رحلة من الروح إلى الجسد(ورؤية مالك نبي)

الآن، دعنا نرتحل مع رؤية المفكر الجزائري مالك بن نبي، الذي نظر إلى الأمة كما ينظر الطبيب إلى المريض، فوجد أن الحضارة تمر بثلاث مراحل، وكأنها كائن حي يولد، ينمو، ثم يهرم.

المرحلة الأولى: مرحلة الروح(زمن التأسيس)

تخيل معي جنيناً في رحم أمه .لا يراه أحد، لكنه يحمل كل القوة .هذه هي مرحلة الروح.
خصائصها:

- إيثار الواجب على الحق، بل تقديم التضحية دون طلب مقابل.
- الفرد يذوب في الجماعة، يضحي بدمه وماله ووقته، ولا يسأل: "ماذا لي؟"
- القوة هنا خفية، لكنها تنبض بالحياة.

في سورة العنكبوت، هذه المرحلة ممثلة في الآيات1 - .13تجد المؤمن الأول الذي يقول: "آمنت" ثم يُعذب .لا يطلب حقوقاً، لا يتظاهر، لا يريد منصبه .يريد فقط أن يبقى الإيمان نابضاً في قلبه.
اسأل نفسك: هل أنت مستعد أن تكون في هذه المرحلة؟ أن تعطي ولا تأخذ، أن تخدم ولا تُخدم، أن تصبر ولا تصرخ؟ هذه هي مرحلة بناء الأساس الذي لا يُرى، لكنه يحمل البناء كله.

الرسول صلى الله عليه وسلم قضى 13 سنة في مكة يبني هذه الروح .لم تكن دولة، لم يكن مال، لم يكن سلطان .كان مجرد بشر يؤمنون، يتعذبون، ويصرون .هذه هي البذرة.
المرحلة الثانية: مرحلة العقل(زمن الازدهار)
بعد أن ترسخت الروح، تبدأ مرحلة التوازن .هنا يأتي العقل ليدير، ينظم، يؤسس.

خصائصها:

- توازن بين الواجب والحق: تعطي وتأخذ، تخدم وتُخدم، تطالب وتُطالب.

· ظهور المؤسسات، الفقه، القضاء، الاقتصاد، السياسة.
· القوة هنا ظاهرة، والنظام يسود.
في سورة العنكبوت، هذه المرحلة تظهر في عرض تجارب الأنبياء) من الآية 14 إلى .(40 إنه كتالوج نجاح تراكمي .نوح، إبراهيم، لوط، شعيب، موسى، هود، صالح .كل نبي مر بمرحلة الروح) دعوة فردية ، تضحية، صبر (ثم وصل إلى مرحلة العقل) مجتمع، دولة، نظام.(
تأمل قوله تعالى بعد عرض هذه القصص: "إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ") الآية .(35 نعم، "لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ" - هذه إشارة إلى مرحلة العقل، حيث يُفهم السنن، وتُستخلص الدروس، وتُبنى النظريات.
اسأل نفسك: هل وصلنا إلى هذه المرحلة؟ أم أننا قفزنا فوق مرحلة الروح، فأصبحنا نطلب الحقوق قبل أن نؤدي الواجبات، ونطالب بالمكاسب قبل أن نقدم التضحيات؟

المرحلة الثالثة: مرحلة الجسد(زمن الأفول)

وهنا يبدأ السقوط .بعد أن تستقر الحضارة، يغلب الجسد على الروح.
خصائصها:

· المطالبة بالحقوق فقط، دون واجبات.
· السيادة للغريزة: أكل، شرب، متعة، لعب، لهو.
· يتحول الناس إلى مستهلكين لا منتجين، يطلبون، يتذمرون، ولا يقدمون.
تأمل قوله تعالى: "وَمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ") الآية .(64 هذه هي المرحلة التي يحذر منها . اللعب والهو والزينة والتفاخر والتكاثر.
ثم تأتي الآية الشهيرة: "مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ") الآية.(41
لماذا العنكبوت؟ لأن بيتها رقيق، هش، لا يحمي، لا يصمد .إنها حضارة بلا أساس، بناء بلا جذور، أمة بلا روح .هم يريدون النتائج) البيت (دون المراحل) الغزل والصبر والنسج .(هكذا هي مرحلة الجسد: تريد القصور دون أسس، النعيم دون تضحيات.
ستةامور من فاتحه العنكبوت تشكل خارطه الطريق:
دعني الآن آخذ بيدك في رحلة داخل هذه السورة، لاستخراج ستة أمور جوهرية تصلح خارطة طريق لأي نهضة.

الأمر الأول: لا راحة وهمية(كسر فكرة "الإسلام المجاني")

يقول المفكر القطري نايف بن نهار: "لا إسلام مجاني" .وهذا ما تعلنه السورة بصوت عال:

"أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ"

الفتنة هنا ليست مجرد ألم عابر .إنها سنة كونية .تأمل: الله يبتلي بالخير والشر، بالنعمة والمحنة .في الغنى فتنة، والفقر فتنة، والصحة فتنة، والمرض فتنة .لماذا؟ لأنك لن تعرف حقيقة إيمانك إلا حين تمتحن.

اسأل نفسك الآن: عندما تضيق بك السبل، هل يزداد إيمانك أم يضعف؟ عندما يأتيك المال، هل تشكر أم تطغى؟ هذا هو الميزان.

تذكر أن السورة نزلت قبل الهجرة، أي قبل التحول الكبير .إنها مرحلة التعبئة، تحضير النفس لتحمل أثقال المرحلة القادمة .من أراد التغيير فعليه أن يستعد للألم .هذه سنة الله: "وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ") البقرة.(155

الأمر الثاني: القيم لا تبقى في الأذهان بل تنتقل إلى الواقع
كثير منا يعرف الخير، لكنه لا يفعله .يعرف الصدق، لكنه يكذب .يعرف العدل، لكنه يظلم .لماذا؟ لأن القيم تحتاج إلى قوة دافعة، إلى إرادة تحول المعرفة إلى سلوك.
هنا تأتي الآية: "وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا") الآية .(69 المجاهدة هي المفتاح .مجاهدة النفس، والهوى، والشهوة، والغضب .عندما تجاهد، يمنحك الله الهداية العملية، لا النظرية فقط.

تأمل أيضاً: "مَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ") الآية .(5 الرجاء هنا ليس أمنية، بل دافع يحرك الجوارح.

فكر معي: هل تحب لله؟ هل تبغض لله؟ الحب والبغض قوى تحتاج تزكية .حين تحب شخصاً لله،

تخدمه وتنصره .حين تبغض معصية لله، تتركها وتجاهد نفسك عليها .هذه القوى العملية هي التي تنقل الإيمان من القلب إلى الواقع.

الأمر الثالث: النماذج الحية(الأسوة الحسنة)

لماذا نقرأ قصص الأنبياء في وسط سورة العنكبوت؟
لأن الإنسان لا يتحول بقوانين فقط، بل بنماذج حية يراها، يتأثر بها، يقلدها.
الرسول صلى الله عليه وسلم لم يغير العرب بكتب فقط، بل بخلقه، بفعله، بمواقفه .الناس رأوه يغفر لمن آذوه، يعفو عمن ظلموه، فيحنوا إليه القلوب.
السورة تقدم لك نماذج:
· نوح: صبر 950 سنة، لم ييأس.
· إبراهيم: خرج من النار، هاجر، ضحى بابنه.
· لوط: نصر الحق رغم غربة.
· شعيب: أوتي فصاحة وحكمة.
· موسى: واجه الطاغوت الأعظم.
تأمل قوله: "فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ") الأنعام .(90 ليس مجرد احترام، بل اقتداء عملي .هذه النماذج تعلمك كيف تواجه الغياب، كيف تصنع من لا شيء شيئاً، كيف تبني حين لا ترى أثراً.
اسأل نفسك: من هم نماذجك اليوم؟ من تتابع؟ من تأخذ عنه؟ إن كنت لا تجد نموذجاً حياً، فارجع إلى هؤلاء .هم أحياء عند ربهم يرزقون.

الأمر الرابع: دروس الفاشلين(قانون الاستخلاف في الأرض)
كما أن السورة تعرض الناجحين، تعرض الفاشلين .قارون، فرعون، هامان، عاد، ثمود .لماذا فشلوا مع أنهم امتلكوا القوة؟ لأن قوتهم لم تكن مبنية على أرضية صلبة.

تأمل: "كَمَثَلِ العَنكبُوتِ" بيت رقيق، ينسجونه بسرعة، ثم ينهار بأقل عاصفة .هكذا كل مشروع لا يقوم على التقوى، لا يقوم على المنهج الرباني، لا يقوم على الإخلاص والتضحية.

قانون الاستخلاف في الأرض: "إِنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ") الأنبياء .(105 ليس الأقوياء فقط، بل الصالحون .الصلاح هنا ليس عبادة فقط، بل صلاح في الإدارة، في الاقتصاد، في السياسة، في العلاقات.

تأمل هذه الحقيقة: الانطلاق بدون أرضية صلبة هو بيت العنكبوت .تريد بناء أمة؟ ابدأ من القاعدة: الإيمان المختبر، المجاهدة، التضحية، الصبر .وإلا فستكون كمن يبني على الماء.

الأمر الخامس: القوة الفكرية مصدرها الوحي

"اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الكِتَابِ") الآية .(45 التلاوة هنا ليست مجرد قراءة، بل اتباع وتدبر وعمل.

لماذا الوحي هو المصدر؟ لأن العقل البشري محدود، يخطئ، ينسى، يهوى .الوحي فيه:

· القوة العلمية: معلومات صحيحة عن الله، الكون، الإنسان، التاريخ، المستقبل.
· القوة العملية الإرادية: أوامر ونواهي تشكل السلوك.

بدون الوحي، تضل الحضارة .ترى اليوم حضارة غربية وصلت إلى القمر، لكنها هبطت إلى قاع الأخلاق .قوة مادية هائلة، لكن روحها ميتة .لماذا؟ لأنها انفصلت عن الوحي.

اسأل نفسك: كم مرة رجعت إلى القرآن تطلب منه التوجيه العملي في مشاكلك؟ كم مرة استنبطت منه حلاً لمشكلة اقتصادية، أو سياسية، أو أسرية؟ الوحي ليس للتبرك فقط، بل للمنهجية.

الأمر السادس: الهجرة والمجاهدة) صناعة عالم غير مادي(

السورة تنتهي بآية عظيمة: "وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ") الآية.(69

تأمل: "جَاهَدُوا فِينَا" - أي جاهدوا من أجلنا، في سبيلنا، لتحقيق مرادنا .هذه المجاهدة تشمل:

· المجاهدة الروحية: تزكية النفس.

· المجاهدة الفكرية: تعلم العلم، تفنيد الشبهات.
· المجاهدة السياسية: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.
· المجاهدة الأخلاقية: ضبط الشهوات.

والنتيجة: "لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا" - طرقاً متعددة) سبل، جمع سبيل .(ليست طريقاً واحداً، بل طرق سياسية، اقتصادية، اجتماعية، تربوية، كلها تؤدي إلى الله.

والضمان: "وَإِنَّ اللهَ لَمَعَ المُحْسِنِينَ" - المعية الخاصة، النصر، التأييد، الحفظ.

الهجرة ليست مجرد انتقال مكان، بل انتقال حال .من الذل إلى العز، من الضعف إلى القوة، من التبعية إلى الاستقلال .الهجرة التي تتحدث عنها السورة هي قفزة نوعية تحتاج إلى مجاهدة عظيمة.
كيف تجسد السورة مراحل بناء الامه وفق رؤيه مالك نبي ؟

دعنا نرسم خريطة السورة كاملة:

الآيات1 -13: مرحلة الروح

بناء الجوهر الصلب .هنا الكلام عن: "أحسب الناس"، "الفتنة"، "من الناس من يقول آمنا فإذا أوذي"، "ليعلم الله الذين صدقوا" .إنها مرحلة تمييز الصادق من الكاذب، مرحلة تقديم الواجب بلا حقوق، مرحلة تحمل الأذى في الله .هذه هي بذرة الحضارة، الروح التي لا ثرى لكنها تحمل كل شيء.

الآيات14 -40: مرحلة العقل

عرض تجارب الأنبياء .كل قصة تعطيك قانوناً، سنة، عبرة .إنه تراكم الخبرة البشرية، تشكيل عقلية الأمة، استخلاص السنن التاريخية .هنا يظهر العقل الذي يفهم، يقارن، يحلل، يستنتج .هذه هي مرحلة البناء الفكري للحضارة.

الآيات41 -69: التحذير من مرحلة الجسد + حلول البقاء

· الآية41 : مثل العنكبوت - تحذير من مرحلة الجسد، من البناء على غير أساس.
· الآية45 : "أَقِمِ الصَّلَاةَ" - وقود الاستمرار .الصلاة تعيد الروح للجسد، تذكرك بالله حين تلهيك الدنيا.
· الآية69 : "وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا" - المخرج من الفتنة، طريق العودة إلى الروح إن انحرفت.

لاحظ الإعجاز: السورة تبدأ بسؤال) أحسب الناس (وتنتهي بجواب) لنهدينهم سبلنا .(البداية عن الابتلاء ، والنهاية عن الهداية .إذا صبرت على الابتلاء في مرحلة الروح، نلت الهداية في مرحلة العقل، وتجنبت السقوط في مرحلة الجسد.
رسالة إلى قلبك: كيف تعيش هذه السورة؟

الآن، بعد هذا التأمل، دعني أسألك: أين أنت من هذه المراحل؟

هل أنت في مرحلة الروح؟ تقدم واجبات ولا تطلب حقوقاً، تصبر على الأذى، تضحي ولا تشترط؟ أم أنك قفزت إلى مرحلة العقل قبل أوانها، تطلب حقوقاً لم تؤد واجباتها؟ أم أنك في مرحلة الجسد، لا تهمك إلا متعك وشهواتك؟

تذكر: الأمة التي نريد بناؤها لا تقوم إلا على رجال ونساء مروا بمرحلة الروح .من تعذب في مكة قاد الدولة في المدينة .من صبر على الفقر والطرد قاد الفتوحات .من نام على الحصباء نام على الحرير بعد ذلك.

السورة تهمس في أذنك: لا تخف من الابتلاء، فهو طريق الهداية .لا تخف من الألم، فهو مئذنة النصر . لا تخف من الوحدة، فالله مع المحسنين.

قم الآن، وأعد قراءة السورة كأنها نزلت عليك للتو .تخيل نفسك بين المستضعفين في مكة، تسمع "أَحَسِبَ النَّاسُ"، فتهتز أعماقك .تخيل أن الله يخاطبك مباشرة: "أظننت أن قول 'آمنت' كافٍ؟ لا، بل سأمتحنك، لأرى صدقك."

ثم انهض من جلستك، وابدأ الرحلة .ابدأ ببناء روحك، ثم ستحيط بك أمة، ثم ستبني حضارة .

الخطوات واضحة في هذه السورة، ما عليك إلا أن تسير.

وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ

المبحث الثاني

تأملات في الآيتين الثانية والثالثة من سورة العنكبوت: حين يعلن القرآن حالة الطوارئ الإيمانية الآن، وبعد أن وقفنا مع الافتتاحية الصاعقة "الم * أَحَسِبَ النَّاسُ..."، ننتقل إلى استكمال المشهد الإلهي الذي يهز كيان المؤمن. تخيل أنك جالس وحدك، تتلو هذه الآيات، فتشعر كأن السماء تفتح عليك، وكأن الله ينزل هذه الكلمات عليك أنت شخصياً، الآن، في هذا الزمن، في هذا المكان، في ظل هذه الأوضاع التي تعيشها أمتنا.

دعنا نغوص معاً.

الأمر الأول: دلالة "أَحَسِبَ النَّاسُ أن يُتْرَكُوا" - كسر وهم الإسلام المجاني

أَحَسِبَ النَّاسُ... تأمل هذه الصيغة. لم يقل "ظن الناس" بل "أَحَسِبَ" التي تفيد ظناً مخلوطاً بالجهل والغرور. إنه سؤال استنكاري نازل من السماء يوبخ ضعفاء النفوس الذين توهموا أن الطريق إلى الله مفروش بالورود.

ماذا تتوقع حين تقول "آمنت"؟ هل تتصور أن الحياة ستكون نزهة؟ هل تظن أنك ستُترك في دفء بيتك، ووسادتك الوثيرة، وأمنك وراحتك؟

أَحَسِبَ - هذا الفعل يحمل معنى "حسبان" وهو تقدير خاطئ، كمن يحسب أن البحر بركة ماء راكدة، أو أن النار سراب بارد. إنه وهم كبير.

أن يُتْرَكُوا - كأنهم قالوا: "يكفي أن ننطق بالشهادة، ونصلي، ونصوم، ثم ننتظر الجنة بلا عناء". فرد الله عليهم: كلا! لن يُتْرَكُوا. لن يتركوا وشأنهم. لن يناموا على فراش الغفلة.

ما علاقة هذا بقوة الأمة وثباتها أمام الفتن؟

أي أمة تريد البناء الحقيقي لا تقوم على "إسلام مجاني"، كما يقول المفكر نايف بن نهار. الأمة التي تُبنى على أنقاض الراحة تنهار عند أول هزة. أما الأمة التي تربى في معامل الابتلاء، فتخرج رجالاً كالجبال.

اسأل نفسك الآن: لو أتتك فتنة، هل ستثبت أم تنهار؟ لو جاءك عدو، هل ستصمد أم تفر؟ هذا هو ميزان القوة الحقيقية. والقوة لا تمنح مجاناً، بل تصنع في أتون الاختبار.

الأمر الثاني: دلالة "أن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ" - تفكيك الوهم الكبير

أولاً: ما هو الوهم الذي تنفيه الآية؟

الوهم هو أن اللسان يكفي، أن الكلمة تغني عن الفعل، أن مجرد الانتماء العاطفي يصنع أمة.

تخيل جيشاً يتجند جنوده بالقول فقط، لا بالتدريب ولا بالسلاح. هل ينتصر؟ تخيل بناءً أساسه من الورق، هل يصمد؟ هذا هو وهم "قلنا آمنا" بلا امتحان.

الآية تنفي أن تكون العلاقة مع الله مجرد دعوى. الإيمان ليس بطاقة عضوية تحملها في جيبك، بل هو صيرورة، رحلة، نار تخوضها.

ثانياً: ما المقصود بالفتنة؟

الفتنة في اللغة: الاختبار بالخير والشر، بالإحراق والتنقية. هي النار التي توضع على الذهب لتميز الخالص من المغشوش.

وهي تشمل:

· الابتلاء بالأعداء: الأذى، التعذيب، التهديد، الهجرة، الخوف. هذه أولى صور الفتنة التي واجهها المسلمون في مكة.

· الابتلاء بالأهل والأحباب: قد يضغط عليك أبوك وأمك، زوجتك، ولدك، قريبتك. قد يقولون لك: "ارتد عن دينك"، أو "خفف من التزامك"، أو "لا تغضب علينا". وقد تخشى أن يصيبهم أذى بسببك. فهل أنت مستعد؟

· الابتلاء بالمال: قد تحرم من رزقك، تطرد من وظيفتك، يحاصر اقتصادك، لكونك مسلماً. أو على العكس، قد يُغرى بالمال لترتد. قال تعالى: "إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ" (التغابن 15).

· الابتلاء بالسلطان: إذا وصلت إلى الحكم والتمكين، هل تحكم بالعدل أم تصبح مستبداً؟ هل تلتزم بالقيم الربانية أم تنحرف وراء المصالح؟ هذه أعظم فتنة. قال النبي ﷺ: "إِنّ الدّنْيَا حُلْوَةٌ خَضِرَةٌ، وَإِنّ اللّهَ مُسْتَخْلِفُكُمْ فِيهَا فَيَنْظُرُ كَيْفَ تَعْمَلُونَ" (مسلم).
· فتنة الغربة: أن تكون غريباً في مجتمع جاهلي، غريباً بعقيدتك، غريباً بقيمك، غريباً حتى بملبسك وهيئتك. تشعر بالوحدة، أنك شاذ، أن الكل ضدك. قال النبي ﷺ: "بَدَأَ الإِ ِسْلا َمُ غَرِيبًا وَسَيَعُودُ كمَا بَدَأَ غَرِيبًا فَطُوبَى لِلْغُرَبَاءِ" (مسلم).
· فتنة الحضارة المادية: إغراءات الغرب، قوتهم المادية، تقدمهم التقني، جمال مدنهم، رفاهيتهم. كثير من الشباب يفتتن، فيظن أن الحضارة الغربية هي المثال الأعلى، فينسى روحه وقيَمه.
· فتنة التكنولوجيا ووسائل التواصل: صارت الفتنة بين يديك في جيبك. شاشات تذيب الزمن، محتويات تشغل القلب، علاقات افتراضية تسرق العفة، أخبار مزيفة تهز اليقين. كم من شاب فُتِن بصورة، أو مقطع، أو تغريدة؟!
· فتنة الشهوات: شهوة البطن، الفرج، المال، الجاه، السلطة، التملك. قال تعالى: "زُيّنَ لِلنّاسِ حُبُّ الشّهَوَاتِ" (آل عمران 14).
ثالثاً: علاقة سورة العنكبوت بالابتلاء - حالة الطوارئ الفكرية
انظر إلى هذا البناء المعجز:
الافتتاح بـ"الم" ثم "أَحَسِبَ" = إعلان حالة طوارئ فكرية. كأن الله يقول: انتبهوا، لستم في نزهة. هذا منهج بناء أمة، ليس ترفاً دينياً.
ثم القصص (من الآية 14) = شرح تجارب المختبر التاريخي. نوح، إبراهيم، لوط، شعيب، موسى، هود، صالح. كل نبي مر بالفتنة، فخرج منها صاغراً أو غالباً. هذا كتالوج مهارات لإدارة الأزمات.
ثم المحرك: "وَالّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا" (الآية 69) = الانتقال من التنظير إلى التطبيق، من المعرفة إلى الفعل، من الألم إلى النصر.
ثم الخاتمة: "لَنَهْدِيَنّهُمْ سُبُلَنَا" و"إِنّ اللّهَ لَمَعَ المُحْسِنِينَ" = الهداية والمعية الإلهية، وهما الجواب على "أَحَسِبَ النّاسُ". نعم، هناك ابتلاء، لكن بعده هداية ومعية.
إذن السورة دليل تشغيل الأمة في لحظات المخاض الصعبة. تضمن لك ألا تتحول الهجرة (سواء هجرة المكان أو هجرة الحال) إلى مجرد هروب، بل إلى بناء مؤسس على صخرة الروح، لا على خيوط العنكبوت.
رابعاً: الرسائل التربوية لكل نوع من الفتن
1. فتنة الأعداء (الأذى والتهديد)

الرسالة لك: يا من آمنت، ستعترض طريقك عقبات. العدو لن يتركك. ستُهدد، تُشرد، تُعذب، يُقتل أحبابك أمام عينيك. الطريق إلى الله مليء بالشوك، فلا تتوقع أن تمشي حافياً وتنجو. استعد. احمل زاد الصبر، وسيف الثبات، ودرع التوكل.

2. فتنة الأهل والأحباب (الاتجاهان)

الخوف الأول: أن يلحق بأهلك أذى بسبب إيمانك. قد يضربون، يُسجنون، يُطردون من وظائفهم. السؤال: هل أنت مستعد لتحمل نتائج ذلك؟ ألا تقول: "يا رب خذني بدلا ً عنهم"؟

الخوف الثاني: ضغط الأهل عليك مباشرة. الدموع، الوعيد، الهجر، المنع من الميراث، الطرد من البيت. قال تعالى: "وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا" (لقمان 15).

الرسالة التربوية: الحب في الله مقدّم على حب الأهل إن تعارض. لكن لا تعاملهم بجفاء، بل بـ المعروف والصبر، وادعهم بالحكمة. وقد يهديهم الله على يديك.

3. فتنة المال والمصالح

قد يُحرم المؤمن من الوظيفة، التجارة، الرزق. تضيق به الأرض بما رحبت. الرسالة: استعد للفقر، فإن الجنة حفت بالمكاره. وقد قال النبي ﷺ: "حُفّتِ الجَنّةُ بِالمَكارِهِ" (مسلم). ولكن تذكر أن الله هو الرزاق، وأنه سيعوضك خيراً.

4. فتنة السلطان والتمكين

هذه أخطر فتنة. إذا وصلت إلى الحكم، هل تبقى على المبادئ؟ أم تنحرف كما انحرف فرعون وقارون وهامان؟ الرسالة: لا تأمن على نفسك. أكثر الناس سقوطاً كانوا أصحاب سلطان. قال النبي ﷺ: "مَا مِنْ عَبْدٍ يَلِي رَعِيّةً يَمُوتُ يَوْمَ يَمُوتُ وَهُوَ غَاشٌ لِرَعِيّتِهِ إِلّا حَرّمَ اللّهُ عَلَيْهِ الجَنّةَ" (مسلم).

تذكر أن الحكم أمانة، وستسأل عنها.

5. فتنة الغرابة في الدين

ستكون غريباً في مجتمع جاهلي. القيم مقلوبة، المعروف منكر والمنكر معروف. ستشعر بالوحدة، وكأنك على شاطئ والناس في بحر. الرسالة: لا تخف من الغربة. النبي ﷺ كان غريباً. الأنبياء كانوا غرباء. ولكن العاقبة للغرباء الذين يصلحون ما أفسد الناس. تمسك بدينك ولو بأظافرك.

6. فتنة الحضارة والقوة المادية (الغرب)

تغزو بيوتنا ثقافات الآخرين عبر شاشاتنا. يظن الشباب أن النجاح هو أن تصير مثل الغربي: سيارة، فيلا، علاقات مفتوحة. الرسالة: لا تفتن بقوتهم الظاهرة. إنها قوة مادية بلا روح، كالزبد الذي يذهب جفاءً. قال تعالى: "وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ" (الكهف 45). تذكر أن الله مع المحسنين، والنصر الحقيقي للروح لا للجسد.

7. فتنة التكنولوجيا والشهوات

هاتفك بين يديك، والإنترنت يبث فتنة لا تنتهي. كل يوم تطبيق جديد، إغراء جديد، فكرة هدامة جديدة. الرسالة: تحكم أنت في الوسائل، لا أن تتحكم فيك. اجعلها طاعة، لا معصية. قال تعالى: "وَلا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ" (البقرة 168). الخطوات صغيرة، لكنها تؤدي إلى الهاوية.

8. التسلسل: فتنة الفرد ثم انهيار المجتمع

لاحظ أن الآية بدأت بالفرد "من يقول آمنا". إذا انهار الفرد أمام فتنة المال أو الأهل أو الشهوة، انهار المجتمع. فالمجتمع ليس سوى مجموع أفراد. إذا صمد كل فرد، صمد المجتمع. وإذا تداعى الأول، انهار الكل كبيت العنكبوت.

علاقة هذه الآية ببناء الروح (المرحلة الأولى. وفقا لرؤية مالك نبي):

في مرحلة الروح، يتجرد الفرد من حظوظ نفسه. لا يطلب مالاً ولا جاهاً ولا راحة. يقدم التضحية ولا ينتظر المقابل. يعطي ولا يأخذ. يحتمل الأذى ولا يشكو. هذه المرحلة هي التي تصنع اللبنة الصالحة في جدار الأمة.

الآية تقول: هذا الابتلاء هو الذي يصنع هذه الروح. بدون نار الاختبار، لا تتشكل هذه الشخصية الفذة. فاشكر الله على الفتن التي تصقل روحك.

خلاصة الأمر الثاني: الإيمان ليس كلمة تقال باللسان، بل هو يقين يختبر في النار. والله يمتحن ليعلم (علم ظهور) من صادق ومن كاذب.
الأمر الثالث: دلالة "وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ"

أولاً: خطورة الخلل الهيكلي وضرورة التأسيس على أرض صلبة

تأمل: "وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ" - هذه سنة الله في خلقه. ليس أنتم أول من يمتحن. كل الأمم قبلكم مرت باختبارات عظيمة.

لماذا هذا الامتحان؟ لأنه الوسيلة الوحيدة التي يتم فيها إظهار الصادق من الكاذب. الأزمات هي معامل تمحيص، ليست عقاباً، بل رحمة.

يقول عبد القادر الكيلاني رحمه الله: "إن في الله عزاء في كل مصيبة، وخلفاً من كل هالك، ودركاً من كل ما فات. فبالله فثقوا يا بني. المصيبة ما جاءت لتهلك، وإنما جاءت لتمتحن صبرك وإيمانك. واعلم أنه لولا المصائب لبطر العبد وبغى وطغى".

هل شعرت بقوة هذه الكلمات؟ المصيبة ليست شراً محضاً، بل هي دواء يمنع المرض الأكبر: البغي و الطغيان والغفلة.

ثانياً: المفاهيم التي تعلمناها في إدارة الأزمات

1. الأزمة كشف للصدق: الظروف العادية قد تخفي النفاق، لكن الشدة تظهر المخبوء. كما يقولون: "عند الشدة يُعرف الصديق".
2. الأزمة تهذيب للنفس: تأديب الله لعباده بالشدائد يخرجهم من غفلتهم، ويردهم إلى رشدهم. قال تعالى: "وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ العَذَابِ الأَدْنَىٰ دُونَ العَذَابِ الأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ" (السجدة 21).
3. الأزمة إعداد للقيادة: في أتون الابتلاء يظهر القادة الحقيقيون. من صمد في مكة قاد في المدينة. من احتمل التعذيب كان قائداً في بدر. بدر لم تكن معركة عادية، بل كانت اختباراً لمعرفة من يصدق مع الله. الذين عبروا النهر مع طالوت كانوا قلة، لكنهم صنعوا النصر.
4. الأزمة فرصة للتغيير: المواقف الصعبة تفتح أبواب التغيير التي لا تفتحها الأوقات العادية. هجرة الحبشة، الهجرة إلى المدينة، بيعة العقبة، كلها ولدت من رحم الابتلاء.
5. القصص كمهارات لإدارة الأزمات: بعد أن ذكر الله الامتحان، أتبعها بقصص الأنبياء (في الآيات الا لاحقة). كأنه يقول: إليكم كتالوج الحلول. تعلموا من نوح كيف يصبر 950 سنة. من إبراهيم كيف يخرج من النار. من موسى كيف يواجه فرعون. هذا تراث نبوي يحول الموقف السلبي إلى إيجابي بقوة الإيمان والعزم والتوكل.

ثالثاً: كشف الفاسدين - لا لبناء هش
لماذا هذا التمحيص القاسي؟ لأن الأمة التي تريد البناء لا يمكن أن تقوم على أناس فاسدين. إذا دخل المنافقون في البناء، انهار على رأسه.
هذه السورة هي الوحيدة التي فضحت هشاشة القوة المادية عندما تنفصل عن المنهج الرباني. مثل العنكبوت: أقوى بيت هو أضعف بيت، لأن بنيانه خيوط واهية.

تحذير للأمة في مرحلة قوتها (مرحلة العقل عند مالك نبي) ألا تنزلق إلى مرحلة الجسد التي تسقط فيها بالملذات والمطالب بلا واجبات.

ثم يأتي الحل: "اتلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ" (الآية 45). التلاوة لبناء العقل (المعرفة) ، والصلاة لبناء الروح (الطاقة والاتصال بالله). الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، أي تحمي من الا نزلاق إلى مرحلة الجسد.

ثم الخاتمة: "وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا". لاحظ: سُبُلَنَا جمع سبيل. يعني طرقاً متعددة: سبيل في الاقتصاد، سبيل في السياسة، سبيل في التربية، سبيل في العسكرة، سبيل في الإعلام، سبيل في كل مجال. من يهدي؟ الله. ثم "وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ المُحْسِنِينَ". الإحسان: جودة الأداء، أن تعبد الله كأنك تراه. الأمة التي تبلغ رتبة الإحسان في فكرها وروحها وجسدها يضمن لها البقاء والسيادة
الأمر الخامس: ما الذي تعلمنا إياه الآيتان؟ (رسائل وتوجيهات ودروس)

1. ما تعلمناه

تعلمنا أن الإيمان الحقيقي يظهر في أوقات الشدة. كل فتنة هي اختبار تمييز للقلوب، وتمييز للمؤمن الصادق من المنافق والكاذب.

لذا، يجب أن نراجع إيماننا باستمرار. كل واحد منا يقف مع نفسه ويضع هذا السؤال أمامه: هل أنا من الذين يظنون أن الإسلام مريح بلا تكاليف؟

هل تشملني الآية "أَحَسِبَ النَّاسُ"؟ نعم، تشمل كل من يظن أن الإيمان مجرد كلام. فأين أنت من هذا التصنيف؟ كيف تكون من الصادقين لا من الكاذبين؟

2. كيف أقيس صدقي؟

اسأل نفسك: هل اختباري في حياتي اليومية يثبت صدق إيماني أم يكشف كذبه؟

مقاييس بسيطة:

· عندما تمر بك أزمة مالية، هل تسخط أم تصبر وتحتسب؟
· عندما يمرض أحد أبنائك، هل تتهم الله أم ترضى بقضائه؟
· عندما يخونك صديق، هل تحقد أم تعفو؟
· عندما يُعرض عليك رشوة أو حرام، هل ترفض أم تقبل؟
· عندما يُطلب منك التخلي عن فريضة بسبب ضغط العمل، هل تثبت أم تتراجع؟

الإجابة على هذه الأسئلة هي ميزان صدقك.

3. أين أنا من التمحيص؟

"فَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الكاذِبِينَ"

هذا ليس علماً بالغيب، فالله يعلم الغيب قبل الامتحان. لكنه علم ظهور، ليقيم الحجة على الناس، وليظهر في الواقع من كان صادقاً ومن كان كاذباً. يوم القيامة لا يقول أحد: "لم نعلم".

أين أنت؟ هل أنت ممن يخرج من الامتحان ناصع البياض، أم ممن يفضحه الامتحان؟

4. أهمية الاستعداد النفسي وتوقع الابتلاء

علماء النفس يقولون: الأزمة هي أمر غير متوقع يسبب تشوشاً في الذهن. ولكن عندما تتوقع الابتلا ء، يقل تأثير الصدمة، وتتجرد الأزمة من قوتها المدمرة.

القرآن يربي فينا هذه النفسية من خلال إخبارنا مسبقاً بأن الابتلاء قادم لا محالة. فإذا جاء، قلنا: "هذا ما وعدنا الله ورسوله". وهذا يقلل الصدمة، ويمكننا من إدارة الأزمة بمهارة، لا بارتجالية.

والسورة تقدم لنا نماذج لإدارة الأزمات من إبراهيم إلى موسى، لنتعلم كيف نواجه الأزمات بالصبر و الحكمة والتوكل.

5. الإيمان العملي لا القولي

كيف نجعل إيماننا عملياً لا قولياً؟

· نترجم الشهادة إلى أفعال: نصلي، نصوم، نزكي، نحج.
· نترجم حب الله إلى طاعة: نترك المعصية ولو كانت حلوة.
· نترجم الخوف من الله إلى التزام: نؤدي الفروض ولو كانت ثقيلة.
· نترجم الرجاء في الله إلى عمل: نبذل الجهد ونتوكل.

ضغوطات الحياة والمشاكل ليست عبثاً. بل هي لترسيخ اليقين في قلبك. كل مشكلة تحلها تزيد يقينك بأن الله معك. كل أزمة تتجاوزها تزيد إيمانك بأن النصر من عنده.

6. حتمية الابتلاء

الحياة سلسلة امتحانات. من طفولتك إلى مماتك، أنت في اختبار. فلا تنزعج إذا ضاقت بك السبل، واشكر الله أن جعلك في مدرسة الابتلاء التي تخرج أقوياء.

قال النبي ﷺ: "أَشَدُ النَاسِ بَلَاءً الأَنبِيَاءُ، ثمّ الصَالِحُونَ، ثمّ الأَمْثَلُ فَالأَمْثَلُ" (الترمذي). فكلما كنت أقرب إلى الله، كان ابتلاؤك أشد. فلا تظن أن البلاء نقمة، بل هو درجة.

7. أهمية العمل والنتاج

المؤمن لا يعيش على الدعاوى. لابد من عمل ملموس، نتاج حقيقي، إنتاج فكري، مادي، اجتماعي. الإ يمان الذي لا ينتج هو إيمان ميت. قال النبي ﷺ: "المُؤْمِنُ القوِيُ خَيْرٌ وَأَحَبُ إلى اللهِ مِنَ المُؤْمِنِ الضَعِيفِ" (مسلم). والقوة تكون بالعلم، المال، العدد، العدة، التنظيم.

الامتحان يكشف جوهر المؤمن الثمين. فكما أن النار تخرج خالص الذهب من الشوائب، كذلك البلاء يخرج المؤمن الخالص من المنافق.

8. دعوة إلى قراءة التاريخ بنظرة شرعية

"وَلَقَدْ فَتَنَّا الذِينَ مِن قَبْلِهِمْ" - هذه دعوة لقراءة التاريخ. اقرأ سير الأنبياء والمؤمنين. كيف عانوا؟ كيف احتملوا؟ كيف انتصروا؟

اقرأ تاريخ الأمم السابقة: عاد، ثمود، فرعون، قارون. كيف كانت نهايتهم؟ وكيف كانت نهاية المؤمنين ؟

النظرة الشرعية في قراءة التاريخ تعني: أن تقرأ التاريخ ليس كمجرد حوادث، بل كسنن إلهية. ترى الأسباب والمسببات. ترى أن النصر للمتقين، والهزيمة للكافرين. ترى أن الظلم نهايته الزوال. ترى أن الصبر والصدق يؤديان إلى التمكين.

وهذا يختلف عن قراءة الآخرين الذين يرون التاريخ صراع قوى مادية فقط. بل هو صراع قيم وعقائد.

9. معرفة الله تزيد الخوف منه والتحمل

كلما ازدادت معرفتك بالله، ازداد خوفك منه (خوف هيبة وتعظيم) وازداد تحملك للمتاعب في سبيله. لأنك تعرف أنه أهله للطاعة، وأنه لن يضيع أجر من أحسن عملا ً.

علاقتك مع الله مبنية على الصدق. والله لا يهدي كيد الخائنين. فإذا لم تكن صادقاً مع الله، فسيُفضح أمرك في الامتحان.

10. سنة الامتحان بين الرسوب والنجاح

الامتحان سنة إلهية. والعبرة في كتاب الله أن تكون في مستوى الحدث. أي أن تتعامل مع الا متحان بحكمة وثبات وصبر، لا أن تنهار.

تذكر: كل فتنة هي فرصة للارتقاء. كل أزمة هي درس. كل مصيبة هي تكفير للذنوب. قال النبي ﷺ: "مَا يُصِيبُ الْمُسْلِمَ مِنْ نَصَبٍ وَلا َ وَصَبٍ وَلا َ هَمٍّ وَلا َ حُزْنٍ وَلا َ أَذًى وَلا َ غَمٍّ حَتَّى الشَّوْكَةِ يُشَاكُهَا إلا ّ كفَرَ اللهُ بِهَا مِنْ خَطَايَاهُ" (البخاري).
الخاتمة: أنت المخاطب، فقم للعمل

أخي، أختي، من يقرأ هذه الكلمات...

هذه الآيات نزلت عليك أنت. نعم، أنت. ليس لأحد غيرك.

أنت في مكة من جديد. أنت تواجه ضغوطاً: من مجتمعك، من أهلك، من مديرك، من أصدقائك، من إعلامك، من هاتفك.

الامتحان قادم إليك، بل هو موجود الآن. فهل ستنجح أم ترسب؟

تذكر: هذه الآيات ليست مجرد تلاوة عابرة. إنها دستور بناء أمة. خذها بجدية.

الدرس الأول: لا تنتظر إسلاماً مجانياً. الطريق طويل وشاق، لكن نهايته جنة عرضها السموات والأ رض.

الدرس الثاني: توقع الابتلاء، واستعد له. كن كمن يرى العاصفة قادمة فيبني ملجأ، لا كمن يفاجأ بها فيندم.

الدرس الثالث: لا تخف من الفتنة بأنواعها. الله مع الصادقين. والمحن مفاتيح للجنان.

الدرس الرابع: انظر إلى التاريخ. من صبر نصر. ومن استعجل خسر. ومن صدق كُشِفَ عنه الغم.

الدرس الخامس: اجعل إيمانك عملياً. صلّ، تصدق، اقرأ، تعلم، انصر المظلوم، ارفع الظلم، شارك في بناء أمتك.

الدرس السادس: اعلم أن الله مع المحسنين. والإحسان هو أن تفعل الخير بإتقان، كأنك ترى الله. هذا هو الضمان الأخير للنجاة من الفتنة.

والآن، بعد هذه الرحلة، أجبني بصدق: هل ستخرج من هذا المجلس (أو من هذه القراءة) وقد

تغيرت؟ هل ستقوم من مكانك وقد عقدت العزم على أن تكون من الصادقين، لا من الذين "حسبوا أنهم يتركون"؟

تذكر دائماً: "وَالذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا". المفاتيح بيدك: الجهاد (بذل الطاقة القصوى)، ثم الهداية (الوصول إلى الطرق المتنوعة للبناء)، ثم المعية (الله مع المحسنين). فبادر.

المبحث الثالث

تأملات في الآية الرابعة من سورة العنكبوت: "أَمْ حَسِبَ الذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَن يَسْبِقُونَا ۚ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ"

الآن، بعد أن هزت الآيات السابقة مشاعرك، وزرعت في قلبك بذور اليقين بأن الإيمان لا بد أن يمتحن ، وأن الله سيميز الصادق من الكاذب... تأتي هذه الآية كصفعة ثانية، كصاعق ينبه الغافلين، كجرس خطر يدوي في أذن كل من ظن أنه قادر على المكر بالله، أو الإفلات من عقابه، أو المساواة بين الخبيث والطيب.

تخيل معي مشهداً: هناك من يعمل السيئات ليل نهار، يظلم، يغش، يرشي، يزور، يكذب، يقتل، يعتدي، ثم يجلس في مجلسه ضاحكاً مستبشراً، يقول في نفسه: "لن يمسني شيء، أنا قوي، أنا ذكي، أنا غني، أنا صاحب نفوذ، من يستطيع أن يمسني؟ لقد نجوت من كل العقوبات حتى الآن". ثم فجأة، ينزل عليه الخطاب الإلهي: "أَمْ حَسِبَ الذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَن يَسْبِقُونَا".

قف. تأمل. هذا الخطاب ليس للكفار فقط، بل لكل مسيء، لكل مذنب، لكل من يتهاون في طاعة الله، ويظن أن الأجل ممدود، وأن الفرصة ما زالت، وأنه قادر على الهروب.

دعنا نغوص معاً في أعماق هذه الآية العظيمة.

أولاً: المشهد البلاغي - "أَمْ" المنقطعة وصدمة الإضراب

تبدأ الآية بـ "أَمْ". ليست "أم" المتصلة التي تفيد التخيير أو التسوية، بل "أَمْ" المنقطعة، التي تفيد الإضراب والانتقال من كلام إلى كلام، مع معنى "بل" التي تفيد الإبطال والاستئناف.

كأن الله سبحانه يقول: ليس الأمر كما حسبوا، بل دعني أخبرك بحقيقة أخرى. لقد ظنوا ظنوناً فاسدة ، وتوهموا أوهاماً باطلة، والآن سأصحح لهم هذه المفاهيم الخاطئة.

هذه "أَمْ" تشبه في تأثيرها أن يقاطعك أحدهم فجأة، ويصيح في وجهك: "بل! توقف! أنت مخطئ تماماً". إنها تفيد الانتقال من الحديث عن الابتلاء والتمحيص (في الآيات السابقة) إلى الحديث عن عاقبة المسيئين الذين ظنوا أنهم سيفلتون.

لماذا هذا الانتقال؟

لأن الآيات الثلاث الأولى أثبتت سنة الابتلاء. والآن تأتي هذه الآية لتثبت سنة الجزاء. الأولى: لا إيمان بلا امتحان. الثانية: لا ذنب بلا عقاب. كأن الله يقول: كما أن الصادق سيكافأ، فالمسيء سيعاقب. كما أن المؤمن سيُمتحن، فالمجرم سيُؤخذ. لا أحد فوق القانون الإلهي.

ثانياً: "حَسِبَ" مرة أخرى - كسر وهم الإفلات

تعود كلمة "حَسِبَ" التي ظهرت في الآية الثانية: "أَحَسِبَ النَّاسُ". الآن: "أَمْ حَسِبَ الذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ". تكرار الظن الخاطئ، لكن هذه المرة لفئة مختلفة: ليس الذين يقولون آمنا بلا امتحان، بل الذين يعملون السيئات ويظنون أنهم سينجون.

حَسِبَ هنا أيضاً تفيد الظن الجازم المبني على الوهم والغرور. إنهم ليسوا شاكين، بل متأكدين من نجاح خطتهم. يقولون: "لن تقبض علينا، لن تعاقب، القانون معنا، السلطة معنا، المال معنا، الذكاء معنا، لقد أحكمنا كل شيء".

لكن الآية تأتي لتهدم هذا الظن من أساسه.

ما هي السيئات التي يعملونها؟

كل سيئة، صغيرة كانت أم كبيرة. لكن في سياق السورة، وبعد الحديث عن الفتنة والامتحان، تشمل السيئات التي تصدر ممن يظن أنه قادر على المكر بالله:

· سيئة الاستهزاء بالمؤمنين الضعفاء.
· سيئة التعذيب والإيذاء لمن آمن.
· سيئة محاربة دعوة الحق.
· سيئة استغلال السلطة والمال في البغي.
· سيئة الرشوة، الغش، الظلم، التزوير.
· سيئة التسويف في التوبة.
· سيئة الأمن من مكر الله.

ثالثاً: "أنْ يَسْبِقُونَا" - استحالة الهروب من قبضة الله

يَسْبِقُونَا من السبق، أي الفوت والهرب والتقدم ليكونوا خارج نطاق اللحاق. كأنهم يجرون في مضمار، ويظنون أنهم أسرع من الله، وأنه لا يستطيع أن يمسكهم.

تأمل هذا التعبير. لو قال: "أن يفلتوا منا" أو "أن ينجوا منا"، لكان المعنى قريباً. لكنه قال يَسْبِقُونَا، أي يسبقوننا بالهرب، يتقدمون علينا. وهذا أبلغ في الاستهانة بقدرة الله. كأنهم يتصورون أن الله يلهث وراءهم ولا يستطيع اللحاق بهم، أو أنهم يستطيعون الوصول إلى نقطة لا يصل إليها الله.

سبحان الله! هذا غاية الجهل والغرور. هل يسبق أحد من خلق الله خالقهم؟ هل يهرب مخلوق من الذي بيده ملكوت كل شيء؟

يقول ابن كثير رحمه الله: "أي أيظن هؤلاء المسيئون أنهم يفوتوننا، بل نحن قادرون عليهم، ونحن محيطون بهم، وسنأخذهم أخذ عزيز مقتدر".

وتأمل كيف أن الآية استخدمت صيغة الجمع "يَسْبِقُونَا" مع أن الله واحد، لكنها للتعظيم، ولإفادة أن كل قوى الله (قدرته، علمه، قهره، جبروته) تطاردهم وتحيط بهم.

هل يمكن حقاً أن يسبقوا الله؟

لا. لن يسبقوه.

· لا بالمال: فالله هو الرزاق.
· لا بالجاه: فالله هو المعز المذل.
· لا بالسلطة: فالله هو مالك الملك.
· لا بالذكاء: فالله هو العليم الخبير.
· لا بالتخطيط: فالله هو المحيط.
· لا بالهروب إلى أمريكا أو أوروبا أو القمر: فالله في كل مكان.
· لا بالموت: فالله يبعثهم للحساب.

الرسالة هنا: مهما بلغت قوتك، ومهما أحكمت خطتك، ومهما ظننت أنك استطعت أن تخفي جرائمك، فالله مطلع عليك، وقادر عليك، وسيأخذك في الوقت الذي لا تحتسب.
رابعاً: "سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ" - بطلان الحكم الفاسد

سَاءَ فعل ذم، تفيد القبح والشناعة. مَا نكرة موصوفة، أي حكماً فاسداً. يَحْكُمُونَ أي يقدرون ويظنون.

المعنى: بئس الحكم الذي يحكمونه، وبئس الظن الذي يظنونه. إن حكمهم على الله بأنه لا يعاقبهم، أو بأنه غافل عنهم، أو بأنه لا يستطيع أن يأخذهم، هو أقبح الأحكام وأسوئها.

لماذا وصف الله حكمهم بـ "سَاءَ"؟

لأنه حكم يتضمن:

· الجهل بالله: كيف يظن من يعرف الله أنه يفوته أحد؟
· الغفلة عن عاقبة الذنب: وكأنهم لا يقرؤون التاريخ، ولا يعلمون ما حل بفرعون وهامان وقارون.
· الاستهانة بعدل الله: وكأن الله يظلم أحداً، أو يترك مجرماً دون عقاب.
· التحدي السخيف: كأنهم يقولون: "هاتوا ما عندكم، نحن أقوى".

سَاءَ هنا تحمل معنى الاستنكار والتعجب من شدة فساد هذا الظن. إنه أشبه بأن تقول لشخص ينكر الجاذبية ويقفز من الطابق العاشر: "بئس ما تظن!"، أو لشخص يبصق في وجه إعصار: "ساء ما تفعل!".
خامساً: الأفكار الرئيسية والمقاصد في الآية

المَقصَد الأول: إبطال وهم الإفلات من العقاب

كثير من الناس يعيشون على هذا الوهم. يظنون أنهم إذا أخفوا ذنوبهم، أو استعملوا نفوذهم، أو دفعوا رشوة، أو هربوا إلى بلد آخر، أو حتى ماتوا، أنهم سينجون من عذاب الله.

الآية تصفع هذا الوهم صفعة قوية: لا، لن تسبقوا. الله يراكم. الله معكم في كل مكان. الله يحيط بكم من كل جانب. الله يعلم سركم وعلنكم. الله يكتب كل شيء. ويوم القيامة، ستفتح السجلات، وتنصب الموازين، وتظهر الحقائق. لا رشوة تنفع، لا محامي يشفع، لا جاه ينفع، لا مال يفتدي. يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم.

المَقصَد الثاني: تصحيح المفاهيم الخاطئة عن "الأمن من مكر الله"

بعض الناس يظن أن طول الأجل، واستمرار النعمة، وعدم نزول العقوبة الفورية، دليل على رضا الله عنه أو على عجزه. هذا خطأ فادح. قال تعالى: "فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ" (الأنعام 44).

الآية تعلن: لا تغتر بإمهال الله. فالله يمهل ولا يهمل. إن أخّر العقوبة فليس لعجز، بل لاستدراج، أو لعلهم يتوبون، أو ليوم الحساب. وقد يعجل العقوبة في الدنيا عبر مصائب أو حسرات أو فضائح تفتضح بها السيئات.

المَقصَد الثالث: التأكيد على مبدأ العدل الإلهي المطلق

الآية تؤسس لقاعدة عظيمة: لا مساواة بين المسيء والمحسن. لا يمكن أبداً أن يستوي من يعمل السيئات ويظن أنه يسبق الله، مع من يعمل الصالحات ويصبر على الابتلاء. هذا ظلم، والله لا يظلم.

قال تعالى: "أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ" (ص: 28). هذا مستحيل.

فإذا رأيت مسيئاً يعيش في رغد، فاعلم أن عقابه قد يكون مؤجلاً، أو أن الله يعطيه من الدنيا ما شاء ثم يأخذه في الآخرة أشد العذاب. لا تحسدهم، بل اشفق عليهم.

المَقصَد الرابع: التحذير من الاغترار بالقوة الظاهرية

الآية تخاطب كل من لديه قوة: سلطة، مال، جاه، ذكاء، منصب. تحذره من أن يظن أن هذه القوة تجعله فوق القانون الإلهي. بل هذه القوة قد تكون فتنة له، وقد تكون سبباً في هلاكه إذا استعملها في السيئات.

كم من حكام ظنوا أن جيوشهم تحميهم، فجاءهم أمر الله ليلاً وهم نيام؟ كم من أغنياء ظنوا أن أموالهم تفديهم، فخسروها في لحظة؟ كم من أذكياء ظنوا أن دهائهم ينقذهم، فوقعوا في شر أعمالهم ؟

الآية تردد: كل قوة مهما بلغت، فهي تحت قبضة الله. لا تسبقوننا. لا تفوتوننا. لا تفلتون منا.

المَقصَد الخامس: الدعوة إلى المحاسبة الذاتية ومراقبة الله

إذا كنت تعلم أن الله لا يفوته شيء، وأنه مطلع على كل سيئاتك، وأنك لا تستطيع الهروب منه، فهذا يحملك على شيئين:

1. ترك الغرور - فلا تغتر بنفسك، ولا بقوتك، ولا بمنصبك، ولا بذكائك .فكلها زائلة، وكلها تحت مراقبة الله.
2. المسارعة إلى التوبة - فطالما أنك لا تستطيع الهروب، فبادر بالتوبة قبل أن يأتيك الموت بغتة، أو تنزل بك العقوبة.

.3مراقبة الله في السر والعلن - استحضر أن الله يراك، يسمعك، يعلم ما تخفي .هذا الاستحضار هو التقوى، وهو الذي يمنعك من السيئات.

يقول بعض السلف: "من علم أن الله يراه، استحيا منه". ومن استحيا من الله، لم يعصه. هذه الآية تزرع في قلب المؤمن شعوراً دائماً بأنه أمام مرآة إلهية لا تخفي شيئاً. فينضبط سلوكه، ويصلح عمله، ويتوب من زلته.

المَقصَد السادس: تأسيس القيم والمبادئ في الفرد والمجتمع

هذه الآية هي الأساس الأخلاقي لأي مجتمع يريد الاستقامة. عندما يؤمن كل فرد بأن الله يرى كل شيء، وأنه لا يمكن الإفلات من العقاب (إما في الدنيا أو الآخرة)، فإنه سيمتنع عن الظلم، والغش، و الرشوة، وتزوير المستندات، وأكل أموال الناس بالباطل.

كيف تنعكس هذه الآية في حياتك العملية؟

· المعلم: لن يظلم طالباً، ولن يرشوه، ولن يغش في الدرجات، لأنه يعلم أن الله يراه، وأنه سيُسأل عن أمانته.
· الحاكم: لن يأخذ رشوة، ولن يحابي قريباً، ولن يظلم خصماً، لأنه يعلم أن الله يرى، وأنه سيسبق الله؟ لن يسبقه.
· الموظف: لن يزور مستنداً، ولن يأكل مال الحرام، ولن يهمل في عمله، لأنه يعلم أن الله مراقب.
· التاجر: لن يغش في الميزان، ولن يبيع سلعة معيبة دون بيان، ولن يكذب في الإعلان.
· الزوج: لن يظلم زوجته، ولن يخونها، ولن يضربها ظلماً.
· الجالس وحده: لن ينظر إلى حرام، لن يفكر في سوء، لأنه يعلم أن الله معه.

هذه الآية تؤسس لمجتمع قائم على القيم لا على القوانين الوضعية فقط. لأن القوانين الوضعية يمكن التحايل عليها، لكن مراقبة الله لا يمكن التحايل عليها.

المَقصَد السابع: التخطيط للمستقبل مع التوكل لا مع الغرور

الآية لا تدعو إلى التواكل، بل تدعو إلى العمل والتخطيط، ولكن مع عدم الغرور. المؤمن يخطط، يعمل ، يسعى، يبني، ولكن قلبه معلق بالله، لا بقوته هو. يقول: "سأعمل بالأسباب، لكن النتيجة بيد الله. قد يخطط الإنسان شيئاً والله يفعل شيئاً آخر. قد أظن أنني سأنجح في خطتي الشريرة، لكن الله قد يقلبها عليّ".

هذه هي الروح الإيجابية التي تمنع الغرور والتكبر، وتدفع إلى التوكل على الله، مع الأخذ بالأسباب.
سادساً: علاقة الآية بالفتنة والابتلاء (الربط مع الآيات السابقة)

هذه الآية تكمل منظومة الفتنة والابتلاء في السورة على النحو التالي:

· الآية2 -3: المؤمن يُمتحن ليُعرف الصادق من الكاذب) .سنة الابتلاء(
· الآية4 : المسيء لا يسبق الله، بل سيُجازى على سيئاته) .سنة الجزاء(

إذاً، هناك سنتان:

.1سنة التمحيص: للصادقين والكاذبين.
.2سنة الأخذ: للمسيئين والظالمين.

كلتاهما ماضيتان في الأمم. لا يمكن أن تخلو أمة من ابتلاء، ولا يمكن أن يفلت ظالم.

ولكن، هناك علاقة أعمق:

الفتنة التي تحدث عنها الآيات السابقة (أذى الأعداء، ضغط الأهل، حرمان المال، الغربة) هي اختبار للمؤمن. لكن هذه الآية تحذر من نوع آخر من الفتنة: فتنة الأمن والعقاب المؤجل.

بعض الناس عندما يرون الظالم يعيش في رغد، والمؤمن يعيش في ضيق، قد تفتنهم هذه الصورة. فيظنون أن الله لا يعاقب الظالم، أو أنه عاجز، أو أنه لا يبالي. هذه الآية تصحح هذا الفهم: لا،

العقاب آتٍ لا محالة، إما في الدنيا، وإما في الآخرة، وإما بكليهما. فلا تغتر بسلامة الظالم اليوم، فقد يكون ذلك استدراجاً له.

يقول ابن القيم رحمه الله: "لو أن الله كشف لعباده عن مقدار ما يدبره لهم من الخير، لذابت قلوبهم شوقاً إليه، ولو كشف لهم عن مقدار ما يدبره لهم من الشر، لذابت قلوبهم خوفاً منه". فالمؤمن لا ينظر إلى الظاهر فقط، بل يثق بوعد الله وعيده.
سابعاً: اللمسات البيانية والبلاغية الإضافية

.1تقديم "يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ" على "أن يَسْبِقُونا"

التقديم للاهتمام والعناية بوصفهم "عاملين للسيئات". إنهم ليسوا مجرد مذنبين عابري سبيل، بل ممن تلبسوا بالسيئات واتخذوها صناعة لهم. هذا يزيد من شناعة فعلهم.

.2"يَسْبِقُونا" بصيغة المضارع

المضارع يفيد التجدد والاستمرار. أي أنهم كلما عملوا سيئة، يظنون أنهم يسبقون الله، وكأنهم يعيشون في حالة دائمة من الغرور والظن الفاسد. ليس مرة واحدة، بل كل يوم، كل ساعة.

.3"سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ" - التعبير بالمصدر

استخدام المصدر "سَاءَ" للذم، ثم "مَا" الموصولة، ثم "يَحْكُمُونَ" المضارع، يعطي قوة في الذم. كأنه يقول: قبحاً لهذا الحكم، وشناعة لهذا الظن، وفساداً لهذا التقدير. إنه أسلوب قصر وتركيز.

.4حذف المفعول في "يَسْبِقُونا"

لم يقل "يسبقون عذابنا" أو "يسبقون أخذنا"، بل قال "يسبقوننا" بشكل مطلق. وهذا يفيد العموم. أي يسبقوننا في أي شيء: في العلم، في القدرة، في القهر، في الإحاطة. وكأنه يقول: أي سبق تظنون أنكم تسبقوننا فيه، فأنتم مخطئون.

.5الاستفهام في "أَمْ حَسِبَ"

الاستفهام هنا تقريري إنكاري. أي: أظن هؤلاء ذلك؟! ما أشد غرورهم! وهذا الاستفهام يوقظ السامع، ويهز مشاعره، ويدفعه للتأمل. كأن الله يناديك: انتبه، هل تظن أنت أيضاً أنك تستطيع أن تسبقني؟
ثامناً: الغفلة التي تحذر منها الآية

الآية تحذر من نوعين من الغفلة:

الغفلة الأولى: غفلة الأمن من مكر الله

وهي أن يغتر الإنسان بإمهال الله له، فيظن أن الله لن يعاقبه، أو أن العقاب لن يأتي. هذه غفلة قاتلة. قال تعالى: "أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ" (الأعراف: 99).

من أمن مكر الله، استمر في السيئات، واجترأ على المعاصي، حتى يأخذه الله بغتة وهو في غفلته.

الغفلة الثانية: غفلة نسيان المراقبة

وهي أن يغفل الإنسان عن أن الله يراه ويسمعه ويعلم سره. فينغمس في المعاصي في الخفاء، ويظن أنه لا يراه أحد. لكن الله يراه. قال النبي ﷺ في الحديث القدسي: "إِنَّ اللَّهَ قَالَ: يَا ابْنَ آدَمَ، إِنَّكَ مَا دَعَوْتَنِي وَرَجَوْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ عَلَى مَا كَانَ مِنْكَ وَلَا أُبَالِي..." (الترمذي). لكن من لم يدعُه ويتب، فهو في غفلة.

كيف تعالج الغفلة؟

· بتلاوة القرآن بتدبر، وخاصة آيات الوعيد.
· بالتفكر في عاقبة الظالمين في التاريخ.
· بالنظر إلى قبور الأغنياء والفقراء، فكلهم سواء.

· بمحاسبة النفس قبل النوم كل يوم: ماذا عملت اليوم من سيئات؟ هل تبت منها؟
· بالإكثار من ذكر الموت، فإنه يقطع الغفلة.
تاسعاً: ما تدعو إليه الآية من تطبيقات عملية

.1المحاسبة الذاتية اليومية

اجلس مع نفسك كل ليلة، واسألها: ما هي السيئات التي عملتها اليوم؟ هل ظلمت أحداً؟ هل اغتبت أحداً؟ هل نظرت إلى حرام؟ هل أكلت حراماً؟ هل قصّرت في حق؟ ثم تب إلى الله منها، واعزم على ألا تعود.

.2اليقظة المستمرة

لا تكن غافلا ً. استحضر أن الله يراك في كل لحظة. حتى في خلواتك. هذا الاستحضار هو الذي سيمنعك من الذنوب. قال الحسن البصري: "إن المؤمن قومته نفسه، وإن المنافق قومته الناس".

.3ترك الغرور بالقوة

إذا كنت غنياً، فلا تغتر بمالك. إذا كنت قوياً، فلا تغتر بقوتك. إذا كنت ذكياً، فلا تغتر بذكائك. تذكر أن الله أشد قوة منك، وأغنى منك، وأعلم منك. وأن كل ما عندك هو عطاء منه، وهو قادر على سلبه في لحظة.

.4المسارعة إلى التوبة

لا تؤخر التوبة. فأنت لا تدري متى يأتيك الموت. قال تعالى: "وَتُوبُوا إِلَى اللهِ جَمِيعًا أَيُّهَ المُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ" (النور: 31). والتوبة ليست فقط من الكبائر، بل من الصغائر، ومن التقصير في الواجبات.

.5إنصاف الآخرين إذا كنت ذا سلطة

إذا كنت حاكماً أو مديراً أو معلماً أو قاضياً أو أباً، فانصف من تحت يدك. لا تظلمهم. لا تأخذ حقوقهم. لا تحابي أحداً على حساب أحد. تذكر أن الله يراك، وأنك لا تسبقه. قال النبي ﷺ: "المُقسِطُونَ عِندَ اللهِ عَلَى مَنَابِرَ مِنْ نُورٍ..." (مسلم).

.6الالتزام بالقيم والمبادئ حتى لو كانت سهلة المخالفة

قد تكون في موقف يمكنك فيه أخذ رشوة بسهولة، دون أن يراك أحد. قد تكون في موقف يمكنك فيه تزوير مستند بسهولة. قد تكون في موقف يمكنك فيه ظلم شخص دون عقوبة. هذه الآية تذكرك: الله يراك، ولن تسبقه. فامتنع.

.7التوكل على الله مع الأخذ بالأسباب

خطط لمستقبلك، اعمل، اجتهد، لكن لا تظن أن قوتك وحدها تكفي. بل قل: "سأفعل الأسباب، والنتيجة بيد الله. إن أراد الله شيئاً كان، وإن أراد غير ذلك كان. وأنا راضٍ بقضائه". هذا هو التوكل الحقيقي.
عاشراً: كيف تعيش هذه الآية في حياتك اليومية؟

تخيل معي هذا السيناريو:

أنت في مكتبك. زميلك يطلب منك أن تشهد على شيء لم يحدث، مقابل مبلغ من المال. تغلق الباب، لا أحد يراك. تقف على مفترق طرق.

تسمع صوتاً في داخلك: "لا أحد يراك، خذ المال، لا أحد سيعلم".

فجأة، تبرز هذه الآية في ذهنك: "أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَن يَسْبِقُونَا".

تهتز. تقشعر بدنك. تقول: لا، أنا لا أستطيع أن أسبق الله. هو يراني الآن. هو يعلم ما أخفيه. سأرفض. سأقول الحق ولو كان عليّ.

هذا هو أثر الآية. إنها تمنحك القوة على الثبات، القوة على الامتناع، القوة على الصدق.
الحادي عشر: الرسائل النهائية والتوجيهات الختامية

الرسالة الأولى: لا تغتر بإمهال الله

إن رأيت ظالماً يعيش في رغد، فلا تحسده، بل اشفق عليه. فربما يكون هذا الاستدراج، وربما يأخذه الله بغتة. وكن أنت على يقين أن الله عدل لا يظلم، وأنه سيجازي كل نفس بما كسبت.

الرسالة الثانية: بادر بالتوبة قبل فوات الأوان

كلنا نخطئ. لكن العاقل من يتوب. لا تؤجل التوبة. قل: "اللهم إني تبت إليك الآن". واعزم على ألا تعود. فالله غفور رحيم، يقبل التوبة عن عباده.

الرسالة الثالثة: راقب الله في السر والعلن

اجعل شعارك: "الله معي، الله ناظري، الله شاهدي". هذا الشعور سيجعلك ملكاً في الدنيا والآخرة. ملكاً لا يستعبده هواه، ولا يخضع لشهوته، ولا يباع بمال ولا جاه.

الرسالة الرابعة: انصر المظلوم ولو كنت ضعيفاً

قد لا تكون حاكماً ولا قوياً، لكنك تستطيع أن تنصر المظلوم بدعوة، أو كلمة حق، أو شهادة، أو مساعدة مالية. لا تكن ممن يظن أن الظلم سيمر دون عقاب. فالظلم ظلمات يوم القيامة.

الرسالة الخامسة: خطط للمستقبل بتوكل لا بغرور

اعمل كأنك ستعيش أبداً، وتوكل كأنك ستموت غداً. هذا هو التوازن. لا تهمل الأسباب بحجة التوكل، ولا تنسى التوكل بحجة الأسباب.
الخاتمة: أنت والمشهد الأخير

أخي، أختي...

تخيل نفسك يوم القيامة. وقفت بين يدي الله. فتحت صحيفتك. رأيت كل سيئاتك مسجلة. رأيت كل ظلم ظلمته، كل غش غششته، كل رشوة أخذتها، كل نظرة حرام نظرتها، كل كلمة كذب قلتها.

حينها تدرك معنى: "أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَن يَسْبِقُونَا". لم تسبق الله. هنا أنت بين يديه. و لا تستطيع أن تفر، ولا أن تنكر، ولا أن تتعلل.

فماذا ستفعل اليوم؟ هل ستنتظر حتى ذلك اليوم؟ أم ستبادر الآن؟

تذكر أن الله يقول بعد هذه الآية مباشرة (الآية 5): "مَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ". أي أن لقاء الله قادم لا محالة. فاستعد له.

والآن، بعد هذا الشرح، أجبني:

هل ستظل تغتر بقوتك ومالك وجاهك؟ أم ستوقن أن الله يراك، وأنك لا تستطيع أن تسبقه؟

هل ستظل تؤخر التوبة، أم تبادر الآن؟

هل ستظل تظلم من تحت يدك، أم تنصفهم؟

هل ستظل تغش في عملك، أم تخلص؟

هل ستظل تنظر إلى الحرام، أم تغض بصرك؟

تذكر دائماً: "سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ". لا تكن ممن يحكمون حكماً فاسداً على الله. احكم بحكم الله: أنه عدل، وأنه سيجازي كل نفس بما كسبت، وأنه لا يسبقه أحد، وأنه لا يفوته أحد.
المبحث الرابع .

تأملات في الآيتين الخامسة والسادسة من سورة العنكبوت: "مَنْ كانَ يَرْجُو لِقاءَ اللهِ" و"وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ".
الآن، بعد أن أيقظتك الآيات السابقة من سبات الغفلة، وبعد أن هزت كيانك صاعقة "أَحَسِبَ النَّاسُ" وصفعة "أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَن يَسْبِقُونَا"، تأتي هاتان الآيتان كمنارة تضيء لك الطريق، وكدستور عملي يحدد لك كيف تتعامل مع هذا الامتحان الإلهي، وكيف تحوّل الابتلاء إلى طاقة دافعة نحو الله.

تخيل معي أنك وقفت أمام مفترق طرق .أمامك طريقان: طريق الرجاء الحقيقي الذي يحرك الجوارح، وطريق الوهم والخيال .طريق الجهاد الذي يعيد بناء الذات، وطريق الاتكال والكسل .هذه الآيات تنتزع من يدك خريطة واضحة المعالم، وتقول لك: "هنا الطريق، فامش".

دعنا نغوص معاً في بحر هاتين الآيتين، ونستخرج دررهما البيانية، ونعيش رسائلهما التربوية والعقلية والإيمانية.
أولاً: الآية الخامسة - "مَنْ كانَ يَرْجُو لِقاءَ اللهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللهِ لَآتٍ ۚ وَهُوَ السَّمِيعُ العَلِيمُ"

المشهد الافتتاحي: الرجاء ليس أمنية، بل دافع محرك

تأمل كيف بدأت الآية بـ "مَنْ كانَ" - صيغة الشرط التي تفيد العموم، ولكن مع شرط: "من كان" أي من اتصف بهذه الصفة الموجودة بالفعل، ليس من يتمنى أمنية عابرة، بل من "كان" أي استقرت في كيانه صفة الرجاء .هذا الرجاء ليس مجرد شعور، بل هو حالة وجودية، بناء نفسي، محرك للسلوك.

"يَرْجُو لِقاءَ اللهِ" - الرجاء في اللغة: الأمل المقترن بالعمل والطلب .ليس كالأمنية التي تبقى في الخيال .قال الراغب الأصفهاني: "الرجاء هو توقع الخير مع أسباب تحققه" .فمن رجا شيئاً طلبه وسعى إليه.

اللمسة البيانية الأولى: تقديم "مَنْ كانَ" على الفعل

التقديم هنا للاهتمام بالشخص الذي يرجو، ثم بالفعل الذي يقوم به .كأن الله يقول: انظر إلى هذا الإ نسان الذي يرجو لقائي، إنه ليس كغيره .له حال خاص، ومنهج مختلف.

اللمسة البيانية الثانية: "لِقاءَ اللهِ" - إضافة إلى الله

لم يقل "لقاء الجنة" أو "لقاء النعيم"، بل "لقاء الله" .هذه الإضافة تعظم الشرف، وترفع الأمل .لقاء الله هو أسمى ما يرجوه المؤمن .قال تعالى: "لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ") يونس(26 ، والزيادة هي النظر إلى وجهه الكريم .فمن رجا هذا اللقاء، تغيرت حياته كلها.

الرسالة الإيمانية الأولى: الرجاء الحقيقي يغير الأولويات .من رجا لقاء الله، لم تعد الدنيا همه الأكبر . يصبح المال وسيلة، والمنصب أمانة، والزوجة والأبناء قرة عين، لكن القبلة تبقى الله .هذا الرجاء يمنحه طاقة هائلة على تحمل الابتلاء، لأنه يعلم أن ما ينتظره أعظم مما يتركه.

"فَإِنَّ أَجَلَ اللهِ لَآتٍ" - الجواب الحاسم

اللمسة البيانية الثالثة: استخدام "فَإِنَّ" للتعليل والتوكيد

جاءت "فإنّ" لتربط الرجاء بالنتيجة .كأنه يقول: لأنه يرجو لقاء الله، وهذا اللقاء محقق لا محالة، فليعمل وليستعد ."أَجَلَ اللهِ" - الأجل هو الوقت المضروب، أي وقت لقاء الله الذي كتبه الله لكل نفس عند الموت، ثم لقاء آخر عند البعث .إضافة الأجل إلى الله تعظيم وتفخيم.

اللمسة البيانية الرابعة: "لَآتٍ" - اسم فاعل من الإتيان، مؤكد باللام

"لَآتٍ" مؤكدة باللام، تفيد القطع واليقين .ليس "سيأتي" بل "لآتٍ" أي قادم لا محالة، حاضر لا يتخلف . هذا توكيد بعد توكيد .وكأن الله يزيل كل شك، ويسحق كل تردد .لقاء الله آتٍ، سواء استعدت له أم لم تستعد.

الرسالة العقلية الأولى: الآية تحارب الوهم الذي يسيطر على كثير من الناس: وهم "سأتوب بعدين"، "سأعمل بعدين"، "ما زال الوقت طويلا ً" .الآية تقول: الأجل محدد، واللقاء قادم، وليس في علمك

متى .فبادر.

الرسالة التربوية الأولى: كيف نغرس في أنفسنا وأولادنا الرجاء الحقيقي؟

· بذكر الموت والدار الآخرة باستمرار، ليس للخوف فقط، بل للشوق.
· بالتفكر في نعيم الجنة، وليس فقط في عذاب النار.
· بالعمل الصالح الذي يقرب إلى الله، فلا يكفي الرجاء وحده، بل لا بد من السعي.
· بدعاء الله: "اللّهم إني أسألك لذة النظر إلى وجهك، والشوق إلى لقائك".

"وَهُوَ السَمِيعُ العَلِيمُ" - ختم الآية باسمين عظيمين

اللمسة البيانية الخامسة: الانتقال من الحديث عن الأجل إلى صفات الله

بعد أن أخبر أن لقاء الله آت، ذكر صفتين من صفاته: السميع والعليم .لماذا؟ لأن من رجا لقاء الله يحتاج إلى يقين أن الله يسمع دعاءه، ويعلم سعيه وجهده .ومن كان يعمل السيئات ويظن أنه يسبق الله، فإن الله سميع لأقواله، عليم بأفعاله.

السميع - يسمع كل الأصوات، لا يشغله شيء عن شيء .يسمع دعاء المضطر، وأنين المبتلى، وشكوى المظلوم، وتضرع التائب، بل يسمع حتى ما في النفس.

العليم - يعلم كل الأشياء، ظاهرها وباطنها، خفيها وأخفى .يعلم جهد المجاهد، وتعب الصابر، ونية المخلص، وخيانة الخائن.

الرسالة الإيمانية الثانية: هذا الختام يزرع في نفس المؤمن طمأنينة عظيمة .أنت لست وحدك .هناك من يسمعك، يعلم حالك، يقدر جهدك، وسيجزيك عليه .فلا تيأس، ولا تستسلم.

الرسالة التربوية الثانية: عندما تشعر بالوحدة في طريق الابتلاء، تذكر أن الله سميع عليم .هو يسمع دموعك في السحر، ويعلم آلامك في الظلام، ويحصي أنفاسك في الشدة .فتوكل عليه.

الربط بين الآية الخامسة وما قبلها

الآيات السابقة تحدثت عن الابتلاء) الآيات2 -(3، وعن عدم إفلات المسيئين) الآية .(4 ثم تأتي هذه ا لآية لتعطي الأمل .كأنها تقول: نعم، هناك ابتلاء، ونعم، هناك عقاب للمسيئين، لكن لمن يرجو لقاء الله، فهناك موعد محقق، وهناك سميع وعليم يسمع دعاءه ويعلم سعيه.

هذا هو التوازن القرآني العجيب: خوف ورجاء، ترغيب وترهيب، تحذير وتبشير.
ثانياً: الآية السادسة -"وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ"

المشهد الافتتاحي: الجهاد - المفتاح العملي للرجاء

بعد أن تحدثت الآية السابقة عن الرجاء، تأتي هذه الآية لتحدد الطريق العملي لتحقيق ذلك الرجاء: الجهاد.

"وَمَنْ جَاهَدَ" - الجهاد في اللغة: بذل الجهد والطاقة في مواجهة الصعاب .وهو أنواع:

· جهاد النفس: كبح جماحها عن الشهوات، وحملها على الطاعات.
· جهاد الشيطان: دفع وساوسه.
· جهاد الكفار والمنافقين: باليد واللسان والمال والنفس.
· جهاد الظالمين: بالحق والصبر.

لكن في سياق السورة، وبعد الحديث عن الابتلاء والامتحان، فإن الجهاد المقصود هنا هو جهاد النفس أولا ً، ثم جهاد العدو الخارجي ثانياً .لأن من لم يجاهد نفسه، لا يستطيع أن يجاهد عدوه.

اللمسة البيانية الأولى: تقديم "مَنْ جَاهَدَ" وإفراد الفعل

كذلك التقديم للاهتمام بالمجاهد نفسه، ثم بفعله .والمفرد "جَاهَدَ" يفيد أن كل إنسان له جهاده الخاص

، وليس بالضرورة أن يكون جهاد الكل واحداً .فجهاد العالم في تعليمه، وجهاد التاجر في أمانته، وجهاد الحاكم في عدله، وجهاد الجندي في قتاله، وجهاد الزوجة في طاعة زوجها وتربية أولادها، كل ذلك جهاد.

اللمسة البيانية الثانية: "فَإِنَّمَا" للحصر والقصر

"فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ" - "إنما" أداة حصر، تفيد أن الجهاد يعود نفعه على المجاهد نفسه أولا ً وآخراً . ليس لله حاجة في جهادك، بل أنت المستفيد الأكبر.

الرسالة الإيمانية الثالثة: هذه الآية تحطم فكرة "الإحسان إلى الله" أو "تقديم معروف لله" .الله غني عن العالمين، لا تنفعه طاعة الطائعين، ولا تضره معصية العاصين .فإذا جاهدت، فإنما تجاهد لنفسك، لتزكيها، لتطهرها، لترفع درجاتها، لتدخل بها الجنة.

الرسالة العقلية الثانية: لماذا يجاهد الإنسان لنفسه؟ لأن الجهاد يبني الشخصية، يصقل الإرادة، يقوي العزيمة، يمنح الثقة، يعلم الصبر، يخرج أفضل ما في الإنسان .من يجاهد يصبح أقوى، أكثر حكمة، أعلى قدرة على مواجهة الحياة .أما من يستسلم، فيظل ضعيفاً تابعاً.

الرسالة التربوية الثالثة: كيف نغرس حب الجهاد في أنفسنا وأولادنا؟

· بتعويدهم على تحمل المسؤولية منذ الصغر.
· بعدم الاستسلام للراحة والكسل.
· بمواجهة المخاوف وتحديها.
· بجعل التحديات فرصاً للنمو لا عوائق.
· بمدح الجهد لا النتيجة فقط.

"إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ" - علة الحصر

اللمسة البيانية الثالثة: تأكيد الغنى باللام والتنكير

"لَغَنِيٌّ" - اللام للتوكيد، والتنكير) غني (يفيد الكمال والشمول .ليس غنياً فقط، بل غنياً بكل معاني الغنى .غني عن طاعتك، غني عن جهادك، غني عن عبادتك، غني عن كل العالمين.

"عَنِ الْعَالَمِينَ" - كل الخلق، الإنس والجن والملائكة، الأحياء والأموات، المطيعين والعاصين .الله غني عنهم جميعاً.

الرسالة الإيمانية الرابعة: هذه الآية ترد على الذين يتصورون أن الله يحتاج إليهم .يحتاج إلى أموالهم، إلى جهادهم، إلى نصرتهم .كلا .الله غني مطلق، لا تنفعه طاعتك ولا تضره معصيتك .ولكنك أنت المحتاج إليه .فإذا جاهدت، فلك، وإذا تبت، فلك، وإذا عملت صالحاً، فلك .هذا يحررك من الرياء، ويخلصك للإخلاص.

الرسالة التربوية الرابعة: علم نفسك وأولادك أن العبادة والجهاد ليسا "معروفاً" تقدمه لله، بل "حاجة" تقدمها لنفسك .فالمصلي يصلي لنفسه، والصائم يصوم لنفسه، والمجاهد يجاهد لنفسه .هذا يجعل العبادة محبة وشوقاً، لا تكليفاً وامتناناً.

اللمسات البلاغية الإضافية في الآية السادسة

.1الفاء في "فَإِنَّمَا" - تفيد التعقيب، أي من جاهد مباشرة فثمرة جهاده تعود عليه .لا حاجز، لا وسيط، لا تأخير.
.2"لِنَفْسِهِ" - اللام للاختصاص، والنفس مضاف إلى الضمير، تفيد أن نفع الجهاد يعود على ذات المجاهد وروحه وكيانه.
.3المقابلة بين "جَاهَدَ" و "لِنَفْسِهِ" - كأن هناك من يظن أن الجهاد لله، فجاء التصحيح: هو لنفسك في الحقيقة، وإن كان لله في الظاهر.
.4ختم الآية باسم "الغني" - وهو اسم ليس فيه صفة مباشرة تتعلق بالإحسان إلى العباد، بل يتعلق بذات الله .هذا يقرر استغناء الله التام عن الخلق.

الربط بين الآية السادسة والآية الخامسة

الآية الخامسة أعطت الدافع) الرجاء(، والآية السادسة أعطت الطريق) الجهاد .(لا رجاء بلا جهاد، ولا جهاد بلا رجاء .فالرجاء يحرك، والجهاد ينفذ .هذا هو التوازن.

كما أن الآية الخامسة ذكرت لقاء الله) الغاية(، والآية السادسة ذكرت الجهاد) الوسيلة .(فمن أراد الغاية ، فعليه بالوسيلة.

والآية الخامسة ختمت بـ"السميع العليم") صفات تخص علم الله وإدراكه(، والآية السادسة ختمت بـ "الغني عن العالمين") صفة تخص ذاته .(فالسميع العليم يسمع دعاء المجاهد ويعلم جهاده، والغني لا يحتاج إليه، لكنه مع ذلك يثيبه.
ثالثاً: الربط بين الآيتين وبين السياق العام للسورة) مراحل بناء الأمة(

الآن، دعنا نربط هاتين الآيتين بمراحل مالك نبي لبناء الأمة:

مرحلة الروح) التأسيس(

في هذه المرحلة، يكون المجاهد في أشد حالات التضحية .لا يطلب حقوقاً، بل يؤدي واجبات .يرجو لقاء الله، فيجاهد نفسه ويصبر على الابتلاء .هذه المرحلة تتطلب أعلى درجات الرجاء وأعلى درجات الجهاد .لأن المكافأة لم تظهر بعد، والنصر لم يتحقق، والمال والجاه لم يأتِ .كل ما يملكه هو الرجاء والجهاد .وهذا بالضبط ما تؤسس له الآيتان.

تأمل: المؤمن في مكة كان يرجو لقاء الله، وكان يجاهد نفسه وأهله وماله في سبيل الله .لم يكن يطلب دولة، ولا سلطاناً، ولا مالا ً .كان يطلب الله فقط .هذا هو جوهر مرحلة الروح.

مرحلة العقل) الازدهار(

في هذه المرحلة، يبدأ التوازن بين الروح والجسد .يأتي المال، يأتي السلطان، يأتي النصر .وهنا يحتاج المجاهد إلى تذكير دائم بأن الله غني عن العالمين، وأن الجهاد لنفسه، لا ليقدم معروفاً لله .لأن خطر الرياء والغرور يكون أكبر في مرحلة العقل .الآية السادسة "إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ" تحمي الأمة من هذا الخطر.

مرحلة الجسد) الأفول(

في هذه المرحلة، يضعف الرجاء، ويموت الجهاد، ويحل محلهما الطمع والكسل واللهو .الآيتان تحاربان هذه المرحلة: الأولى تدعو إلى إحياء الرجاء، والثانية تدعو إلى إحياء الجهاد .فمن أراد ألا تسقط أمته في مرحلة الجسد، فعليه أن يغرس في نفوس أبنائه الرجاء والجهاد.

رابعاً: الرسائل العشر التي تحملها الآيتان

الرسالة الأولى: الرجاء الحقيقي هو محرك التغيير

لا تتغير الأمم بلا رجاء .من فقد الأمل، فقد الطاقة .ومن فقد الطاقة، مات .الآية تعلن أن الرجاء بلقاء الله هو أعلى درجات الأمل، لأنه أمل لا يخيب، وغاية لا تفنى .فإذا أردت أن تغير نفسك، أو أسرتك، أو أمتك، فابدأ بالرجاء.

الرسالة الثانية: لقاء الله ليس خرافة، بل حقيقة يقينية

"أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ" - هذه حقيقة مطلقة .لا يختلف عليها اثنان .الموت آت، والبعث آت، والحساب آت، و الجزاء آت .من عاش على هذا اليقين، اختلفت نظرته للحياة .لم تعد الدنيا دار إقامة، بل دار عبور . لم تعد المصائب نهاية، بل بداية .لم تعد اللذات هدفاً، بل وسيلة.

الرسالة الثالثة: الله سميع عليم، فلا تخف من ضياع جهدك

كم من مجاهد يشعر أن جهده يضيع؟ يدعو فلا يستجاب، يجتهد فلا يرى ثمرة، يبذل فلا يقدّر .الآية تهمس في أذنه: الله سميع لدعائك، عليم بجهدك .قد لا يراك الناس، لكنه يراك .قد لا يشكرك أحد، لكنه سيشكرك .قد لا تأتي النتيجة في دنياك، لكنها آتية في أخراك.

الرسالة الرابعة: الجهاد ليس خياراً، بل ضرورة لمن يرجو لقاء الله

من قال "آمنت" ثم ترك، لم يصدق .من رجا لقاء الله ثم قعد، كان كاذباً .الجهاد هو الطريق الوحيد لتحقيق الرجاء .ليس هناك اختصار، ولا طريق مفروش بالورود .إما جهاد، وإلا فما أنت ببالغ.

الرسالة الخامسة: ثمرة الجهاد تعود عليك، لا على الله

هذه الرسالة تحررك من عقدة "الإحسان إلى الله" .الله لا يحتاجك .أنت الذي تحتاجه .فإذا جاهدت، فلك الجنة .وإذا تركت، فعليك النار .ليس لله ضرر ولا نفع .هذا يجعل العبادة خالصة لله، لا رياء ولا سمعة، ولا منة ولا استكبار.

الرسالة السادسة: الجهاد يبني الذات قبل أن يبني الأمة

"يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ" - أي أن النفع الأول للجهاد يعود على نفس المجاهد .فهو يقوي إرادته، يصقل شخصيته، يعلمه الصبر، يرفع درجاته .فحتى لو لم ينتصر في المعركة الخارجية، فقد انتصر في معركة نفسه .وهذا نصر عظيم.

الرسالة السابعة: استحضر غنى الله عنك لتحمي نفسك من الرياء

عندما تعلم أن الله غني عنك، لن تتصور أنك تقدم له معروفاً بعبادتك .هذا يقتلع الرياء من جذوره . فلماذا ترائي؟ ألترائي لتكسب مدح الناس وأنت غني عنهم؟ أم لترائي لتكسب رضا الله وهو غني عنك؟ الرياء عبث.

الرسالة الثامنة: لا تنتظر شكر الناس، فالله غني عنهم أيضاً

قد تجاهد فتخذلك الناس، قد تبذل فينكرون جميلك، قد تضحي فينسون فضلك .لا تحزن .الله غني عن شكرهم، وهو الذي سيشكرك .قال تعالى: "إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ") التوبة .(111 هذه صفقة رابحة مع الله الغني.

الرسالة التاسعة: الرجاء والجهاد هما مفتاح النجاة من الفتنة

تذكر الآيات الأولى: "أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ" .الآيات5 - 6تعطيك الحل: إذا أتتك الفتنة، فَرُجُ لقاء الله، وجاهد .بهذين تثبت، وتخرج من الفتنة أقوى مما دخلت.

الرسالة العاشرة: هذه الآيات هي دستور النهضة للأمة المسلمة اليوم

أمتنا اليوم في أشد الحاجة إلى الرجاء والجهاد .يئس كثيرون، وقعد آخرون، وتفاخر بعضهم بالا نتصارات الوهمية .الآيات تقول: ارجعوا إلى الرجاء الحقيقي، وإلى الجهاد الصادق .عندها فقط ستنهض الأمة.
خامساً: تطبيقات عملية من الآيتين في حياتك اليومية

التطبيق الأول: حول رجاءك إلى أهداف يومية

لا تكتفِ بأن تقول "أرجو لقاء الله" .اسأل نفسك كل صباح: ماذا سأعمل اليوم لأقترب من هذا اللقاء؟ ضع أهدافاً صغيرة: ركعتان بخشوع، صدقة سرية، كلمة حق، ترك غيبة، مساعدة محتاج .هذه هي خطوات الرجاء العملية.

التطبيق الثاني: استحضر السميع والعليم في كل عمل

قبل أن تفعل أي شيء، تذكر أن الله يسمع ويرى ويعلم .هذا الاستحضار سيجعلك تقدم عملا ً أفضل، وتتجنب الخطأ، وتخلص النية .جرب أن تعمل عملا ً وكأن الله يراك، ستجده متقناً.

التطبيق الثالث: جاهد نفسك يومياً في ثلاث مجالات

.1جهاد العبادات: حافظ على الصلاة في وقتها، وزد من النوافل، واجعل لك ورداً قرآنياً.

.2جهاد الأخلاق: تغلب على الغضب، الحسد، الكبر، الغيبة، الكذب.
.3جهاد الإنتاج: أتقن عملك، اجتهد في دراستك، أبدع في مهنتك .فالجهاد ليس فقط في المعركة، بل في كل مجالات الحياة.

التطبيق الرابع: تذكر أن الله غني عنك، فلا تمنّ عليه

إذا صليت، فلا تقل: "أنا صليت لله" .قل: "الله وفقني للصلاة لنفسي" .إذا تصدقت، فلا تقل: "أنا أعطيت الفقير" .قل: "الله أعطاني لأعطي الفقير" .هذا يقتلع المنة والرياء.

التطبيق الخامس: حول اليأس إلى رجاء

إذا أصابتك مصيبة، أو فشلت في مشروع، أو خذلك الناس، لا تيأس .تذكر: "مَنْ كانَ يَرْجُو لِقاءَ اللهِ" . حول طاقتك السلبية إلى إيجابية .قل: "هذا اختبار، وسأجتازه .لقاء الله آتٍ، وسألقاه وأنا راضٍ".

التطبيق السادس: لا تنتظر النتائج الفورية للجهاد

قد تجاهد سنوات ولا ترى ثمرة .لا تيأس .فالجهاد لنفسك أولا ً .كل لحظة تجاهد فيها تبني شخصيتك، وتقوي إرادتك، وترفع درجتك عند الله .والنتائج النهائية ستأتي في وقتها.
سادساً: أسئلة للمراجعة الذاتية بعد قراءة الآيتين

اسأل نفسك الآن، بصدق:

.1هل أرجو لقاء الله حقاً؟ أم أن رجائي متعلق بالدنيا فقط: بمال أكثر، بيت أكبر، منصب أعلى؟
.2متى كانت آخر مرة عملت فيها عملا ً صالحاً لأني أرجو لقاء الله، لا لأني أريد مدح الناس أو دفع عقاب أو طلب نعيم دنيوي؟
.3هل أشعر أن الله يسمع دعائي ويعلم جهدي؟ أم أني أشعر بالوحدة والنسيان؟
.4ما هو أعظم جهاد قمت به في حياتي؟ جهاد نفس عن شهوة؟ جهاد عدو؟ جهاد صبر على فتنة؟
.5هل أمنّ على الله بطاعتي؟ هل أقول في نفسي: "أنا أصلي، أنا أصوم، أنا أتصدق، فلماذا لا يستجيب الله لي؟" تذكر: الله غني عنك.
.6كيف أستطيع أن أحول يئسي من واقع أمتي إلى رجاء وعمل؟
.7ما هو الجهاد الذي سأبدأ به اليوم؟ حدد هدفاً واحداً، صغيراً، وابدأ.
الخاتمة: أنت والمشهد الأخير

أخي، أختي...

تخيل أنك تقف يوم القيامة .تنشر صحيفتك .ترى فيها كل جهاد جاهدته، وكل رجاء عشته .ثم تسمع صوتاً يقول: "هذا بما قدمت يداك، وما الله بظلام للعبيد".

ثم تنظر إلى الله، فتراه .لقاء الله الذي رجوت .فتنسى كل تعب، كل ألم، كل فتنة .وتقول: "يا ليتني جاهدت أكثر، يا ليتني رجوت أكثر".

الآن، قبل أن تقوم من مكانك، قرر:

· سأرجو لقاء الله حقيقة، لا أمنية.
· سأجاهد في الله حق جهاده، لنفسي أولا ً.
· سأستحضر أن الله سميع عليم، فسيسمع دعائي ويعلم جهدي.
· سأذكر أن الله غني عني، فلا أمنّ عليه بطاعتي، بل أشكره على توفيقي.

وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا - هذه هي الهداية التي تنتظرك بعد الجهاد .فبادر.

اللهم اجعلنا من الذين يرجون لقاءك، ويعملون له، ويجاهدون في سبيلك .اللهم إنا نسألك لذة النظر إلى وجهك، والشوق إلى لقائك .اللهم أرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه، وأرنا الباطل باطلا ً وارزقنا اجتنابه .آمين.
المبحث الخامس
تأملات في الآية السابعة من سورة العنكبوت: "وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ"

الآن، وبعد أن قطعت معنا رحلة طويلة في أعماق سورة العنكبوت، بعد أن هزتك الآيات الأولى بسؤالها الصاعق: "أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا"، وبعد أن أيقظتك الآية الرابعة من غفلة الأمن من مكر الله: "أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَن يَسْبِقُونَا"، وبعد أن منحتك الآيتان الخامسة والسادسة خارطة الطريق: "مَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللَّهِ" و"مَن جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ"...

تأتي هذه الآية السابعة كواحة في صحراء التعب، كغيمة بعد لهيب، كبشارة تمسح دمعة العين، وتضمد بها الهموم .إنها وعد الله الصادق لمن آمن وعمل صالحاً، وجاهد وصبر، واحتمل الابتلاء.

تخيل نفسك بعد أن أنهكتك الفتن، بعد أن ضاقت بك الأرض بما رحبت، بعد أن تخلى عنك الأصدقاء، وخذلك الأقارب، وظلمك الحكام، واستهزأ بك الجاهلون ...ثم فجأة، تسمع هذا النداء الإلهي: "وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ".

أليست هذه هي الجنة؟ أليس هذا هو العوض؟ أليس هذا هو الأمل الذي يبعث في القلب حياة جديدة؟

دعنا نغوص معاً في بحر هذه الآية العظيمة، ونستخرج لآلئها البيانية، ونعيش رسائلها التربوية والإيمانية، ونرى كيف تتناغم مع مراحل بناء الأمة عند مالك نبي، وكيف تطبق في واقعنا المعاصر.
أولاً: المشهد الافتتاحي - "وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ"

اللمسة البيانية الأولى: العطف بالواو

تبدأ الآية بـ "وَالَّذِينَ"، والواو هنا للعطف على ما سبق .تعطف هذه الآية على الآيات السابقة التي تحدثت عن المؤمنين المبتلين، وعن المجاهدين الذين يرجون لقاء الله .كأنه يقول: أولئك الذين آمنوا وعملوا الصالحات، الذين امتحنوا فصبروا، وجاهدوا فثبتوا، ورجوا فأخلصوا ...هؤلاء لهم هذا الجزاء.

الرسالة البلاغية: هذا العطف يخلق ترابطاً وثيقاً بين الابتلاء والجزاء .فليس الجزاء لمن آمن فقط، بل لمن آمن ثم ابتلي فصبر، ثم جاهد فثبت، ثم عمل الصالحات في السراء والضراء.

اللمسة البيانية الثانية: تقديم الإيمان على العمل الصالح

"آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ" - قدم الإيمان على العمل، لأن الإيمان هو الأساس، والعمل هو البناء .لا ينفع عمل بلا إيمان، والإيمان بلا عمل ميت .وهذا التقديم يحقق التوازن بين أهل الأهواء: من يقولون "إيمان بلا عمل" ومن يقولون "عمل بلا إيمان".

الرسالة العقدية: الإيمان الصادق لا بد أن يتبعه عمل .فمن قال "آمنت" ثم لم يعمل، فهو كاذب أو غافل .والابتلاء الذي تحدثت عنه الآيات السابقة هو الذي يكشف صدق هذا الإيمان، ويحرك هذا العمل.

اللمسة البيانية الثالثة: تعريف الإيمان والعمل بـ "أل" الجنسية

"آمَنُوا" فعل ماضٍ يفيد التحقق والوقوع ."الصَّالِحَاتِ" معرفة بـ"أل" للجنس، فتشمل كل أنواع العمل الصالح: صلاة، صيام، زكاة، حج، صدقة، جهاد، أمر بمعروف، نهي عن منكر، بر بالوالدين، صلة رحم، صدق، أمانة، عدل، إحسان ...كل شيء صالح.

الرسالة التربوية: لا تظن أن العمل الصالح محصور في العبادات فقط .بل كل عمل تقوم به لله، بنية صالحة، وفق شرع الله، فهو عمل صالح .عملك في وظيفتك بإتقان هو عمل صالح .دراستك بنية نفع الأمة عمل صالح .تربيتك لأولادك على الدين عمل صالح .ابتسامتك في وجه أخيك صدقة.
ثانياً: "لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ" - الوعد الأول: التطهير من الذنوب

اللمسة البيانية الرابعة: اللام والنون للتوكيد

"لَنُكَفِّرَنَّ" - دخلت اللام المزحلقة، والنون الثقيلة للتوكيد .إنه توكيد بعد توكيد .كأن الله يقسم بذاته: و الله لأكفرن عنهم سيئاتهم .لماذا هذا التوكيد؟ لأن النفس البشرية تميل إلى اليأس من مغفرة الذنوب، خاصة بعد كثرة الخطايا .فجاء التوكيد ليزيل كل شك، وليقطع كل رجاء في الرحمة.

اللمسة البيانية الخامسة: "نُكَفِّرْ" - التكفير: الإزالة والتغطية

"نُكَفِّرَ" من الكفر بمعنى الستر والتغطية .كأن الله يستر السيئات، لا يفضح بها عبده في الدنيا ولا في الآخرة .والتكفير هنا أبلغ من مجرد المغفرة، لأنه يتضمن المحو والإزالة حتى كأنها لم تكن.

الرسالة الإيمانية: كم من ذنب أذنبته؟ كم من خطيئة اقترفتها؟ كم من تقصير في حق الله وحق الناس؟ هذه الآية تبشرك: إذا كنت من الذين آمنوا وعملوا الصالحات، فإن الله سيكفر عنك كل تلك السيئات .يزيلها، يطمسها، يسترها .حتى إذا وقفت بين يديه يوم القيامة، لا يفضحك بها.

اللمسة البيانية السادسة: "عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ" - إضافة السيئات إليهم

أضاف السيئات إليهم، لأنها صادرة منهم .ثم وعد بتكفيرها .وهذا من كرم الله: أنت أذنبت، وأنا أغفر . أنت أخطأت، وأنا أسامح .لا يقول: "لنكفر عنهم سيئاتهم" فقط، بل يقولها مع إضافة السيئات إليهم، إقراراً بأنهم كانوا مذنبين، ولكن رحمته سبقت غضبه.

الرسالة التربوية: لا تيأس من كثرة ذنوبك .مهما عظمت، فرحمة الله أعظم .ولكن بشرط: الإيمان و العمل الصالح .ليس معنى ذلك أن تستمر في الذنوب متكلا ً على المغفرة، بل أن تتوب وتعمل، ثم تثق بوعد الله.

ما هي السيئات التي يكفرها الله؟

· السيئات الصغيرة: التي تغفر بالاجتناب والاستغفار.
· السيئات الكبيرة: التي تمحى بالتوبة النصوح، والعمل الصالح، والمصائب المكفرة.
· سيئات الخلل في العبادات: نقص الخشوع، الغفلة، التكاسل.
· سيئات المعاملات: ما بين العبد وربه، وما بين العبد والناس.

والآية وعدت بتكفيرها كلها، بشرط أن يكون الإيمان صادقاً، والعمل صالحاً .وهذا من أعظم البشارات في القرآن.

ثالثاً: "وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ" - الوعد الثاني: الجزاء بأحسن الأعمال

اللمسة البيانية السابعة: "لَنَجْزِيَنَّهُمْ" - الجزاء من جنس العمل ولكن أضعافاً

"لَنَجْزِيَنَّهُمْ" - توكيد ثانٍ باللام والنون .والجزاء: المكافأة على العمل .لكن تأمل: لم يقل "لنجزينهم عملهم" بل قال "أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ" . أي ليس مجرد أن يعطيهم ثواب عملهم، بل يعطيهم ثواب أحسن ما عملوا، بل يضاعف لهم الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة.

اللمسة البيانية الثامنة: "أَحْسَنَ" - التفضيل

استخدم صيغة التفضيل "أَحْسَنَ" أي أفضل وأجمل وأكمل .فالله لا يجازيهم بمثل أعمالهم، بل بأحسنها .والحسنة الواحدة بعشر أمثالها، والسيئة بمثلها .ثم هو يتفضل فيزيد.

الرسالة الإيمانية: تخيل أنك عملت عملا ً صالحاً، درجته عند الله .10 فالله يعطيك عليه100 ، أو 700، أو أكثر .هذا هو الكرم الإلهي .ومن كرمه أيضاً أنه يقبل القليل، ويعطي الكثير .قال النبي ﷺ: "قَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ") البخاري.(

اللمسة البيانية التاسعة: "الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ" - العمل في الماضي المستمر

"كَانُوا يَعْمَلُونَ" - صيغة الماضي الدال على الاستمرار والثبات .ليس من عمل حسنة واحدة، بل من دأب على العمل الصالح، واستمر عليه في السراء والضراء، في الرخاء والشدة، في الشباب والكهولة . هؤلاء هم الذين يستحقون هذا الجزاء.

الرسالة التربوية: الاستمرارية خير من الاندفاع المؤقت .كن ممن يعملون الصالحات باستمرار، لا ممن ينشط أحياناً ويفتر أحياناً .قال النبي ﷺ: "أَحَبُّ الأَ َعْمَالِ إِلَى اللهِ أَدْوَمُهَا وَإِنْ قَلَّ") مسلم.(

اللمسة البيانية العاشرة: إضافة الجزاء إلى الله

كل الجمل في الآية مسندة إلى الله: "لَنُكَفِّرَنَّ"، "وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ" .إضافة الجزاء إلى الله تفيد التعظيم، وأن الجزاء من عنده وحده، لا من أحد سواه .فاطمئن: لا يضيع أجر من أحسن عملا ً عند الله.
رابعاً: اللمسات البلاغية الإضافية في الآية

.1المقابلة بين التكفير والجزاء

الآية تحتوي على وعدين متوازيين:

· تكفير السيئات) إزالة الشر(
· الجزاء بأحسن الأعمال) إعطاء الخير(

هذا التوازن يحقق العدل والرحمة .يزيل السيئات التي تخيف العبد، ويعطيه الخير الذي يتمناه.

.2الترتيب: بدأ بالتكفير ثم بالجزاء

قدم تكفير السيئات على الجزاء بأحسن الأعمال .لأنه لا يمكن أن ينال العبد الجزاء الكامل ما لم تطهر نفسه من الذنوب .فالتطهير أولا ً، ثم التزيين والإكرام.

.3استخدام "أَحْسَنَ" بدلا ً من "حسن"

لو قال "حسن الذي كانوا يعملون" لكان المعنى: يعطيهم ثواب عملهم الحسن .لكنه قال "أحسن" أي ما هو أفضل من عملهم .هذا من باب التفضل والإحسان.

.4الإتيان ب- "عَنْهُمْ" في التكفير

"لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ" - حرف الجر "عن" يفيد المجاوزة والإزالة .أي نزيل السيئات من عليهم، ونبعدها عنهم . كأن السيئات كانت ثقلا ً على ظهورهم، فرفعها الله عنهم.

.5الإتيان ب- "يَعْمَلُونَ" بصيغة المضارع في صلة الماضي

"كانُوا يَعْمَلُونَ" - الماضي للثبوت، والمضارع للتجدد .أي أن عملهم الصالح كان صفة ثابتة متجددة فيهم، لا عمل عابر.
خامساً: الربط بين الآية وسياق السورة) مراحل بناء الأمة(

علاقة الآية بالآيات السابقة1) -(4: الابتلاء والتمحيص

الآيات1 -4: ابتلاء وتمحيص وفتنة.
الآية7 : جزاء من اجتاز الابتلاء بنجاح.

كأن الله يقول: لقد ابتليتم، وتعبتم، وجاهدتم، وصبرتم .والآن، هذا هو الجزاء: تكفير السيئات، وأحسن الجزاء.

الدرس: لا يوجد ابتلاء بلا أجر .كل دمعة ذرفت في سبيل الله، كل ألم احتملته، كل تضحية قدمتها، ستجدها محسوبة عند الله، بل مضاعفة.

علاقة الآية بالآيات5 -6: الرجاء والجهاد

الآيات5 -6: رجاء لقاء الله، وجهاد في سبيله.
الآية7 : نتيجة الرجاء والجهاد.

فمن رجا وجاهد، نال تكفير السيئات وأحسن الجزاء.

الدرس: الرجاء والجهاد ليسا مجرد مشاعر وأفعال عابرة، بل هما استثمار في الآخرة .كل لحظة رجاء، كل خطوة جهاد، ستثمر في الآخرة ثماراً لا تخطر على بال.

علاقة الآية بمراحل مالك نبي الثلاث

مرحلة الروح) التأسيس(

في هذه المرحلة، يقدم المؤمن واجباته دون حقوق، يضحى بلا مقابل، يصبر بلا جزاء ظاهر .وهذه الآ يةَ تبشره: ما تقدمه الآن سيُجزى به في الآخرة بأحسن ما عمل .هذا البشارة هي التي تمنحه الصبر على مرارة التأسيس .فالمؤمن في مكة كان يعذب، يهجر، يضرب، يطرد .وكان يسمع هذه الآية) نزلت في مكة(، فتطمئن نفسه: كل هذا الألم له جزاء.

مرحلة العقل) الازدهار(

في هذه المرحلة، قد يغتر المؤمن بكثرة أعماله، أو يتكبر بإنجازاته .الآية تذكره: الله هو الذي يكفر السيئات، والله هو الذي يجزي بأحسن الأعمال .فلا تمنّ بعملك، ولا تفتخر بطاعتك .فكلها من فضل الله.

كما أن الآية تحمي الأمة في مرحلة العقل من آفتين:

1.آفة الرياء: قد يعمل الإنسان صالحاً ليمدحه الناس .الآية تذكره: الجزاء من الله، لا من الناس.
2.آفة الإعجاب بالنفس: قد يظن أن عمله هو الذي أدخله الجنة .الآية تذكره: الله هو الذي يتفضل ب الجزاء بأحسن العمل، ولو كان العمل قليلا ً.

مرحلة الجسد) الأفول(

في هذه المرحلة، تسود المادية، ويضعف الإيمان، ويقل العمل الصالح .الآية تحذر: لا تنسوا أن الحياة الحقيقية هي الآخرة .لا تنشغلوا باللهو واللعب عن العمل الصالح .فما تقدمونه من عمل صالح اليوم هو ما ستجزون به غداً.
سادساً: الرسائل الإيمانية والعقلية والتربوية في الآية

الرسالة الإيمانية الأولى: لا تيأس من رحمة الله مهما كثرت ذنوبك

قد تثقل كاهلك الذنوب، قد ترى نفسك مقصراً، قد تظن أن الله لن يغفر لك .هذه الآية تهمس في أذنك: "لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ" .شرط واحد: أن تكون من الذين آمنوا وعملوا الصالحات .فتب، واستغفر، وأقبل على العمل الصالح، ثم انتظر وعد الله.

الرسالة الإيمانية الثانية: العمل الصالح القليل مع الإيمان خير من العمل الكثير بلا إيمان

كم من إنسان يعمل أعمالا ً كثيرة، لكن بلا إيمان صادق، أو بلا نية صالحة، أو بلا اتباع لشرع الله؟ أعماله حابطة .أما المؤمن الذي يعمل ولو قليلا ً، لكن بإخلاص واتباع، فالله يضاعف له، ويعطيه أحسن الجزاء.

الرسالة الإيمانية الثالثة: الله يضاعف الحسنات، ويتجاوز عن السيئات

هذا هو شعار المؤمن: ربي كريم، يضاعف الحسنة بعشر أمثالها، ويعطيني أحسن ما عملت، ويتجاوز عن سيئاتي .فلماذا لا أستثمر في هذا البنك الربحي؟ لماذا لا أبذل جهداً صغيراً لأربح أضعافاً مضاعفة ؟

الرسالة العقلية الأولى: قانون السببية الإلهية

الآية تؤسس لقانون: من آمن وعمل صالحاً، نال تكفير السيئات وأحسن الجزاء .هذا قانون إلهي لا يتخلف .كما أن قانون الابتلاء سنة، وقانون الأخذ للمسيئين سنة، فقانون الجزاء للمحسنين سنة .فلا تظن أن عملك يضيع .قال تعالى: "فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ") الزلزلة.(7

الرسالة العقلية الثانية: الموازنة بين الخوف والرجاء

الآيات السابقة زرعت الخوف: "أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَن يَسْبِقُونَا" .وهذه الآية تزرع الرجاء: "لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ" .المؤمن يسير بين الخوف والرجاء، لا يغلب أحدهما على الآخر .يخاف من ذنوبه، لكنه يرجو رحمة ربه.

الرسالة التربوية الأولى: الاستمرارية في العمل الصالح

علم أولادك أن العمل الصالح ليس حدثاً مناسباتياً، بل هو أسلوب حياة .علمهم أن يحافظوا على الصلا ة، وأن يداوموا على قراءة القرآن، وأن يلتزموا بالأخلاق الحسنة .فالاستمرارية ولو بالقليل هي ما يحب الله.

الرسالة التربوية الثانية: الاهتمام بجودة العمل لا كميته فقط

الآية قالت: "أَحْسَنَ الذِي كانُوا يَعْمَلُونَ" أي أحسن أعمالهم، وليس أكثرها .فهناك من يعمل كثيراً لكن بإتقان قليل، وآخر يعمل قليلا ً لكن بإتقان عال .الله يجزئ على الإتقان والإحسان .قال النبي ﷺ: "إِنّ اللهَ يُحِبُ إِذَا عَمِلَ أَحَدُكُمْ عَمَلا ً أَنْ يُتْقِنَهُ") البيهقي.(

الرسالة التربوية الثالثة: البشارة تمنح الطاقة للاستمرار

عندما تعرف أن عملك سيُجزى بأحسن منه، ستجد طاقة هائلة للاستمرار .فلا تتعب، ولا تمل، ولا تيأس .فكل حرف تقرؤه من القرآن، كل ركعة تصليها، كل صدقة تدفعها، كل كلمة خير تقولها، كل جهد تبذله في سبيل الله ...كله محسوب، وكله سيعود إليك مضاعفاً.
سابعاً: تطبيقات عملية من الآية في حياتك اليومية

التطبيق الأول: أطلق العنان لرجائك في الله

كل صباح، قبل أن تبدأ يومك، قل في نفسك: "اليوم سأعمل صالحاً، والله سيكفر عني سيئاتي، وسيجزيني أحسن ما أعمل" .هذه العبارة ستمنحك دفعة إيجابية هائلة.

التطبيق الثاني: دوّن أعمالك الصالحة اليومية

احتفظ بمفكرة صغيرة، تكتب فيها في نهاية كل يوم: ما هي الأعمال الصالحة التي عملتها اليوم؟ لا تنسَ الصغيرة: ابتسامة، كلمة طيبة، مساعدة محتاج، ذكر الله، صلاة ركعتين .ثم تذكر أن الله سيجزيك بأحسنها .هذا سيجعلك تبحث عن العمل الصالح طوال اليوم.

التطبيق الثالث: لا تحتقرن من المعروف شيئاً

قد تظن أن عملك الصغير لا قيمة له .كلا .فالله يجازي بأحسن العمل، وقد تكون التبسمة في وجه أخيك، أو إماطة الأذى عن الطريق، أو كلمة حق عند سلطان جائر ...أعظم عند الله من عبادة سنين . قال النبي ﷺ: "لا تحْقِرَنّ مِنَ المَعْرُوفِ شَيْئًا") مسلم.(

التطبيق الرابع: تب واستغفر ثم انطلق

إذا أذنبت، فلا تجلس في دائرة الذنب واليأس .تب إلى الله، استغفر، ثم انطلق إلى العمل الصالح .ف التوبة النصوح تمحو الذنب، والعمل الصالح بعده يمحو أثره .قال تعالى: "إِنّ الحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السّيّئَاتِ")هود.(114

التطبيق الخامس: اجعل نيتك خالصة لله في كل عمل

حتى في عملك الدنيوي، في أكلتك، في نومك، في علاقتك بأهلك ...اجعل نيتك التقرب إلى الله .ف النيات تحول العادات إلى عبادات .وإذا أخلصت، دخل عملك في "الصّالِحَاتِ" التي وعد الله عليها بأحسن الجزاء.

التطبيق السادس: راجع حساباتك يومياً

قبل أن تنام، اسأل نفسك: ما هي السيئات التي أذنبتها اليوم؟ تب منها .ما هي الحسنات التي عملتها ؟ احمد الله عليها .وثق أن الله سيكفر السيئات، ويجزي بأحسن الحسنات .هذا سيجعلك تنام قرير العين، مطمئن القلب.
ثامناً: أسئلة للمراجعة الذاتية

اسأل نفسك الآن بصدق:

.1هل أنا من "الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ"؟ بمعنى: هل إيماني صادق يحركني للعمل؟ أم هو إيمان كسلان لا يثمر؟
.2ما هي أكبر سيئة في حياتي الآن؟ هل تبْت منها؟ هل عزمت على تركها؟ هل استغفرت الله منها؟
.3ما هو أحسن عمل صالح عملته في حياتي؟ كيف يمكنني أن أحافظ عليه وأضاعفه؟
.4هل أشعر أن الله سيكفر عني سيئاتي؟ أم أن اليأس يسيطر على قلبي؟
.5هل أستحضر وعد الله "لَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ" عندما أعمل؟ أم أني أعمل غافلا ً عن الأجر؟
.6كيف يمكنني أن أحول عاداتي اليومية إلى أعمال صالحة بنية صالحة؟
.7ما هو العمل الصالح الذي سأبدأ به اليوم؟) حدد هدفاً واحداً صغيراً، وابدأ(
تاسعاً: الخاتمة - أنت والمشهد الأخير

أخي، أختي...

تخيل أنك وقفت يوم القيامة بين يدي الله .تنظر إلى صحيفتك .ترى فيها سيئات كثيرة .تحزن، وتخاف .ثم فجأة، ترى يداً إلهية تمحو تلك السيئات واحدة تلو الأخرى .تسمع صوتاً: "لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ".

ثم تنظر إلى حسناتك .تراها قليلة، فتخجل .ثم فجأة، تراها تتضاعف، عشراً، مئة، ألفاً .وتسمع صوتاً: "وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ".

فتبكي من الفرحة .وتقول: "يا رب، ما كان هذا العمل يستحق هذا الجزاء" .فيقول الله: "هذا من فضلي ورحمتي".

ثم تدخل الجنة .فتنسى كل تعب، كل ألم، كل فتنة .وتقول: "يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي")يس.(26

هذه هي النهاية التي تنتظر من آمن وعمل صالحاً.

فهل أنت مستعد أن تكون منهم؟

تذكر: الطريق طويل، وفيه أشواك، وفيه فتن، وفيه جهاد .لكن النهاية ...النهاية هي هذه الآية .تكفير السيئات، وأحسن الجزاء.

فاصبر، واثبت، وآمن، واعمل صالحاً .وانتظر وعد الله.

وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ

اللهم اجعلنا من الذين آمنوا وعملوا الصالحات، وكفر عنا سيئاتنا، وجازنا بأحسن ما عملنا .اللهم إنا نسألك الجنة وما قرب إليها من قول وعمل، ونعوذ بك من النار وما قرب إليها من قول وعمل .آمين
المبحث السادس.
تأملات في الآية الثامنة من سورة العنكبوت: "وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا...".
الآن، بعد أن أبحرنا معاً في آيات الابتلاء والتمحيص، وبعد أن ذقنا طعم الرجاء والجهاد، وتذوقنا حلا وة الوعد بتكفير السيئات والجزاء بأحسن الأعمال ...تأتي هذه الآية لتضع قدميك على أرض الواقع، لتخاطب أعمق علاقاتك الإنسانية، لتختبر حقيقة إيمانك في أحرج المواقف وأصعبها.

تخيل نفسك: أنت تحب أمك وأباك حباً جماً .هما من ربياك، سهرا عليك، تعبا من أجلك، ضحيا براحتهما لراحتك .وفجأة، يأتي اليوم الذي يطلب منك فيه أغلى الناس لديك أن تترك دينك، أن تشرك بالله، أن تتنازل عن مبادئك .ماذا ستفعل؟ كيف ستتصرف؟ أين سيكون ولاؤك؟
هذه الآية تنزل لتحسم الأمر، لتضع ميزاناً دقيقاً بين حقوق الوالدين وحقوق الله، لتؤسس قاعدة عظيمة في بناء الشخصية المسلمة: الطاعة لله أولا ً، ثم للوالدين في غير معصية الله.

دعنا نغوص معاً في بحر هذه الآية العظيمة، ونستخرج لآلئها البيانية، ونعيش رسائلها التربوية والإ يمانية، ونرى كيف تتناغم مع مراحل بناء الأمة عند مالك نبي.
أولا ً: المشهد الافتتاحي - "وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا"

اللمسة البيانية الأولى: الواو - عطف على ما سبق

تبدأ الآية بـ "وَوَصَّيْنَا"، والواو هنا للعطف على الآيات السابقة .كأن الله يقول: بعد أن تحدثت عن الا بتلاء والامتحان، وعن الذين آمنوا وعملوا الصالحات، وعن الجهاد والرجاء ...ها أنا أذكرك بأول وأهم اختبار في حياتك العملية: علاقتك بوالديك.

الرسالة البلاغية: هذه الآية ليست منفصلة عما قبلها، بل هي جزء من سلسلة الابتلاءات التي تحدثت عنها السورة .فالوالدان هما أول فتنة يواجهها المؤمن في حياته .فمن نجح في هذه الفتنة، نجح في غيرها .ومن فشل، فقد انهار من أول الطريق.

اللمسة البيانية الثانية: "وَصَّيْنَا" - الوصية بمعنى الأمر المؤكد

"وَصَّيْنَا" من الوصية، وهي أمر مؤكد بالخير، فيها معنى العهد والتوكيد .لم يقل "أمرنا" بل "وصينا" لأ ن الوصية تحمل معنى الرحمة والحنان، كوصية الأب لابنه .والله يوصي الإنسان بوالديه، أي يعهد إليه بحقهما، ويوكده عليه.

الرسالة الإيمانية: الله سبحانه وتعالى، وهو خالقك ومالكك، يوصيك بوالديك .ما أعظم شرف الوالدين! وما أعظم مسؤوليتك تجاههما!

اللمسة البيانية الثالثة: "الإِنْسَانَ" - النكرة للتعميم

استخدم الله لفظ "الإِنْسَانَ" نكرة في سياق الإثبات لتعميم الوصية لكل إنسان، مؤمناً كان أو كافراً، مسلماً أو غير مسلم .فالوصية بالوالدين ليست خاصة بالمؤمنين فقط، بل هي وصية إنسانية عامة . لكن المؤمن هو الذي يلتزم بها حق الالتزام.

الرسالة العقلية: حتى الكافر يجب أن يبر والديه .فما بالك بالمؤمن؟ من آمن بالله يجب أن يكون أبر بوالديه من غيره .ولكن مع ضابط: لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق.

اللمسة البيانية الرابعة: "بِوَالِدَيْهِ" - تقديم الوالدين على الأم

قال "بِوَالِدَيْهِ"، ولم يقل "بأبويه" أو "بأمه وأبيه" ."الوالدان" يشمل الأب والأم، ولهما معاً .وقد قدم الأب في اللفظ على الأم، لكن الآيات الأخرى قدمت الأم) كما في سورة لقمان: "وَوَصَّيْنَا الإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ" .(هذا التنوع يدل على أنهما سواء في الحق، لكن للأم مزيد من العناية بسبب مشقتها.

الرسالة التربوية: لا تغتر بمن يقول "الأم أولا ً ثم الأب" .بل كلاهما أولى بالبر والإحسان .ولكن لا حظ مشقة الأم، فلها ثلاثة أرباع البر كما في الحديث: "أُمَّكَ، أُمَّكَ، أُمَّكَ، ثمّ أَبَاكَ".

اللمسة البيانية الخامسة: "حُسْنًا" - نصب على المفعول المطلق

"حُسْنًا" منصوب على المفعول المطلق لفعل محذوف، أي "أحسنوا بهما حسناً" .والحسن: ضد السيء، وهو كل ما يرضي الله والوالدين: القول الحسن، الفعل الحسن، الوجه الحسن، الصلة الحسنة، الدعاء الحسن بعد الموت.

الرسالة التربوية: البر بالوالدين ليس مجرد إطعام وكساء، بل هو "حسن": حسن المعاملة، حسن الكلام، حسن الصحبة، حسن الصبر عليهما في الكبر، حسن الإنفاق، حسن الدعاء لهما بعد موتهما.
ثانياً: "وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ" - الاستثناء الوحيد في طاعة الوالدين

اللمسة البيانية السادسة: "وَإِنْ جَاهَدَاكَ" - المجاهدة من الوالدين

"جَاهَدَاكَ" من الجهاد، وهو بذل الجهد والطاقة .والمجاهدة هنا: بذل الوالدين قصارى جهدهما في إكراه الابن على الشرك .قد يستعملان كل وسائل الضغط: الدموع، العواطف، التهديد بالحرمان، الطرد من البيت، مقاطعة الأحفاد، التشهير، حتى الضرب أحياناً .إنها حرب نفسية وعاطفية عنيفة.

اللمسة البلاغية: استخدام كلمة "جَاهَدَاكَ" بدلا ً من "أمراك" أو "طلبا منك" يدل على شدة الصراع،

وأنه ليس مجرد طلب عابر، بل معركة شرسة تخاض ضد إيمانك.

الرسالة الإيمانية: قد يصل الأمر بأعز الناس إليك إلى أن يحاربوا عقيدتك .استعد لهذا السيناريو .لا تظن أن الشيطان سيأتيك من العدو فقط، بل قد يأتيك من الأقربين.

اللمسة البيانية السابعة: "لِتُشْرِكَ بِي" - غاية المجاهدة

"لِتُشْرِكَ" اللام لام التعليل، أي يبذلان الجهد من أجل أن تشرك بالله .الشرك هو أعظم الذنوب، وهو وضع شيء مع الله في العبادة .وهو الظلم العظيم الذي لا يغفره الله إلا بالتوبة منه في الدنيا.

الرسالة العقدية: الشرك ليس فقط عبادة الأصنام، بل قد يكون بدعاء الأموات، أو الذبح لغير الله، أو النذر لغير الله، أو الاعتقاد بأن هناك من ينفع أو يضر مع الله، أو الاستهانة بأسماء الله وصفاته.

اللمسة البيانية الثامنة: "مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ" - تأكيد جهالة الشرك

"مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ" أي تشرك بي شيئاً لا علم لك به، لا دليل عليه، ولا برهان .فالشرك ليس عليه دليل من عقل ولا نقل .بل كل الأدلة على وحدانية الله .فهو جهل محض.

الرسالة العقلية: كيف تترك دليلا ً يقينيا) توحيد الله (وتتبع شبهة لا دليل عليها) الشرك (لمجرد ضغط عاطفي من والديك؟ هذا هو الاختبار الحقيقي.

اللمسة البيانية التاسعة: تقديم "لِتُشْرِكَ" على "بِي"

قدم الفعل "لِتُشْرِكَ" على متعلقه "بِي" للاهتمام بجرم الشرك نفسه .كأن الله يقول: أهم شيء هو أن الشرك هو الجريمة، ثم أن الشرك بي هو جريمة أعظم.
ثالثاً: "فَلَا تُطِعْهُمَا" - قاعدة الحسم

اللمسة البيانية العاشرة: "فَلَا تُطِعْهُمَا" - الأمر بالعصيان

"فَلَا تُطِعْهُمَا" - الفاء للتعقيب، والناهي "لا" تفيد التحريم .أي إذا وصل الأمر إلى هذا الحد، وجاهداك على الشرك، فلا تطعهم .هذا هو الاستثناء الوحيد في طاعة الوالدين: طاعتهما في غير معصية الله واجبة، وفي معصية الله غير جائزة.

الرسالة التربوية: كثير من الناس يخلطون بين بر الوالدين وطاعتهما .بر الوالدين واجب حتى لو كانا غير مسلمين .أما طاعتهما فهي في المعروف فقط .فلا تطعهما في ترك الصلاة، أو ترك الحجاب، أو شرب الخمر، أو أكل الربا، أو الظلم، أو الكذب .وتبرهما مع ذلك: تخدمهما، تنفق عليهما، تزورهما، تصل رحمهما، تدعو لهما.

تأمل هذه القاعدة الذهبية: "لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق" .هذه القاعدة هي الفارق بين المسلم وغيره.

اللمسة البيانية الحادية عشرة: حذف المفعول به

قال "فَلَا تُطِعْهُمَا" ولم يقل "فلا تطعهما في الشرك" .الحذف للعموم: لا تطعهما في أي شيء يدعوانك إليه من معصية الله، ولو لم يكن شركاً .فالشرك ذكر لأنه أشنع، ثم كل معصية من بعده داخلة في الحكم.

الرسالة العقلية: قاعدة "لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق" شاملة لكل أنواع المعاصي .فلا تطيع و الديك لو أمراك بترك الصلاة، أو أكل الحرام، أو الظلم، أو الغش، أو الكذب، أو قطيعة الرحم .لكن برهما في غير ذلك واجب.
رابعاً: "إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ" - التهديد والوعيد

اللمسة البيانية الثانية عشرة: "إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ" - إفراد المرجعية

"إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ" - الرجوع إلى الله وحده، وليس إلى الأب أو الأم، ولا إلى المال أو الجاه، ولا إلى الحزب أو القبيلة .يوم القيامة، الجميع راجعون إلى الله، وسيحاسب كل إنسان على ما عمل.

الرسالة الإيمانية: هذا تهديد للوالدين اللذين يجاهدان على الشرك: سترجعان إليّ، وسأخبركما بما كنتما تعملان .وهو تسلية للابن المبتلى: اصبر، فالمآل إليّ، وأنا سأجزيك على صبرك وطاعتك لي.

اللمسة البيانية الثالثة عشرة: "فَأُنَبِّئُكُم" - الإخبار بما عملوا

"فَأُنَبِّئُكُم" - الإخبار هنا بمعنى المجازاة والإظهار .أي سأريكم أعمالكم، وأجازيكم عليها .هذا وعيد للوالدين على جهادهما في الشرك، ووعد للابن على صبره.

اللمسة البيانية الرابعة عشرة: "بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ" - صيغة الماضي الدال على الاستمرار

"كُنتُمْ تَعْمَلُونَ" - صيغة الماضي للثبوت، والمضارع للتجدد .أي استمررتم على العمل) السيئ أو الحسن (فترة من الزمن .وسأخبركم بكل تفاصيله.

الرسالة التربوية: لا تخف من ضغوط الوالدين اليوم .فغداً، عند الله، سينكشف كل شيء .سيظهر حقك إذا كنت مظلوماً، وسيظهر إيمانك إذا كنت صادقاً .فاصبر.
خامساً: اللمسات البلاغية الإضافية في الآية

.1التدرج في الخطاب

بدأت الآية بالوصية بحسن الصحبة للوالدين، ثم انتقلت إلى حالة الاستثناء) إن جاهداك(، ثم إلى الحكم) فلا تطعهما(، ثم إلى التهديد) إلي مرجعكم .(هذا التدرج يحقق التوازن بين إكرام الوالدين و الثبات على الدين.

.2استخدام "جَاهَدَاكَ" بدلا ً من "أمراك"

كلمة "جاهدا" تحمل معنى الحرب والمقاتلة .إنها تصور لنا مشهداً عصبياً: الوالدان يستعملان كل أسلحة الضغط العاطفي والنفسي والمادي لإجبار الابن على ترك دينه .هذه ليست مجرد نصيحة، بل حرب شعواء.

.3تقديم الشرك على الإضافة إلى الله

"لِتُشْرِكَ بِي" قدم الشرك على "بي" للاهتمام بقبح الشرك نفسه، ثم أضافه إلى الله لبيان عظم الجريمة.

.4الإتيان ب-"مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ"

هذه الجملة توضح أن الشرك ليس عليه دليل .فكيف تترك الحق اليقيني إلى الباطل المشكوك فيه؟ هذا من أعظم الحمق.

.5الإتيان ب-"إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ" بصيغة الجمع

"مرجعكم" خطاب للوالدين والابن معاً .فكلهم راجعون إلى الله .الأب والأم اللذان يجاهدان على الشرك سيرجعان، والابن الذي يصبر سيرجع .والله سينبئهم بما كانوا يعملون.
سادساً: الربط بين الآية وسياق السورة) مراحل بناء الأمة(

علاقة الآية بالآيات السابقة1) -(4: الابتلاء والتمحيص

الآيات1 -4: ابتلاء وتمحيص عام.
الآية8 : نموذج خاص من الابتلاء، وهو ابتلاء الوالدين.

كأن الله يقول: لقد ابتليتم بأنواع الفتن، ومن أعظمها فتنة الوالدين .فمن صبر على جهاد والديه له على ترك دينه، فقد صبر على أشد أنواع الابتلاء .ومن انهار أمام هذه الفتنة، فقد فشل في أول اختبار.

علاقة الآية بالآيات5 -6: الرجاء والجهاد

الآيات5 -6: رجاء لقاء الله وجهاد في سبيله.

الآية8 : الجهاد الأكبر قد يكون ضد أقرب الناس إليك.

فمن رجا لقاء الله، وجاهد في سبيله، لا بد أن يواجه هذا الموقف الصعب .هل سيثبت؟ هل سيجاهد والديه بالصبر والحكمة، أم سيستسلم لضغوطهما؟

علاقة الآية بالآية7 : تكفير السيئات

الآية7 : وعد بتكفير السيئات والجزاء بأحسن العمل.
الآية8 : من أطاع الله وعصى والديه في الشرك، فإن الله سيكفر عنه سيئاته، ويجزيه أحسن ما عمل.

فمن ترك طاعة والديه امتثالا ً لأمر الله، فالله سيعوضه خيرا.

علاقة الآية بمراحل مالك نبي الثلاث

مرحلة الروح) التأسيس(

في هذه المرحلة، يكون المؤمن غالبا شابا صغيرا، يعيش في مجتمع جاهلي، وأهله على دين الجاهلية . يواجه ضغوطا هائلة من والديه لترك دينه .الآية تعلمه كيف يثبت: لا تطعهما في الشرك، ولكن برهما ب الإحسان .هذا هو أصعب جهاد في مرحلة الروح: جهاد الأهل .من ينجح فيه، تترسخ روحه، ويصبح لبنة صالحة في جدار الأمة.

مرحلة العقل) الازدهار(

في هذه المرحلة، قد يكون المؤمن قد كبر، وأصبح أبا وأما .قد تأتيه فتنة من نوع آخر: أبناؤه يبتعدون عن الدين، أو يطلبون منه أن يتساهل .الآية تذكره: ليس من البر أن تطيع أولادك في معصية الله .بل البر أن تأمرهم بالمعروف وتنهاهم عن المنكر، بالحكمة والموعظة الحسنة.

كما أن الآية تؤسس لقاعدة اجتماعية مهمة: الأسرة المسلمة تقوم على طاعة الله أولا ً، ثم على البر والتراحم .فإذا تعارض الأمران، قدم طاعة الله.

مرحلة الجسد) الأفول(

في هذه المرحلة، قد يغرق المجتمع في المادية والشهوات، وتضعف الروابط الأسرية .الآية تحذر: لا تنسوا وصية الله بوالديكم، ولا تنسوا أن طاعة الله مقدمة على كل شيء .من ترك بر والديه بسبب ملذاته، فقد سقط في مرحلة الجسد .ومن أطاع والديه في معصية الله خوفا من فقدان ميراث أو راحة، فقد انهارت روحه.
سابعا: الرسائل الإيمانية والعقلية والتربوية في الآية

الرسالة الإيمانية الأولى: حب الله يقدم على حب الوالدين

حب الله هو الحب الأول والأعلى .كل الحب دونه .فإذا تعارض حب الوالدين مع حب الله، قدم حب الله .هذا لا يعني قطيعة الوالدين، بل يعني عدم طاعتهما في المعصية، مع الاستمرار في برهما وإحسان الصحبة لهما.

الرسالة الإيمانية الثانية: البر بالوالدين واجب ولو كانا كافرين

لا يسقط بر الوالدين بكفرهما .فما زالا والديك، وما زال لك حق عليهما .تبرهما، تصلهما، تنفق عليهما، تحسن إليهما، تدعو لهما بالهداية .لكن لا تطعهما في الشرك.

الرسالة الإيمانية الثالثة: الصبر على أذى الوالدين من أعظم القربات

إذا آذوك بسبب دينك، فاصبر .أجرك على الله .قال تعالى في سورة لقمان: "وَإِن جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا") لقمان .(15 فمع عدم الطاعة في الشرك، يجب مصاحبتهما بالمعروف .هذا هو التوازن العجيب.

الرسالة العقلية الأولى: تقديم الدليل على العاطفة

قد تستخدم العاطفة كسلاح ضدك .قد تبكي الأم، قد يغضب الأب، قد يهددك بالحرمان .الآية تدعوك إلى تقديم الدليل العقلي) أن الشرك لا دليل عليه (على العاطفة .لا تنخدع بالدموع في ترك الحق.

الرسالة العقلية الثانية: مرجعيتك النهائية إلى الله

قد تشعر بالضياع بين إرضاء والديك وإرضاء ربك .الآية تذكرك: المرجع النهائي إلى الله، وليس إلى و الديك .يوم القيامة، ستسأل عن عملك أنت، لا عن عمل والديك .فلا تضيع آخرتك من أجل رضاهما في معصية الله.

الرسالة التربوية الأولى: علم أولادك قاعدة "لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق"

من أصغرهم، علمهم أن الله أولى بالطاعة من أي أحد .وأنهم إذا أمروا بمعصية الله من أي كان، فعليهم أن يقولوا: "لا أطيعك في معصية الله، ولكن أبرك في غيرها" .هذه القاعدة تحمي عقيدتهم.

الرسالة التربوية الثانية: كن قدوة حسنة لأولادك

إذا أردت أن يطيعك أولادك في الله، فأطع أنت الله أولا ً .وإذا أردت أن يبروك، فبر أنت والديك . القدوة خير من ألف كلمة.

الرسالة التربوية الثالثة: لا تستخدم عواطف أولادك لإجبارهم على معصية الله

بعض الآباء يضغطون على أولادهم لترك الصلاة، أو ترك الحجاب، أو الاختلاط، أو شرب الدخان، أو المشاركة في المنكرات .هذا هو "جهاد" الآباء ضد أولادهم، وهو محرم .لا تكن من الذين يجاهدون أو لادهم على الشرك والمعصية.

الرسالة التربوية الرابعة: إذا كنت مبتلى بوالدين مشركين، فاصبر واحتسب

أنت لست وحدك .كثير من الصحابة مروا بهذا .سعد بن أبي وقاص قالت له أمه: "والله لا آكل ولا أشرب حتى تكفر بمحمد" .فقال: "يا أماه، والله لو كانت لك مئة نفس فخرجت نفساً نفساً، ما تركت ديني هذا" .ثم أنزل الله هذه الآية .فكانت النتيجة: أسلمت أمه بعد ذلك.

فاصبر، عسى الله أن يهدي والديك على يديك.
ثامناً: تطبيقات عملية من الآية في حياتك اليومية

التطبيق الأول: حدد حدود الطاعة

اجلس مع نفسك، وحدد: في أي الأمور أطيع والديّ؟ وفي أي الأمور لا أطيعهما؟ ضع قائمة بالأمور التي قد يطلبانها منك وتكون معصية .واستعد نفسياً لكيفية الرد.

التطبيق الثاني: تعلم فن الرفض المهذب

إذا طلب منك والدك أمراً محرماً، فلا تقل "لا" بجفاء .قل: "أبي الحبيب، أنا أحبك وأحترمك، لكن لا يمكنني أن أعصي الله من أجلك .أرجو أن تفهم .وسأبرك في كل شيء آخر" .هذا الرفض المهذب يخفف من حدة الموقف.

التطبيق الثالث: زد من برك بهما في الحلال

إذا اضطررت إلى عصيانهما في أمر محرم، فزدهما براً في الأمور الحلال .أكثر من خدمتهما، وإنفاق المال عليهما، والدعاء لهما، والزيارة لهما، والهدايا لهما .فهذا يعوضهما، وقد يجعلهما يلينان تجاه دينك.

التطبيق الرابع: استشر أهل العلم والعقل

إذا كنت في حيرة من أمرك، ولا تدري أهذا المطلوب معصية أم لا، فاستشر أهل العلم .لا تترك دينك للعواطف .واحرص على أن يكون قرارك مبنيًا على علم، لا على غضب أو ضغط.

التطبيق الخامس: أدعُ لهما بالهداية

الدعاء سلاح المؤمن .أدعُ الله لوالديك بالهداية .فقد يهديهما الله على يديك .قال تعالى: "إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ") القصص .(56 فأنت لا تملك هدايتهما، لكن الله يملكها .فاطلبها منه.

التطبيق السادس: تذكر مرجعيتك إلى الله

عندما يشتد الضغط، تذكر: "إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ" .هذا اليوم آتٍ لا محالة .فاصبر قليلا ً، فالعاقبة للمتقين.
تاسعاً: أسئلة للمراجعة الذاتية

اسأل نفسك الآن بصدق:

.1هل والداي على دين الإسلام؟ إن كانا مسلمين، فالحمد لله .وإن كانا غير مسلمين، فكيف أبرهما؟ هل أزورهما وأتصدق عنهما وأدعو لهما؟
.2هل والداي يطلبان مني شيئاً محرماً؟ مثلا ً: ترك الصلاة، أو عدم الحجاب، أو شرب الدخان، أو أكل الربا، أو ظلم شخص؟ كيف أتصرف؟
.3هل أستطيع أن أرفض طلبهما برفق ولين؟ أم أن ردودي فظة وجافة تزيد الوضع سوءاً؟
.4هل أزيد من برهما في الحلال لأعوضهما عن عدم طاعتهما في الحرام؟
.5هل أدعو لهما بالهداية باستمرار؟ أم يئست منهما؟
.6هل استحضر يوم القيامة عندما أتعامل معهما؟ هل أتذكر أني سأقف بين يدي الله وأنا مجازى على عملي؟
.7ما هي الخطوة العملية التي سأتخذها اليوم لتحسين علاقتي بوالديّ في حدود طاعة الله؟
عاشراً: الخاتمة - أنت والمشهد الأخير

أخي، أختي...

تخيل أنك وقفت يوم القيامة .رأيت والديك في موقف عصيب .تريد أن تشفع لهما، فلا تستطيع . تريد أن تتحمل عنهما العذاب، فلا تقبل .تسمع صوتاً: "إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ".

فتبكي .تقول: "يا ليتني دعوت لهما أكثر، يا ليتني صبرت على أذاهما أكثر، يا ليتني بررتهما أحسن مما بررت".

ثم تسمع نداء آخر: "أين الذين أطاعوني وبروا والديهم؟" فتتقدم .ويدخلونك الجنة بفضل الله.

أما إذا كنت ممن أطاع والديه في معصية الله، فسترى يوم القيامة ندمك .ستقول: "يا ليتني عصيتهما في الحرام وأطعتهما في الحلال .يا ليتني قدمت ربي عليهما".

فاختر الآن.

الآية تقدم لك المعادلة الواضحة:

· بر الوالدين واجب في الحلال.
· طاعتهما في الحرام محرمة.
· جهادهما على الشرك لا يُطاع.
· مرجعكم جميعاً إلى الله.

فكن ممن يفهم هذه المعادلة، ويعيشها، ويطبقها.

وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا ۖ وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۚ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ
المبحث السابع
تأملات في الآية التاسعة من سورة العنكبوت: "وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ"

الآن، بعد أن هزتك الآية الثامنة بخطورة فتنة الوالدين، وبعد أن وضعت قدميك على أول الطريق الشائك في الابتلاء، تأتي هذه الآية التاسعة كتاج على رأس المؤمن الصابر، كوسام شرف لمن اجتاز ا لامتحان، كباب يفتح على مصراعيه لدخول قافلة الصالحين عبر التاريخ.

تخيل معي مشهداً: أنت شاب مسلم في مكة، والدك يضربك، أمك تبكي بحرقة، كل أقاربك يهجرونك، المجتمع كله يستهزئ بك .تخرج من بيتك مثقلا ً بالجراح، تتجه إلى جبل الصفا أو إلى دار الأرقم بن أبي الأرقم، تجد مجموعة من المستضعفين مثل بلال وعمار وصهيب ...تجلس معهم، تشعر أنك لست وحدك .ثم يتلو أحدهم هذه الآية: "وَالذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنّهُمْ فِي الصّالِحِينَ".

تسكن روحك، تدمع عيناك، تشعر أنك لست غريباً، بل أنك في قافلة تمتد من آدم إلى محمد، قافلة الصالحين، الذين صبروا على الأذى، فدخلهم الله في زمرة الأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين.

هذه الآية ليست مجرد وعد، بل هي انتماء، هي هوية، هي جنسية روحية تمنحك العضوية في أرقى نادي في الكون: نادي الصالحين.

دعنا نغوص معاً في بحر هذه الآية العظيمة، ونستخرج لآلئها البيانية، ونعيش رسائلها التربوية والإيمانية، ونرى كيف تتناغم مع مراحل بناء الأمة عند مالك نبي.
أولا ً: المشهد الافتتاحي - "وَالذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصّالِحَاتِ"

اللمسة البيانية الأولى: العطف بالواو - استمرار للبشارة

تبدأ الآية بـ "وَالذِينَ"، والواو هنا للعطف على الآية السابعة التي وعدت بتكفير السيئات والجزاء بأحسن العمل .ثم تعطف عليها هذه الآية بوعد جديد: الإدخال في الصالحين .كأن الله يقول: ليس هذا فقط، بل هناك المزيد .تكفير السيئات، والجزاء بأحسن العمل، ثم الإدخال في الصالحين.

الرسالة البلاغية: هذا التدرج في الوعد يبين كرم الله العظيم .كلما أعطى، زاد .كلما وعد، ضاعف .فالمؤمن لا يخسر أبداً .يخرج من الدنيا بكل هذا الخير.

اللمسة البيانية الثانية: تكرار "آمَنُوا وَعَمِلُوا الصّالِحَاتِ" للتأكيد

كررت السورة هذا التركيب في الآية السابعة) وَالذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصّالِحَاتِ (وفي هذه الآية .هذا التكرار ليس عبثاً، بل للتأكيد على أن الإيمان وحده لا يكفي، بل لا بد من العمل الصالح .وأن العمل الصالح وحده لا ينفع بلا إيمان .وأنهما متلازمان.

الرسالة الإيمانية: لا تظن أن مجرد الإيمان في القلب يكفي .لابد أن يترجم إلى عمل .ولا تظن أن العمل بلا إيمان ينفع .لابد أن يكون الإيمان هو الباعث.

اللمسة البيانية الثالثة: تعريف "الصّالِحَاتِ" بـ"أل" الجنسية

"الصّالِحَاتِ" معرفة بـ"أل" للجنس، فتشمل كل أنواع العمل الصالح: الصلاة، الزكاة، الصيام، الحج، الجهاد، البر بالوالدين، صلة الرحم، الصدق، الأمانة، العدل، الإحسان، الأمر بالمعروف، النهي عن المنكر ... كل عمل صالح، صغيراً كان أم كبيراً، ظاهراً أم خفياً.

الرسالة التربوية: لا تحتقر من العمل الصالح شيئاً .فرب عمل صغير يدخله الله به في عداد الصالحين . قال النبي ﷺ: "اتقوا النارَ وَلوْ بِشِقّ تمْرَةٍ") البخاري.(
ثانياً: "لَنُدْخِلَنّهُمْ فِي الصّالِحِينَ" - الوعد العظيم

اللمسة البيانية الرابعة: اللام والنون للتوكيد

"لَنُدْخِلَنّهُمْ" - دخلت اللام المزحلقة والنون الثقيلة للتوكيد .إنه توكيد بعد توكيد .لماذا؟ لأن هذا الوعد عظيم جداً، والنفس قد تستبعده، أو ترى نفسها غير أهل له .فجاء التوكيد ليزيل كل شك، وليقطع كل تردد .والله يقسم: والله لأدخلنهم في الصالحين.

اللمسة البيانية الخامسة: "نُدْخِلُ" - الإدخال بمعنى الضم والتشريف

"نُدْخِلَ" من الإدخال، وهو جعلهم داخلين معهم، مشاركين لهم في المنزلة والمكانة .ليس مجرد أن يكونوا قريبين منهم، بل أن يكونوا منهم، في زمرتهم، تحت لوائهم .إنه تشريف عظيم، ورفعة كبيرة.

الرسالة الإيمانية: هل تتخيل أن تكون مع النبيين والصديقين والشهداء في الجنة؟ هل تتخيل أن

تجلس مع إبراهيم وموسى وعيسى ومحمد عليهم السلام؟ هذا ما وعد الله به من آمن وعمل صالحاً . إنه حلم يتحقق، وأمنية تبلغ.

اللمسة البيانية السادسة: "فِي الصّالِحِينَ" - الدخول في الزمرة

"الصّالِحِينَ" جمع صالح، وهو من صلح عمله وطابت سريرته واستقام منهجه .الصالحون هم أهل الله وخاصته .وهم درجات: الأنبياء أعلى الصالحين، ثم الصديقون، ثم الشهداء، ثم الصالحون من غير هؤلا ء .والآية وعدت بإدخالهم في الصالحين، أي في زمرتهم، وإن اختلفت الدرجات.

الرسالة العقلية: الصلاح ليس حكراً على زمن معين، أو جنس معين، أو قوم معينين .كل من آمن وعمل صالحاً، في أي زمان وأي مكان، فهو من الصالحين .والله يدخله في زمرتهم .هذا يمنح الأمل لكل مسلم في أي عصر.

اللمسة البيانية السابعة: حذف المفعول الثاني

"لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصّالِحِينَ" - الإدخال يتعدى إلى مفعولين: أدخلت زيداً الدار .لكن هنا حذف المفعول الثاني، أي "لندخلنهم] في الجنة أو في منازلهم [في الصالحين" .الحذف للإيجاز والإطلاق، وليشمل كل معاني الإدخال والتشريف.

الرسالة البلاغية: هذا الحذف يفتح الباب للتأمل: في ماذا سيدخلون؟ في الجنة مع الصالحين، في الدرجات العلى مع الصالحين، في القرب من الله مع الصالحين، في المرافقة مع الصالحين .كلها معانٍ عظيمة.

ثالثاً: اللمسات البلاغية الإضافية في الآية

.1الإتيان بـ "الذِينَ" الموصولة

استخدم اسم الموصول "الذِينَ" للإشارة إلى أنهم معروفون بصفاتهم: الإيمان والعمل الصالح .كأنهم مشهورون بهاتين الصفتين، معروفون بين أهل السماء والأرض بها.

.2تقديم الإيمان على العمل الصالح

كرر التقديم ليؤكد أن الإيمان هو الأساس .فكل عمل صالح من غير إيمان فهو هباء منثور .والإيمان بدون عمل صالح هو شجرة بلا ثمر.

.3الإتيان ب "لَنُدْخِلَنَّهُمْ" دون ذكر جزاء آخر

هذا يدل على أن الإدخال في الصالحين هو أعظم جزاء .لأنه ليس مجرد نعيم مادي، بل هو تشريف ورفعة ومكانة ومرافقة لأحباب الله.

.4التنكير في "صَالِحِينَ"

"الصّالِحِينَ" معرفة بـ"أل"، لكنها في الأصل نكرة ثم عرفت للعموم .فهي تشمل كل صالح من أول الخلق إلى آخره .هذا العموم يريح قلب المؤمن: لست وحدك، أنت مع قافلة تمتد عبر الزمن.

رابعاً: تفسير "الصالحين" في سياق الآية

من هم الصالحون الذين وعد الله بإدخال المؤمنين العاملين فيهم؟

.1الأنبياء عليهم السلام

أعلى درجات الصالحين .قال تعالى: "أُولَئِكَ الذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَبِيِّينَ") مريم .(58 فمن آمن وعمل صالحاً، يدخل في زمرتهم، وإن لم يبلغ درجتهم.

.2الصديقون

هم الذين صدقوا الله في أقوالهم وأفعالهم، وبلغوا درجة عالية من الإيمان واليقين .كأبي بكر الصديق رضي الله عنه.

.3الشهداء

الذين قتلوا في سبيل الله، أو ماتوا على الإيمان وهم مجاهدون .قال تعالى: "وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ" - وقد فسرها بعض السلف بأنهم يدخلون مع الشهداء في درجتهم.

.4الصالحون من غير هؤلاء

وهم الذين صلحت قلوبهم وأعمالهم، وأقاموا شرع الله، واتقوه حق تقاته .وهم درجات بحسب أعمالهم.

الرسالة الإيمانية: هذا الوعد يجعلك تشعر بأنك لست وحدك .أنت في صحبة عظيمة .كلما شعرت بـ الوحدة أو الغربة، تذكر أنك مع الصالحين عبر التاريخ .هذا يمنحك القوة على الاستمرار.
خامساً: الربط بين الآية وسياق السورة) مراحل بناء الأمة(

علاقة الآية بالآيات السابقة1) -(4: الابتلاء والتمحيص

الآيات1 -4: ابتلاء وامتحان وفتنة.
الآية9 : نتيجة الابتلاء والامتحان: الدخول في الصالحين.

كأن الله يقول: لقد ابتليتم، فصبرتم .لقد امتحنتم، فثبتم .والآن، هذا هو الثواب: أن تصبحوا من الصالحين، تدخلون في زمرتهم، ترافقونهم في الجنة.

الدرس: الابتلاء ليس عقاباً، بل هو مفتاح الدخول إلى نادي الصالحين .فاشكر الله على البلاء الذي رفع درجتك.

علاقة الآية بالآيات5 -6: الرجاء والجهاد

الآيات5 -6: رجاء لقاء الله وجهاد في سبيله.
الآية9 : ثمرة الرجاء والجهاد: الدخول في الصالحين.

فمن رجا لقاء الله فجاهد، استحق أن يكون مع الصالحين.

الدرس: الرجاء يحرك، والجهاد ينفذ، والنتيجة: الرفقة الصالحة في الآخرة.

علاقة الآية بالآية7 : تكفير السيئات والجزاء بأحسن العمل

الآية7 : تكفير السيئات والجزاء بأحسن العمل.
الآية9 : زيادة على ذلك: الإدخال في الصالحين.

فالله لا يكتفي بتطهيرك من الذنوب ومضاعفة حسناتك، بل يزيدك تشريفاً ورفعة بأن يجعلك من زمرة الصالحين.

الدرس: كرم الله لا حدود له .كلما أعطى، زاد .فلا تيأس من فضله.

علاقة الآية بالآية8 : فتنة الوالدين

الآية8 : فتنة الوالدين، ووجوب عدم طاعتهما في الشرك مع برهما.
الآية9 : لمن صبر على فتنة الوالدين وثبت على إيمانه، وبرهما في الحلال، وعصاهما في الحرام، فإن الله يدخله في الصالحين.

الدرس: من ترك طاعة والديه في الشرك طاعة لله، عوضه الله بأن يكون مع الصالحين، الذين هم خير الآباء والأمهات الروحيين.

علاقة الآية بمراحل مالك نبي الثلاث

مرحلة الروح) التأسيس(

في هذه المرحلة، يكون المؤمن غالباً وحيداً، غريباً، مطروداً من أهله ومجتمعه .يشعر بالعزلة والوحدة . هذه الآية تبشره: أنت لست وحدك .أنت مع الصالحين .رفقاؤك ليسوا من تخلى عنك، بل هم الأنبياء والصديقون والشهداء .هذه البشارة تمنحه القوة على تحمل الوحدة والغربة.

تأمل: المؤمن في مكة كان وحيداً في بيته بين أهله المشركين .لكنه كان مع الصالحين روحاً .كان مع إبراهيم الذي خرج من بيته وهاجر، وكان مع نوح الذي صبر 950 سنة، وكان مع محمد ﷺ الذي قاطعه أهله .هذه الرفقة الروحية هي ما جعله يصمد.

مرحلة العقل) الازدهار(

في هذه المرحلة، قد يشعر المؤمن بالافتخار بكثرة أتباعه، أو بقوته المادية، أو بمنصبه .الآية تذكره: العبرة ليست بكثرة الأتباع، بل بأن تكون من الصالحين .العبرة بجودة الإيمان والعمل، لا بكميتهما .فإذا ازدهرت الأمة، فلا تنسَ أن هدفك هو أن تكون من الصالحين، لا من المترفين.

كما أن الآية تمنع الغرور: قد تكون زعيماً أو عالماً أو غنياً، لكنك لن تدخل في الصالحين إلا بإيمانك وعملك، لا بمنصبك ومالك.

مرحلة الجسد) الأفول(

في هذه المرحلة، قد تغرق الأمة في المادية والشهوات، وتنسى الآخرة .الآية تحذر: لا تنسوا أن الغاية هي الدخول في الصالحين .فلا تنشغلوا بالهو واللعب عن العمل الصالح .فمن لم يعمل صالحاً في مرحلة القوة، لن يكون من الصالحين في الآخرة.

كما أن الآية تعطي أملا ً: حتى لو كانت الأمة في مرحلة أفول، فالفرد يمكنه أن يكون من الصالحين .فلا تتوقف على حال الأمة، وابحث عن صلاحك أنت.
سادساً: الرسائل الإيمانية والعقلية والتربوية في الآية

الرسالة الإيمانية الأولى: الدخول في الصالحين ليس بالأنساب، بل بالأعمال

قد يظن بعض الناس أنهم صالحون لأنهم من آل البيت، أو من قبيلة معينة، أو من عائلة متدينة .الآ ية تحطم هذا الوهم: لن يدخل في الصالحين إلا من آمن وعمل صالحاً .لا ينفعك نسبك إذا كان عملك فاسداً .ولا يضرك جهل أهلك إذا كنت أنت صالحاً.

تأمل: نوح عليه السلام، مع أنه نبي، لم ينفعه ابنه لأنه لم يعمل صالحاً .وفرعون، مع أنه طاغية، لم يضر إيمانه امرأة فرعون أنها عملت صالحاً.

الرسالة الإيمانية الثانية: الرفقة الصالحة هدف عظيم

من أعظم نعم الجنة الرفقة الصالحة .قال تعالى: "وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاء وَالصَّالِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا") النساء .(69 هذه الآية تبشرك: ستجلس مع من تحب، مع من تمنيت رؤيتهم .فاستعد.

الرسالة الإيمانية الثالثة: الصلاح يورث المحبة بين الناس

قال النبي ﷺ: "إِذَا أَحَبَّ اللهُ عَبْدًا نَادَى جِبْرِيلَ: إِنَّ اللهَ يُحِبُّ فُلَانًا فَأَحِبَّهُ، فَيُحِبُّهُ جِبْرِيلُ، ثُمَّ يُنَادِي فِي السَّمَاءِ: إِنَّ اللهَ يُحِبُّ فُلَانًا فَأَحِبُّوهُ، فَيُحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ، ثُمَّ يُوضَعُ لَهُ القَبُولُ فِي الأَرْضِ") مسلم .(ف الصالحون محبوبون في الأرض والسماء .فكن منهم.

الرسالة العقلية الأولى: الدخول في الصالحين تدرج وليس قفزة

الصلاح ليس حدثاً ليلة واحدة، بل هو عملية تراكمية .كل يوم تزيد صلاحاً، وكل عمل صالح يرفع درجتك .لا تيأس إن لم تصل إلى درجة الصالحين بين ليلة وضحاها .استمر، وستصل.

الرسالة العقلية الثانية: الصالحون ليسوا معصومين

الصالحون يخطئون، لكنهم يتوبون .يعصون، لكنهم يستغفرون .يسقطون، لكنهم ينهضون .لا تظن أن الصلاح يعني العصمة .بل الصلاح هو التوبة بعد الذنب، والاستمرار بعد السقوط.

الرسالة التربوية الأولى: اغرس في أولادك حب الصالحين

عرف أولادك بسيرة الصالحين: الأنبياء، الصحابة، التابعين، العلماء، الشهداء .اجعلهم قدوة لهم .فمن أحب قوماً كان معهم .ومن تشبه بقوم كان منهم.

الرسالة التربوية الثانية: صحبة الصالحين في الدنيا طريق إلى الصلاح

من أراد أن يكون من الصالحين في الآخرة، فعليه أن يصحب الصالحين في الدنيا .قال النبي ﷺ: "مَثَلُ الجَلِيسِ الصَّالِحِ وَالجَلِيسِ السَّوْءِ كَمَثَلِ صَاحِبِ المِسْكِ وَكِيرِ الحَدَّادِ") البخاري .(فاختر جليسك.

الرسالة التربوية الثالثة: لا تحقر نفسك

قد ترى نفسك صغيراً ضعيفاً فقيراً، لكن الله يرى إيمانك وعملك الصالح .وقد تدخلك هذه الأعمال في عداد الصالحين، وتكون مع الأنبياء والشهداء في الجنة .فلا تحقر نفسك.

الرسالة التربوية الرابعة: الصلاح ليس حكراً على الكبار

الصغار يمكن أن يكونوا من الصالحين .الغلام الذي قتله الخضر كان صالحاً) وكان أبواه مؤمنين .(يحيى بن زكريا أوتي الحكم صبياً .فلا تهمل تربية أولادك على الصلاح من صغرهم.
سابعاً: تطبيقات عملية من الآية في حياتك اليومية

التطبيق الأول: اكتب اسمك في قائمة الصالحين

كل يوم، عندما تعمل عملا ً صالحاً، تخيل أن الله يكتب اسمك في قائمة الصالحين .هذا التخيل سيمنحك دافعاً للاستمرار .قل لنفسك: "أنا الآن أزداد صلاحاً، وأقترب من رفقة الأنبياء".

التطبيق الثاني: اقرأ سيرة الصالحين يومياً

خصص وقتاً يومياً، ولو 10 دقائق، لقراءة سيرة نبي أو صحابي أو عالم صالح .تعلم من صبرهم، من علمهم، من جهادهم، من أخلاقهم .هذه القراءة ستزرع في نفسك حب الصلاح.

التطبيق الثالث: اختر رفيقاً صالحاً في الدنيا

انظر إلى من تصاحب .هل هم صالحون؟ إن لم تجد، فابحث .وإن وجدت، فاحمد الله .الرفيق الصالح هو من يدلك على الخير، ويعينك عليه، ويذكرك إذا نسيت، ويشد من أزرك إذا ضعفت.

التطبيق الرابع: لا تيأس من نفسك

قد تشعر أنك لست صالحاً بما فيه الكفاية .لا تيأس .فالصلاح رحلة، وليس محطة .كل يوم تب فيه إلى الله، وتعمل صالحاً، فأنت تزداد صلاحاً .قال النبي ﷺ: "كُلُّ بَنِي آدَمَ خَطَّاءٌ، وَخَيْرُ الخَطَّائِينَ التَّوَّابُونَ") الترمذي.(

التطبيق الخامس: استحضر نعمة الرفقة الصالحة في الجنة

عندما تمر بضيق أو ألم، تذكر أنك ستكون مع الصالحين في الجنة .هذه الصورة ستخفف عنك الألم، وتمنحك الصبر .تخيل نفسك جالساً مع إبراهيم وموسى ومحمد، تتبادلون الحديث، وتتمتعون بنعيم الجنة.

التطبيق السادس: ادعُ الله أن يجعلك من الصالحين

قال إبراهيم عليه السلام: "وَاجْعَلْنِي مِنَ الصَّالِحِينَ") الشعراء .(83 وهذا الدعاء من أفضل الأدعية .فادعُ به كل يوم .اللهم اجعلني من الصالحين، وأدخلني في زمرتهم، وارزقني رفقتهم في الجنة.
ثامناً: أسئلة للمراجعة الذاتية

اسأل نفسك الآن بصدق:

.1هل أنا من "الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ"؟ بمعنى: هل إيماني يحركني للعمل؟ وهل عملي نابع من إيماني؟
.2هل أتمنى أن أكون من الصالحين؟ أم أن أملي متعلق بالدنيا فقط؟
.3ما هو العمل الصالح الذي يمكنني أن أبدؤه اليوم لأقترب من الصالحين؟) حدد هدفاً واحداً(
.4من هم الصالحون الذين أتأسى بهم في حياتي؟ هل هم أحياء أم أموات؟ كيف أستفيد من سيرتهم؟
.5هل أصاحب الصالحين في الدنيا؟ أم أن صحبتي مع الغافلين والمسيئين؟
.6هل أدعو الله أن يجعلني من الصالحين؟ أم أني أغفلت هذا الدعاء؟
.7كيف أستحضر وعد الله "لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ" عندما أمر بضيق أو فتنة؟
تاسعاً: الخاتمة - أنت والمشهد الأخير

أخي، أختي...

تخيل أنك وقفت يوم القيامة .نظرت حولك .رأيت صفوفاً من البشر .في صف الأنبياء: آدم، نوح، إبراهيم، موسى، عيسى، محمد ﷺ .في صف الصديقين: أبو بكر، وغيره .في صف الشهداء: حمزة، ومصعب بن عمير، وغيرهم .في صف الصالحين: أعداد لا تحصى.

ثم تسمع صوتاً يناديك: "يا فلان، تعال، أنت مع هؤلاء" .فتدخل الصف .تشعر بالفخر والسعادة .تنسى كل تعب الدنيا، كل ألم الابتلاء، كل ضغط الوالدين، كل فتنة المال والجاه.

تسأل: كيف صرت معهم؟

فيقال لك: بفضل الله، ثم بإيمانك وعملك الصالح .لقد آمنت بي في الدنيا، وعملت الصالحات، فأدخلتك في الصالحين.

فتبكي من الفرح، وتقول: "الحَمْدُ لِلهِ الَّذي هَدَانا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللهُ") الأعراف.(43

هذه هي النهاية التي تنتظر من آمن وعمل صالحاً .فهل أنت مستعد؟

تذكر: الطريق طويل، وفيه أشواك، وفيه فتن، وفيه جهاد .لكن النهاية ...النهاية هي هذه الآية .الدخول في الصالحين .الرفقة مع الأنبياء .القرب من الله.

فاصبر، واثبت، وآمن، واعمل صالحاً .وانتظر وعد الله.

وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ
المبحث الثامن
تأملات في الآية العاشرة من سورة العنكبوت: "وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللهِ..."
الآن، وبعد أن سمعت وعود الله للمؤمنين الصادقين: تكفير السيئات، والجزاء بأحسن العمل، والإدخال في الصالحين ...تأتي هذه الآية كصاعق جديد، كجرس إنذار يعيدك إلى أرض الواقع القاسي .إنها تعود لتؤكد مرة أخرى: لا إسلام مجاني، لا بناء بلا تضحيات، لا أمة بلا فلتره.

تخيل معي مشهداً: في مكة، بين المستضعفين، كان هناك أناس يقولون بألسنتهم "آمنا" ولكن قلوبهم لم تطمئن بعد .فلما جاء الأذى – وهو حتمي في طريق الإيمان – انقلبوا على أعقابهم، وجعلوا فتنة الناس كعذاب الله .بل كان منهم من يتربص بالمسلمين، فإذا جاء النصر قال: "إنا كنا معكم".

هذه الآية تصف لنا النوع الثاني من الناس بعد الذين آمنوا وعملوا الصالحات .إنها تصف المنافقين، أو ضعفاء الإيمان، أو الذين في قلوبهم مرض .إنها تصف من يريد الإسلام بلا ثمن، والجنة بلا نار، و النصر بلا صبر.

هذه الآية تعيد تأكيد سنة التغيير التي أعلنتها الآية الثانية: "أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ" .والآن، بعد أن شرح الله نماذج الناجحين) الصادقين، المجاهدين، الصالحين(، يشرح لنا نماذج الراسبين، الذين لم يتحملوا الامتحان.

دعنا نغوص معاً في بحر هذه الآية العظيمة، ونستخرج دروسها في بناء الأمة وتجديد الروح.
أولا ً: المشهد الافتتاحي - "وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ"

اللمسة البيانية الأولى: "وَمِنَ النَّاسِ" - التبعيض والتقسيم

تبدأ الآية بـ "وَمِنَ النَّاسِ"، وهذا التبعيض يفيد أن هناك أصنافاً من الناس .الآيات السابقة تحدثت عن صنف المؤمنين الصادقين الذين آمنوا وعملوا الصالحات .وهذه الآية تنتقل إلى صنف آخر: صنف المنافقين أو ضعاف الإيمان الذين يقولون آمنا بألسنتهم، لكن قلوبهم خاوية.

الرسالة البلاغية: هذا التقسيم يبين أن الناس ليسوا سواء .هناك صادق وهناك كاذب .هناك ثابت وهناك متردد .هناك من يتحمل الأذى وهناك من ينهار .وسيميز الله بينهم يوم الامتحان.

اللمسة البيانية الثانية: "يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ" - القول دون الفعل

استخدم الفعل "يَقُولُ"، ولم يقل "آمن" .القول هنا مجرد كلام باللسان، دون تصديق بالقلب، أو عمل بـ الجوارح .إنه إيمان معلن، لكنه إيمان ضعيف أو منافق .إنهم يقولونها خشية السيف، أو رغبة في المال، أو تبعاً للآباء، أو خوفاً من المجتمع.

الرسالة الإيمانية: كم من الناس اليوم يقولون "آمنت بالله" ولكن قلوبهم معلقة بالدنيا؟ كم من الناس يصلون ويصومون، لكنهم إذا امتحنوا في أموالهم أو أولادهم أو أهليهم، ارتدوا على أعقابهم؟ هذه الآ ية تحذرنا من أن نكون من هؤلاء.

اللمسة البيانية الثالثة: "بِاللَّهِ" - الإيمان بالله وحده

أضاف الإيمان إلى اسم الجلالة "الله" ليشمل كل ما يجب الإيمان به: الإيمان بوجوده، ووحدانيته، وصفاته، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره .لكن هؤلاء يقولونها بألسنتهم، وليس في قلوبهم حقيقة هذا الإيمان.
ثانياً: "فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ" - لحظة الحقيقة

اللمسة البيانية الرابعة: "فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ" - الأذى هو الامتحان

"أُوذِيَ" فعل ماضٍ مبني للمجهول، أي وقع عليه الأذى من الناس .والأذى يشمل: التعذيب، الضرب، السجن، الطرد، الهجرة، مصادرة المال، تعذيب الأهل، التهديد، الإهانة، السخرية .و "فِي اللَّهِ" أي بسبب إيمانه بالله، أو بسبب إظهاره دين الله.

اللمسة البيانية: قدّم الجار والمجرور "فِي اللَّهِ" على الفعل؟ لا، الفعل "أُوذِيَ" ثم "فِي اللَّهِ" .هذا يدل على أن سبب الأذى هو الله، أي أن الأذى وقع بسبب الله .وهذا من أعظم أنواع الابتلاء: أن تؤذى في ذات الله.

الرسالة التربوية: هذه هي سنة التغيير التي لا تتخلف .من أراد أن يسلك سبيل الإيمان، فعليه أن يستعد للأذى .الأذى ليس عارضاً، بل هو سنة ماضية .قال تعالى: "أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا") البقرة.(214

اللمسة البيانية الخامسة: "جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ" - الخلط العظيم

"جَعَلَ" أي صيّر واعتقد .."فِتْنَةَ النَّاسِ" أي أذاهم وامتحانهم ."كَعَذَابِ اللَّهِ" أي مثل عذاب الله في شدته، أو جعل أذى الناس مساوياً لعذاب الله في التأثير، فخاف من أذى الناس كما يخاف من عذاب الله، بل قدّمه عليه.

هذا الصنف من الناس يخلط بين الأمور .يظن أن أذى الناس هو النهاية، فيخاف منهم أكثر مما يخاف من الله .وعندما يشتد الابتلاء، يرتد عن دينه ليرضي الناس، ويهرب من أذاهم، متناسياً أن عذاب الله أشد وأبقى.

الرسالة العقدية: من علامات ضعف الإيمان: تقديم خوف الناس على خوف الله .قال النبي ﷺ: "مَنْ أَشْرَكَ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ" لكن هنا ليس شركاً بالعبادة، بل شركاً في الخوف .فمن خاف الناس أكثر من الله، فقد أشرك بهم.

الرسالة التربوية: هذه الآية تؤكد مرة أخرى: لا إسلام مجاني .الأذى هو الطريق .فمن أراد أن يسلك سبيل التغيير، فعليه أن يستعد للأذى النفسي والجسدي والاجتماعي والاقتصادي .هذا هو الثمن .فهل أنت مستعد؟

ثالثاً: "وَلَئِن جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ" - انتهازية المنافقين

اللمسة البيانية السادسة: "وَلَئِن جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ" - الشرط والجزاء

"لَئِن" أداة قسم وشرط .أي والله لئن جاء نصر من ربك ."نَصْرٌ" نكرة للتعظيم والتفخيم، أي نصر عظيم ."مِّن رَّبِّكَ" النصر من عند الله وحده، وليس من كثرة عدد أو عدة.

هذا النصر هو ما وعد الله به المؤمنين: الفتح والتمكين .في السورة، قد يكون النصر المقصود هو فتح مكة، أو النصر في غزوة بدر، أو أي نصر يمنحه الله للمؤمنين.

اللمسة البيانية السابعة: "لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ" - ادعاء الانتماء بعد النصر

"لَيَقُولُنَّ" جواب القسم، مؤكد باللام والنون .يقولون بألسنتهم: "إنا كنا معكم" .أي كنا معكم في الإيمان، وفي السراء والضراء، وفي السر والعلن .لكنهم كاذبون .لم يكونوا معهم، بل كانوا مع المشركين، أو على الحياد، أو في بيوتهم خائفين.

هذه هي صفة المنافقين: في الشدة يتخلى عن المؤمنين، وفي الرخاء يدعي الانتماء .قال تعالى: "يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ") التوبة.(74

الرسالة التربوية: هذا النوع من الناس موجود في كل زمان .تراهم في أوقات الضعف يتنكرون للإسلا م، وفي أوقات القوة يتسابقون إلى المساجد والمجالس .اختبار الإيمان الحقيقي هو في الشدة، وليس في الرخاء.

رابعاً: "أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ" - خاتمة الحسم

اللمسة البيانية الثامنة: "أَوَلَيْسَ اللَّهُ" - الاستفهام التقريري

"أَوَلَيْسَ اللَّهُ" الهمزة للاستفهام التقريري، والواو للعطف .أي: أليس الله بأعلم؟ بلى، إنه أعلم .هذا الا ستفهام يفيد التوبيخ والتقرير .يوبخ الله المنافقين على ادعائهم ما ليس في قلوبهم، ويقرر أن الله يعلم خفاياهم.

اللمسة البيانية التاسعة: "بِأَعْلَمَ" - صيغة التفضيل

"بِأَعْلَمَ" صيغة تفضيل تفيد أن علم الله فوق كل علم، وأنه لا يخفى عليه شيء .فهو أعلم بما في الصدور من أي مخلوق، ومن المنافقين أنفسهم.

اللمسة البيانية العاشرة: "بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ" - العموم والشمول

"الصُّدُورِ" جمع صدر، وهو موضع الأسرار والخفايا ."الْعَالَمِينَ" كل الخلق: الإنس والجن، المؤمن والكافر، المنافق والصادق .فالله يعلم ما في صدور العالمين جميعاً .فلا يخفى عليه نفاق المنافق، ولا صدق الصادق.

الرسالة الإيمانية: هذه الآية تطمئن المؤمن: الله يعلم ما في صدرك من صدق وإخلاص، وسيجزيك عليه .وتهدد المنافق: الله يعلم ما في صدرك من كفر ونفاق، وسيفضحك .فلا تحاول أن تخدع الله، فهو أعلم بما تخفي.

خامساً: اللمسات البلاغية الإضافية في الآية

1.التدرج في وصف المنافق

بدأت الآية بوصفهم بأنهم "يقولون آمنا") قول باللسان(، ثم ذكرت رد فعلهم عند الأذى) جعل فتنة الناس كعذاب الله(، ثم ذكرت انتهازيتهم عند النصر) ليقولن إنا كنا معكم .(هذا التدرج يرسم صورة كاملة للمنافق.

.2استخدام "أوذِيَ" المبني للمجهول

الإتيان بالفعل مبنيًا للمجهول) أوذي (يفيد أن الأذى واقع به، دون تحديد الفاعل .ليشمل كل من يؤذيه: الأهل، الأقارب، المجتمع، الحكام .كما يفيد أن المؤمن ليس هو الذي يبحث عن الأذى، بل الأذى يأتيه.

.3تشبيه فتنة الناس بعذاب الله

"جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ" - هذا تشبيه يدل على المبالغة في الخوف من الناس .فالمؤمن الصادق يخاف الله، أما هذا المنافق فيخاف الناس كخوفه من الله، بل أكثر.

.4حذف جواب الشرط في "وَلَئِن جَاءَ نَصْرٌ"

لم يذكر جواب الشرط صراحة في أول الجملة، ثم جاء "لَيَقُولُنَّ" جوابًا للقسم، وليس للشرط .هذا الأ سلوب يفيد أن قولهم "إنا كنا معكم" هو نتاج مجيء النصر، لكنه ليس جواباً حقيقياً، بل هو تعليق على حالهم.

.5الاستفهام في "أَوَلَيْسَ اللَّهُ"

الاستفهام هنا تقريري، يفيد أن الأمر بديهي وواضح: الله أعلم بما في الصدور .لكن المنافقين يتجاهلون هذه البديهية، فيأتي الاستفهام لتوبيخهم.
سادساً: تكرار فكرة "لا إسلام مجاني" في هذه الآية

كما طلبت، هذه الآية تؤكد مرة أخرى أنه لا إسلام مجاني، وأن الابتلاء والأذى سنة من سنن التغيير . دعنا نركز على هذا المعنى:

أولا ً: الأذى هو الفلتر

الآية تظهر أن الأذى هو الذي يفصل بين الصادق والكاذب .قبل الأذى، كان الجميع يقول "آمنت" .فلما جاء الأذى، انكشف المعدن .الذي جعل فتنة الناس كعذاب الله هو الذي ارتد .والذي صبر وثبت هو الذي صدق.

الرسالة: لا يمكن بناء أمة على أناس لم يمتحنوا .الأذى هو معمل التصفية .هو الذي يخرج الخبث من الطيب .قال تعالى: "لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ") الأنفال.(37

ثانياً: من أراد التغيير فليستعد للأذى

هذه الآية، مع سابقاتها، ترسم خريطة الطريق: من أراد أن يغير نفسه، أو أسرته، أو أمته، فعليه أن يستعد للأذى .الأذى من الأهل، من المجتمع، من الحكام، من الأصدقاء .هذه هي سنة الله فيمن سبق . قال تعالى: "وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ") محمد.(31

ثالثاً: القناعة التامة بأن الأمة لا تبنى إلا بالابتلاء

تكرار هذه المعنى في السورة) الآية2 ، الآية10 ، ثم الآيات القادمة (هو لصناعة القناعة التامة في نفس المؤمن .لا بد أن يتقبل الأذى كجزء من الطريق .لا بد أن لا يفاجأ به .لا بد أن لا ينهار أمامه . هذه القناعة هي التي تصنع الجيل الرباني الذي حمل الدعوة بعد الأنبياء.

الرسالة التربوية للأمة اليوم: لا تنتظروا تغييراً بدون ألم .لا تنتظروا نهضة بدون تضحيات .لا تنتظروا نصراً بدون صبر .من أراد أن يصل إلى القمة، فعليه أن يصعد، والصعود متعب .من أراد أن يبني، فعليه أن يحفر الأساس، والحفر شاق.

سابعاً: الربط بين الآية وسياق السورة) مراحل بناء الأمة(

علاقة الآية بالآيات السابقة1) -(4: الابتلاء والتمحيص

الآيات1 -4: الابتلاء سنة إلهية.

الآية10 : نموذج حي لمن فشل في الابتلاء.

فبعد أن أخبر الله أنه سيمتحن الناس، يقدم لنا نموذجاً لمن ينهار عند أول امتحان .هذا النموذج تحذير لنا: لا تكن منهم.

علاقة الآية بالآيات5 -6: الرجاء والجهاد

الآيات5 -6: الرجاء والجهاد طريق النجاة.
الآية10 : ضعفاء الإيمان لا يرجون لقاء الله حقاً، ولا يجاهدون، بل ينهارون عند أول أذى.

فالرجاء والجهاد هما السلاح الذي يواجه به المؤمن الأذى .من فقد الرجاء، أو توقف عن الجهاد، انهار.

علاقة الآية بالآية7 -9: جزاء الصادقين

الآيات7 -9: جزاء الصادقين: تكفير السيئات، وأحسن الجزاء، والدخول في الصالحين.
الآية10 : جزاء الكاذبين: الفضيحة في الدنيا والآخرة، والخذلان، وغضب الله.

هذه المقابلة تبين الفرق الشاسع بين الفريقين .فلا يستوي الصادق والكاذب.

علاقة الآية بمراحل مالك نبي الثلاث

مرحلة الروح) التأسيس(

في هذه المرحلة، يكون الأذى في أشد صوره .المؤمنون الأوائل يتعذبون، يهاجرون، يقتلون .هذه الآية تنزل لتميز بين من يثبت ومن ينهار .من يجعل فتنة الناس كعذاب الله فيرتد، ومن يصبر ويحتسب . هذه المرحلة هي فلتر الأمة .من ينجح فيها يصبح من الصالحين، ومن يفشل فيها يسقط.

تأمل: في مكة، كان هناك من أسلم ثم ارتد عند التعذيب .كان هناك من قال "آمنت" خوفاً أو طمعاً، فلما اشتد البلاء، انكشف أمره .هذه الآية صورتهم بدقة.

مرحلة العقل) الازدهار(

في هذه المرحلة، قد يقل الأذى المباشر، لكن تظهر آفة جديدة: المنافقون الذين يتربصون .هؤلاء الذين يقولون "إن كنا معكم" عند النصر، كانوا في الضعف يتخلفون .الآية تحذر الأمة في مرحلة القوة من هؤلاء .لا تغتر بقولهم، فالله يعلم ما في صدورهم.

مرحلة الجسد) الأفول(

في هذه المرحلة، قد يضعف الإيمان، وتكثر الماديات، فيكثر ضعاف الإيمان والمنافقون .الآية تذكر الأمة بأن معايير الانتماء ليست بالأقوال، بل بالثبات عند الابتلاء .ومن لا يصبر على الابتلاء في زمن القوة، فكيف يصبر في زمن الشدة؟
ثامناً: الرسائل الإيمانية والعقلية والتربوية في الآية

الرسالة الإيمانية الأولى: الإيمان الحقيقي يظهر في الشدة

سهل أن تقول "آمنت" في مجلس آمن، بين أصدقاء متحابين .الصعب أن تثبت على إيمانك وأنت تواجه التعذيب .الآية تعلن أن الشدة هي مقياس الصدق.

الرسالة الإيمانية الثانية: لا تخف من الناس أكثر من الله

من جعل فتنة الناس كعذاب الله، فقد أشرك في الخوف .المؤمن يخاف الله وحده، ويقدم خوف الله على خوف الناس .قال النبي ﷺ: "مَنْ خَافَ اللهَ خَافَهُ كُلُّ شَيْءٍ، وَمَنْ خَافَ غَيْرَ اللهِ خَافَهُ كُلُّ شَيْءٍ".

الرسالة الإيمانية الثالثة: المنافقون موجودون في كل زمان

هذه الآية ليست خاصة بالصحابة فقط، بل هي صفة لمنافقين كل عصر .سيكون هناك دائماً من يقول "آمنت" بلسانه، فإذا جاء الأذى انقلب، وإذا جاء النصر قال "إنا معكم" .فلا تفاجأ بهم.

الرسالة العقلية الأولى: العبرة بالصدق لا بالادعاء

الآية تعلمنا أن نزن الناس بميزان العمل والثبات، لا بميزان الأقوال والشعارات .كثير من الناس يتفوهون بعبارات جميلة، لكن عند الامتحان ينكشف حقيقتهم.

الرسالة العقلية الثانية: النصر ليس مجانياً أيضاً

كما أن الإيمان ليس مجانياً، فالنصر ليس مجانياً .النصر يأتي بعد صبر وابتلاء .والمنافقون يريدون النصر دون ثمن .يريدون أن يأتيهم النصر وهم في بيوتهم آمنون، ثم يقولون "كنا معكم" .الآية تفضح هذه العقلية.

الرسالة التربوية الأولى: درب نفسك على تحمل الأذى

لا تنتظر حتى يأتي الأذى لترى كيف تتصرف .درب نفسك من الآن على الصبر، على تحمل المسؤولية، على مواجهة الصعاب .قال النبي ﷺ: "المُؤْمِنُ القوِيُ خَيْرٌ وَأَحَبُ إِلَى اللهِ مِنَ المُؤْمِنِ الضَعِيفِ") مسلم .(والقوة تكتسب بالتدريب.

الرسالة التربوية الثانية: لا تظلم ضعفاء الإيمان

ضعفاء الإيمان ليسوا منافقين بالضرورة .قد يكون إيمانهم ضعيفاً، ويحتاجون إلى رعاية وتعليم .لكن ا لآية تحذر من الذين يتظاهرون بالإيمان وقلوبهم خالية، أو الذين يخونون عند الشدة.

الرسالة التربوية الثالثة: اكشف المنافقين بحسن التعامل

النبي ﷺ كان يعرف المنافقين، لكنه لم يقتلهم، بل عاملهم بحكمة .كان يميزهم، لكنه لم يفضحهم إلا إذا تعدوا .نتعلم من هذا: نتعامل مع المنافقين بحذر، ولا نعطيهم أسرارنا، ولا نثق بهم.

الرسالة التربوية الرابعة: استعد للنصر قبل مجيئه

الآية تعلمنا أن المنافقين يستعدون للنصر بطريقتهم: يخططون للانضمام بعد النصر .أما المؤمنون، فعليهم أن يستعدوا للنصر بالعمل الجاد، والثبات على المبادئ، حتى لا يكونوا كالمنافقين الذين ينضمون بعد الفتح.
تاسعاً: تطبيقات عملية من الآية في حياتك اليومية

التطبيق الأول: اختبر إيمانك قبل أن يأتي الامتحان

اسأل نفسك كل يوم: هل إيماني حقيقي؟ هل سأثبت إذا أتاني أذى؟ هل سأصبر إذا حوصرت؟ هذه ا لأسئلة تعدك للامتحان.

التطبيق الثاني: درب نفسك على مواجهة الخوف

أكثر ما يخاف منه الناس هو فقدان المال، أو الجاه، أو الأهل، أو الحرية .درب نفسك على ألا تخاف إلا من الله .اقرأ قصص الصحابة الذين قدموا كل شيء في سبيل الله.

التطبيق الثالث: تعرف على المنافقين في محيطك

لا تكن ساذجاً .هناك من يظهر الود والمحبة، لكنه عند الشدة يتخلى عنك .لا تقطعهم، لكن لا تضع ثقتك كلها فيهم.

التطبيق الرابع: لا تكن من الذين ينتظرون النصر ليعلنوا إسلامهم

كن مؤمناً في الشدة قبل الرخاء .لا تنتظر حتى تنتصر الأمة لتنضم إليها .كن معها في الضعف، تكن معها في القوة.

التطبيق الخامس: استحضر علم الله بذات الصدور

عندما تخاطر بالخيانة أو النفاق أو الضعف، تذكر أن الله أعلم بما في صدرك .لا يمكنك أن تخدعه . فاختر الصدق والثبات.
عاشراً: أسئلة للمراجعة الذاتية

اسأل نفسك الآن بصدق:

.1هل أنا من الذين يقولون "آمنت" بلسانهم فقط؟ أم أن إيماني سكن قلبي وظهر على جوارحي؟
.2كيف أتصرف إذا أذيت في الله؟ هل سأثبت أم سأنهار؟ هل جعلت فتنة الناس كعذاب الله؟
.3هل أخاف الناس أكثر مما أخاف الله؟ في أي المواقف أقدم خوف الناس على خوف الله؟
.4هل أنتظر النصر لأعلن انتمائي؟ أم أنا مع الأمة في الضعف قبل القوة؟
.5هل أستحضر أن الله أعلم بما في صدري عندما أتعامل مع الآخرين؟
.6كيف أميز بين الصادقين والمنافقين في محيطي؟
.7ما هو الأذى الذي أخشاه في حياتي؟ وكيف أستعد لمواجهته؟
الحادية عشرة: الخاتمة - أنت والمشهد الأخير

أخي، أختي...

تخيل أنك تقف يوم القيامة .تمر على الصراط .ترى أناساً يسقطون في النار .تسأل: لماذا؟ فيقال: هؤلا ء كانوا في الدنيا يقولون آمنا، فلما جاءهم الأذى من أجل الله، جعلوا فتنة الناس كعذاب الله، وارتدوا على أعقابهم.

ثم تمر على آخرين .ترى وجوهاً مشرقة .فيقال: هؤلاء صبروا على الأذى في الله، وثبتوا، فدخلهم الله في الصالحين.

فتشكر الله أن جعلك من الصابرين، لا من المنافقين.

هذه الآية تذكرك: لا إسلام مجاني .الطريق إلى الله مليء بالأشواك .فإما أن تحمل الشوك ليصير وردا، وإما أن تترك الطريق.

فاختر .وكن من الصادقين.

وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِن جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ ۚ أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ
المبحث التاسع
تأملات في الآية الحادية عشرة من سورة العنكبوت: "وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ"
الآن، بعد أن رسمت الآية العاشرة صورة المنافق الذي ينهار عند أول أذى، ويهتز عند أول امتحان، ويتربص بالنصر ليدعي الانتماء... تأتي هذه الآية الحادية عشرة لتعلن الحكم النهائي، لتختم المشهد بخاتمة تزلزل القلوب، لتقول لكل من تسول له نفسه النفاق أو التردد أو الضعف: لا مفر، لا مهرب، لا تخفي .الله سيعلم من آمن حقاً، وسيعلم من نافق.

تخيل معي مشهداً في مكة: مجلس من المستضعفين، بينهم رجال يقولون بألسنتهم "آمنا" ولكن قلوبهم مريضة .يجلسون مع بلال وعمار وصهيب، يتحدثون عن الإيمان، لكن عيونهم تترقب، وقلوبهم تخاف .ثم يسمعون هذه الآية تنزل على النبي ﷺ: "وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ" . يرتجف المنافق في مكانه، ويطمئن قلب الصادق .يعلم كلاهما أن الأيام ستظهر حقيقته، وأن الله لا يخفى عليه شيء.

هذه الآية هي بمثابة حكم الفصل في قضية التمحيص التي افتتحت بها السورة .إنها تعلن أن عملية الفرز الإلهية جارية، وأنها ستنتهي لا محالة بظهور حقيقة كل إنسان .لا يمكن لأحد أن يبقى في المنطقة الرمادية .إما مؤمن صادق، وإما منافق كاذب .والله يعلمهما، وسيظهر علمه للخلائق يوم القيامة.

دعنا نغوص معاً في بحر هذه الآية القصيرة لكنها العميقة، ونستخرج لآلئها البيانية، ونعيش رسائلها التربوية والإيمانية، ونرى كيف تتناغم مع مراحل بناء الأمة عند مالك نبي.
أولا ً: المشهد الافتتاحي - اللام والقسم والتوكيد

اللمسة البيانية الأولى: "وَلَيَعْلَمَنَّ" - قسم مؤكد بتوكيدات ثلاثة

تبدأ الآية بـ "وَلَيَعْلَمَنَّ"، وفي هذه الكلمة وحدها ثلاثة توكيدات:

.1الواو: وهي واو القسم، أي أقسم باللّه.
.2اللام: لام القسم المؤكدة.
.3النون: نون التوكيد الثقيلة.

إنها صيغة من أشد صيغ القسم في اللغة العربية .كأن اللّه يقول: أقسم بذاتي، وأقسم بجلالي، وأقسم بكبريائي، لأعلمن، ولأظهرن علمي للناس كلهم .هذا القسم المتكرر ليس لأن اللّه يجهل شيئاً، فاللّه يعلم المؤمن من المنافق قبل الامتحان .لكن القسم هنا لتأكيد وقوع الجزاء، ولإظهار علمه للخلائق يوم القيامة، ولتطمين قلوب المؤمنين الصادقين بأن اللّه سيميزهم ويفضح أعداءهم.

الرسالة البلاغية: هذا القسم العظيم يزيل كل شك في نفس المؤمن .قد يشعر المؤمن أحياناً أن المنافقين يختلطون بهم، وأنه لا فرق بينهم في الظاهر .فيأتي القسم الإلهي ليؤكد: سأميز بينكم، سأظهر حقيقتكم، سيفتضح أمر المنافقين، وسينتصر المؤمنون.

اللمسة البيانية الثانية: تقديم الفعل "يَعْلَمَنَّ" على الفاعل

جاء الفعل أولاً: "وَلَيَعْلَمَنَّ اللّهُ"، وهذا التقديم يفيد الاهتمام بالفعل نفسه، أي أن عملية العلم الإلهي – بمعناها الجزائي الظاهري – هي الأمر المهم .ليس المهم أن اللّه يعلم فقط، بل المهم أنه سيبين هذا العلم للناس، وسيجازي كلاً بحسبه.

اللمسة البيانية الثالثة: إظهار اسم الجلالة "اللّهُ"

قال "اللّهُ" ولم يقل "ربك" أو "العليم" .إظهار اسم الجلالة في هذا المقام يفيد الهيبة والعظمة .فاللّه الذي له الأسماء الحسنى، الذي لا تخفى عليه خافية، هو الذي سيميز بين المؤمنين والمنافقين .لا أحد غيره يستطيع أن يفعل ذلك.

الرسالة الإيمانية: لا تحاول أن تحاكم الناس بنفسك .لست أنت الذي يميز بين المؤمن والمنافق .دع ا لأمر لله .هو أعلم بحقائق الصدور .أنت عليك أن تعامل الناس بما يظهرون، واللّه يتولى السرائر.
ثانياً: "الَّذِينَ آمَنُوا" - الصادقون في الإيمان

اللمسة البيانية الرابعة: تعريف "الَّذِينَ آمَنُوا" بـ"أل" الموصولة

"الَّذِينَ آمَنُوا" اسم موصول يفيد العموم والخصوص في آن واحد .هو عام في كل من آمن، وخاص في الذين آمنوا إيماناً صادقاً ثابتاً .لكن الآية لم تقل "الذين آمنوا حقاً" أو "الذين آمنوا وصدقوا" . اكتفت بـ"آمنوا" ثم تركت للسياق أن يفهم أن المقصود هو الإيمان الحقيقي الذي يثبت عند الابتلاء.

الرسالة البلاغية: هذا الإطلاق يفيد أن هناك من آمنوا حقيقة، وهناك من قالوا آمنا وهم كاذبون . فكلمة "آمنوا" هنا تشمل المعنيين، لكن اللّه سيميز بينهم.

اللمسة البيانية الخامسة: حذف مفعول "يَعْلَمَنَّ"

لم يقل "ليعلمن الذين آمنوا أنهم مؤمنون" أو "ليعلمن إيمانهم" .حذف المفعول للعموم .أي ليعلمن اللّه الذين آمنوا: يعلمهم علماً ظاهراً للناس، ويميزهم، ويجازيهم، ويثبت أسماءهم في سجل المؤمنين.

الرسالة التربوية: أنت مطالب بأن تكون من "الذين آمنوا" الذين وعد اللّه بتمييزهم وإظهارهم .فاسأل نفسك: هل أنا منهم؟ هل إيماني ثابت عند الابتلاء؟
ثالثاً: "وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ" - الكشف عن حقيقة المنافقين

اللمسة البيانية السادسة: العطف بالواو والتكرار

عطف "وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ" على ما قبلها مع تكرار الفعل والقسم .هذا التكرار يفيد الاهتمام بالطرفين: المؤمنين والمنافقين .كلاهما تحت مجهر العلم الإلهي، وكلاهما سينكشف أمره.

اللمسة البيانية السابعة: تعريف "الْمُنَافِقِينَ" بـ"أل" الجنسية

"المُنَافِقِينَ" معرفة بـ"أل" للجنس، تشمل كل منافق في كل زمان ومكان .والنفاق هو: إظهار الإسلام وإبطان الكفر .أو إظهار الصلاح وإبطان الفساد .أو إظهار الإيمان وإبطان التردد والضعف الذي يصل حد الكفر.

الرسالة العقدية: المنافقون أخطر من الكفار المجاهرين، لأنهم يضربون من الداخل، ويفسدون الصفوف، ويخدعون المؤمنين .والله وعد بفضحهم وتمييزهم.

اللمسة البيانية الثامنة: حذف مفعول "يَعْلَمَنَّ" الثاني

كما حذف مفعول "يعلمن" الأولى، حذف مفعول الثانية .أي ليعلمن الله المنافقين: يعلمهم علماً ظاهراً، ويفضحهم، ويميزهم عن المؤمنين، ويجازيهم بما يستحقون.
رابعاً: اللمسات البلاغية الإضافية في الآية

.1التوكيد بالقسم في آية الإخبار عن العلم الإلهي

العلم الإلهي في ذاته لا يحتاج إلى قسم، لأنه من صفات الله الذاتية .لكن القسم هنا ليس على أصل العلم، بل على إظهار هذا العلم للخلائق في الدنيا والآخرة، وعلى الجزاء المترتب عليه .هذا الأسلوب يفيد أن الأمر مهم جداً، وأن المخاطبين قد يغفلون عنه.

.2التفريق بين المؤمنين والمنافقين

الآية وضعت المؤمنين في جانب والمنافقين في جانب آخر، دون واسطة .هذا التفريق الحاد يبين أن الأمر لا يحتمل التردد .لا منطقة رمادية عند الله .إما هذا وإما هذا.

.3الإتيان بـ "الذينَ آمَنُوا" بصيغة الفعل الماضي

"آمَنُوا" فعل ماضٍ يدل على أن إيمانهم قد تحقق واستقر في الماضي .فليسوا ممن يقول "سأؤمن"، بل ممن دخلوا في الإيمان واستقروا فيه.

.4الإتيان بـ "المُنَافِقِينَ" بصيغة اسم الفاعل

"المُنَافِقِينَ" اسم فاعل من نافق، يدل على أن النفاق صفة ثابتة فيهم، يتلبسون بها، ويعيشون فيها . ليس عارضاً بل ديدناً.
خامساً: تفسير "علم الله" في هذه الآية

علم الله نوعان:

النوع الأول: العلم الذاتي الأزلي

وهو علم الله بكل شيء قبل وقوعه .فهذا العلم لا يتغير، والله يعلم منذ الأزل من سيؤمن ومن سينافق .وهذا العلم ليس المقصود في الآية، لأنه لا يحتاج إلى قسم ولا إلى إظهار.

النوع الثاني: العلم الظاهري الجزائي

وهو إظهار الله لحقيقة الناس للخلائق، وتمييز بعضهم عن بعض بالجزاء في الدنيا والآخرة .هذا هو المقصود في الآية .أي: ليعلمن الله الناس في الدنيا) بإظهار المعجزات والعلامات والفتن (من المؤمن الصادق ومن المنافق، وليعلمنهم يوم القيامة بإقامة الحجة وإظهار الصحائف.

الرسالة الإيمانية: لا تظن أن المنافق سينجو بحيلته .سيأتي يوم ينكشف فيه كل شيء .في الدنيا قد يخدع الناس، لكنه لا يخدع الله .وفي الآخرة سيفتضح أمره أمام الخلائق كلهم.
سادساً: الربط بين الآية وسياق السورة) مراحل بناء الأمة(

علاقة الآية بالآيات السابقة1) -(4: الابتلاء والتمحيص

الآيات1 -4: أعلنت سنة الابتلاء والتمحيص.

الآية11 : تعلن نتيجة التمحيص: تمييز المؤمن من المنافق.

فالابتلاء ليس عبثاً، بل الغاية منه إظهار هذا التمييز .بدون ابتلاء، يختلط الحابل بالنابل .مع الابتلاء، ينكشف المخبوء.

الدرس: الأزمات هي معامل فرز .كل أمة تمر بأزمة، تخرج منها الصفوة المؤمنة، ويتساقط منها المنافقون وضعاف الإيمان .هذه سنة الله في خلقه.

علاقة الآية بالآية10 : المنافقون الذين ينهارون عند الأذى

الآية 10 وصفت المنافقين: يقولون آمنا، فإذا أوذوا جعلوا فتنة الناس كعذاب الله.
الآية11 : تعلن أن الله سيعلمهم، أي سيفضحهم، ويميزهم عن المؤمنين.

فالوصف في الآية 10 هو واقعهم، والآية 11 هي مصيرهم.

علاقة الآية بالآيات7 -9: جزاء المؤمنين الصادقين

الآيات7 -9: جزاء المؤمنين: تكفير السيئات، وأحسن الجزاء، والدخول في الصالحين.
الآية11 : جزاء المنافقين: الفضيحة والخذلان.

وهذه المقابلة تؤكد أن الله لا يسوي بين من آمن وعمل صالحاً وبين من نافق وتربص.

علاقة الآية بمراحل مالك نبي الثلاث

مرحلة الروح) التأسيس(

في هذه المرحلة، يكون الاختلاط بين الصادقين والمنافقين قليلا ً، لأن الابتلاء شديد، ولا يتحمله إلا الصادقون .لكن مع ذلك، هناك من يضعف أو ينافق .والله يعد بتمييزهم .هذه الآية تطمئن الصادقين: ستظهر حقيقتكم، وستفضح نفاق المنافقين .فلا تحزنوا من خلطهم بكم، فالأيام كاشفة.

مرحلة العقل) الازدهار(

في هذه المرحلة، تكثر المنافقون .الأمة في قوتها، فينضم إليها من يريد المال والجاه والسلطة .الآية تحذر الأمة من الاغترار بكثرة المنتسبين، وتذكرهم أن الله سيميز بين الصادق والمنافق .فلا تبنوا أموركم على مظاهر الناس، بل على الثوابت والمبادئ.

مرحلة الجسد) الأفول(

في هذه المرحلة، قد يكثر النفاق، ويختلط الحابل بالنابل، وتضعف معايير التمييز .الآية تذكر الأمة أن الله لم يغفل عنهم، وسيميز بينهم إما في الدنيا بفضائح تنكشف، أو في الآخرة يوم يجزى كل نفس بما كسبت.
سابعاً: الرسائل الإيمانية والعقلية والتربوية في الآية

الرسالة الإيمانية الأولى: الله يميز بين الصادق والمنافق، فلا تقم أنت بهذا الدور

ليس من حقك أن تتهم الناس بالنفاق بمجرد الظن .أنت لست الله .الله هو الذي يعلم السرائر .فعامل الناس بما يظهرون، ودع أمر باطنهم لله .لكن في الوقت نفسه، كن حذراً ولا تثق بالجميع ثقة عمياء.

الرسالة الإيمانية الثانية: الابتلاء كاشف، والله سينصفك

إذا كنت مؤمناً صادقاً، وقد آذاك الناس أو خانه من تظنهم أصدقاء، فتذكر: الله سيميز بينك وبينهم . سيفضحهم ويرفع شأنك .فلا تحزن، ولا تيأس، ولا تظن أن الظلم سيدوم.

الرسالة الإيمانية الثالثة: لا تحاول أن تخدع الله

المنافقون يحاولون خداع الله والذين آمنوا، لكنهم يخدعون أنفسهم فقط .قال تعالى: "يُخَادِعُونَ اللهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ") البقرة .(9 هذه الآية تؤكد: لا تحاول، فلن تنجح .الله يعلم

حقيقتك.

الرسالة العقلية الأولى: قانون السببية الإلهية في التمييز

الله سن قوانين في الكون والاجتماع .من هذه القوانين: الابتلاء يؤدي إلى التمييز .فالأمم التي لا تمتحن، تختلط فيها الصفوف، وتضعف، وتسقط .أما الأمم التي تمتحن، فتخرج صافية نقية.

الرسالة العقلية الثانية: لا تغتر بكثرة المنتسبين

كثرة الناس الذين يقولون "آمنت" لا تعني قوة الأمة، إذا كانوا منافقين .القوة الحقيقية هي في النوعية، لا في الكمية .الآية تذكرنا: الله سيميز، فلا يغرنك كثرة الهتافين والشعارين.

الرسالة التربوية الأولى: علم أولادك أن الله يراهم ويعلم سرائرهم

من الصغر، علم أطفالك أن الله يعلم ما في قلوبهم، وأنه لا يمكنهم إخفاء شيء عنه .هذا يعلمهم الصدق والإخلاص، ويحميهم من النفاق.

الرسالة التربوية الثانية: لا تكن منافقاً في بيتك أو عملك

النفاق ليس فقط في الدين، بل في العلاقات الإنسانية .أن تظهر لمديرك شيئاً وتخفي شيئاً، أن تظهر لزوجتك الحب وفي قلبك بغض، أن تظهر لأولادك الاهتمام وأنت غافل .كل هذا نوع من النفاق .والله يعلمه.

الرسالة التربوية الثالثة: ثق في وعد الله بالتمييز

إذا كنت في بيئة مختلطة، تشعر أن الصالح والطالح سواء، وأن المنافقين ينجحون بينما الصادقون يتعبون، فتذكر: الله سيميز .لا تستعجل النتائج .الأيام كاشفة، والله لا يظلم مثقال ذرة.

الرسالة التربوية الرابعة: كن صادقاً ولو كان الصدق مؤلماً

الصدق قد يجلب لك الأذى في الدنيا، لكنه ينجيك في الآخرة .والنفاق قد ينجيك في الدنيا مؤقتاً، لكنه يهلكك في الآخرة .فاختر الصدق، ولو كلفك الكثير.
ثامناً: تطبيقات عملية من الآية في حياتك اليومية

التطبيق الأول: راجع نواياك يومياً

قبل أن تنام، اسأل نفسك: هل كنت صادقاً اليوم مع الله؟ هل كنت صادقاً مع الناس؟ هل ظهرت بشيء وأبطن شيئاً آخر؟ تب من كل نفاق، واعزم على الصدق.

التطبيق الثاني: لا تظلم الناس بالاتهامات

إذا رأيت من شخص تصرفاً يريبك، لا تتهمه فوراً بالنفاق .لعله ضعيف إيمان، أو جاهل، أو مخطئ . دع أمره لله .وادع له بالهداية.

التطبيق الثالث: استحضر مشهد يوم القيامة

تخيل نفسك يوم القيامة، والناس كلهم عراة حفاة، والله يفضح المنافقين أمام الخلائق .هذا المشهد يمنعك من النفاق، ويدفعك إلى الصدق.

التطبيق الرابع: اختر صحبتك بعناية

لا تصاحب من تعرف عنه نفاقاً أو ضعفاً في الدين .صحبتهم قد تؤثر عليك .قال النبي ﷺ: "الرَّجُلُ عَلَى دِينِ خَلِيلِهِ") أبو داود .(فاختر خليلك.

التطبيق الخامس: احتسب الأذى من المنافقين

إذا أوذيت من منافق، أو خدعت منه، فاحتسب الأجر عند الله .واعلم أن الله سيميز، وأن لك عنده

خيراً .قال تعالى: "وَلا تحْسَبَنّ الذِينَ كفَرُوا سَبَقُوا") النور.(57

التطبيق السادس: كن واضحاً في مواقفك

لا تكن ممن يقول كلمة وفي قلبه أخرى .كن واضحاً صريحاً .قل الحق ولو كان مراً .هذا يبعد عنك شبهة النفاق.
تاسعاً: أسئلة للمراجعة الذاتية

اسأل نفسك الآن بصدق:

.1هل أنا من "الذِينَ آمَنُوا" الذين وعد الله بتمييزهم؟ أم أن إيماني ضعيف متردد؟
.2هل في قلبي نفاق تجاه الله؟ هل أظهر الطاعة وأبطن المعصية؟ هل أظهر الحب وأبطن البغض؟
.3هل في قلبي نفاق تجاه الناس؟ هل أظهر لفلان الود وأبطن له الكره؟ هل أمدحه في وجهه وأذمه في غيابه؟
.4هل أثق في وعد الله بأنه سيميز بيني وبين من ظلمني؟ أم أني أستعجل النصر والانتقام؟
.5كيف أتعامل مع من أظن فيهم نفاقاً في محيطي؟ هل أتهمهم وأقطعهم، أم أدعو لهم وأحتاط منهم؟
.6هل أستحضر يوم القيامة عندما أتعامل مع الناس؟ أم أني أنشغل بالدنيا؟
.7ما هي الخطوة العملية التي سأتخذها اليوم لتنقية قلبي من شوائب النفاق؟
عاشراً: الخاتمة - أنت والمشهد الأخير

أخي، أختي...

تخيل أنك وقفت يوم القيامة .نودي على الناس بأسمائهم .تنكشف الصحف .تظهر السرائر .المؤمنون في نور، والمنافقون في ظلمات.

ترى من كان يجلس معك في المسجد، يرفع صوته بالتكبير، لكنه في قلبه مرض .تراه الآن أسود الوجه، مقيداً بالسلاسل، يجر إلى النار.

ترتعد فرائصك .ثم تنظر إلى نفسك .تجد نوراً يسعى بين يديك .تسمع صوتاً: "هذا الذي آمن وصدق، فكان من الصادقين".

تسجد لله شكراً، وتقول: "الحَمْدُ لِلهِ الذي لَمْ يَجْعَلْنِي مِنَ المُنَافِقِينَ".

هذه الآية تذكرك: لا يغرنك ظاهر الناس .فالغد سينكشف كل شيء .فكن اليوم صادقاً، تكن غداً من الفائزين.

وَلَيَعْلَمَنّ اللهُ الذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنّ المُنَافِقِينَ
المبحث العاشر
تأملات في الآيتين الثانية عشرة والثالثة عشرة من سورة العنكبوت: "وَقَالَ الذِينَ كفَرُوا لِلذِينَ آمَنُوا اتبِعُوا سَبِيلَنَا..." و"وَلَيَحْمِلُنّ أَثقَالَهُمْ..."
الآن، وبعد أن أثبتت الآيات السابقة أن الابتلاء سنة ماضية، وأن الله سيميز بين المؤمنين الصادقين والمنافقين الكاذبين ...تأتي هاتان الآيتان لتكشفا عن العدو الخارجي الذي يضاف إلى العدو الداخلي)النفاق .(إنه الكفار الذين لا يكتفون بمحاربة المؤمنين بالسيوف، بل يحاربونهم بالأفكار والشبهات و الوعود الكاذبة.

هذه الآيات تنتمي إلى مرحلة الروح التي تحدث عنها مالك نبي، وهي مرحلة التأسيس التي تبنى فيها القيم الحقيقية، وتكسر فيها الأصنام الوهمية، وترسى فيها معايير النجاح والخسارة .إنها مرحلة يريد فيها أعداء الأمة أن يخدعوا المؤمنين الضعفاء بوعود زائفة: "اتبعوا سبيلنا نتحمل عنكم أوزاركم" . إنها محاولة لشراء الذمم بثمن بخس، ولإسقاط المبادئ بمغريات كاذبة.

تخيل معي مشهداً في مكة: كفار قريش يجتمعون بالمستضعفين من المسلمين، ويقولون لهم: "اتركوا دين محمد وعودوا إلى دين آبائكم، وإن كان عليكم إثم، فنحن نتحمله عنكم .إن كان في هذا الدين عقاب، فنحن نكفيكم إياه" .وعد كاذب، وصفقة خاسرة، ووهم كبير .فنزلت الآيات لتكشف كذبهم، وتثبت أن كل إنسان سيتحمل وزره ووزر غيره ممن أضلهم.

دعنا نغوص معاً في بحر هاتين الآيتين العظيمتين، ونستخرج لآلئهما البيانية، ونعيش رسائلهما في بناء الروح والقيم الحقيقية.
أولا ً: الآية الثانية عشرة - "وَقَالَ الذِينَ كفَرُوا لِلذِينَ آمَنُوا اتبِعُوا سَبِيلَنَا..."

المشهد الافتتاحي: خطاب الكفار للمؤمنين - محاولة النفوذ الفكري

تبدأ الآية بـ "وَقَالَ الذِينَ كفَرُوا"، والواو للعطف على ما سبق، أي بعد أن أخبر الله عن المنافقين، أخبر عن الكفار المجاهرين .و "قَالَ" هنا ليست مجرد كلمة عابرة، بل هي حملة فكرية ودعائية موجهة من الكفار إلى المؤمنين .إنهم يحاولون التأثير على المؤمنين الضعفاء، وزرع الشكوك في قلوبهم، وإغرائهم بالعودة إلى طريقهم.

اللمسة البيانية الأولى: تعريف "الذِينَ كفَرُوا" و"الذِينَ آمَنُوا" بـ"أل" الموصولة

التعريف هنا يفيد أن هذه صفة ثابتة فيهم: كفار معروفون بكفرهم، ومؤمنون معروفون بإيمانهم .وكأن الكفار يخاطبون المؤمنين من موقع عداوتهم، والمؤمنون مطلوب منهم أن يسمعوا ثم يرفضوا.

الرسالة التربوية: لا تظن أن الكفار سيتوقفون عن محاولة إضلال المؤمنين .هذه سنتهم .سيظلون يقولون، ويغرون، ويعدون .المهم أن يكون المؤمن واعياً لا يخدع.

"اتبِعُوا سَبِيلَنَا" - الدعوة إلى اتباع منهج الكفر

اللمسة البيانية الثانية: أمر بـ"اتبِعُوا" - طلب الامتثال

استخدم الكفار فعل الأمر "اتبِعُوا" دلالة على أنهم يطلبون من المؤمنين الانقياد الكامل لطريقهم .إنهم لا يطلبون الحوار، بل يطلبون الطاعة والخضوع.

"سَبِيلَنَا" أي طريقنا، منهجنا، ديننا، عاداتنا، تقاليدنا، قوانيننا .هذا هو السبيل: طريق الكفر والضلال و الظلم والشهوات والأهواء.

الرسالة الإيمانية: كل من يدعوك إلى ترك دين الله، أو التخفيف من التزامك، أو مسايرة الكفار في عاداتهم وقيمهم، فهو يتبع سبيل هؤلاء الكفار .كن حذراً.

"وَلنَحْمِلْ خَطَايَاكمْ" - الوعد الكاذب بتحمل الأوزار

اللمسة البيانية الثالثة: "لنَحْمِلْ" - لام الأمر الدالة على طلب الفعل من أنفسهم

يقولون: نحن سنحمل خطاياكم .هذا وعد كاذب .إنهم يغرون المؤمنين بأنه لا عقاب على اتباعهم، أو أن العقاب سيقع عليهم هم وليس على المؤمنين.

"خَطَايَاكمْ" أي ذنوبكم وإثمكم الذي يترتب على اتباع سبيلهم .وهي تشمل: الإثم في ترك الإيمان، والإ ثم في ارتكاب المعاصي التي يدعون إليها.

الرسالة العقدية: هذه دعوة كاذبة يرددها كل مضل عبر التاريخ: "اتبعني، أنا أتحمل عنك الذنب" .من فرعون إلى أئمة الضلال اليوم، يعدون أتباعهم بالنجاة من العقاب .لكن الحقيقة أن الله يقول: "وَلا تزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى") الأنعام.(164

"وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُمْ مِنْ شَيْءٍ" - نفي قدرة الكفار على تحمل الذنوب

اللمسة البيانية الرابعة: "بِحَامِلِينَ" - صيغة اسم الفاعل مع "ما" النافية و"من" الزائدة

"وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ" نفي مؤكد باستخدام "ما" و"الباء" الزائدة .و "مِنْ خَطَايَاهُمْ" "من" زائدة للتوكيد، أي ليسوا حاملين شيئاً من خطاياهم، ولا قليلا ً ولا كثيراً .النفي شامل لكل شيء.

الرسالة العقلية: لماذا لا يستطيعون حمل خطاياهم؟ لأن الحمل يحتاج إلى قدرة، والكفار لا يملكون من الأمر شيئاً .هم عاجزون عن حمل أوزار أنفسهم، فكيف يحملون أوزار غيرهم؟ هذا من أبطل الباطل.

"إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ" - خاتمة الحسم

اللمسة البيانية الخامسة: جملة مؤكدة ب-"إنّ" واللام

"إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ" - توكيد بعد توكيد .يكذبون في وعدهم، ويكذبون في قدرتهم على تحمل الأوزار، ويكذبون في كل ما يقولون .هذا حكم الله عليهم.

الرسالة التربوية: تعلم كيف تكتشف الكذب .الوعد بتحمل التبعات دون قدرة هو كذب .من يعدك بـ النجاة دون عمل، أو بالجنة دون إيمان، أو بالفلاح دون جهاد، فهو كاذب.
ثانياً: الآية الثالثة عشرة -"وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ..."

المشهد الافتتاحي: القسم بتحمل الأثقال

تبدأ الآية بـ "وَلَيَحْمِلُنَّ"، والواو للقسم، واللام والنون للتوكيد .إنه قسم إلهي: أقسم بالله ليحملن الكفار أثقالهم وأثقالا ً أخرى.

"أَثْقَالَهُمْ" - أوزار أنفسهم

اللمسة البيانية السادسة: "أَثْقَالَهُمْ" جمع ثقل، وهو الوزر والإثم

سيحملون أوزار أنفسهم التي اكتسبوها بكفرهم ومعاصيهم .لا مهرب، ولا منقذ .هذا هو العدل الإلهي.

"وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ" - زيادة على الأوزار

اللمسة البيانية السابعة: "مَعَ" للجمع والمصاحبة

سيحملون مع أوزارهم أوزاراً أخرى .ما هي هذه الأثقال الأخرى؟ هي أوزار الذين أضلوهم واتبعوهم على الضلال .ليس لأن الله يظلمهم، بل لأنهم سبب في ضلال غيرهم .قال النبي ﷺ: "مَنْ دَعَا إِلَى ضَلَالَةٍ كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الإِثْمِ مِثْلُ آثَامِ مَنْ تَبِعَهُ") مسلم.(

الرسالة العقدية: هذه الآية ترد على الكفار الذين قالوا "نحمل خطاياكم" .لا، بل أنتم ستحملون خطاياكم وخطايا الذين أضللتموهم .الوعد الكاذب يتحول إلى عذاب مضاعف.

"وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ القِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ" - السؤال عن الافتراء

اللمسة البيانية الثامنة: "لَيُسْأَلُنَّ" - قسم مؤكد باللام والنون

سيُسألون سؤال توبيخ وتقريع .يُسألون عن افترائهم على الله، وكذبهم على المؤمنين، وادعائهم الباطل.

"يَفْتَرُونَ" من الافتراء، وهو اختلاق الكذب .هم افتروا على الله بأن الأصنام تنفع، وافتروا على المؤمنين بأن اتباع سبيلهم لا عقاب عليه، وافتروا على أنفسهم القدرة على تحمل الأوزار.

الرسالة الإيمانية: يوم القيامة، سيفتضح كل كذاب، وسينكشف كل مدع .فلا تظن أن كذبك ينجيك . ستسأل عنه، وستجازى عليه.
ثالثاً: اللمسات البلاغية الإضافية في الآيتين

.1التدرج من القول إلى الحمل إلى السؤال

الآية12 : قالوا) دعوة كاذبة (← الآية13 : سيحملون) جزاء (← سيُسألون) فضيحة .(هذا التدرج يبين مراحل العقاب: الدعوة الكاذبة تؤدي إلى الحمل الثقيل، ثم إلى السؤال الموجع.

.2استخدام "خَطَايَا" في الآية 12 و "أَثْقَال" في الآية13

"خطايا" تشير إلى الذنوب التي يرتكبها الإنسان باختياره ."أثقال" تشير إلى ثقل هذه الذنوب يوم القيامة .فهي تنقل من المعنى المجرد) الخطيئة (إلى المعنى المحسوس) الثقل.(

.3الفرق بين "مِنْ خَطَايَاهُمْ مِنْ شَيْءٍ" و "أَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ"

في الآية 12 نفي كامل: لا يحملون شيئاً .وفي الآية 13 إثبات: سيحملون أثقالهم وأثقالا ً أخرى . هذا التباين يبين الفرق بين وعدهم الكاذب وواقعهم المرير.

.4ختم الآية 12 بـ "إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ" وختم الآية 13 بـ "عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ"

كذب في الدنيا، وافتراء في الآخرة .الكذب هو قولهم "نحمل"، والافتراء هو اختلاقهم للأكاذيب على الله وعلى المؤمنين.
رابعاً: بناء الروح في مرحلة التأسيس - القيم الحقيقية مقابل القيم الزائفة

كما طلبت، هذه الآيات تتحدث عن مرحلة الروح في بناء الأمة، حيث يتم بناء القيم الحقيقية وتمييزها عن القيم الزائفة .دعنا نستعرض ذلك بالتفصيل:

أولا ً: القيم الزائفة التي يحاول الكفار غرسها في مرحلة الروح

.1وهم تحمل التبعات: "اتبعوا سبيلنا نتحمل خطاياكم" .هذه قيمة زائفة مفادها أن هناك من يتحمل عنك نتائج أفعالك .في الإسلام، كل نفس بما كسبت رهينة .لا تحمل وازرة وزر أخرى.
.2وهم النجاة باتباع الأغلبية: الكفار يدعون المؤمنين إلى اتباع سبيلهم، أي سبيل الأكثرية .هذا وهم . قال تعالى: "وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ") الأنعام.(116
.3وهم أن القوة المادية تعني القدرة على تغيير الحقائق: الكفار ظنوا أن بوسعهم تحمل الأوزار، وهذا من غرور القوة .القيمة الزائفة: من يملك السلطان والمال يمكنه تجاوز العدل الإلهي.

ثانياً: القيم الحقيقية التي تؤسس لها الآيات في مرحلة الروح

.1المسؤولية الفردية: كل إنسان مسئول عن نفسه .لا ينفعه نسب ولا مال ولا جاه .هذه القيمة تخلق أمة من الأفراد الواعين المسئولين، لا أمة من التابعين الذين ينتظرون من يتحمل عنهم.
.2الصدق والوضوح: لا وعد كاذب، لا ادعاء باطل .المؤمن يعرف أن كلمة "اتبعوني أتحملكم" هي كذبة .فلا يخدع بها.
.3العدل الإلهي المطلق: كل ظالم سيجازى على ظلمه، وكل مضل سيتحمل أوزار من أضل .هذه القيمة تزرع في نفس المؤمن الثقة بأن الله لن يضيع حقه، وأن كل ظلم سينكشف.
.4الثبات على المبادئ رغم الإغراءات: الآيات تعلم المؤمن ألا يبيع دينه بوعود كاذبة .الثبات على الحق ولو كان الطريق صعباً، ولو كان الآخرون يعدون بالراحة.
.5التمييز بين الدعوة الصادقة والدعوة الكاذبة: الدعوة الصادقة تقول: "اعمل لنفسك، ولك أجرك" .و الدعوة الكاذبة تقول: "اتبعني وكل شيء عليّ" .المؤمن يميز بينهما.

ثالثاً: كيف تبني هذه الآيات الروح في مرحلة التأسيس؟

· بتكسير أوهام الاعتماد على الآخرين: الأمة لا تبنى على أفراد ينتظرون من ينقذهم .تبنى على أفراد يشعرون أنهم مسئولون مسئولية كاملة عن أنفسهم أولا ً، ثم عن أمتهم ثانياً.
· بتعزيز قيمة الصدق مع النفس ومع الله: من يعلم أنه سيحمل وزره، سيحاسب على كل صغيرة وكبيرة، فإنه يحرص على أن يكون صادقاً مع الله ومع الناس.
· بتربية النفس على تحمل المسؤولية بدلا ً من الهروب منها: الكفار يريدون للمؤمنين أن يهربوا من مسؤولية إيمانهم إلى راحة الكفر .الآيات تزرع في النفس عكس ذلك: تحمل المسؤولية هو الطريق.
· ببناء الثقة بوعد الله لا بوعد البشر: الكفار وعدوا فكذبوا .الله وعد فصدق .المؤمن يثق بوعد الله، ولا ينخدع بوعود أعدائه.
خامساً: الربط بين الآيتين وسياق السورة) مراحل بناء الأمة(

علاقة الآيتين بالآيات السابقة1) -(4: الابتلاء والتمحيص

الآيات1 -4: ابتلاء وتمحيص.
الآية12 : الكفار يحاولون إغراء المؤمنين لترك الإيمان هرباً من الابتلاء.
الآية13 : الله يرد بكشف الحقيقة: ستحملون أوزاركم وأوزار من أضللتم.

فالابتلاء يظهر من يثبت ومن ينهار، ومن يصدق ومن يكذب.

علاقة الآيتين بالآيات5 -6: الرجاء والجهاد

الرجاء والجهاد يعطيان المؤمن القوة على مقاومة إغراءات الكفار .من يرجو لقاء الله ويعلم أنه سيلقاه، لا يخدع بوعود الكفار .ومن يجاهد في الله، يعلم أن الراحة في الجهاد، وليس في الاستسلا م.

علاقة الآيتين بالآيات7 -9: جزاء الصادقين

جزاء الصادقين: تكفير السيئات، وأحسن الجزاء، والدخول في الصالحين .أما جزاء الكاذبين الذين يغرون باتباع سبيلهم: حمل الأثقال والسؤال الموجع.

علاقة الآيتين بالآيات10 -11: صفات المنافقين

المنافقون ينهارون عند الأذى .والكفار يستغلون ضعفهم فيغرونهم بالعودة .الآيتان تردان على إغراء الكفار.

علاقة الآيتين بمراحل مالك نبي الثلاث

مرحلة الروح) التأسيس(

هذه الآيات هي من أهم آيات التأسيس .فهي تبني في المؤمن:

· قيمة الاعتماد على النفس: لا تنتظر من يحمل عنك.
· قيمة الثبات: لا تبع دينك بوعود كاذبة.
· قيمة التمييز بين الحق والباطل: تعلم كيف تفرق بين الدعوة الصادقة والكاذبة.
· قيمة المسؤولية: أنت مسئول عن نفسك، وعن دعوتك، وعن من حولك.

هذه القيم هي التي بنت الجيل الأول الذي استطاع أن يواجه إغراءات قريش ووعودهم الكاذبة.

مرحلة العقل) الازدهار(

في مرحلة الازدهار، قد تأتي إغراءات من نوع آخر: "اتبع سبيلنا في الاقتصاد، في السياسة، في الثقافة، وسنحملك نتائج الفشل" .الآيات تذكر الأمة ألا تنخدع بهذه الوعود، وأن كل أمة تتحمل نتائج اختياراتها.

مرحلة الجسد) الأفول(

في مرحلة الأفول، قد تغرق الأمة في المادية واللّهو، وتنسى هذه القيم .الآيات تحذر: من اتبع المضلين سيتحمل أوزار نفسه وأوزارهم .فلا تتبعوا سبيل الغارقين في الشهوات، فإنهم لا يستطيعون أن يحملوا عنكم شيئاً.
سادساً: الرسائل الإيمانية والعقلية والتربوية في الآيتين

الرسالة الإيمانية الأولى: كل نفس مسئولة عن نفسها

لا تظن أن أباك أو أمك أو شيخك أو زعيمك سيحمل عنك ذنبك .يوم القيامة، كل إنسان لوحده .هذه القيمة تخلق أمة من الأفراد الأقوياء، لا أمة من التابعين.

الرسالة الإيمانية الثانية: المضل يتحمل إثم نفسه وإثم من أضل

هذا رد على كل من يظن أن إضلال الناس لا عقاب عليه .بل العقاب مضاعف .فكن حذراً أن تكون سبباً في ضلال أحد.

الرسالة الإيمانية الثالثة: وعود الكفار كاذبة، فلا تنخدع

كل من يعدك بالنجاة دون عمل، أو بالجنة دون إيمان، فهو كاذب .الطريق واضح: إيمان وعمل صالح، ثم جزاء من الله.

الرسالة العقلية الأولى: قانون السببية الإلهي لا يمكن تجاوزه

لا يمكن لأي إنسان أن يتحمل عن آخر وزره، كما لا يمكن لجسد أن يتحمل ألم جسد آخر .هذا قانون كوني .فلا تحاول خداع نفسك.

الرسالة العقلية الثانية: العبرة بالنتائج لا بالوعود

الكفار وعدوا فلم يوفوا .الله وعد فوفى .فمن تثق؟ من يصدق وعده؟ هذا هو الميزان العقلي.

الرسالة التربوية الأولى: علم أولادك المسؤولية الفردية

من الصغر، علمهم أنهم مسئولون عن أفعالهم، وأن لا أحد يتحمل عنهم عقاب أخطائهم .هذا يعلمهم الصدق والاعتماد على النفس.

الرسالة التربوية الثانية: لا تكن ممن يعد الناس بما لا يستطيع

لا تقل لأحد: "اتبعني وأنا أتحملك" .هذا كذب .قل: "اتبع سبيل الله، وكل إنسان يجازى بعمله".

الرسالة التربوية الثالثة: احذر من دعاة الضلال في عصرنا

اليوم هناك من يقول: "اسمع الموسيقى، انظر إلى الحرام، عش حياتك، والله غفور رحيم" .هذا كذب . لا أحد يتحمل عنك .وأنت المسئول.

الرسالة التربوية الرابعة: ازرع في نفسك قيمة الصدق

الصادق لا يعد بما لا يستطيع .الصادق لا يخدع .الصادق يعترف بمسئوليته .هذه القيم هي أساس بناء الأمة.

سابعاً: تطبيقات عملية من الآيتين في حياتك اليومية

التطبيق الأول: راجع وعودك

هل وعدت أحداً بشيء لا تستطيع تحقيقه؟ هل قلت لزوجك أو ولدك "افعل هذا وأنا أتحمل النتيجة" ؟ تب من هذا، وكن صادقاً.

التطبيق الثاني: لا تنخدع بدعاة التحرر الكاذب

عندما يأتيك من يقول: "تمتع بحياتك، لا تلتزم، كل شيء سيكون على ما يرام"، تذكر هذه الآيات .لا أحد سيحمل عنك.

التطبيق الثالث: علم أولادك قاعدة "كل نفس بما كسبت رهينة"

كررها عليهم: أنت المسئول عن دراستك، عن سلوكك، عن صلاتك، عن مستقبلك .لا تنتظر من أحد أن ينقذك.

التطبيق الرابع: تحمل مسئولية دعوتك

إذا كنت تدعو إلى خير، فأنت مأجور .إذا كنت تدعو إلى شر، فأنت وزرك ووزر من اتبعك .فاختر طريقك بعناية.

التطبيق الخامس: استحضر مشهد يوم القيامة

تخيل نفسك تسأل عن كل افتراء، عن كل كذبة، عن كل وعد كاذب .هذا يمنعك من الكذب والافتراء.

التطبيق السادس: لا تكن تابعاً أعمى

لا تتبع أي أحد دون تفكير .ابحث، اسأل، تأكد .القائد الحقيقي هو من يدلك على الله، لا من يدعوك لاتباعه هو.

ثامناً: أسئلة للمراجعة الذاتية

اسأل نفسك الآن بصدق:

.1هل وعدت أحداً بشيء لا تستطيع تحقيقه؟ كيف ستعوضه؟
.2هل تأثرت يوماً بدعاة يقولون "اتبعنا ولا تخف، كل شيء سيكون على ما يرام"؟ كيف اكتشفت كذبهم؟
.3هل أشعر بالمسؤولية الكاملة عن أفعالي؟ أم أني أتوقع من الآخرين أن يتحملوا عني؟
.4هل أخاف من سؤال الله لي يوم القيامة عن كل كذبة وافتراء؟ كيف أستعد لذلك؟
.5كيف أعلم أولادي قيمة المسؤولية الفردية؟ ما هي الخطوات العملية التي سأتخذها؟
.6هل هناك من أضلهم أحدهم في محيطي؟ كيف يمكنني مساعدتهم على رؤية الحقيقة؟
.7ما هي القيم الزائفة التي يروج لها مجتمعي اليوم؟ وكيف أحمي نفسي منها؟
تاسعاً: الخاتمة - أنت والمشهد الأخير

أخي، أختي...

تخيل أنك وقفت يوم القيامة .رأيت الكفار الذين كانوا يغرون الناس باتباع سبيلهم .رأيتهم يحملون أثقالا ً عظيمة على ظهورهم، تئن منها ظهورهم .يسألون: لماذا نحمل هذه الأثقال؟ فيقال: هذه أوزاركم وأوزار الذين أضللتموهم.

ثم رأيت من تبعهم من الضعفاء .رأيتهم أيضاً يحملون أوزارهم .لا أحد يتحمل عن أحد .كل إنسان رهينة بما كسب.

فتشكر الله أن جعلك من الذين عرفوا الحقيقة، ولم ينخدعوا بوعود الكفار، ولم يكونوا سبباً في إضلا ل أحد.

هذه الآيات تذكرك: طريق البناء شاق، لكنه طريق الحق .لا تبع دينك بوعود كاذبة .لا تتبع المضلين . كن أنت القدوة الصادقة .وتحمل مسئولية نفسك ودعوتك.

وَقَالَ الذِينَ كفَرُوا لِلذِينَ آمَنُوا اتبِعُوا سَبِيلَنَا وَلنَحْمِلْ خَطَايَاكمْ وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُمْ مِنْ شَيْءٍ ۖ إِنهُمْ لكاذِبُونَ * وَلَيَحْمِلُنّ أَثقالهُمْ وَأَثقالا مَعَ أَثقالِهِمْ ۖ وَلَيُسأَلُنّ يَوْمَ القِيَامَةِ عَمّا كانُوا يَفتَرُونَ

المقطع الثاني
أن بناء الامه يحتاج إلى القدوه والنماذج الإرشادية حيث وان مواجهه التحديات والصعوبات والأ زمات والابتلاء يتطلب وجود اراده ومهارات وخبرات للتعامل مع الازمه ولهذا فإن ايات هذا المقطع تقدم لنا نماذج للاقتداء بهم
النموذج الاول
نموذج نوح عليه السلام : درس الصبر والثبات الجماعي قال تعالى.
{وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ (١٤) فَأَنجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ (١٥)}
يتجسد درس الصبر والثبات الجماعي من خلال الاتى :
١/ الوقوف مع الرقم المهيب: ٩٥٠ سنة

تأمل معي هذا المشهد الذي ترسمه الآية: نبي واحد، وقومه عاتون مستكبرون، وسنوات تمضي كأنها الدهر كله .ألف سنة إلا خمسين عاماً ...ليس رقماً عادياً، بل هو زمن تبنى عليه حضارات وتندثر أخرى .تخيل رجلا ً واحداً يقف كالصخر، كل صباح ينادي، وكل مساء يُكذّب، وكل عام يزداد إيماناً مع أن الأرض لم تنجب له إلا القليل.

لماذا يخبرنا الله بهذا الرقم بدقة؟ لأنه يريد أن يزرع في أعماقك حقيقة واحدة: النصر ليس سباقاً قصيراً، بل هو ماراثون الصابرين .لو كنت أنت مكان نوح، كم سنة كنت ستستمر؟ أكان صبرك ليبلغ العشرين؟ الخمسين؟ المئة؟ ثم تأتي الآية لتصفع ضعفك بلطف: هذا نبي الله، صبر تسعة قرون ونصف ، فماذا عنك أنت؟
2***/حين تخذلك النتائج ولا يخذلك اليقين

هنا الدرس الأعمق: دعوة نوح استمرت ٩٥٠ سنة، ولم يؤمن معه إلا القليل - قيل ثلاثة عشر فرداً فقط! تخيل أن تصل بعد كل هذا العمر إلى هذه الحصيلة .في منطق البشر، هذا فشل ذريع .لكن في ميزان الله، هذا هو الصبر الجميل بعينه.

الآية تنهى عن استعجال النتائج ليس بالمنع المباشر، بل بالصدمة الإيجابية: انظر إلى نوح! لو كان مستعجلا ً لانهار في السنة الأولى .لكنه فهم أن مهمته هي البلاغ، والهداية من عند الله .وأن القلوب تُفتح بوقت الله لا بوقتك أنت.

فما معنى "لا تستعجل النتائج" في سياق الآية؟ معناه: لا تجعل جفاء الناس وقسوة قلوبهم مقياساً لنجاحك .النجاح الحقيقي هو أن تظل واقفاً تنادي، حتى لو لم يسمعك أحد .أن تظل تؤمن بأن الحق سيعلو، حتى لو غطى الباطل الأفق كله.

3**/العبرة بالثبات لا بالسرعة: درس الـ "وحدك"

تخيل نوحاً يبني السفينة في الصحراء، والناس يمرون به يضحكون: "جننت؟ أين البحر؟" فيضحك هو في قرارة نفسه: "الطوفان قادم وأنتم لا تشعرون" .هنا يبرز المفهوم الأروع: العبرة بالثبات لا بالسرعة، حتى ولو كنت وحدك.

كيف تطبق هذا في حياتك؟ عندما تكون صاحب فكرة إصلاحية في مجتمع فاسد، أو عندما تدافع عن مبدأ وسط زحف الباطل، أو عندما تربي أبناءك على القيم وكل من حولهم يغرق في الشهوات . تشعر بالوحدة؟ لكن تذكر: سفينة نوح كانت تصنع على مرأى من الجميع، والساخرون كثيرون، و المؤمنون قليلون، ومع ذلك صنعت النجاة.

الثبات وحدك خير من الانكسار مع الجميع .هذا ما تهمس به الآية في أذنك: لا تخف من قلة السير معك، فالله مع الصابرين، والباطل مهما علا وتجبر فمصيره الزوال.

4/اليقين بنهاية الباطل: الطوفان ليس عقاباً فقط

ثم تأتي نهاية الآية الأولى: "فأخذهم الطوفان وهم ظالمون" .انظر إلى الدقة: لم يقل "فأخذهم الطوفان فماتوا" فقط، بل قيدها بوصف "وهم ظالمون" .لتعلم أن السنن الإلهية ثابتة: الظلم يجر الهلا ك، والتكذيب يجلب الدمار، لا انتقاماً شخصياً، بل قانوناً كونياً كقانون الجاذبية.

والطوفان نفسه كان نجاة للمؤمنين وهلاكاً للكافرين .نفس الماء الذي أغرق قوم نوح حمل سفينة المؤمنين .تأمل هذا المشهد: المصيبة الواحدة تكون رحمة لأقوام وعذاباً لآخرين، حسب ما في قلوبهم .

فالمؤمن حين تمر به الأزمات يراها تمحيصاً وتزكية، والكافر يراها عذاباً ونقمة.

5/النجاة في السفينة: العمل الجماعي رمزاً للحق

الآية الثانية: "فأنجيناه وأصحاب السفينة" .لاحظ: لم يقل "فأنجيناه ومن معه" فقط، بل خص السفينة بالذكر .لماذا؟ لأن السفينة ليست مجرد وسيلة، بل هي تجسيد لفكرة الجماعة المؤمنة المتماسكة.

السفينة هنا رمز لكل جماعة تمسكت بالمنهج الحق في وسط بحر الفتن .فالنجاة لم تكن فردية، بل جماعية .تخيل لو أن نوحاً نجا وحده، أما أصحاب السفينة فغرقوا! لكان المشهد مختلفاً .لكن الله أراد أن يعلمك أن الأمة المؤمنة كالسفينة، إن تداعت الأمواج من كل جانب، تظل متماسكة بهذا الرباط الإلهي.

وهذا يحمل درساً عظيماً لنا اليوم: لا تظن أنك تستطيع النجاة وحدك .الإيمان جماعة، والتحديات تعاون، والثبات تضامن .فتنة الحياة كبحر متلاطم، ومن يخرج عن السفينة يغرق، ومن يظل داخلها - حتى لو اهتزت به الأمواج- فهو آمن.

الامر الثاني

دروس نفسية عميقة: بناء الإنسان المتزن

1/ماذا تفعل هذه الآيات في النفس البشرية؟

أولاً: تربيك على الصبر النشط، وليس الصبر السلبي .صبر نوح لم يكن جلوساً وبكاء، بل كان حركة مستمرة: بناء، دعوة، استمرار، إصرار .هذا هو الصبر الذي تصنع به الحضارات.

ثانياً: تنقذك من فخ الإحباط .كم مرة شعرت أنك تعمل بلا نتيجة؟ الآية تقول: ٩٥٠ سنة ونتيجة ظاهرية ضعيفة، ومع ذلك كان النصر في النهاية .فلا تيأس من طول الطريق، فالعبرة بالخواتيم.

ثالثاً: تعلمك فصل المهمة عن النتيجة .مهمة نوح كانت الدعوة، وليس إجبار الناس على الإيمان . كثيرون يخلطون بين الأمور فيحبطون حين لا يرون تغييراً سريعاً .أما المؤمن العاقل فيعلم أن عليه الواجب، وعلى الله النتيجة.

رابعاً: تزرع فيك الثقة بأن الباطل زائل مهما طال .الطوفان جاء بعد ألف سنة إلا خمسين .لم يأتِ في السنة الأولى، ولا في المئة، بل في الوقت الذي قدره الله .علمني هذا ألا أستعجل هلاك الباطل، وألا أفزع من قوته المؤقتة.

2/الأبعاد التربوية والعقلية والفكرية

البعد التربوي: تعلم الآيات أن التغيير الحقيقي يحتاج إلى زمن طويل، وأن بناء الإنسان أبطأ من بناء الحجر .فمن يريد تربية جيل صالح عليه أن يتحلى بـ "النفس الطويل" الذي لا يمل ولا ييأس.

البعد العقلي: تقدم لنا الآيات دليلاً قاطعاً على حتمية زوال الباطل كنظرية يقينية .عندما ترى الظلم منتشراً، عقلك المؤمن يقول: "هذا مستحيل أن يستمر، فالسنن الإلهية تقول إن للظلم نهاية" .وهذا يريح النفس ويمنحها السكينة.

البعد الفكري: تصحح الآيات مفهوم النجاح الخاطئ الذي يربطه بالسرعة والكثرة .النجاح الحقيقي عند الله هو الثبات على الحق مع قلة السير .وهذا يحرر المؤمن من عبودية "النتائج السريعة".

البعد الحضاري: قصص الأنبياء ليست قصصاً للماضي، بل نماذج حية للبناء الحضاري .نوح عليه السلام بنى سفينته بتخطيط محكم وصبر طويل، واجتمع حوله فريق مؤمن قليل لكنه متماسك، فكانت النجاة .هذا هو بالضبط ما تحتاجه الأمة اليوم: تخطيط طويل المدى، صبر على الشدائد، وعمل جماعي مخلص.

3/النفس الطويل في مشاريع التنمية والبناء

تأمل: مشاريع التنمية الحقيقية -بناء الأمة، نهضة علمية، إصلاح اجتماعي- تحتاج إلى أجيال، لا إلى سنوات .التغيير الحضاري لا يحدث طفرة، بل هو تراكم صبور كبناء السفينة لوحاً لوحاً .من يظن أنه يغير أمة في عقد واحد واهم، ومن يخطط لمئة سنة فهو واقعي.

الامر الثالث
دروس من سفينة نوح للتنمية الحضارية:

١.التخطيط طويل المدى: صنع السفينة استغرق وقتاً، ونوح لم يستعجلها .أي مشروع نهضوي يحتاج إلى تأسيس متين لا إلى بريق سريع.

٢.العمل الجماعي: السفينة حملت الجماعة المؤمنة، والنجاة كانت جماعية .لا تنمية بلا فريق، ولا بناء بلا تعاون.

٣.الاعتماد على الله مع الأخذ بالأسباب: نوح صنع السفينة) السبب(، ثم توكل على الله) النتيجة .(هذا هو المزيج الذي يضمن النجاة من الأزمات.

٤.الصبر على السخرية: كما سخر قوم نوح منه وهو يبني، فكل مشروع إصلاحي سيواجه السخرية والتكذيب .الناجي من يصبر.

٥.اليقين بأن النهاية للحق: الطوفان جاء وأغرق الباطل .مهما طال الظلم فزواله محتوم، وهذه القناعة تمنح العاملين قوة الاستمرار.

الآيات آية للعالمين: عبرة لكل زمان ومكان

قوله: "وجعلناها آية للعالمين" - أي جعلنا هذه القصة) السفينة أو النجاة أو العبرة (علامة باقية لكل الناس إلى يوم القيامة .ليس لقوم نوح فقط، بل لكل من يمر بظروف مشابهة.

فأنت أيها القارئ، حين تمر بأزمة، وتشعر أنك وحدك، وأن الطريق طويل، وأن النتائج بطيئة، تذكر أنك لست أول من مر بهذا .قصة نوح موجودة في كتاب الله لتكون لك نموذجاً تطبيقياً لكيفية التعامل مع اليأس، وكيفية قلب الإحباط إلى إصرار.

الخلاصة: ماذا نأخذ من هاتين الآيتين؟

نأخذ سلاحاً نفسياً اسمه الصبر الطويل، ومنهجاً عقلياً اسمه اليقين بزوال الباطل، ونموذجاً تربوياً اسمه الثبات ولو وحدك، ورؤية حضارية اسمه العمل الجماعي المخطط، وخلاصة روحية اسمه الإيمان الصادق الذي لا يهتز.

الآيتان تدعوانك لتكون كالصخرة في وجه الأمواج: لا تزحزحك العواصف، ولا تخدعك السرعة الزائفة للباطل، ولا تحبطك قلة السائرين معك .أنت تبني سفينتك، والطوفان قادم لا محالة، فمن كان في السفينة نجا، ومن خرج عنها هلك.

وهكذا تتناسب الآيتان مع سياق السورة التي بدأت بـ "أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ" - لأن قصة نوح هي التطبيق العملي لهذا الاختبار: آمن فافتُتن ٩٥٠ سنة، ثم جاء النصر.

فكن أنت أيضاً صاحب النفس الطويل، تبني سفينتك، ولو ضحك الساخرون، فالنهاية للمتقين
النموذج الثاني.
نموذج ابراهيم عليه السلام
المبحث الأول
تفسير الآية ١٦ من سورة العنكبوت: إبراهيم نموذج التوحيد وبناء الأمة
الامر الاول
الانتقال من سفينة نوح إلى نار إبراهيم

بعد أن رسمت لنا الآيات السابقة صورة نوح عليه السلام، صاحب النفس الطويل الذي صبر ٩٥٠ سنة حتى جاء الطوفان، ننتقل الآن إلى مشهد جديد، مشهد مختلف تماماً لكنه يحمل الجوهر نفسه. من السفينة التي تطفو على الماء، إلى النار التي لا تحرق. من صبر نوح في دعوة قومه، إلى صبر إبراهيم في مواجهة أبيه وقومه وحتى النمرود.

تأمل معي هذا المشهد: إبراهيم وحيداً في وادٍ وثني، يعبد قومه الأصنام، وأبوه آزر يصنعها بيديه. لكن هذا الفتى الصغير، منذ أن رأى نور الحقيقة، لم يسكت. يقول الله: "وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ" - لاحظ الفعل "قال" في الماضي، كأن الله يريد أن يثبت لك أن هذه الكلمة التي خرجت

من فم إبراهيم كانت نقطة تحول في تاريخ البشرية.

"اعبدوا الله": كلمة واحدة تغير كل شيء

لم يقل إبراهيم لقومه كلاماً معقداً، لم يأتهم بفلسفة صعبة. قالها بكل بساطة: اعبدوا الله. أي: أخرجوا من عبادة الحجر إلى عبادة الخالق. أخرجوا من عبادة ما لا يسمع ولا يبصر إلى عبادة من يسمع ويرى ويعلم السر وأخفى.

ثم أضاف: "وَاتقوهُ" - أي اجعلوا بينكم وبين غضبه وقاية، وهي التقوى. فليست العبادة مجرد شعائر، بل هي سلوك وخوف ورجاء. التقوى هي أن تحرس قلبك ولسانك وجوارحك من أن تسير في غير طاعة الله.

ثم ختمها بحكمة بالغة: "ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لكمْ إِنْ كُنْتُمْ تعْلَمُونَ" - أي لو تعلمون حق العلم، لعرفتم أن توحيد الله خير لكم من كل ما تعبدون من دونه. خير لكم في دينكم ودنياكم وآخرتكم. لكنكم تجهلون، و الجاهل لا يطلب الخير حيث يكون.

الامر الثاني

لماذا إبراهيم بعد نوح؟ بناء السلسلة النبوية

هذا السؤال العميق: لماذا يأتي ذكر إبراهيم بعد نوح مباشرة؟ لأن الله يبني لك سلسلة متصلة من نماذج الصبر والتضحية. نوح كان نموذج الصبر الطويل أمام قوم كافرين، وإبراهيم كان نموذج التوحيد الخالص أمام أبيه وقومه الذين عبدوا الأصنام والكواكب.

وإبراهيم ليس مجرد نبي، بل هو أبو الأنبياء، الذي جعل الله في ذريته النبوة والكتاب. ومنه جاء إسماعيل وإسحاق ويعقوب ويوسف وموسى وعيسى ومحمد صلى الله عليهم جميعاً. فهو العمود الفقري للأمة.

فإذا كنت تريد بناء أمة، فابدأ بإبراهيم. لأن إبراهيم علمك: لا خوف في طريق الحق. كان الأب يصنع الأصنام، والابن يحطمها. كانت النار تشتعل، وإبراهيم يرمى فيها، ثم يقول: "حسبي الله ونعم الوكيل". فخرج منها سالماً.

الامر الثالث

1/دور الآية في بناء الأمة: التوحيد أساس النهضة

تأمل: أي أمة تبنى على غير توحيد، هي أمة على شفا جرف هار. لأن التوحيد هو الذي يعطي الإ نسان كرامته، يحرره من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، يحرره من الخوف من أحد سوى الله.

2/هذه الآية تبني في الأمة ثلاثة أسس متينة:

الأول: حرية الضمير. إبراهيم قال لقومه "اعبدوا الله" لكنه لم يجبرهم. علمهم أن الخير في التوحيد، ثم تركهم لاختيارهم. هذا يبني أمة لا تعرف الإكراه في الدين.

الثاني: الجرأة في قول الحق. إبراهيم كان شاباً وحيداً في مجتمع كافر، لكنه تحدى. لم يقل: "سأصبر حتى أكبر" أو "سأنتظر حتى يصبح لي أنصار". بل بدأ من حيث هو. هذا يعلم الأمة ألا تنتظر الظروف المثالية.

الثالث: التقوى كمنهج حياة. ليس التوحيد مجرد كلمة تقال، بل هو تقوى تحرك الجوارح. أمة بلا تقوى هي أمة بلا رادع داخلي، وسوف تنهار.

الامر الرابع

نموذج إبراهيم في مواجهة التحديات: دروس نفسية

الآية لم تذكر تفاصيل معركة إبراهيم مع قومه، لكن السياق العام في القرآن يكمل الصورة. تخيل معي موقف إبراهيم النفسي:

· كان أبوه يهدده بالرجم إن لم يكف عن دعوته .كيف يشعر الابن حين يواجه غضب أبيه؟ لكن إبراهيم قال: "سلام عليك، سأستغفر لك ربي".
· كان قومه يقررون إحراقه بالنار .تخيل أن تعرف أنك ستلقى في نار عظيمة غداً .أي إنسان ينام تلك الليلة؟ لكن إبراهيم نام قرير العين، لأنه قال: "إن الله يعلم".

· ثم النار يامرها الله: "كوني برداً وسلاماً على إبراهيم" .هنا الدرس الأعمق: التحدي الذي تخافه قد يتحول إلى نعمة لو كنت مع الله .النار التي أرادت إحراقه أصبحت برداً وسلاماً .وكذلك كل أزمة تواجهها في طريق الدعوة والإصلاح، إن صبرت ووثقت بالله، ستتحول إلى لطف خفي.

الامر الخامس

1/كيف تبني الأمة من خلال هذا النموذج؟

الأمة التي تريد النهضة تحتاج إلى رجال كإبراهيم:

· يبدأون من حيث هم، لا ينتظرون مناصب ولا جيوشاً.
· لا يخافون لومة لائم، حتى لو كان الأب والأقربون.
· يجمعون بين التوحيد النظري والتقوى العملية.
· يثقون أن الله ناصرهم، ولو ألقوا في النار.

2/الأمة التي تريد البناء تحتاج إلى عقيدة إبراهيمية:

· أن تعبد الله وحده، وتتقيه في السر والعلن.
· أن تعلم أن الخير كله في طاعة الله، والشر كله في معصيته.
· ألا تخاف إلا من الله، وألا ترجو إلا الله.

الامر السادس

الصلة بين الآية ١٦ وما قبلها: من الفتنة إلى الثبات

تذكر بداية السورة: "أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون". ثم جاءت قصة نوح نموذجاً للفتنة الطويلة والصبر الجميل. ثم تأتي قصة إبراهيم لتؤكد أن الفتنة قد تأتي على شكل نار حقيقية، وقد تأتي على شكل قطيعة الأب والأهل، وقد تأتي على شكل سلطان جبار كالنمرود.

لكن الثابت واحد: من يعبد الله ويتقه، ينجيه الله من كل فتنة. نوح نجا من الطوفان، وإبراهيم نجا من النار. فما الذي يمنعك أنت من النجاة من فتن زمانك؟ إنه التوحيد والتقوى.

الامر السابع

الإسقاط على واقع الأمة اليوم

الأمة الإسلامية اليوم تعيش أزمة هوية، أزمة انكسار نفسي، أزمة ثقة. بعضهم يظن أن الحل في التقليد الأعمى للغرب، وبعضهم يظن أن الحل في الانكفاء والهروب.

لكن الآية تقول: الحل هو العودة إلى التوحيد والتقوى، لا كشعارات، بل كمنهج حياة. التوحيد الذي يحررك من الخوف من أمريكا وإسرائيل ومن كل قوة بشرية. والتقوى التي تجعلك أمة تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر.

إبراهيم عليه السلام لم يمتلك جيشاً ولا مالا ً ولا سلطاناً، لكنه ملك قلبه، فملك التاريخ. أمة اليوم تملك كل المقومات المادية لكنها فقدت إيمانها، فهي مهزومة نفسياً قبل أن تهزم عسكرياً.

**الخلاصة: ماذا تعلمنا الآية ١٦؟

تعلمنا أن بناء الأمة يبدأ من كلمة "اعبدوا الله" التي تخرج من فم واحد لا يخاف في الله لومة لائم.

تعلمنا أن التقوى هي الحصن المنيع الذي يحفظ الأمة من الانهيار الداخلي قبل أن يحميها من الأعداء الخارجيين.

تعلمنا أن الخير كله في طاعة الله، والشر كله في الابتعاد عنها. فمن أراد الخير لأمته فليدعها إلى الله، لا إلى القوميات والأحزاب والمصالح.

تعلمنا أن النار لا تحرق من كان الله معه، وأن أصعب التحديات تتحول إلى نعمة حين نتوكل على الله حق توكله.

**كلمة أخيرة تصل إلى أعماقك

أنت أيها القارئ، قد تشعر أنك وحدك في مجتمعك، كإبراهيم وحيداً في أرض الكلدانيين. قد تشعر أن

الكل ضدك، وأن الأب يغضب والأهل يهجرون والأصدقاء يسخرون. لكن تذكر: نموذج إبراهيم موجود في كتاب الله ليقول لك: لا تستسلم.

ربما لن تلقى في نار حقيقية، لكنك ستلقى في نار الفتن، نار الشهوات، نار الضغوط الاجتماعية، نار الوساوس التي تهمس لك: "استسلم، ارجع، لا فائدة". عندها، تذكر نار إبراهيم التي صارت برداً وسلاماً. وتذكر أن الله معك، فلا خوف عليك ولا أنت تحزن.

قم وقل "اعبدوا الله واتقوه"، فذلك خير لك إن كنت تعلم. ولست وحدك أبداً، فالله معك، وجميع الأ نبياء والصديقين والشهداء معك في الروح والعبرة. أنت تبني أمة، فكن كإبراهيم، ولا تخف

المبحث الثالث

.تفسير الآيتين ١٧ و١٨ من سورة العنكبوت: تشخيص الداء ووصف الدواء

المشهد التمهيدي: إبراهيم يواجه قومه بجرأة الأنبياء

بعد أن قال إبراهيم لقومه "اعبدوا الله واتقوه ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون"، لم يسكتوا طبعاً. واجهوه بالحجج الواهية، وبالدفاع عن أصنامهم. وهنا تأتي الآية ١٧ لتكون الرد الحاسم الذي يشخص الداء في أعمق جذوره، ثم يصف الدواء بمنتهى الدقة.

تخيل نفسك مكان إبراهيم: أنت واقف أمام قومك، وكلهم يعبدون أصناماً من حجر أو خشب، بعضهم صنعها بيديه. كيف ستقنعهم بأن ما يفعلونه خطأ؟ إبراهيم لم يجادلهم بالمنطق فقط، بل فضح تناقضهم الداخلي بلغة تخترق الجدار النفسي الذي بنوه حول أنفسهم.

الامر الاول

الآية ١٧: تشخيص الداء في ثلاث جمل قاصمة

أولا ً: "إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا"

لاحظ كلمة "إنما" التي تفيد الحصر والقصر. كأن إبراهيم يقول: كل الذي تفعلونه، كل هذه العبادة التي تظنونها شيئاً، هي مجرد أوثان. لا قيمة لها، لا حقيقة لها. أوثاناً - جمع وثن، وهو ما عبد من دون الله. لكن اللفظة في عمقها تحمل معنى الثبوت والجمود، فالأوثان جامدة لا تتحرك، لا تنفع، لا تضر. أنتم تعبدون الجماد، وتتركون الخالق الحي القيوم.

اللمسة البلاغية هنا: تقديم "ما تعبدون" بصيغة الحصر، ثم تأتي كلمة "أوثاناً" منكرة (نكرة) لتحقيرها وتقليل شأنها. كأنه يقول: هذه مجرد أوثان تافهة لا تستحق الذكر.

ثانياً: "وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا"

هنا القمة البلاغية. تخلقون - من الخلق، أي الإبداع والإنشاء من العدم. إفكاً - أي كذباً مختلقاً. ما معنى هذا؟ إبراهيم يصفهم بأنهم يبدعون الكذب بأيديهم، ثم يعبدونه! فهم الذين صنعوا الأصنام، ثم صنعوا لها أسماء وأساطير وقدسوها، ثم صاروا يعبدونها.

تأمل هذا التناقض العجيب: أنت خلقت هذا الشيء، ثم أنت تعبده؟ كمن يبني تمثالا ً من طين ثم يسجد له. أي انحطاط للعقل هذا؟

اللمسة البلاغية: الفعل "تخلقون" في المضارع الدال على الاستمرار والتجدد. يعني أنهم كل يوم يخلقون أكاذيب جديدة لتبرير عبادة الأوثان. الإفك ليس سكونياً، بل يتجدد كلما ضعف عندهم وهم الباطل.

ثالثاً: "إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا"

بعد أن فضح عبادة الأوثان، ينتقل إلى الدليل القاطع على بطلانها: هذه الأصنام لا تملك لكم رزقاً. لا تملك لكم قوت يومكم، لا تملك لكم صحة ولا ولداً ولا مالا ً. هي جماد لا يملك شيئاً، فكيف ترجون منها خيراً؟

الامر الثاني

وهنا يأتي الدواء بعد تشخيص الداء مباشرة:

"فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ"

ابتغوا - اطلبوا وتحرّوا واجتهدوا في الطلب. الرزق عند الله، ليس عند الأوثان. فوجهوا طلبكم إلى من يملك الخزائن. هذا هو التحويل من العبادة الباطلة إلى العبادة الحقة.

"وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ"

العبادة ثم الشكر. العبادة هي الطاعة والخضوع، والشكر هو الاعتراف بالنعمة وإظهارها. من عبد الله وشكره، فتح الله عليه بركاته.

"إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ"

ختام الآية بتذكير بالمعاد: كلكم سترجعون إلى الله، وستجدون هناك الجزاء على ما كنتم تعبدون. هذا التهديد اللطيف يقرع القلوب.

ثانيا

الآية ١٨: تسلية للرسول وتثبيت للمؤمنين

بعد أن انتهى كلام إبراهيم مع قومه، ينتقل الخطاب إلى النبي محمد صلى الله عليه وسلم، وإلى كل مؤمن من بعده:

"وَإِنْ تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ"

هذا تخفيف للرسول. يعني: يا محمد، إن كذبك قومك، فليس هذا بشيء جديد. كل الأمم السابقة كذبت رسلها. نوح كُذِّب، وإبراهيم كُذِّب، وموسى كُذِّب، وعيسى كُذِّب. فاصبر كما صبروا.

"وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ"

هنا تحديد المهمة: مهمتك هي البلاغ الواضح، وليس إجبار الناس على الإيمان. ليس عليك هدايتهم، بل عليك أن تبلغهم رسالة الله ببيان ووضوح. النتيجة عند الله.

هذه الآية تريح قلب كل داعية: لست مسؤولا ً عن استجابة الناس، فقط بلغ الرسالة على أكمل وجه.

ثالثا

من تشخيص الداء إلى وصف الدواء: دروس حياتية لكل إنسان

الدرس الأول: كل مشكلة تحتاج إلى تشخيص دقيق قبل العلاج

تأمل كيف شخص إبراهيم داء قومه بدقة متناهية:

· الداء: عبادة الأوثان) عبادة ما لا يستحق العبادة(
· السبب العميق: خلق الإفك) اختلاق الكذب وتصديقه(
· النتيجة: حرمان من الرزق الحقيقي

ثم وصف الدواء:

· ابتغاء الرزق عند الله
· عبادة الله وشكره
· تذكر المعاد

هذا ينطبق على حياتنا العملية في كل مجال:

المعلم: قبل أن تعالج ضعف الطالب، شخّص السبب الحقيقي: هل هو ضعف في الفهم؟ قلة دافع؟ مشكلة أسرية؟ ثم صف الدواء المناسب.

الطبيب: لا يعطي دواء قبل التشخيص الدقيق. كل دواء خطأ قد يقتل. التشخيص نصف العلاج.

المربي: ابني مشكلة سلوكية عند طفلك؟ لا تنفعل وتضرب. اجلس، شخّص: هل هي للفت نظر؟ حاجة

عاطفية؟ ضعف مهارات؟ ثم تعامل.

المهندس: العطل في جهاز ما؟ تفحص أجزاءه واحدة واحدة، حدد موطن الخلل، ثم أصلح. لا تغير كل شيء.

الداعية: مجتمع فاسد؟ لا تبدأ بتوزيع المنشورات فقط. شخّص: ما جذور الفساد؟ الجهل؟ الفقر؟ الظلم ؟ فقدان القدوات؟ ثم صف العلاج المناسب لكل سبب.

الدرس الثاني: لا تخف من قول الحقيقة ولو كانت قاسية

إبراهيم قال لقومه: أنتم تعبدون أوثاناً، وتخلقون إفكاً. كلمات جارحة في آذانهم. لكنها الحقيقة. لم يجمّل، لم يداهن، لم يقل "يا قوم، ربما أخطأتم في بعض الأمور". بل قالها صريحة.

ونحن في حياتنا، نخاف أحياناً من قول الحقيقة للزوج، للوالدين، للمدير، للصديق، خوفاً من رد فعلهم. لكن إبراهيم علمنا: الحق أحق أن يتبع، والصادع بالحق لا يضيره شيء طالما نيته صادقة.

الدرس الثالث: افصل بين مهمتك والنتيجة

الآية ١٨ تقول: "وما على الرسول إلا البلاغ المبين". هذا هو التحرر من عبودية النتائج. كم مرة شعرت بالإحباط لأن مجهودك لم يؤتي ثماره؟ لأنك نصحت فلم يُستجب، لأنك علمت فلم يتعلم، لأنك أصلحت فلم يتغير شيء؟

الآية تهمس في أذنك: لست مسؤولاً عن النتيجة، أنت مسؤول عن العمل. بلغ بأحسن بيان، واترك الهداية لله. هذا يريح نفسك من ضغوط الكمال والنتائج.

اللمسات البلاغية العميقة في الآيتين

أولاً: أسلوب الحصر والقصر في "إنما"

"إنما تعبدون" تحصر العبادة في الأوثان، كأنها تقول: كل ما تظنونه عبادة هو مجرد وثن .لا شيء غير ذلك.

ثانياً: الإتيان بـ "أوثاناً" نكرة

لتحقيرها وتقليل شأنها. أي: أشياء تافهة لا تستحق أن تسمى آلهة.

ثالثاً: الفعل "تخلقون" المضارع

للدلالة على الاستمرار والتجدد. أنتم مستمرون في ابتكار الأكاذيب كل يوم.

رابعاً: الإفك - اختيار أشد كلمة للكذب

الإفك هو أشد الكذب وأبشعه، لأنه قلب للحقيقة رأساً على عقب.

خامساً: تقديم "عند الله" على "الرزق"

للدلالة على أن الرزق مخزون عنده وحده، وأن طلبه من غيره عبث.

سادساً: "البلاغ المبين" - تعريف البلاغ وإضافة المبين

للدلالة على تمام البلاغ ووضوحه الشديد، بحيث لا يبقى عذر لأحد.

كيف نعيش هذه الآيات في واقعنا؟

في مجال الدعوة والإصلاح:

· شخّص واقع مجتمعك بدقة: ما هي "الأوثان" المعاصرة التي يعبدها الناس من دون الله؟ المال؟

الجاه؟ الشهوات؟ الشخصيات؟ الأحزاب؟ القوميات؟ حدد الداء أولا ً.
· اكشف التناقضات كما كشف إبراهيم: الناس يعبدون أشياء هم أنفسهم صنعوها .القوانين الوضعية وضعها بشر، ثم يقدسونها .التقاليد صنعها الأجداد، ثم يعبدونها.
· ذكرهم بأن هذه الأوثان لا تملك رزقاً - لا تملك سعادة، لا تملك أماناً، لا تملك خلاصاً .الله وحده هو الرزاق.
· لا تستعجل النتائج - كما قال الله للرسول: ما عليك إلا البلاغ المبين.

في مجال التربية والتعليم:

· الأب والمربي: عندما يخطئ الابن، لا تكتف بالعقاب .شخّص: لماذا أخطأ؟ جهل؟ ضعف إرادة؟ رفقاء سوء؟ ثم عالج السبب.
· المعلم: الطالب الضعيف - هل السبب صعوبة المادة؟ طريقة تدريسك؟ مشكلة في البيت؟ إعاقة تعلم ؟ شخّص بدقة.
· المعلم في الجامعة أو المعهد: لا تلقن الطلاب فقط، بل علمهم كيف يشخصون المشكلات في مجالا تهم .خريج يعرف يشخص المشكلة هو أغلى من خريج يحفظ معلومات.

في مجال الطب والصحة:

· الطبيب الناجح هو الذي يبدأ بالتاريخ المرضي الدقيق والفحص الشامل قبل كتابة الدواء.
· كم من مرضى عولجوا من أعراض ومرضهم الحقيقي لم يُكتشف! الآية تعلمنا: لا تعالج العرض قبل أن تشخص الداء.

في مجال الهندسة والإدارة:

· مشروع فاشل؟ خطة لم تنجح؟ شخّص: هل الخلل في التخطيط؟ التنفيذ؟ الموارد؟ الفريق؟ ثم ع الج.
· الإدارة الناجحة هي التي لا ترمي باللوم على الآخرين، بل تجلس وتحلل أسباب المشكلة بموضوعية.

في الحياة الزوجية والأسرية:

· خلافات بين الزوجين؟ لا تنطلقا في اتهام بعضكما .اجلسا بهدوء، شخّصا: ما السبب الحقيقي؟ ضعف تواصل؟ تدخل أهل؟ ضغوط مالية؟ ثم ابحثا عن العلاج المناسب.
· إبراهيم علمك: قبل أن تحل المشكلة، افهمها فهماً عميقاً.

الأبعاد النفسية والتربوية والإيمانية

البعد النفسي: التحرر من وهم السيطرة

الآية ١٨ تحررك نفسياً من مرض "السيطرة على النتائج". كثير من الاكتئاب والإحباط سببه أن الإنسان يظن أنه مسيطر على كل شيء، فإذا لم تتحقق أهدافه يصاب بالإحباط. أما المؤمن فيعلم أن عليه السعي فقط، والنتيجة من الله. هذا يمنحه سلاماً نفسياً عجيباً.

البعد التربوي: تعليم مهارة التشخيص

الآيات تعلمنا مهارة حياتية أساسية: التشخيص قبل العلاج. في كل مناهجنا التعليمية، نركز على الحلول ونهمل مهارة تحليل المشكلة. طلابنا يحفظون نظريات لكنهم لا يستطيعون تشخيص مشكلة حقيقية في مجتمعهم. الآية تدعونا لتغيير ذلك.

البعد الإيماني: التوحيد الخالص

الأوثان ليست فقط أصناماً من حجر. كل ما صرفنا عن الله فهو وثن. الآية تجدد في قلبك التوحيد: لا تعبد إلا الله، ولا ترجو إلا الله، ولا تخاف إلا الله، ولا تطلب الرزق إلا من الله. هذه هي الحرية الحقيقية.

كيف تزودنا القصة بالمهارات لمواجهة التحديات؟

المهارة الأولى: مهارة تحليل الواقع

إبراهيم لم يهاجم قومه بعشوائية. حلل واقعهم بدقة: هم يعبدون أوثاناً (دينهم)، ويخلقون إفكاً (ثقافتهم وأساطيرهم)، ويرجون رزقاً من لا يملكه (اقتصادهم الخرافي). ثم بنى دعوته على هذا التحليل.

المهارة الثانية: مهارة التواصل المؤثر

إبراهيم استخدم لغة قوية، لكنها موجزة وحاسمة. لم يطل، أوجز. "إنما تعبدون أوثاناً" - جملة واحدة تكفي لفضح كل شيء. هذا هو التأثير.

المهارة الثالثة: مهارة إدارة الإحباط

عندما يصر قومه على الكفر، لم ييأس. لأنه يعلم أن مهمته البلاغ، والهداية من الله. هذه المهارة تحميك من الانهيار النفسي في أي مجال.

المهارة الرابعة: مهارة وضع الحدود

حدد مهمته: بلاغ مبين، وليس إجباراً. هذا يريحه من وهم أنه يملك تغيير القلوب.

تطبيقات عملية للمعلمين والمربين والدعاة

للمعلم: قبل أن تبدأ العام الدراسي، شخّص مستوى طلابك، نقاط قوتهم وضعفهم، خلفياتهم الأسرية. ثم صمم خطتك. أثناء العام، لا تحبط إذا لم يتقدم بعضهم بسرعة. مهمتك التعليم والتبيين، وليس تحويلهم إلى عباقرة بين ليلة وضحاها.

للمربي في الأسرة: ابنك في مراهقته يعاند ويتمرد؟ لا تصرخ وتضرب. شخّص: هل يمر بأزمة هوية؟ هل يحتاج استقلالية؟ هل يعاني من ضغط أصدقاء؟ هل قصّرت أنت في حقه؟ ثم تعامل بحكمة.

للداعية: مجتمعك يعاني من التطرف أو العلمانية أو الفساد؟ ادرس الجذور التاريخية، الأسباب الا قتصادية، العوامل النفسية. لا تطلق الفتاوى بلا فهم. شخّص ثم عالج.

للطبيب: مريض يشكو من تعب عام؟ لا تصرف له مسكناً وتخل سبيله. اسأل، وافحص، وحلل، ثم شخّص. التشخيص الدقيق وفر على المريض وقتاً ومالاً وألماً.

للمهندس: مشروع بناء فيه تشققات؟ لا تأمر بوضع الإسمنت فقط. ادرس التربة، الحمولات، نوع المواد، أخطاء التنفيذ. التشخيص الهندسي الدقيق يمنع الكوارث.

للمحامي: قضية خاسرة؟ حلل: هل الخلل في الأدلة؟ الشهود؟ النصوص القانونية؟ طريقة المرافعة؟ ثم حدد استراتيجيتك الجديدة.

الخلاصة: ماذا أخذنا من هاتين الآيتين؟

أخذنا مهارة تشخيص الداء قبل وصف الدواء، وهذه المهارة تنطبق على كل شيء في الحياة.

أخذنا التحرر من عبودية النتائج، فلا نحبط إذا لم نر ثمرة سعينا فوراً، فمهمتنا البلاغ والعمل، و النتيجة عند الله.

أخذنا الجرأة في قول الحق، حتى لو كان قاسياً، لأن التجميل لا ينفع في مواجهة الباطل.

أخذنا التوحيد العملي الذي يوجه طلب الرزق والعبادة والشكر لله وحده.

أخذنا عزاءً وتثبيتاً بأن ما نتعرض له من تكذيب ليس جديداً، فالأمم السابقة كلها كذبت رسلها.

كلمة تصل إلى أعماقك

أنت في حياتك اليومية، تواجه مشكلات كثيرة: في عملك، في بيتك، في مجتمعك، في علاقاتك. قد

تكون اندفعت في علاج بعضها دون فهم حقيقي، ففشلت. أو يئست لأن نتائجك لم ترضك. أو خفت من قول الحق فسكت، والفساد ينتشر.

الآن، تذكر إبراهيم. تذكر كيف شخّص، كيف تكلم، كيف واجه، ثم كيف ترك النتيجة لله. قف مع نفسك الآن واسألها: ما هي "الأوثان" التي أعبدها في حياتي من دون الله؟ ما هو "الإفك" الذي أخلقه وأصدقه وأدافع عنه؟ من أين أطلب رزقي حقاً؟

دع هذه الآيات تعيد برمجة عقلك وقلبك. كن طبيباً ماهراً يشخص قبل أن يعالج. كن رسولا ً صادقاً يبلغ ثم لا يحزن. كن إبراهيمياً لا يخاف في الله لومة لائم.

والله مع الصابرين، والمتشخصين بدقة، والبالغين بصدق، والمتوكلين عليه وحده.

المبحث الرابع

تفسير الآيات ١٩-٢٢ من سورة العنكبوت: منهج القرآن في بناء العقل والحضارة

المشهد الافتتاحي: من عبادة الأوثان إلى تأمل الكون

بعد أن كسر إبراهيم عليه السلام الأصنام، وبعد أن فضح داء قومه ووصف الدواء، وبعد أن سلّى الله رسوله والمؤمنين بأن التكذيب سنة الأمم، ينتقل السياق فجأة إلى مشهد كوني مهيب. إنه الانتقال من المعركة مع الأصنام إلى معركة بناء العقل.

تأمل هذا التحول البديع: كأن الله يقول لنا - ونحن نقرأ السورة - بعد أن تعلمنا الصبر من نوح، و التوحيد من إبراهيم، حان الآن وقت تأسيس المنهج العلمي المعرفي الذي يقوم عليه كل شيء. الآيات ١٩-٢٢ هي دستور التفكير الإسلامي، وهي التي مهدت الطريق لانطلاق الحضارة الإسلامية التي قادت العالم قروناً طويلة.

اولا

الآية ١٩: الاستفهام التوبيخي الذي يفتح العقل

"أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللهُ الخَلْقَ"

قف هنا طويلا ً. أوَلَمْ يَرَوْا - هذا الاستفهام ليس لطلب الجواب، بل للتوبيخ والتعجيب. معناه: كيف تغفلون عن هذا الأمر الواضح؟ إنه أمام أعينكم.

يروا - من الرؤية البصرية والفكرية معاً. أي: ألم ينظروا بأعينهم وعقولهم؟ ألم يتأملوا في هذا الكون من حولهم؟

كيف يبدئ الله الخلق - أي: كيف يبدأه أول مرة. من العدم إلى الوجود. من نطفة إلى بشر. من تراب إلى حيوان. من بذرة إلى شجرة. هذه هي البداءة، وهي أعجب من الإعادة، لأن الإعادة بعد وجود سابق أهون.

ثم يقول: "ثمّ يُعِيدُهُ" - أي بعد الموت يبعثه خلقاً جديداً. من التراب إلى الحياة مرة ثانية. من العظام الرفات إلى الأجساد السوية.

ثم الخاتمة: "إنّ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ" - أي أن بدء الخلق وإعادته أمر سهل على الله، لا يكلفه جهداً و لا عناء. فكيف تستبعدون البعث وأنتم ترون البدء كل يوم؟

اللمسة البلاغية: تقديم الرؤية على الفعل

لاحظ أن الآية بدأت بطلب الرؤية قبل ذكر الفعل. لأن الإيمان القائم على الرؤية والبصيرة أرسخ من الإيمان القائم على التقليد. القرآن يريدك أن تبني إيمانك على مشاهدة وتفكر، لا على مجرد أن قيل لك.

ثانيا

الآية ٢٠: الأمر بالسير في الأرض - ثورة منهجية

هنا تأتي أعظم آية في تأسيس المنهج التجريبي في الإسلام. يقول الله لنبيه: "قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ"

تأمل: لم يقل "آمنوا" فقط، بل قال سيروا، أي تحركوا، اخرجوا من أماكنكم، اتركوا مقاعدكم، انتقلوا

في الأرض. هذا أمر بالحركة الجغرافية، وبالحركة الفكرية معاً.

"فَانظُرُوا" - الأمر بالنظر، أي التأمل والتدبر والاستنتاج .ليس مجرد سياحة عابرة، بل سياحة تأملية بحثية.

"كَيْفَ بَدَأَ الخَلقَ" - ادرسوا كيف بدأ الله الخلق .اذهبوا إلى المتاحف، إلى الحفريات، إلى طبقات الأرض ، إلى آثار الأمم السابقة، إلى الأجنة في أرحام الأمهات .ادرسوا نشأة الكون والحياة بعيون المؤمن.

ثم يعيد التأكيد: "ثمّ اللهُ يُنْشِئُ النَشْأة الآخِرَة" - أي كما بدأ الخلق، سيعيده. والإعادة أهون من البدء في منطق البشر، أما الله فكلاهما يسير.

ثم الخاتمة: "إنّ اللهَ عَلى كلّ شَيْءٍ قدِيرٌ" - لا يعجزه شيء، لا بدء خلق ولا إعادة ولا بعث ولا حساب.

ثالثا

الآية ٢١: بين العذاب والرحمة - إدارة التوازن

"يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ" - بعد أن أثبت القدرة المطلقة، يخبرنا أن هذه القدرة تستخدم بحكمة .العذاب لمن استحق، والرحمة لمن آمن وتقى .ليس عشوائياً، بل وفق سنن وقوانين.

"وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ" - أي مرجعكم ومصيركم إليه .تقلبون - أي تردون وتتحولون .كأنها تذكير بأن الحياة رحلة، والوجهة النهائية إلى الله.

رابعا

الآية ٢٢: رسالة الأمن والطمأنينة (المقلوبة)

"وَمَا أَنتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ" - أي لن تعجزوا الله أينما كنتم .لا تستطيعون الهروب من قدره، لا في الأرض ولا في السماء لو تسلقتم إليها.

"وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ" - لا ولي يلي أمركم، ولا نصير ينصركم .فالتجئوا إليه وحده.

هذه الآية تخيف وترجي في آن: تخيف العاصي بأنه لا مهرب، وترجي المؤمن بأن الله وحده كافيه.

الامر الأول

لماذا هذا التحول من قصص الأنبياء إلى آيات الكون؟

السورة بدأت بالفتنة والاختبار، ثم نوح نموذج الصبر، ثم إبراهيم نموذج التوحيد والجرأة. ثم تأتي هذه الآيات لتقول: كل هذا الإيمان يحتاج إلى عقل يعمل. لا يمكن أن يكون الإيمان مجرد وجدان وعاطفة، بل يجب أن يكون مبنيّاً على براهين عقلية وآيات كونية.

الإسلام هو الدين الوحيد الذي أمر أتباعه بالسير في الأرض والبحث والتنقيب، في وقت كانت فيه الحضارات الأخرى تحرق العلماء وتكفر المفكرين. هذا الأمر الإلهي هو الذي أنتج الحضارة الإسلامية.

الامر الثاني

المنهج التجريبي في القرآن: كيف سبق الإسلام العلم الحديث؟

تأمل هذه الحقيقة المذهلة: العلم الغربي الحديث قام على المنهج التجريبي الذي يقول: اذهب إلى الطبيعة، لاحظ، جرب، استنتج. وهذا هو عين ما أمر به القرآن منذ ١٤٠٠ سنة: "سيروا في الأرض فانظروا".

لكن الفرق أن الغرب جعل التجربة غاية في ذاتها، أما الإسلام فجعلها وسيلة للإيمان بالله. نحن ندرس الكون لأنه كتاب الله المنظور، ونقرأ القرآن لأنه كتاب الله المسطور.

**كيف طبق المسلمون هذا المنهج؟

- الجاحظ في الحيوان: سافر وراقب ووثق آلاف الحيوانات.
- البيروني في الآثار الباقية: سار في الأرض ودون تاريخ الأمم.
- ابن الهيثم في البصريات: جرب وقاس واستنتج قوانين الضوء.
- الإدريسي في الخرائط: سار في الأرض ورسم أول خريطة دقيقة للعالم.

كل هؤلاء كانوا يرددون: "قل سيروا في الأرض فانظروا". هذه الآية هي التي أطلقت العقل المسلم.

الامر الثالث

أهمية معرفة السنن والسير في الأرض لبناء الوعي

أولا ً: السنن الإلهية ثابتة لا تتغير

السير في الأرض يعلمك أن سنن الله في الأمم ثابتة: كل ظالم هلك، وكل متكبر سقط. تذهب إلى آثار عاد وثمود وفرعون، ترى بعينك كيف كانت نهاية الطغيان. هذا يبني في نفسك يقيناً بأن الباطل زائل، حتى لو طال أمده.

ثانياً: تراكم الخبرات الحضارية

من سار في الأرض ودرس الأمم السابقة، يكتسب خبرات لا يكتسبها من الكتب فقط. يرى كيف بنوا، كيف أداروا، كيف انهاروا. يستخلص الدروس والعبر. هذا هو أساس التخطيط الحضاري السليم.

ثالثاً: بناء الشخصية المتوازنة

الإنسان الذي يرى تنوع الخلق، اختلاف الأعراق والألسنة والأديان، يتسع صدره، ويقل تعصبه، ويحسن التعامل مع الآخرين. هذا هو الوعي الحقيقي.

الامر الرابع

كيف نعيش هذه الآيات في واقعنا اليوم؟

في مجال التعليم والتربية:

للمعلم والمربي:

· لا تلقن الطلاب معلومات جاهزة فقط .خذهم في رحلات معرفية، علمهم كيف يسيرون في الأرض بأعينهم وعقولهم.
· علمهم المنهج العلمي كقيمة إيمانية: الملاحظة، الفرضية، التجربة، الاستنتاج .هذا ليس غربياً، هذا قرآني خالص.
· عندما تدرس التاريخ، لا تكتف بالأحداث، بل اسأل: ما سنن الله في هؤلاء القوم؟ لماذا سقطوا؟ كيف يمكننا ألا نكرر أخطاءهم؟

في مجال الدعوة والإصلاح:

للداعية:

· لا تعتمد على الوعظ فقط .قدم البراهين الكونية والعلمية للناس .أرهم كيف أن بدء الخلق دليل على الإعادة.
· كن داعية عقلانيا، يستخدم المنطق والتجربة والحجة، لا مجرد خطيب حماسي.
· عندما تواجه ملحداً أو مشككاً، لا تخف .خذه في رحلة في الأرض: انظر إلى الحمض النووي، إلى نظام الخلية، إلى اتساع الكون .كلها تشهد على خالق مدبر.

في مجال التنمية والبناء الحضاري:

للمخطط والمهندس والمعماري:

· قبل أن تبدأ مشروعاً تنموياً، سِرْ في الأرض أولا ً .ادرس تجارب الآخرين، تعلم من نجاحاتهم وإخفاقاتهم .لا تعيد اختراع العجلة.
· استفد من سنن الله في التغيير الحضاري: التغيير يبدأ من الداخل، يحتاج إلى صبر، إلى جماعة مؤمنة، إلى تخطيط طويل المدى.
· التنمية الحقيقية لا تأتي بالصدفة، بل بفهم السنن وتطبيقها .كما قال الله: "إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم".

في مجال الطب والعلم:

للطبيب والباحث:

· أنت تمارس ما أمر الله به: "سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق" .كل تجربة طبية، كل تشريح ، كل تحليل، هو تطبيق لهذه الآية.
· العلم عبادة، والبحث في خلق الله قربة .اجعل نيتك حين تدرس الجنين أو تعالج مريضاً أنك تتفكر في بدء الخلق.
· لا تفصل بين العلم والإيمان .فكل اكتشاف علمي يزيدك إيماناً وخشوعاً.

في الحياة اليومية لكل مسلم:

· اجعل جزءاً من وقتك للتفكر في الكون .انظر إلى السماء، إلى الجبال، إلى النباتات، إلى جسدك . كيف بدأ الخلق؟ كيف سيعاد؟
· سافر إذا استطعت .السفر ليس للترفيه فقط، بل للتعلم والاعتبار .انظر إلى آثار الأمم، إلى تنوع الخلق، إلى عظمة الله.
· عندما تقرأ الأخبار عن حروب وانهيار حضارات، لا تمر مرور الكرام .اسأل: ما سنن الله في هذه الأ حداث؟ كيف يمكن أن نستفيد؟

الامر الخامس
الأبعاد العميقة للآيات

البعد العقلي: بناء القناعة بالبرهان

الآيات تقدم منهجاً لبناء القناعة: لا تقلد، بل تأمل، ابحث، سافر، انظر، ثم استنتج. هذا يبني إنساناً واعياً لا يهزّه كل خطيب، ولا يخدعه كل إعلامي. إنساناً يعرف لماذا يؤمن، ويدرك دلائل إيمانه.

البعد النفسي: الأمن من الخوف

من عرف أن الله على كل شيء قدير، وأنه لا معجز له في الأرض ولا في السماء، وأن لا ولي ولا نصير سواه، شعر بالأمان الحقيقي. لا يخاف من ظالم، لأنه يعلم أن الظالم لا يعجزه. ولا يخاف من فقر، لأن الله يملك كل شيء. هذا هو الأمن النفسي العميق.

البعد التربوي: تعليم التفكير النقدي

الآيات تعلم الطفل والشاب ألا يقبل أي قول إلا بعد فحصه. لماذا تؤمن بالله؟ لأنني رأيت بدء الخلق. لماذا تؤمن بالبعث؟ لأن الإعادة أهون من البدء. هذا هو التفكير النقدي المؤصل في القرآن.

البعد الحضاري: أساس النهضة

كل نهضة تحتاج إلى ثلاثة أمور: حرية التفكير، منهجية البحث، الإيمان بقابلية التغيير. وهذه الآيات تقدمها كلها. حرية التفكير في "أولم يروا" و"قل سيروا"، ومنهجية البحث في "فانظروا كيف بدأ الخلق"، والإيمان بالتغيير في "ثم الله ينشئ النشأة الآخرة" و"إن الله على كل شيء قدير".

الامر السادس
دور هذه المفاهيم في بناء الحضارة الإسلامية

عندما نزل القرآن بهذه الآيات، كان العرب أمة أمية لا تقرأ ولا تكتب، تعيش في صحراء جافة، همها القبيلة والطعام والشراب. لكن هذه الآيات حولتهم إلى أمة تقرأ وتكتب وتبني وتبتكر.

كيف؟

· لأنها حررت عقولهم من الوثنية والخرافة.
· لأنها أمرتهم بالسفر والترحال، فاختلطوا بالأمم الأخرى وتعلموا منهم.
· لأنها جعلت العلم فريضة دينية، فاندفعوا يطلبونه في كل مكان.
· لأنها ربطت بين الإيمان والعلم، فلم يروا تعارضاً أبداً.

النتيجة: حضارة امتدت من الأندلس إلى الصين، قادت العالم في الطب والرياضيات والفلك والكيمياء والعمارة لقرون طويلة.

الامر السابع

1/كيف نستعيد هذه العقلية اليوم؟

الأمة الإسلامية اليوم تعاني من تخلف علمي وتفكيري. كثير من أبنائها يظنون أن الإيمان يعني إغلاق العقل، وأن التفكير كفر، وأن السفر للتعلم بدعة.

الآيات تصفع هذا الفهم الخاطئ: "قل سيروا في الأرض فانظروا" - أمر إلهي مباشر. السفر للعلم والتعلم والبحث ليس بدعة، بل طاعة. التفكر في الكون ليس كفراً، بل عبادة.

2/لإعادة بناء الحضارة، نحتاج إلى:

· تعليم يعتمد على المنهج التجريبي كما أمر القرآن.
· تشجيع البحث العلمي كفريضة دينية.
· فتح عقولنا للسفر والاطلاع على تجارب الآخرين.
· استعادة الثقة بأن الإسلام دين علم وتقدم، لا تخلف وجمود.

3/تطبيقات عملية في مجالات مختلفة

للمعلم في الفصل الدراسي:

عندما تدرس مادة العلوم، ابدأ بقراءة الآية: "قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق". اجعل الط لاب يشعرون أن درس اليوم هو تطبيق لأمر الله.

للداعية في المسجد:

لا تجعل خطبك كلها وعظ وترهيب. خصص خطبة للتفكر في خلق الله. خذ الناس في رحلة فكرية في الكون، وأرهم عظمة الله من خلال العلم.

للمهندس المعماري:

قبل أن تصمم مدينة أو مبنى، سافر وانظر إلى أرقى المباني في العالم. تعلم من أخطائهم ونجاحاتهم. هذا هو "سيروا في الأرض فانظروا" في تخصصك.

للطبيب:

في كل مرة تشخص مرضاً أو تعالج مريضاً، تذكر أنك تنظر في بدء الخلق. جسد الإنسان أعجوبة من أعاجيب الله. عملك هو تأمل في آيات الله.

للأب والأم:

ربوا أبناءكم على حب السفر والاستكشاف. اصطحبوهم إلى المتاحف، إلى الطبيعة، إلى آثار الحضارات السابقة. علموهم كيف ينظرون بعيون متأملة.

الخلاصة: ماذا أخذنا من هذه الآيات الأربع؟

أخذنا أمراً إلهياً بالسير في الأرض ليس للسياحة فقط، بل للتعلم والتدبر واستخلاص السنن.

أخذنا منهجاً علمياً تجريبياً يقوم على الملاحظة والنظر والاستنتاج، وهو عين ما قامت عليه الحضارة الحديثة.

أخذنا قناعة عقلية بأن بدء الخلق دليل على الإعادة، وأن الله على كل شيء قدير، فلا مستحيل في قدره.

أخذنا طمأنينة نفسية بأننا لا نستطيع الهروب من الله، ولا ولي ولا نصير سواه، فلنلجأ إليه وحده.

أخذنا رؤية حضارية تقوم على العلم والتفكر والسفر والتجربة، وهي التي قادت حضارة الإسلام السابقة، وهي وحدها القادرة على قيادة نهضتنا القادمة.

كلمة تصل إلى أعماقك

أنت أيها القارئ، مدعو الآن إلى رحلة جديدة. ليست رحلة على الأقدام فقط، بل رحلة العقل والقلب معاً. اخرج من قوقعتك، اترك التقليد الأعمى، افتح عينيك على هذا الكون المذهل.

انظر إلى السماء: كيف تسبح الأفلاك؟ انظر إلى الأرض: كيف تخرج النباتات من بذور ميتة؟ انظر إلى نفسك: كيف تكونت من نطفة ثم علقة ثم مضغة ثم عظاماً ثم لحماً؟

كل هذا هو بدء الخلق الذي أمرك الله بالتأمل فيه. وإذا كنت تعتقد أن الذي بدأ هذا قادر على إعادته ، فهنيئاً لك الإيمان. وإن كنت تشك، فما زالت أمامك فرصة السير في الأرض والنظر بعين لا تريد إلا الحقيقة.

قم الآن، وانطلق. الأرض كتاب مفتوح، والكون آيات تتلى. "قل سيروا في الأرض فانظروا" - ليست وصية، بل هي منهج حياة.

المبحث الخامس

تفسير الآية ٢٣ من سورة العنكبوت: اليأس من الرحمة.. قمة الخسران

المشهد الافتتاحي: بعد أن ساروا في الأرض ونظروا

بعد أن أمر الله نبيه أن يقول للناس: "سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق" ، وبعد أن أثبت أن بدء الخلق دليل على الإعادة، وأن الله على كل شيء قدير، تأتي هذه الآية لتضرب خطاً فاصلاً بين فريقين، وكأنها تقول: الآن، بعد أن وضحت لكم الآيات، وبعد أن أقمنا عليكم الحجة، من يصر على الكفر فسيصبح في مصير مختلف تماماً.

تأمل هذا المشهد الدرامي: فريق يؤمن بآيات الله ويلقاه، فيرجو رحمته. وفريق آخر يكفر بآيات الله وبلقائه، فييأس من الرحمة ثم يلقى العذاب الأليم. الآية لا تحتمل وساطة، ولا تترك مجالاً للتأويل. إنها لحظة الفرز النهائي.

وقفات مع النص: "وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ"

أولاً: "آيات الله"

ما هي آيات الله؟ هي كل ما دل عليه. آيات كونية: السماء، الأرض، الجبال، البحار، النبات، الحيوان، الإنسان، الكون بأسره. آيات شرعية: القرآن الكريم، الأحكام، القصص، الوعد والوعيد. آيات أفقية ونفسية: ما في الآفاق وما في الأنفس.

الكفر بها يعني: إما إنكارها جملة، أو تجاهلها، أو صرفها عن دلالتها، أو عدم الاستجابة لما تدعو إليه. إنه موقف من يرى النور ويغمض عينيه.

ثانياً: "ولقائه"

لاحظ: لم يقل "ولقاء رسله" ولا "ولقاء الملائكة". قال "لقائه" أي لقاء الله نفسه. وهذا من أعظم ما أخبر الله به. لقاء الله هو يوم القيامة، حين يبرز العباد للعلي القدير، فيسألهم عما عملوا، ويرون وجهه الكريم أو يحجب عنهم.

الكفر بلقاء الله هو: إنكار البعث، أو إنكار الحساب، أو الشك فيهما، أو الغفلة عنهما، أو الاستهانة بهما. إنه موقف من لا يستعد لرحلة العمر الحقيقية.

ثالثاً: الربط بينهما

لماذا جمع الله بين الكفر بآياته والكفر بلقائه؟ لأن آيات الله هي الطريق إلى لقائه. من كفر بالآيات، كيف يصل إلى الموصول؟ من أنكر الدليل، كيف يصل إلى المدلول؟ الآيات تهديك إلى الله، فإذا كفرت بها، فقد قطعت الطريق على نفسك.

"أُولَئِكَ يَئِسُوا مِنْ رَحْمَتِي"

هنا المفاجأة. قد تظن أن اليأس من الرحمة يكون بعد العذاب أو بعد الموت. لكن الآية تخبر أن اليأس يبدأ في الدنيا، بمجرد أن يكفر الإنسان بآيات الله ولقائه.

معنى اليأس من الرحمة

اليأس هو انقطاع الأمل. رحمة الله واسعة، وسعت كل شيء. "ورحمتي وسعت كل شيء". لكن من كفر بالآيات واللقاء، أغلق عليه باب الرجاء. لماذا؟

لأنه قطع الصلة بالله في الدنيا، فكيف يرجو صلته في الآخرة؟ لأنه أنكر الطريق، فكيف يصل إلى الهدف؟ لأنه أغمض عينيه عن النور، فكيف ينتظر الفجر؟

2/اليأس ليس من الله بل من رحمته

دقق: قال "يئسوا من رحمتي" ولم يقل "يئسوا مني". لأن الله لا يُيأس منه، لكن رحمته لها أسباب وشروط. الكافر بنفسه حرم نفسه من هذه الأسباب، فأصبح يائساً من نيل الرحمة. إنه حرمان ذاتي، وليس بخلا ً من الله.

3/اللمسة البلاغية: تقديم اليأس على العذاب

رتبت الآية: كفر -> يأس -> عذاب. اليأس هو المرحلة الوسطى التي تفصل بين الكفر والعذاب. وكأن الله يقول: الكفر يؤدي بك إلى حالة نفسية مروعة هي اليأس من الرحمة، وهذه الحالة هي التي تستوجب العذاب أو تؤدي إليه. أو أن اليأس نفسه جزء من العذاب النفسي قبل العذاب الجسدي.

"وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ"

بعد اليأس، يأتي العذاب الأليم. أليم من الألم، وهو الموجع الشديد. ليس عذاباً عادياً، بل عذاب يبلغ مبلغاً عظيماً من الألم النفسي والجسدي معاً.

لاحظ التكرار: "أولئك يئسوا... وأولئك لهم عذاب". تكرار اسم الإشارة "أولئك" للدلالة على أن هؤلاء هم المذكورون، هم المعنيون، هم الذين استحقوا ذلك بفعلهم.

4/لماذا هذه الآية بعد آيات السير في الأرض؟

الآيات السابقة دعت إلى السير في الأرض والنظر في بدء الخلق، كدليل على قدرة الله على الإعادة. هذه الآية تخبر بنتيجة من سار في الأرض ونظر لكنه كفر بما رأى. يعني: هناك من رأى الآيات بعينيه ، تأمل الكون، درس الحفريات، سافر إلى آثار الأمم، ثم قال: "هذا كله طبيعة وصدفة". هؤلاء يئسوا من رحمة الله.

والعكس أيضاً: هناك من سار في الأرض ونظر فازداد إيماناً، ورأى في كل ذرة آية، فازداد رجاءً برحمة الله. الآية تضعك أمام خيارين لا ثالث لهما: إما طريق الإيمان والرجاء، وإما طريق الكفر و اليأس والعذاب.

5/الأبعاد العميقة للآية

البعد النفسي: اليأس أخطر من الكفر؟

المدهش أن الآية لم تقف عند الكفر، بل تجاوزته إلى وصف الحالة النفسية الناتجة عنه: اليأس. لأن ا لإنسان قد يكفر لكنه لا ييأس، يبقى عنده أمل في التوبة أو في الرحمة. أما اليأس فهو موت الضمير ، هو انغلاق الباب تماماً. إبليس لم يقل قط "يئست من رحمتك"، بل قال "أنظرني إلى يوم يبعثون"، كان لا يزال يرجو المهلة. لكن الكافر بآيات الله ولقائه يصل إلى مرحلة "لا فائدة، لا رجاء، انتهى الأ مر". هذه هي القمة في الحرمان النفسي.

البعد العقدي: الإيمان بالآيات واللقاء شرط للرجاء

الآية تعلن أن الرجاء مرتبط بالعمل. ليس رجاءً مجرداً، بل رجاء مبني على الإيمان بالآيات والاستعداد للقاء. من لا يؤمن بالبعث، كيف يرجو الجنة؟ من لا يرى آيات الله، كيف يرجو رضا الله؟ الرجاء بلا عمل وهم، والعمل بلا رجاء قنوط، والإيمان يجمع بينهما.

البعد الدعوي: التحذير قبل التبشير

في الدعوة إلى الله، لا بد من الترغيب والترهيب. الآية تقدم الترهيب لمن أعرض، بعد أن قدمت الترغيب في آيات السير في الأرض. التوازن مطلوب: لا تخوف حتى تيأس، ولا ترج حتى تأمن. خوّف وارجُ معاً.

البعد التربوي: ربط النتائج بالمقدمات

كل مربٍّ يعلم أن التربية الناجحة تربط بين السلوك والنتيجة. الآية تفعل ذلك: كفر بآيات الله ولقائه => يأس من الرحمة => عذاب أليم. هذه سلسلة سبب ونتيجة واضحة، تعلّم الإنسان المسؤولية: أنت من تختار، وأنت من تتحمل.

6/كيف نعيش هذه الآية في واقعنا؟

أولا ً: في مجال التربية والتعليم

للمعلم والمربي:

· علم أبناءك أن الإيمان بالآيات ليس مجرد حفظ، بل مشاهدة وتأمل .خذهم إلى الطبيعة، أرهم السماء والأرض، علمهم كيف يرون آيات الله.
· علمهم أن اللقاء مع الله حقيقة لا شك فيها .ليس مجرد معلومة في كتاب، بل يوم سيقفون فيه بين يديه .اجعل هذا اليوم حاضراً في تربيتهم.
· احذر من أن يصل طفلك إلى اليأس من الرحمة .كيف؟ بزرع الأمل في قلبه، وتعليمه أن الله غفور رحيم، لكن مع تحميله المسؤولية.

ثانياً: في مجال الدعوة والإصلاح

للداعية:

· لا تتعامل مع الناس وكأنهم ملائكة، ولا تيأس منهم مهما كان كفرهم .اليأس من رحمة الله صفة الكافرين، فكيف تكون أنت يائساً من هداية الناس؟
· قدم لهم آيات الله بأسلوب جذاب .العلم الحديث، حقائق الكون، عجائب الخلق .اجعل الإيمان يصل إلى عقولهم قبل قلوبهم.
· ذكرهم بـ لقاء الله .ليس بطريقة تخويفية فقط، بل بطريقة تحفزهم على الاستعداد .كما يذكر الطالب بالامتحان فيذاكر، كذلك المؤمن يذكر باللقاء فيعمل.

ثالثاً: في مجال الصحة النفسية

للطبيب النفسي والمعالج:

· كثير من حالات الاكتئاب واليأس التي تراها في عيادتك، سببها عميق هو فقدان الإيمان بالله و اللقاء .المريض يشعر أن الحياة عبث، لا معنى لها، لا هدف .هذا هو اليأس من رحمة الله بعبارة أخرى.
· العلاج الحقيقي ليس دواء فقط، بل إعادة بناء المعنى .ساعد مريضك على رؤية آيات الله في خلقه ، وعلى الإيمان بأن هناك لقاء وحساباً وجزاء .هذا يمنح الحياة قيمة وهدفاً.
· لكن احذر: لا تخلط بين اليأس المرضي) الاكتئاب السريري (واليأس الإيماني .الأول يحتاج علاجاً طبياً، والثاني يحتاج دعوة وتذكيراً.

رابعاً: في مجال التنمية الذاتية

لك أيها القارئ:

· اسأل نفسك: هل أنا من الذين يرون آيات الله في كل شيء، أم أن عيني لا ترى إلا المادة؟ كم مرة نظرت إلى السماء وتأملت؟ كم مرة رأيت زهرة أو جنيناً أو منظراً خلاباً فقلت "سبحان الله"؟
· اسأل نفسك: هل أنا مستعد للقاء الله؟ هل أعيش وكأن لقاء الله غداً؟ أم أن الغفلة أخذت مني كل شيء؟

· اسأل نفسك: هل في قلبي يأس من رحمة الله؟ أظن أن ذنوبي أكبر من مغفرته؟ هذا يأس، وصفة الكافرين .تب وارجع، فباب الرحمة مفتوح لمن يؤمن بالآيات ويستعد للقاء.

اللمسات البلاغية والبيانية العميقة

أولا ً: تعريف "الذين" وإضافتهم للكفر

"والذين كفروا" - تعريف الأداة "الذين" يفيد الحصر أو التعظيم أو الذم .أي أن هؤلاء هم المعنيون بـ الذم، وهم من اتصفوا بهذه الصفة.

ثانيا: جمع "آيات" مع "لقائه"

جمع الآيات للإشارة إلى كثرتها وتنوعها، وإفراد اللقاء للإشارة إلى عظمته. آيات الله كثيرة متنوعة، ولقاء الله واحد لكنه أعظم.

ثالثا: تقديم اليأس على العذاب

للدلالة على أن اليأس من الرحمة هو بداية العذاب النفسي، أو أنه نتيجة حتمية للكفر. وقد قيل: اليأس أشد من العذاب، لأنه موت القلب قبل موت الجسد.

رابعا: إضافة الرحمة إلى ياء المتكلم

"رحمتي" - إضافة الرحمة إلى الله للدلالة على عظمتها واختصاصها به .رحمة الله ليست كرحمة البشر، إنها أوسع وأعمق وأبقى.

خامسا: "عذاب أليم" - نكرة مضافة إلى نعت

جاء العذاب نكرة للتهويل والتعظيم، ووصف بـ "أليم" لتأكيد شدة الألم. ليس أي عذاب، بل عذاب عظيم مؤلم.

العلاقة مع سياق السورة

السورة بدأت بـ "أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون". الفتنة اختبار. ثم ذكرت قصة نوح: صبر ٩٥٠ سنة. ثم إبراهيم: واجه النار. ثم أمرت بالسير في الأرض والنظر. ثم تأتي هذه ا لآية لتقول: نتيجة الاختبار. من اجتاز الفتنة وصبر وآمن بالآيات واستعد للقاء، له رحمة الله. ومن كفر بالآيات واللقاء، يئس من الرحمة وله عذاب أليم.

إنها خريطة طريق كاملة:

1.تعرف أنك ستمتحن.
2.تعلم الصبر من نوح.
3.تعلم التوحيد والجرأة من إبراهيم.
4.تعلم المنهج العلمي من "سيروا في الأرض".
5.اختر: إيمان يوصلك للرحمة، أم كفر يوصلك لليأس والعذاب.

الخلاصة: ماذا أخذنا من هذه الآية؟

أخذنا أن الكفر بآيات الله ولقائه ليس مجرد خطأ فكري، بل هو حالة نفسية مدمرة تصل بالإنسان إلى اليأس من رحمة الله، وهذه أسوأ حالة يمكن أن يصل إليها إنسان.

أخذنا أن الإيمان بالآيات واللقاء هو مفتاح الرجاء، وباب الأمل، وطريق النجاة.

أخذنا أن رحمة الله واسعة لكنها لمن آمن وعمل واستعد، وليست لمن كفر وأعرض.

أخذنا أن العذاب الأليم هو النهاية المحتومة لمن اختار طريق الكفر واليأس.

كلمة تصل إلى أعماقك

أنت الآن أمام لحظة حاسمة. الآية ليست مجرد معلومات تحفظ، بل هي مرآة تنظر فيها إلى قلبك. اسأل نفسك بصدق:

هل ترى آيات الله في كل شيء؟ عندما تنظر إلى السماء، إلى عينيك، إلى قلبك الذي ينبض، إلى الطفل الذي يولد، إلى الشجرة التي تثمر - هل ترى فيها خالقاً مدبراً؟ أم تمر عليها كالأعمى؟

هل تؤمن بلقاء الله؟ هل تعيش وكأنك ستقف بين يديه غداً؟ هل تستعد لذلك اللقاء بأعمالك؟ أم أنك تتصرف وكأن الموت للآخرين فقط؟

هل في قلبك يأس من رحمة الله؟ هل أذنبت ذنباً كبيراً فظننت أن الله لا يغفره؟ هل أسأت فأيقنت أن التوبة لا تنفع؟ هذا هو اليأس، وهذه صفة الكافرين.

أما أنت، فباب الرحمة مفتوح. "قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً". لكن شرط ذلك أن تؤمن بآيات الله فتنظر إليها بعين البصيرة، وتؤمن بلقائه فتستعد له بكل ما أوتيت من قوة.

اختر الآن. الطريق واضح. الآيات أمامك. والله يراك ويعلم ما في نفسك. لا تيأس من رحمته، ولكن لا تستهن بعذابه. واعلم أن الراجي من دون عمل واهم، والآمن من دون خوف غافل، والمؤمن يجمع بين الرجاء والخوف، وبين النظر والعمل، وبين السعي والدعاء.

تلك هي الآية ٢٣ من سورة العنكبوت. ليست تهديداً بقدر ما هي إنقاذ. تحذير من طريق مسدود، ودعوة إلى طريق النور. فهل أنت مستجيب؟

المبحث السادس

تفسير الآية ٢٤ من سورة العنكبوت: عندما تعجز الحجة فتسلط القوة

المشهد التمهيدي: إبراهيم يفحمهم بالحجة

تخيل معي المشهد: إبراهيم عليه السلام واقف أمام قومه، وقد ألقى عليهم الحجج الدامغة واحدة تلو الأخرى. قال لهم: "اعبدوا الله واتقوه". ثم فضح أوثانهم: "إنما تعبدون من دون الله أوثاناً وتخلقون إفكاً". ثم حاجهم بالمنطق: "إن الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقاً". ثم دعاهم إلى السير في الأرض والنظر في بدء الخلق.

لقد أفحمهم بالحجة. لم يعد لديهم كلمة يردون بها. لم يستطيعوا أن يقولوا: "أنت مخطئ" لأن عقولهم -إن كانوا منصفين- تقول لهم إنه على حق. لم يستطيعوا أن يأتوا ببرهان على صحة آلهتهم، لأن آلهتهم لا تنطق ولا تسمع ولا تبصر.

فماذا يفعل من انكسرت حجته؟ ماذا يفعل من فضحه الحق وأظهر ضعف باطله؟ هنا يأتي قانون سنني ثابت: الذين يعجزون عن رد الحجة بالحجة، يلجأون إلى ردها بالقوة. لا يجدون وسيلة لإسكات الحق إلا بالسلاح والتهديد والعنف.

"فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ"

لاحظ التعبير القرآني العجيب: "فما كان جواب قومه إلا أن قالوا". كأنه يقول: لم يكن لهم جواب البتة! لا حجة، لا منطق، لا دليل. صمتوا تماماً أمام البرهان. ثم بدلاً من أن يعترفوا بالحق، قالوا: اقتلوه أو حرقوه.

هذا هو التحول من الحوار إلى العنف. هذا هو قانون الطغاة في كل زمان ومكان: عندما تنكسر حجتهم، ينكسرون هم أيضاً، لكنهم لا ينكسرون بالاعتراف، بل ينكسرون بالغضب والقوة. يسكتون عقولهم، ويستيقظون غرائزهم.

"اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ" - خياران، كلاهما إعدام

لاحظ أنهم لم يقل: "احبسوه" أو "سجنوه" أو "نفوه". قالوا مباشرة: القتل أو الحرق. هذا يعكس شدة الغضب والحنق. لقد أزعجهم إبراهيم إلى درجة أنهم يريدون تصفيته جسدياً. لا يريدون حواراً، يريدون إعداماً.

و"أو" هنا للتخيير، لكن كلا الخيارين يؤدي إلى النهاية نفسها: الموت. بعضهم اقترح القتل بالسيف، وآخرون قالوا: لا، أحرقوه في نار عظيمة ليكون عبرة لمن يأتي بعده. وكان رأي الأكثرية أن يحرقوه.

الامر الاول

سنة من سنن التاريخ: الحجة تعجز فتظهر القوة

هذه ليست حادثة عابرة في قصة إبراهيم. هذه سنة ثابتة في صراع الحق والباطل:

· نوح عليه السلام، بعد أن دعا قومه ٩٥٠ سنة، ماذا قالوا؟ "لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ" الشعراء .(١١٦ قالوا: سنرجمك.
· هود عليه السلام، قال لقومه عاد: "قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ" الأعراف (٧٠ - استهزاء وتحدي.
· صالح عليه السلام، قالوا: "يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ") هود.(٦٢
· شعيب عليه السلام، قالوا: "وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ" هود.(٩١
· موسى عليه السلام، قال فرعون: "لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ") الأعراف.(١٢٤
· محمد صلى الله عليه وسلم، قال المشركون: "أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولا ً") الفرقان(٤١ ، وقالوا: "لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ") الزخرف(٣١ ، وحاولوا قتله أكثر من مرة.

الخلاصة: كلما جاء رسول بالحق، وأفحم المبطلين بالحجة، لم يجد المبطلون سوى القوة والتهديد. هذه سنة الله في خلقه: الباطل لا يملك سلاحاً غير القهر والإرهاب، بينما الحق سلاحه البيان و الحجة. لكن حين يسكت البيان، يعلو السلاح.

الامر الثاني

دروس مستفادة من هذه السنة

الدرس الأول: لا تندهش عندما يواجه الحق بالقوة

إذا كنت داعية إلى الله، أو مصلحاً في مجتمعك، أو حتى إنساناً يقول كلمة حق، وتوقع أن يواجهك البعض بالتهديد والوعيد والضغط، فلا تندهش. هذه هي سنة الله. إبراهيم واجه القتل والحرق، فماذا تنتظر أنت؟ هذا لا يعني أنك ستلقى في النار حرفياً، لكن معناه أن أصحاب الباطل سيسخرون كل وسائل قوتهم لإسكاتك.

الدرس الثاني: القوة دليل ضعف، وليس دليل قوة

الذي يلجأ إلى التهديد والعنف هو في الحقيقة ضعيف الحجة. لو كانت حجته قوية، لاستخدمها. لكنه عندما يعجز عن المنطق، يلجأ إلى السيف. فلا تخف من تهديدهم، فتهديدهم دليل انكسارهم الداخلي، وليس دليل قوتهم. هم يخافون من حجتك أكثر مما تخاف أنت من سيفهم.

الدرس الثالث: الحوار ينتهي حيث تبدأ القوة

هذا واقع مرير: الطغاة لا يحاورون، هم يقتلون. لا تنتظر منهم إنصاتاً أو اعترافاً بالحق. قد تضطر إلى المواجهة بعد أن تغلق كل أبواب الحوار. لكن تذكر أن الله مع الصابرين.

"فَأَنْجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ"

بعد أن أجمع قوم إبراهيم على إحراقه، وجمعوا حطباً عظيماً، وأوقدوا ناراً هائلة -يروى أنهم أوقدوها ثلاثة أيام حتى اشتد لهبها- ثم رموا إبراهيم في وسطها بمقلاع، جاءت المعجزة التي أراد الله أن تكون آية للعالمين.

"فَأَنْجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ" - لم يقل "فأطفأ الله النار" أو "فأخرج إبراهيم قبل أن تحرقه" .قال فأنجاه منها، أي أنه دخلها ثم خرج منها سالماً .النار بقيت ناراً، لهبها موجود، حرها موجود، لكنها لم تؤثر في إبراهيم.

وتفصيل ذلك في آية أخرى: "قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ" (الأنبياء ٦٩). النار أطاعت أمر ربها: أصبحت باردة (لا تحرق)، وسلمًا (لا تؤذي). هذا هو أعظم مشهد: النار تعصي طبيعتها لتطيع خالقها. وهي نفس النار التي أعدها قوم إبراهيم لتكون عذاباً، صارت برداً وسلاماً.

الامر الثالث
دلالة المعجزة: آية لمن يؤمن، وليست هداية للجاحدين

ثم يقول الله: "إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ"

انتبه: لم يقل "للقوم" أو "للناس". قال "لقوم يؤمنون". أي أن هذه المعجزة العظيمة - نار لا تحرق نبي الله - هي آية واضحة، لكنها لا تفيد إلا من عنده استعداد للإيمان. أما القلب الجاحد، المعاند، الذي أغلق عقله وقلبه، فحتى المعجزة لن تهديه.
المفهوم الأول1
لماذا لا تهدي المعجزات الجاحدين؟

لأن الجاحدين لا يعيشون في حالة حياد، بل في حالة استعداد مسبق للرفض. إبراهيم أمامهم، يرون النار لا تحرقه، يشاهدون بأعينهم خرقاً لقوانين الطبيعة. لكن قلوبهم قاسية، وعقولهم مغلقة، فيقولون: "سحر" أو "خداع" أو "أوهام". كما قال فرعون أمام عصا موسى: "سحر مبين". وكما قال كفار قريش أمام انشقاق القمر: "سحر مستمر".

المعجزة لا تخلق الإيمان من العدم، بل تنير الطريق لمن يبحث عنه. من لديه استعداد للبحث عن الحقيقة، يرى المعجزة فينقاد. ومن أغلقه الكبر والعناد، يبقى في ضلاله.
المفهوم الثاني
الاستعداد القلبي شرط الرؤية

هذا مبدأ عظيم: الهداية ليست مجرد مشاهدة، بل استعداد داخلي. قال تعالى: "إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ" (القصص ٥٦). وقال: "وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ" (يونس ١٠١).

فإذا كنت تنتظر آية أو معجزة لتؤمن، فاعلم أن قلبك هو المشكلة، وليست قلة الآيات. لأن الآيات حولك لا تعد ولا تحصى. السماء، الأرض، الجبال، البحار، الإنسان نفسه - كلها آيات. لكنك تحتاج إلى قلب سليم يرى.
المفهوم الثالث
الأبعاد العميقة للآية

البعد النفسي: الطغاة يلجؤون للعنف عندما يفقدون الحجة

تحليل نفسي رائع: عندما يشعر الإنسان بالهزيمة الفكرية، يمر بمرحلة من العجز والإحباط. هذا الإحباط يتحول إلى غضب، والغضب يتحول إلى عدوان. الطاغية لا يحتمل أن يظهر أحد بمستوى فكري يفوقه، فيريد إسكاته بأي ثمن. هذه الحالة تجعله يقدم على جرائم يندم عليها لاحقاً، لكن الغضب يعمي البصيرة.

البعد التربوي: لا تخف من المواجهة

علمتنا الآية أن المواجهة مع الباطل قد تصل إلى حد التضحية بالحياة. لكن من كان مع الله، فلا خوف عليه. إبراهيم ألقي في النار فكانت برداً وسلاماً. ليس معنى هذا أن كل مؤمن سينجو من النار حرفياً، لكن المعنى أن الله سينجيه من كل كرب، إما بنجاة حسية أو بأجر عظيم في الآخرة.

البعد العقلي: المعجزات لا تلغي سنن الله إلا لحكمة

النار تحرق عادة. هذه سنة الله في الكون. لكن حين أراد الله أن يظهر آية لنبيه إبراهيم، علق هذه السنة مؤقتاً. المعجزة استثناء مؤقت من السنن لإثبات صدق النبي. لكنها لا تلغي السنن كلها. وهذا يثبت أن الله قادر على كل شيء، وأنه ليس أسيراً لقوانين الطبيعة بل هو واضعها.

البعد الدعوي: الحجة أولاً، ثم الصبر على الأذى

إبراهيم لم يبدأ بمعجزة النار، بل بدأ بالحجة والمنطق. ظل يدعوهم سنين بالتي هي أحسن، يجادلهم بالتي هي أحسن، حتى أفحمهم. وعندما لم يبقَ مجال للحوار، وعندما لجأوا إلى القوة، أظهر الله معجزته. هذا تسلسل طبيعي: الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة، فإن لم يجدوا، فالمجادلة بالتي هي أحسن، فإن عاندوا واستكبروا، فالصبر والثبات حتى يأتي نصر الله.

المفهوم الرابع
كيف نعيش هذه الآية في واقعنا؟

أولاً: كداعية أو مصلح اجتماعي

· توقع المقاومة: لا تتفاجأ إذا قوبلت دعوتك بالتهديد أو التشويه أو الإقصاء .هذه سنة الله في كل إصلاح .إبراهيم واجه القتل والحرق، فما بالك أنت؟
· أحكم حجتك أولاً: لا تستعجل إلى مرحلة المواجهة .كما فعل إبراهيم، ابدأ بالحوار الهادئ، بالحجة الدامغة، بالمنطق المقنع .إذا أتقنت الحجة، وأفحمت الخصم، فإن لجأ إلى القوة تكون أنت المنتصر أدبياً وأخلاقياً، حتى لو كنت الأضعف مادياً.
· لا تخف من تهديدهم: تهديدهم دليل ضعفهم .القوي في الحجة لا يحتاج إلى تهديد .من يهددك، فهو يخاف منك .فازدد قوة وثباتاً.

ثانياً: كمربي ومعلم

· علم أبناءك ألا يخافوا من قوة الباطل: ربهم على الشجاعة الأدبية .علمهم أن يقولوا الحق ولو كان مراً، وألا يرهبهم تهديد أو ضغط .إبراهيم لم يخف من إحراقهم، وقدوتهم في ذلك.
· علمهم أن المعجزات ليست شرطاً للإيمان: لا تنتظر أن تنشق الأرض أو تنزل عليك مائدة من السماء لتؤمن .الآيات حولك في كل مكان .قلب المؤمن هو من يرى، والقلب الجاحد هو من يعمى.
· علمهم أن النصر قد يأتي بأشكال غير متوقعة: إبراهيم نجا من النار، لكنه لم ينتقم من قومه .النصر ليس دائماً بالقوة العسكرية، بل قد يكون بالثبات والصبر، وقد يكون بالنجاة ثم الهجرة ثم بناء أمة جديدة.

ثالثاً: في حياتك الشخصية

· عندما تتعرض لظلم أو تهديد: تذكر أن الله معك .قد لا تأتيك معجزة نار لا تحرق، لكن الله قادر أن ينجيك من كربك بطرق لا تخطر على بالك .ثق به، وتوكل عليه.
· لا تجعل الخوف من القوة يمنعك عن الحق: كم مرة سكتنا عن كلمة حق خوفاً من رد فعل أحد؟ كم مرة تخلينا عن مبدأ لأننا خفنا من تهديد؟ إبراهيم يصرخ في وجهك: "لا تخف، النار لا تحرق من كان الله معه".
· اختبار الاستعداد: اسأل نفسك: هل أنا ممن يرى آيات الله في كل شيء؟ أم أن قلبي مغلق حتى لو رأى المعجزات؟ النار التي لم تحرق إبراهيم، رآها قومه فلم يؤمنوا .فماذا عنك؟

الامر الرابع
اللمسات البلاغية والبيانية

أولاً: "فما كان جواب قومه إلا أن قالوا"

أسلوب حصر: لم يكن لهم جواب سوى هذا. أي أنهم عجزوا عن الكلام، فانتقلوا إلى الفعل العنيف.

ثانياً: "اقتلوه أو حرقوه"

التعبير بالأمر المباشر يدل على شدة الغضب والاستعلاء. وكأنهم يظنون أنهم يملكون الحياة والموت.

ثالثاً: "فأنجاه الله من النار"

الفاء تفيد التعقيب السريع. لم يتركوه في النار إلا لحظات حتى جاء النجاة. وهذا يصور قدرة الله الفائقة.

رابعاً: "إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون"

تأكيد بـ "إن" واللام، للدلالة على أن هذه القصة مليئة بالآيات والعبر. لكنها خاصة بالمؤمنين، أي بمن يريدون الاهتداء.

العلاقة مع سياق السورة

السورة كلها عن الفتنة والاختبار. بدأت ب "أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون".

ثم قصص نوح وإبراهيم. نوح صبر على تكذيب قومه ٩٥٠ سنة. إبراهيم صبر على تهديد قومه بالقتل والحرق. وكلاهما نجا: نوح نجا في السفينة، وإبراهيم نجا من النار.

ثم أمرت الآيات بالسير في الأرض والنظر في بدء الخلق. ثم حذرت من الكفر بالآيات واللقاء. ثم جاءت هذه الآية لتؤكد أن الفتنة قد تصل إلى حد التهديد بالقتل، لكن المؤمن الصادق يثبت، والله ينجيه.

الخلاصة: ماذا أخذنا من الآية ٢٤؟

أخذنا سنة ثابتة في صراع الحق والباطل: عندما تعجز الحجة، يلجأ الباطل إلى القوة. فإذا واجهت تهديداً في طريق الحق، فاعلم أنك تسير على خطى الأنبياء.

أخذنا معجزة النار التي تعلن أن الله قادر على قلب السنن، وأن المؤمن ليس أسيراً لقوانين الطبيعة، بل تحت حماية خالقها.

أخذنا أن المعجزات آيات للمؤمنين فقط. ليست وسيلة إكراه للجاحدين، بل نور لمن يريد أن يرى. من لديه استعداد للإيمان، يرى المعجزة فينقاد. ومن أعماه الكبر، يبقى أعمى.

أخذنا درس الشجاعة: لا تخف من تهديد الطغاة، فتهديدهم دليل ضعفهم، ونجاة الله أقرب مما تظن.

كلمة تصل إلى أعماقك

أنت الآن أمام هذه الآية، وكأنك واقف مع إبراهيم وهو يُلقى في النار. تشعر برهبة الموقف. تخيل أنك أنت من سيرمى غداً في نار عظيمة. ماذا سيكون شعورك؟ خوف؟ رعب؟ لكن إبراهيم كان مطمئناً، لأن قلبه معلق بالله، لا بالنار.

النار التي تخافها أنت في حياتك - نار الفقر، نار المرض، نار الفشل، نار الرفض، نار التهديد، نار الظلم - كل هذه النيران يمكن أن تأمرها الله فتصير برداً وسلاماً عليك. ليس شرطاً أن تزول، بل شرطها ألا تؤذيك. يمكنك أن تعيش في وسط النار ولا تحترق، إذا كان الله معك.

أما الذين يهددونك ويظنون أنهم يملكون النار، فهم أضعف من أن يضروا أحداً بإذن الله. فلا تخف، وامض في طريقك. قل: حسبي الله ونعم الوكيل. لن تمسني نارهم، ولن يضرني تهديدهم. أنا مع الله، والله معي.

تلك هي الآية ٢٤ من سورة العنكبوت. ليست مجرد قصة من الماضي، بل هي واقع معاش في كل زمن. هل أنت مستعد لتكون كإبراهيم؟ أم أنك ستخاف من نارهم؟ القرار لك.

المبحث السابع

تفسير الآية ٢٥ من سورة العنكبوت: المجاملة في الحق.. ثمنها الخسارة الأبدية

المشهد التمهيدي: إبراهيم يفضح السر الخفي

بعد أن نجاه الله من النار، وبعد أن رأى قومه المعجزة بأعينهم فلم يؤمنوا، يقف إبراهيم عليه السلام ليكشف لهم الخيط الخفي الذي كان يربطهم بأوثانهم. لم تكن الأوثان مجرد حجارة، بل كانت مجاملة اجتماعية، ومودّة زائفة، وعصبية قبلية، وخوفاً من بعضهم البعض.

تأمل هذه اللحظة الدرامية: إبراهيم يخرج من النار سالماً، وعيون قومه تنظر إليه في ذهول. ثم يفتح فمه ليقول كلمة ليست موجهة لأصنامهم فقط، بل لقلوبهم، بل لعلاقاتهم، بل لنفوسهم. يقول:

"إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا"

يكشف لهم أن ما جمعهم على عبادة الأوثان لم يكن حباً للحق، بل حباً لبعضهم البعض على باطل. كانوا يقولون: "نحن قوم، آباؤنا على هذه الأصنام، ونحن نقلدهم. لا نريد أن نخالفهم، فنكون شذاذاً في المجتمع". هذا هو الزيف الذي يلبسون به على أنفسهم.

"إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا" - الحصر

"إنما" للحصر والقصر .يعني: ما الذي دفعكم لاتخاذ الأوثان؟ ليس حباً لله، ولا اقتناعاً بأنها آلهة، بل شيء آخر .وما هذا الشيء؟ إنها "مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا".

معنى "مودة بينكم"

المودة هي المحبة والوئام. كانوا يحبون بعضهم البعض على عبادة الأصنام. لو ترك أحدهم عبادة الوثن، لاتهموه بالجنون، ولقطعوا صلته، ولتبرؤوا منه. فاستمرارهم على الباطل كان ثمن المحبة الا جتماعية. كانوا يقولون: "لا نريد أن نختلف، لا نريد أن نكون غرباء بين قومنا، لا نريد أن نفقد أصدقاءنا وأقاربنا".

هذه هي مجاملة الحق من أجل المودة الدنيوية. وهذا هو داء البشرية في كل زمان ومكان.
المفهوم الاول
خطر المجاملة في الحق: ثمنها خسارة الدنيا والآخرة

إبراهيم يفضح لهم هذه اللعبة النفسية القاتلة: أنتم ضحيتكم بالحق من أجل بقاء المودة. أنتم تمسكون بالباطل لأنكم تخافون من فقدان أصحابكم. أنتم تستمرون في عبادة الأوثان لأنكم لا تريدون أن تكونوا "مختلفين".
المفهوم الثاني
كيف تعمل المجاملة في الحق؟

تخيل مشهداً معاصراً: شاب يعيش في مجتمع فاسد، يعرف أن ما يفعلونه خطأ، لكنه يخاف أن يقول "لا". يخاف أن يُوصف بالمتشدد، يخاف أن يخسر أصدقاءه، يخاف أن تنقلب عليه زوجته أو أهله. فيسكت، ثم يوافق، ثم يشارك، ثم يصبح واحداً منهم. هذا هو طريق الهلاك.

تاجر يعلم أن التعامل بالربا حرام، لكنه يقول: "كل التجار يفعلون، ولن أجد من يتعامل معي إذا لم أفعل". فيستمر. موظف يرى فساداً إدارياً، لكنه يخاف أن يقول الحق فيفقد وظيفته. فيسكت. طالبة تعلم أن الاختلاط المحرم لا يجوز، لكنها تخاف من نظرة المجتمع وتهمة "التخلف". فتستمر.

كل هؤلاء يقولون في قلوبهم ما قاله قوم إبراهيم بدون كلمات: نحن نتمسك بهذا الباطل من أجل المودة فيما بيننا.
المفهوم الثالث
ثمن هذه المجاملة

إبراهيم يخبرهم أن ثمن هذه المودة الدنيوية هو:

1.فقدان الحقيقة في الدنيا: أنت تعيش على باطل، وقلبك يعلم أنك على خطأ، فتعيش في تناقض دائم.
2.الخسارة الكبرى في الآخرة: لأن هذه المودة ستنقلب عليك.
الامر الثاني
"ثمّ يَوْمَ القِيَامَةِ يَكفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْض"

تأمل هذا التحول المرعب. الذين كانوا يتحابون على الباطل، ويتوادون على عبادة الأوثان، يتجمعون يوم القيامة. لكن فجأة، يبدأ كل واحد في التبرؤ من الآخر. يقول: "هذا هو الذي أضلني"، أو "أنا لم أكن أريد، هم جروني".

"يَكفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْض" - الكفر هنا بمعنى الجحود والإنكار .أي ينكر بعضهم بعضاً، ويتبرأون من بعضهم . ليس معناه أنهم يكفرون بالله، بل يكفر بعضهم ببعض أي يتنصلون من الصلة.

إنه مشهد درامي مؤلم: أصدقاء السوء الذين قضوا حياتهم معاً على المعاصي، يقفون الآن متخاصمين، كل يلقي باللوم على الآخر.

"وَيَلعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا"

بعد التبرؤ، يأتي اللعن - وهو الدعاء بالطرد من الرحمة. يلعن بعضهم بعضاً. يقول هذا لذاك: "لعنة الله عليك، أنت من أضلني". ويقول ذاك لهذا: "بل أنت، لعنة الله عليك، أنت من أتبعك".

كم من صداقات ومعاشرات على الحرام ستنقلب إلى لعنات وعداوات يوم القيامة! كم من جماعات اجتمعت على الباطل ستتفكك وتتناحر هناك!

"وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ"

بعد التبرؤ واللعن، تأتي النهاية المشتركة: النار. لم تنفعهم مودتهم شيئاً. لم تنفعهم مجاملتهم لبعضهم. لم ينفعهم أنهم كانوا "معاً". كلهم في النار معاً، لكن متخاصمين متلاعنين.

"وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ" - لا أحد ينقذكم .لا الأوثان التي كنتم تعبدون، ولا الأصدقاء الذين كنتم ترضونهم بمجاملة الحق، ولا الآباء الذين قلدتموهم .لا ناصر لكم من دون الله.

الموضوع الأول1

لماذا هذه الآية بعد معجزة النار؟

لأن معجزة النار كانت فرصة عظيمة لقوم إبراهيم للإيمان. لقد رأوا بأعينهم خرقاً لقوانين الطبيعة. لكنهم لم يؤمنوا. لماذا؟ لأن المجاملة الاجتماعية كانت أقوى من المعجزة. كانوا يقولون: "لو آمنا بإبراهيم، لخسرنا مودّة بعضنا البعض، ولتفرق جمعنا، ولصارت قبيلتنا موضع سخرية". فاختاروا الباطل على الحق، واختاروا المودة الزائفة على الهداية الحقيقية.

هذا هو السر العميق: المعجزات لا تنفع من يخافون من مجاملة الناس أكثر مما يخافون الله.

الموضوع الثانى

دروس مستفادة: كيف نطبق هذه الآية في حياتنا؟

الدرس الأول: الصدع بالحق وعدم المجاملة

علمتنا الآية أن مجاملة الباطل من أجل الحفاظ على العلاقات الاجتماعية هي قنبلة موقوتة. قد تكسب بها ود الناس اليوم، لكنك تخسر الله والجنة والنفس غداً.

كم من الناس يعرفون أن الكذب حرام، لكنهم يكذبون في مجالسهم "لئلا يحرجوا" أحداً! كم من الناس يعرفون أن الغيبة محرمة، لكنهم يغتابون "مجاملة" لمن يتحدث! كم من الناس يعرفون أن المشاركة في المنكرات حرام، لكنهم يشاركون "كي لا ينفر منهم أصدقاؤهم"!

إبراهيم يخبرك: لا تخسر الآخرة من أجل مودة أحد. من يحبك على الحق، سيبقى معك. ومن يحبك على الباطل، سيتبرأ منك يوم القيامة. فلماذا تدفع ثمناً باهظاً لعلاقة وهمية؟

الدرس الثاني: المجاملة قد تكون أخطر من المواجهة

قد يظن الإنسان أن المجاملة "حكمة" و"لين جانب" و"تأليف قلوب". لكن الآية تكشف أن المجاملة في الحق - أي إخفاء الحق أو الموافقة على الباطل خوفاً من فقدان المودة - هي سبب الهلاك.

المواجهة قد تكون مؤقتة ومؤلمة، لكنها تطهر العلاقات. أما المجاملة فتدس السم في العسل. العلاقات المبنية على الباطل لا تستمر، وإذا استمرت فهي وبال على صاحبها.

الدرس الثالث: تحليل النوايا: ما الذي يمنعني من قول الحق؟

الآية تدعوك إلى جلسة مع نفسك تتأمل فيها: ما الذي يمنعني من أن أكون صادعاً بالحق في مجال عملي؟ في بيتي؟ بين أصدقائي؟ في مجتمعي؟

هل هو الخوف من فقدان المودة؟ هل هو الخوف من أن أكون وحيداً؟ هل هو الخوف من النقد و السخرية؟

اعلم أن كل هذه المخاوف لها ثمنها. الثمن إما أن تدفعه اليوم بجرأة مؤقتة، أو تدفعه غداً بعذاب أبدي. فالاختيار لك.

الدرس الرابع: كن كإبراهيم ولو وحدك

إبراهيم كان وحيداً. ترك قومه، خرج من النار، ثم خرج من بلده هاجراً. لكنه لم يخسر شيئاً حقيقياً.

لقد ربح ربه، وربح الجنة، وربح أن يكون أبا الأنبياء، وربح أن يذكره الله في كتابه إلى الأبد.

أما قومه الذين بقوا على مودتهم الزائفة؟ ماذا ربحوا؟ خسروا الدنيا (الكثير منهم هلك في الطوفان؟ لا، قوم إبراهيم لم يهلكوا بطوفان، لكنهم هلكوا في الدنيا بأشكال مختلفة، وخسروا الآخرة بالنار). ربحوا مودة أياماً معدودة، ثم انقلبت عداوة ولعنة.

الموضوع الثالث

تطبيقات عملية في مجالات مختلفة

للمعلم والمربي:

· رب طلابك على الشجاعة الأدبية: علمهم ألا يخافوا من أن يكونوا مختلفين إذا كانوا على حق . علمهم أن يقولوا "لا" للباطل حتى لو كان الجميع يفعلونه.
· حذّرهم من فخ المجاملة: أخبرهم بقصة قوم إبراهيم الذين فضلوا مودة بعضهم على الحق .اسألهم: هل تريدون أن تكونوا مثلهم؟
· كن قدوة: لا تجامل في الحق أمام طلابك .قل الصدع ولا تخش في الله لومة لائم.

للداعية والمصلح:

· لا تتنازل عن الحق لجذب الناس: بعض الدعاة يخففون من الدين، ويحرفون الحقائق، ويسكتون عن المنكرات "كي لا ينفر الناس" .هذا هو عين ما حذرت منه الآية .أنت تدعو إلى الله، لا إلى نفسك . من يريد الله سيتبع الحق ولو كان صعباً، ومن لا يريد الله لن تستميله بالمجاملات.
· توقع أن تفقد بعض العلاقات: عندما تبدأ في قول الحق، قد يبتعد عنك بعض الأصدقاء والأقارب . هذا ثمن يجب دفعه .إبراهيم فقد قومه كلهم تقريباً .لكنه ربح الله.

للموظف في بيئة فاسدة:

· لا تشارك في الفساد مجاملة لزملائك: قد يضغط عليك زملاؤك لتوقيع مخالفة، أو تغطية خطأ، أو قبول رشوة .قل "لا" .قد تكسب عداوتهم اليوم، لكنك تكسب رضا الله والنجاة غداً.
· تذكر الآية: "يَوْمَ القِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ" .هؤلاء الزملاء الذين تريد إرضاءهم الآن، سيتبرؤون منك يوم الحساب .فلا ترضهم على حساب دينك.

للشاب في مجتمع متحرر:

· لا تخف من أن تكون مختلفاً: قد يضحك عليك أصدقاؤك لأنك تصلي، أو لا تشارك في المنكرات، أو تلتزم بالحجاب واللحية .هؤلاء الأصدقاء، إن كانوا يحبونك لله، سيبقون معك .وإن كانوا يحبونك على الباطل، فخسارتهم ربح.
· المودة الحقيقية لا تكون على الباطل: من يحبك حقاً، يحبك على الحق، ويدعمك في التزامك، لا في انحرافك.

للزوجين والأسرة:

· لا تجامل زوجك على حساب دينك: قد تضطر الزوجة أحياناً لمجاملة زوجها في أمر محرم خوفاً من غضبه .أو الزوج مجاملة زوجته في أمر محرم خوفاً من حيات الزوجية .تذكر أن المودة الزوجية الحقيقية لا تبنى على المعصية .بل تبنى على التقوى والتعاون على البر.
· رب أولادك على الصدع بالحق: لا تعلمهم أن "المصلحة" أهم من "المبدأ" .علمهم أن الحق أحق أن يتبع، حتى لو خالفوا الجميع.

الموضوع الرابع

الأبعاد النفسية والتربوية

البعد النفسي: الخوف من الرفض الاجتماعي

الآية تعالج أخطر مرض نفسي: الخوف من الرفض. الإنسان مخلوق اجتماعي، يخشى أن يكون وحيداً، يخشى أن يرفضه مجتمعه. هذا الخوف يدفعه إلى التكيف مع الباطل، إلى المسايرة، إلى المجاملة.

لكن الآية تخبرك أن هذا الخوف يمكن تجاوزه إذا أيقنت أن الله معك، وأن رضا الله أغلى من رضا الناس. إبراهيم كان وحيداً، لكنه لم يشعر بالوحدة لأن الله كان معه. فإذا شعرت بالوحدة في طريق

الحق، فتذكر أن كل الأنبياء والصالحين كانوا معك في الروح.

البعد الاجتماعي: وهن العلاقات المبنية على الباطل

المجتمعات الفاسدة تبنى على "المجاملة" و"النفاق الاجتماعي". كل يعرف أن الآخر على خطأ، لكن لا أحد يقول. الجميع يخاف من "كسر المجاملة". هذا المجتمع مهما بدا قوياً، فهو واقع على أعتاب انهيار، لأنه مبني على رمال متحركة. والآية تخبر بمصيره: العداوة واللعنة ثم النار.

البعد التربوي: تعليم القيم قبل المهارات

تربية الأبناء على "النجاح" فقط دون "المبادئ" هي تربية للمجاملة. الابن الذي يتعلم كيف ينجح بأي ثمن، سيكبر وهو يجاملك أنت أولاً، ثم يجامع الباطل ثانياً. أما الابن الذي يتعلم أن الصدع بالحق والتمسك بالمبادئ أهم من أي نجاح، فهو الذي يصلح الله به الأمة.

اللمسات البلاغية والبيانية

أولاً: "إنما اتخذتم" - حصر السبب

حصر سبب اتخاذهم الأوثان في المودة الدنيوية. أي ليس هناك سبب آخر، لا إيمان ولا اقتناع.

ثانياً: "مودة بينكم" - تعريف المودة وإضافتها

المودة معرفة بالألف واللام للجنس، ثم أضيفت إلى "بينكم" لبيان أنها مودة خاصة بينهم، وليست مودة لله أو للحق.

ثالثاً: "في الحياة الدنيا" - تحديد الزمان

للدلالة على أن هذه المودة مقصورة على الدنيا الفانية، لا تمتد إلى الآخرة.

رابعاً: "ثم يوم القيامة" - "ثم" للتراخي

"ثم" تفيد التراخي في الزمن، للدلالة على أن بين الدنيا والآخرة فترة طويلة، لكن النهاية ستأتي لا محالة.

خامساً: "يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضاً"

الجملتان متوازيتان، والتفصيل بعد الإجمال. كفر ولعن متبادل، صورة كاملة للعداوة بعد المودة.

سادساً: "ومأواكم النار وما لكم من ناصرين"

ختم الآية بالوعيد والنفي. "مأواكم" أي مستقركم ومصيركم. "النار" نكرة للتهويل. "وما لكم من ناصرين" نفي عام لكل ناصر.

العلاقة مع سياق السورة

السورة بدأت بالفتنة والاختبار، ثم قصص نوح وإبراهيم. هذه الآية هي تطبيق عملي للفتنة: فتنة المجاملة والضغط الاجتماعي. وهي أشد الفتن لأنها تخفى على الناس. كثيرون يظنون أنهم مؤمنون، لكنهم يسقطون في فخ "مجاملة الناس".

ثم تأتي هذه الآية لتنبه: لا تخافوا من الناس، ولا تجاملوهم على حساب الحق، لأن هذه المجاملة ستتحول إلى حسرة يوم القيامة.

الخلاصة: ماذا أخذنا من الآية ٢٥؟

أخذنا أن مجاملة الحق من أجل المودة الاجتماعية هي أكبر فخ يقع فيه الناس. تدفعهم إلى الباطل وهم يعلمون، وتجعلهم يفضلون رضا الناس على رضا الله.

أخذنا أن كل علاقة مبنية على الباطل ستنقلب إلى عداوة ولعنة يوم القيامة. فلا تغتر بكثرة الأ صدقاء الذين تجاملهم على حساب دينك.

أخذنا أن الصدع بالحق ولو أدى إلى الوحدة في الدنيا، أفضل من المجاملة التي تؤدي إلى الخزي في الآخرة.

أخذنا أن الله ناصر من نصره، فمن ترك شيئاً لله عوضه خيراً منه. إبراهيم ترك قومه ومودتهم، فعوضه الله بأن جعله إماماً للناس.

كلمة تصل إلى أعماقك

أنت الآن مدعو لمراجعة حياتك. كم مرة سكت عن الحق لأنك خفت أن تفقد صديقاً؟ كم مرة شاركت في منكر لأنك خفت أن يوصفك الناس بالتشدد؟ كم مرة وافقت على أمر تعلم أنه خطأ، فقط لأن "الكل يفعل"؟

هذه الآية تقول لك: توقف. كل مجاملة تدفعها اليوم للباطل، ستدفع ثمنها غداً غالياً. تلك المودة التي تحافظ عليها بالتنازل عن دينك، ستصبح عداوة ولعنة يوم لا ينفع مال ولا بنون.

لا تخف من أن تكون مختلفاً. إبراهيم كان مختلفاً، وكان وحيداً، وكان ملقى في النار. لكنه انتصر. وأنت أيضاً، قد تواجه سخرية أو هجراً أو تهديداً. لكن تذكر: النار لا تحرق من كان الله معه، و المجاملة لا تنفع من كان الله ضده.

اختر اليوم: هل ترضي الناس بسخط الله، أم ترضي الله بسخط الناس؟ الخيار واضح، والنتيجة معلومة. فكن كإبراهيم، ولا تخف
المبحث الثامن .
تفسير الآيتين ٢٦ و٢٧ من سورة العنكبوت: الهجرة والعوض الإلهي

المشهد التمهيدي: بعد النار، يأتي النور

لحظة تاريخية عظيمة. إبراهيم عليه السلام يخرج من النار كأنه يخرج من ولادة جديدة. قومه ينظرون إليه في حيرة: لم تحرقه النار! لكن قلوبهم لم تلن. وقفوا على حافة الإيمان ثم تراجعوا، لأن المودة الزائفة كانت أثقل من آية الله.

وفي هذا الجو الثقيل، وسط هذا الرفض الجماعي، يأتي شخص واحد، شخص لم يذكر القرآن اسمه في هذه الآية لكننا نعرفه من مواضع أخرى: لوط عليه السلام. ابن أخ إبراهيم، أو قريب له. الشاب الذي آمن به، وصدقه، ووقف بجانبه.

تأمل هذا المشهد: إبراهيم وحيد في وادٍ وثني، قومه يكفرون به بعد أن رأوا المعجزة، والكل يتبرأ منه خوفاً على مودتهم الزائفة. فجأة، يتحرك لوط، يقترب، يهمس أو يعلن: أنا معك. هذا هو النور الذي يشرق بعد ليل طويل.

ثم ماذا يفعل إبراهيم؟ لا ينتظر هلاك قومه، ولا يطلب ثأراً، بل يقول كلمة تغير مجرى التاريخ: إني مهاجر إلى ربي. يغادر، يرحل، يهاجر. ليس هروباً من الجوع أو الظلم فقط، بل هجرة إلى الله. يترك أرضه وقومه وأوثانهم ومودتهم الزائفة، ويخرج بلا مال ولا سلاح، فقط معه لوط وإيمانه.

والله؟ الله يستقبله بوعد عظيم. في الآية التالية مباشرة، وبعد أن هاجر، يمنحه الله ما هو أعظم مما ترك: ذرية صالحة، نبوة وكتاباً في ذريته، وأجراً في الدنيا قبل الآخرة.

الآية ٢٦: "فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ" - وحدة المؤمنين في بحر الكفر

"فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ"

لاحظ الفاء: فآمن. الفاء هنا للتعقيب، أو للسببية. كأنها تقول: بعد أن رأى لوط ما جرى لإبراهيم، بعد أن رأى المعجزة، بعد أن رأى صبره وثباته، فآمن. الإيمان لم يأتِ من فراغ، بل كان نتيجة طبيعية لما شاهده.

"لُهُ" - آمن له، أي صدقه، وآمن بدعوته .وليس معنى "آمن له" أنه تبعه فقط، بل آمن بالله الذي أرسله .فهو مؤمن بالله وبنبوة إبراهيم.

لوط - نبي كريم، ابن أخ إبراهيم أو قريبه. آمن به في وقت كان الإيمان فيه غربة. وهذا من أعظم المناقب: أن تؤمن حين لا يؤمن أحد، وأن تقف إلى جانب الحق حين يتخلى عنه الجميع.

دروس من إيمان لوط

الدرس الأول: قد تكون المؤمن الوحيد، لكنك لست وحدك. لوط لم يكن له من المؤمنين سوى إبراهيم على الأرجح. لكن إيمانه به كان كافياً. لا تحتاج إلى جيش لتؤمن، تحتاج إلى قلب صادق.

الدرس الثاني: الإيمان بالله يبدأ بالإيمان برسله. لوط آمن لإبراهيم أولا ً، ثم آمن بالله ثانياً. هذا تعليم عملي: طريق الإيمان يمر عبر الأنبياء والرسل، فمن آمن بهم فقد اهتدى.

الدرس الثالث: لا تنتظر الأغلبية. لوط لم يقل: "سأنتظر حتى يؤمن قوم إبراهيم كلهم". بل بادر وآمن وهو القليل. هذا هو شأن المؤمنين: يسبقون الجميع إلى الخير.

"وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي"

معنى الهجرة إلى الله

"إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي" - ليست مجرد هجرة مكانية من أرض إلى أرض .بل هي هجرة روحية، قلبية، وجودية .معناها: أترك ورائي كل ما يشغلني عن الله .أترك الأهل والوطن والعادات والتقاليد والأصنام والمجاملة .أتجه بقلبي وروحي وجسدي إلى الله وحده.

الهجرة إلى الله هي أن تجعل الله وجهتك الوحيدة. كل خطوة تخطوها، كل قرار تتخذه، كل علاقة تدخلها، تسأل نفسك: هل هذا يقربني إلى الله أم يبعدني؟ فإن كان يقرب، فامض. وإن كان يبعد، فاهجر.

"إِلَى رَبِّي" - وليس إلى مكان

إبراهيم لم يقل "مهاجر إلى فلسطين" أو "إلى الحجاز". قال "إلى ربي". أي أن مقصده هو رب العالمين، وليس أرضاً معينة. الأماكن مجرد وسائل، لكن الهدف هو الله. هذا يعلمك أن الهجرة الحقيقية هجرة القلوب، فحين يكون الله مقصدك، فأي أرض تحل بها تكون أرض الله.

"إِنَّهُ هُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ"

لماذا يختم إبراهيم قوله بهذين الاسمين؟ لأنه يحتاج إلى العزة في طريق الهجرة. فهو يترك كل عزة قومه ومنعهم، ويلتجئ إلى عزة الله. والله عزيز لا يذل من اعتز به.

ويحتاج إلى الحكمة، لأنه يهاجر بلا خريطة، بلا تخطيط بشري، فقط بتوجيه الله. والله حكيم يضع ا لأمور في مواضعها، ويهدي من يهاجر إليه إلى خير الطرق.

اللمسة البلاغية: تقديم "هُوَ" بين اسمي الجلالة "العزيز الحكيم" يفيد الحصر والتوكيد. أي أنه وحده العزيز الحكيم، ليس كمثله شيء في عزه وحكمته.

الآية ٢٧: العوض الإلهي - ما أعظمه!

بعد أن هاجر إبراهيم، بعد أن ترك وطنه وأهله وقومه وأصنامهم، ماذا يفعل الله؟ ينظر إليه نظرة الكرم المطلق. يقول الله: "وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ"

"وَهَبْنَا" - الهبة لا الثمن

اختيار كلمة "وهبنا" ليس اعتباطياً. الهبة هي العطاء بلا مقابل، بلا ثمن، بل بلا سبب من العبد. إبراهيم لم يطلب أولاداً في تلك اللحظة، بل كان قد ترك كل شيء. لكن الله وهبه إسحاق ويعقوب. يعني: أعطيناك أكثر مما تركت. تركت قوماً ووالدين، وأعطيناك ذرية تكون أنبياء. تركت الأوثان،

وأعطيناك النبوة والكتاب في عقبك.

إسحاق ويعقوب: الأب والابن

إسحاق هو ابن إبراهيم من سارة. ويعقوب هو ابن إسحاق، أي حفيد إبراهيم. إذن الله وهبه ابناً وحفيداً في نفس الوقت. وهذا من الإيجاز العجيب: فإسحاق وُلد بعد الهجرة بسنين، ويعقوب وُلد بعد إسحاق بسنين، لكن القرآن يذكرهما كأنهما وهبة واحدة، ليبين أن الله قادر على أن يمنحك المستقبل كله في لحظة وعد.

"وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ"

هذه أعظم هبة على الإطلاق. لم يكتف الله بأن يرزقه ذرية، بل جعل في هذه الذرية النبوة والكتاب. أي أن أكثر أنبياء بني إسرائيل من نسل إبراهيم: إسحاق، يعقوب، يوسف، موسى، هارون، داود، سليمان، زكريا، يحيى، عيسى، وغيرهم. وجعل فيهم الكتب: التوراة، الزبور، الإنجيل.

وهذا شرف لم يعطه أي نبي آخر بهذا الشكل. إبراهيم أصبح أبا الأنبياء، وذرية الأنبياء كلها منه.

"وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا"

ما هو أجر إبراهيم في الدنيا؟

· الثناء الحسن: كل أهل الأديان السماوية يثنون عليه، يهود ونصارى ومسلمون.
· الذرية الصالحة: الأنبياء من نسله.
· القبلة: جعل الله الكعبة قبلة للمسلمين، وهي من بناء إبراهيم.
· المناسك: علم الله إبراهيم مناسك الحج، وبقيت إلى اليوم.
· المقام: مقام إبراهيم في الحرم.
· الذكر: يذكر في كل صلاة، وفي كل موسم حج، وفي كل كتاب.

إبراهيم لم يمت فقيراً، بل عاش ومات وهو أغنى الناس، غنىً بالذكر والعطاء والنبوة والذرية. هذا هو الأجر في الدنيا.

"وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ"

تأكيد بـ "إن" واللام، للدلالة على أن مكانته في الآخرة أعظم. "من الصالحين" - أي من المقربين، من أعلى درجات الجنة. الصالحون هم الذين صلحت ظواهرهم وبواطنهم مع الله ومع الناس. وإبراهيم منهم بلا شك.

مقارنة بين ما تركه وما أخذه

ترك إبراهيم:

· قوماً كافرين لا يؤمنون
· أباً يصنع الأصنام
· أوثاناً يعبدها الناس
· مودة زائفة تقوم على المجاملة
· وطناً فيه الفتنة والشرك

أخذه الله:

· ذرية صالحة: إسحاق ويعقوب
· النبوة والكتاب في ذريته إلى آخر الزمان
· أجراً عظيماً في الدنيا) الذكر، المقام، القبلة(
· صلاحاً في الآخرة يضاهي أعلى الدرجات

الخلاصة: من يهاجر إلى الله، يعوضه الله خيراً مما ترك. ومن يترك شيئاً لله، يمنحه الله ما هو أعظم.

دروس نفسية وتربوية وعقدية

الدرس النفسي: الشجاعة على ترك المألوف

الهجرة تحتاج إلى شجاعة نفسية هائلة. أن تترك كل ما تعودت عليه: بيتك، أهلك، أصدقاءك، وظيفتك ، مجتمعك. إبراهيم فعلها في سن متقدمة، وليس شاباً. هذا يعلمك أن التغيير ممكن في أي عمر، وأن الخوف من المجهول لا يمنع المؤمن إذا كان يهاجر إلى الله.

الدرس التربوي: من يربّي أولاده على الإيمان؟

لاحظ: إبراهيم هاجر، ثم وهبه الله إسحاق ويعقوب. لم يرب إبراهيم أولاده بنفس الطريقة التي رباه بها أبوه آزر. لقد قطع سلسلة التربية الوثنية، وأسس سلسلة تربية نبوية. هذا هو التغيير الحضاري: أن تصبح أنت نقطة تحول في تاريخ أسرتك وأمتك.

الدرس العقدي: الله عزيز حكيم

إبراهيم اختتم قوله بـ "إنه هو العزيز الحكيم". لأنه يحتاج إلى العزة ليطمئن أنه في حفظ الله، وإلى الحكمة ليطمئن أن الله يدبر أمره بخير. هذا يعلمك أن تعلق قلبك بالله لا بالوسائل.

الدرس الحضاري: الهجرة بداية النهضة

إبراهيم لم يهاجر هروباً، بل هجرة بناء. من أرض الأوثان إلى أرض الميعاد. ومن بعده هاجر موسى، وهاجر محمد صلى الله عليه وسلم. الهجرة في الإسلام هي بداية التقويم، لأنها نقطة التحول من الضعف إلى القوة، من الاضطهاد إلى التمكين.

كيف نعيش هذه الآيات في واقعنا؟

أولا ً: الهجرة إلى الله في عصرنا

الهجرة ليست فقط انتقالا ً جسدياً من بلد إلى بلد. بل هي:

· هجرة بالقلب: أن تخرج من قلبك حب الدنيا والتعلق بغير الله.
· هجرة بالعمل: أن تترك الأعمال التي تغضب الله إلى الأعمال التي ترضيه.
· هجرة باللسان: أن تهجر الكذب والغيبة والنميمة إلى الصدق والذكر.
· هجرة بالأفكار: أن تهجر الأفكار المنحرفة والخرافات إلى عقيدة التوحيد الصافية.

ثانياً: كن كلوط، ولو وحدك

قد تكون في بيئة لا يؤمن فيها أحد بفكرك أو دعوتك. قد تشعر أنك الوحيد الذي يرى الحقيقة. لوط كان كذلك. لكنه آمن. وما كان إيمانه فقط، بل أعلنه. لا تخف من أن تكون الأقل، بل كن الأفضل. الله مع القليل المؤمن.

ثالثاً: لا تخف من ترك أي شيء لله

كم مرة تمنيت أن تترك وظيفة فيها حرام لكنك خفت على رزقك؟ كم مرة أردت أن تترك علاقة محرمة لكنك خفت على قلبك؟ كم مرة أردت أن تهاجر إلى الله لكنك تعلقت بالمألوف؟

إبراهيم ترك كل شيء. لم يخسر شيئاً. بالعكس، ربح كل شيء. ثق أن من ترك لله شيئاً، عوضه الله خيراً منه.

رابعاً: احتسب الأجر في الدنيا قبل الآخرة

ليس كل الأجر مؤجل. الله يؤتي أجر الصابرين والمهاجرين في الدنيا أيضاً. إبراهيم رأى ثمار هجرته في حياته: إسحاق ويعقوب، والذكر الحسن، والمقام الرفيع. أنت أيضاً، قد ترى ثمار توبتك وهجرتك في دنياك: راحة نفسية، فرج من كرب، ذرية صالحة، محبة في قلوب الناس.

خامساً: اجعل الله وجهتك

في كل خطوة تخطوها في حياتك، اسأل: هل هذه الخطوة "إلى ربي"؟ إذا كانت إجابة بنعم، فامض ولا تتردد. إذا كانت لا، فتوقف وأعد النظر. الحياة كلها هجرة إلى الله، أو هجرة إلى غيره. اختر.

اللمسات البلاغية والبيانية

في الآية ٢٦:

· "فآمن له لوط": تقديم الفعل "آمن" على الفاعل "لوط" للاهتمام بالفعل نفسه، أي أن الإيمان حدث، ولوط هو من قام به.
· "إني مهاجر إلى ربي": الجملة الاسمية "إني مهاجر" للدلالة على الثبات والاستمرار .أي أنا مستمر في هذه الهجرة، ليست لحظة عابرة.
· "إنه هو العزيز الحكيم": تكرار الضمير "هو" بعد "إن" للتوكيد، و"العزيز الحكيم" من صفات الله الدالة على تمام القدرة والإتقان.

في الآية ٢٧:

· "ووهبنا له إسحاق ويعقوب": التعبير بـ "وهبنا" يدل على الكرم والمحبة، وليس على الجزاء أو المكافأة .إضافة "له" تخصيص إبراهيم بهذه الهبة.
· "وجعلنا في ذريته النبوة والكتاب": "جعلنا" تدل على السنن الإلهية الثابتة ."النبوة والكتاب" نكرتان للتعظيم.
· "وآتيناه أجره في الدنيا": "آتيناه" من الإيتاء، وهو الإعطاء ."أجره" مع أنه لم يعمل عملا ً يستحق الأ جر، لكن الله كرمه فأعطاه أجراً من فضله.
· "وإنه في الآخرة لمن الصالحين": الجملة معترضة أو تذييلية ."لمن الصالحين" - اللام للمبالغة في الا ختصاص.

العلاقة مع سياق السورة

السورة كلها عن الفتنة والهجرة والثبات. بدأت بـ "أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون". ثم قصة نوح: صبر ٩٥٠ سنة، ثم النجاة. ثم إبراهيم: أوثق في النار، ثم النجاة. ثم أمر بـ السير في الأرض. ثم تحذير من الكفر بالآيات. ثم كشف خطر المجاملة. ثم آمن لوط، وهاجر إبراهيم. ثم جاء العوض الإلهي.

هذا تسلسل منطقي: الفتنة -> الصبر -> الهجرة -> العوض. وهذه هي سنة الله مع المؤمنين.

الخلاصة: ماذا أخذنا من الآيتين ٢٦ و ٢٧؟

أخذنا أن الإيمان قد يكون قليلا ً لكنه كافٍ. لوط وحده آمن، وكان هذا كافياً لتثبيت إبراهيم، وبداية أمة.

أخذنا أن الهجرة إلى الله هي الطريق إلى العوض الإلهي. من ترك شيئاً لله، عوضه الله خيراً منه.

أخذنا أن الله عزيز حكيم، يعز من يهاجر إليه، ويدبر أمره بحكمة بالغة.

أخذنا أن النبوة والكتاب أعظم هبات الله للبشر، وأن إبراهيم حظي بهما في ذريته شرفاً له.

أخذنا أن الأجر في الدنيا موجود، فالمؤمن قد يرى ثواب عمله في حياته قبل مماته.

كلمة تصل إلى أعماقك

أنت الآن مدعو إلى هجرة. قد لا تكون هجرة مكانية، لكنها هجرة قلبية وجودية. اخرج من ذاتك التي تألفت على الكسل والتسويف والمعاصي. اخرج من علاقاتك التي تبعدك عن الله. اخرج من وظيفتك إن كانت فيها شبهة. اخرج من بيتك إن كان يعوق دينك. اخرج من كل شيء يحول بينك وبين ربك.

الخروج صعب، أنت تعلم. لكن بقاءك أشد صعوبة. إبراهيم خرج، وكان معه لوط فقط. لكنه ما لبث أن رأى العوض: إسحاق، ويعقوب، والنبوة، والكتاب، والأجر في الدنيا، والصلاح في الآخرة.

فمتى هجرتك؟ هل ستنتظر حتى تبلغ التسعين كما بلغ إبراهيم؟ أم ستبدأ اليوم؟ القرار لك. لكن تذكر: الله عزيز حكيم، وهو ينتظرك. ائتِه مهاجراً، يفتح لك أبواب السماء.

إني مهاجر إلى ربي - اجعلها شعار حياتك. وثق أن من هاجر إلى الله، فإن الله عزيز حكيم، لا يضيع أجر من أحسن عملا ً

النموذج الثالث

نموذج لوط عليه السلام

المبحث الأول

.تفسير الآيتين ٢٨ و٢٩ من سورة العنكبوت: لوط عليه السلام والجريمة التي هزت الفطرة

المشهد التمهيدي: من أبو الأنبياء إلى نبي الغربة

بعد أن هاجر إبراهيم عليه السلام إلى ربه، وبعد أن وهبه الله إسحاق ويعقوب والنبوة والكتاب، ينتقل السياق القرآني فجأة إلى نبي آخر، هو لوط عليه السلام. لماذا هذا الانتقال؟ لأن لوط كان جزءاً من رحلة إبراهيم، آمن به وهاجر معه، ثم أرسله الله إلى قومه في سدوم وعمورة.

لكن الفرق شاسع بين قوم إبراهيم وقوم لوط. قوم إبراهيم كانوا مشركين يعبدون الأصنام، لكنهم كانوا يعيشون ضمن أعراف إنسانية متعارف عليها - وإن كانت باطلة. أما قوم لوط، فقد ابتكروا جريمة لم يسبقهم إليها أحد من العالمين: إتيان الذكور من الرجال بدلا ً من النساء. جريمة شاذة، منافية للفطرة، مدمرة للمجتمع، مقلوبة للموازين.

تأمل معي هذا المشهد: لوط يقف أمام قومه المنحطين، قلبه ينفطر على ما يراه. رجال يأتون رجالا ً، ويمارسون معهم ما يشتهون، ويتخذون ذلك عادة وديدناً. وقد أغلقوا على أنفسهم أبواب الفطرة السليمة، وفتحوا أبواب الشهوة المنحرفة. في هذا الجو الموبوء، يبدأ لوط دعوته، وهم جالسون في أنديتهم لا يستترون، بل يتفاخرون بفاحشتهم.

الآية ٢٨: "أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ"

"وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ"

استئناف القصة: "وَلُوطًا" منصوب بفعل مقدر، أي واذكر لوطاً. ثم يأتي المشهد: "إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ" - تلك اللحظة التي وقف فيها لوط خطيباً في قومه، والقلوب ترتجف، والعيون تنظر، والأذن تصغي.

"إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ"

لاحظ: قال "الفاحشة" بالإفراد والتنكير؟ لا، قال "الْفَاحِشَةَ" بالتعريف. التعريف هنا للجنس، أو للعهد، أو للاستغراق. أي أنكم تأتون كل فاحشة، أو الفاحشة المعروفة، أو الفاحشة التي لا فاحشة أعظم منها. إنها جريمة تجمع كل القبائح.

"مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ"

هذه جملة استثنائية في وصف القبح: لم يسبقكم أحد من العالمين إلى هذه الفاحشة. يعني أن البشرية كلها، منذ آدم إلى قوم لوط، لم يعرف أحد هذه الجريمة بهذا الشكل المستفحل. كان هناك حا لات فردية نادرة في بعض الأمم، لكنها لم تكن ظاهرة اجتماعية معلنة متباهى بها. قوم لوط هم أول من شرعوا هذا الانحراف كعادة وتقاليد.

هذه العبارة تحمل أعلى درجات الذم: أن تكون أنت المبتكر للشر، السابق للبشرية إلى أسفل درجة.

لماذا هذه الفاحشة بالذات؟

لابد أن نتوقف هنا لنتألم مع لوط. الفاحشة التي كانوا يأتونها هي إتيان الذكور، وهي:

. منافية للفطرة: الله خلق الذكر للأنثى والأنثى للذكر، وجعل في ذلك المودة والرحمة .هذا الانحراف

يقلب الفطرة رأساً على عقب.
· مفسدة للنسل: لأنه لا ينتج ولداً، فيقطع سلسلة الحياة.
· مسببة للأمراض: أمراض خطيرة تنتشر في المجتمع.
· مهددة للأسرة: إذ يحل الشذوذ محل الزواج، وتنهار مؤسسة الأسرة.
· مهلكة للمجتمع: مجتمع فقد حياءه وفطرته هو مجتمع على شفا هاوية.

هذا هو السبب الذي جعل الله يصفها بأنها "الفاحشة" بلام التعريف، ويذكر أنهم أتوا منكراً ما سبقهم به أحد.

الآية ٢٩: ثلاث جرائم في جملة واحدة

بعد أن ذكر الجريمة الكبرى، ينتقل لوط إلى تفصيل الجرائم الملحقة بها، في أسلوب استفهام توبيخي:

"أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ"

تأكيد على الجريمة الأولى بزيادة استفهام وإن ولام. "الرجال" - ليس الصبيان أو الأطفال، بل الرجال البالغين. وهذا أشنع، لأن الرجل يفترض أن يكون سيداً قوياً، لا موضوعاً لشهوة.

"وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ"

هذه الجريمة الثانية: قطع السبيل. ما معناها؟

· قطع الطريق على الناس، أي السلب والنهب والترويع.
· قطع طريق النسل، لأنهم لا يتزوجون النساء.
· قطع طريق الفطرة السليمة.
· قطع طريق التوبة، لأنهم أصرّوا واستكبروا.

كانوا لا يكتفون بالشذوذ، بل كانوا يقطعون الطريق على المسافرين، يسرقونهم ويقتلونهم ويمارسون عليهم الفواحش.

"وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنكَرَ"

النادي هو مجلس القوم ومكان تجمعهم. "المنكر" - كل ما ينكره الشرع والفطرة. وكان من منكرهم:

· أنهم كانوا يتفاخرون بفاحشتهم علناً في أنديتهم.
· أنهم كانوا يمارسون أعمالاً مخزية أمام بعضهم.
· أنهم كانوا يسخرون من لوط ومن الذين ينصحونهم.
· أنهم كانوا يتضامنون على الباطل.

اللمسة البلاغية: الإتيان بـ "في ناديكم" للإشارة إلى أن هذا المنكر ليس سراً، بل يجهرون به في مجالسهم، لا يستحون ولا يخافون.

"فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ"

هنا المشهد الأكثر ألماً. لوط نصحهم، حذرهم، ذكرهم بالله، وبين لهم قبح فعلهم. فماذا كان ردهم؟ لم يقولوا: "نعم أنت على حق، سوف نترك"، ولا "دعنا نفكر"، بل قالوا بكل صفاقة واستكبار: "ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ" أي: نحن لا نصدقك، فأتنا بالعذاب الذي تعدنا به، إن كنت صادقاً. وكانوا في ذلك مستهزئين، متحدين، لا يعتقدون أن العذاب سيأتي.

ما الذي تعلمه هذه الآيات للأمة؟

أولاً: الإسلام دين الفطرة

هذه الآيات تؤكد أن الإسلام جاء لحماية الفطرة الإنسانية السليمة. أي انحراف جنسي، أي شذوذ، أي قلب لموازين الله في العلاقات بين الذكر والأنثى، فهو مردود ومرفوض. وليس لأي إنسان، ولا لأي مجتمع، ولا لأي زمن، أن يشرع ما حرم الله، أو يحلل ما حرمه، أو يغير ما ثبت بالقرآن والسنة.

ثانياً: التحذير من الفواحش العلنية

قوم لوط كانوا يأتون الفاحشة في أنديتهم علناً. وهذا هو الدمار الحقيقي للمجتمع. حين تنتشر الفاحشة وتظهر وتعلن، وتصبح "ثقافة" و"حرية شخصية" و"موضة"، فاعلم أن العذاب قريب. قال النبي صلى الله عليه وسلم: "لم تظهر الفاحشة في قوم قط حتى يعلنوا بها إلا فشا فيهم الطاعون والأوجاع التي لم تكن في أسلافهم".

ثالثاً: لا تيأس من دعوة الأكثر فساداً

قوم لوط كانوا في قمة الانحطاط الأخلاقي. مع ذلك، لوط لم ييأس، بل ظل يدعوهم وينهاهم. أنت اليوم قد تواجه مجتمعاً منحرفاً، لكن عليك أن تقوم بواجب الدعوة والإنكار، ولو بدا أنهم لا يستجيبون. النتيجة على الله، والعبرة بالقيام بالواجب.

رابعاً: لا تخف من تحدي المستكبرين

قوم لوط تحدوه: "ائتنا بعذاب الله". لم يخفه هذا التحدي، بل استمر في دعوته. وفي النهاية جاءهم العذاب وهم لا يشعرون. لا تخف إذا تحداك أهل الباطل، فالله معك، والعذاب آت لا محالة، وإن تأخر.

دروس نفسية وتربوية واجتماعية

البعد النفسي: صدمة الفطرة

عندما يرى الإنسان الفطري شيئاً كهذا، يشعر بصدمة نفسية حقيقية. لوط عليه السلام كان يتألم ألماً لا يوصف. هذه الآيات تربينا على أن الحساسية تجاه المنكر هي علامة صحة الفطرة. من لا يتأثر لمنكرات المجتمع، فقلبه ميت.

البعد التربوي: تعليم الجرأة على الإنكار

لوط لم يسكت، لم يقل "هذه حريتهم الشخصية"، لم يقل "لا دخل لي فيما يفعلون". بل وقف وقال: أنتم تفعلون الفاحشة، أنتم تقطعون السبيل، أنتم تأتون المنكر. هذا هو الإنكار باللسان الواجب على كل قادر. وقد رُوي: "من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان".

البعد الاجتماعي: انهيار المجتمعات بالشذوذ

قصة قوم لوط درس في كيفية انهيار الحضارات. لم يهلكهم الله إلا بعد أن استفحل فيهم المنكر، وأعلنوه، وتحدوا رسل الله، وأغلقوا على أنفسهم أبواب التوبة. المجتمعات التي تتبنى الشذوذ كخيار، والتي تشرعه، وتدرسه في المدارس، وتجعله علماً وأعلاماً، هي مجتمعات تسير إلى الهلاك لا محالة. وهذا ليس تهديداً دينياً فقط، بل هو واقع تاريخي: كل الأمم التي انحرفت بهذا الشكل هلكت.

البعد العقدي: العذاب الاستئصالي

قوم لوط هلكوا بالعذاب الاستئصالي: قلب الله عليهم ديارهم، وأمطر عليهم حجارة من سجيل. هذا يدل على أن بعض الذنوب تستوجب العذاب العاجل في الدنيا، قبل الآخرة. الفاحشة العلنية، والتحدي لله ورسله، والإصرار على الكفر، كلها أسباب للهلاك المباغت.

تطبيقات عملية في واقعنا

للمربي والمعلم:

· رب أولادك على الفطرة السليمة: علمهم أن الله خلق الذكر والأنثى، وجعل بينهم مودة ورحمة، وأن العلاقة الشرعية هي الزواج .حذرهم من الانحرافات الفكرية والأخلاقية.
· علمهم الجرأة على الإنكار: لا تربي جباناً يرى المنكر فيسكت .علمه كيف ينكر بلسانه وحسب قدرته، مع الحكمة واللطف.

· لا تستهن بتطبيع المنكر: إذا رأيت منكراً يُقدم على أنه "حرية شخصية" أو "حق إنسان"، بيّن لأولادك أنه منكر باطل، وأنه ليس حقاً بل انحراف.

للداعية والإمام:

· لا تسكت عن تحريم الفواحش: مهما ضغط عليك الإعلام، ومهما قالوا لك "هذا ليس من شأنك"، قل: هذا من شأن ديني، وهذا من شأن المجتمع، ولا يمكن أن أسكت عن جريمة هلكت بها الأمم.
· استخدم أسلوب القرآن في الإنكار: ابدأ بالنهي بلطف، ثم بالحجة، ثم بالتحذير من العذاب .كما فعل لوط: نهاهم، وبين لهم قبح الفعل، وأنهم لم يسبقهم بها أحد، ثم حذرهم من العذاب.
· لا تيأس من دعوة المنحرفين: قد يظن البعض أن أصحاب هذه الذنوب لا يمكن أن يتوبوا .هذا خطأ .باب التوبة مفتوح، ولوط لم يتوقف عن دعوتهم حتى آخر لحظة.

للأب والأم:

· راقب ما يشاهده أولادك: في عصر الإنترنت، أصبحت المواد الإباحية والشاذة في متناول الجميع . احم أولادك، وراقب هواتفهم، وتحدث معهم بصراحة عن خطر هذه الأفلام والممارسات.
· كن قدوة في الحياء: استح من الله، واستح من الناس .علم أبناءك الحياء، فإذا استحوا، لم يفعلوا الفواحش.
· لا تتركهم لرفقاء السوء: الرفقة السيئة قد تزين لهم الانحراف .اختر لأولادك أصدقاء صالحين، واشغل وقتهم بالنافع.

للمجتمع المسلم:

· رفض تطبيع الشذوذ: لا تقبل أن يقدم الشذوذ كخيار حياتي، ولا أن يدرّس في المدارس، ولا أن يروج له في الإعلام.
· دعم مؤسسة الزواج: الزواج هو الحصن الوحيد للعلاقة بين الرجل والمرأة .دعمه، وتشجيع الشباب عليه، وتسهيله، ومحاربة الموانع التي تؤخر الزواج.
· محاربة الفواحش بكل الوسائل: قانونياً، تربوياً، إعلامياً، اجتماعياً .الفاحشة إذا ظهرت، تفسد المجتمع كله.

اللمسات البلاغية والبيانية

في الآية ٢٨:

· "ولوطاً": نصب على الاختصاص، أي واذكر لوطاً، أو أرسلنا لوطاً.
· "إذ قال لقومه": إظهار في مقام الإضمار، للدلالة على أن هذا القول مشهور معروف.
· "إنكم لتأتون الفاحشة": الجملة مؤكدة بـ "إن" واللام، للدلالة على تحقيق الفعل وتقريره.
· "ما سبقكم بها من أحد من العالمين": نفي عام يدل على التفرد بهذه الجريمة.

في الآية ٢٩:

· "أئنكم لتأتون الرجال": همزة الاستفهام للتوبيخ، و"إن" للتوكيد، واللام للمبالغة.
· "وتقطعون السبيل": عطف بالواو، كأنه يعدّد جرائمهم واحدة واحدة.
· "وتأتون في ناديكم المنكر": "في ناديكم" ظرف مكان يدل على العلنية والتباهي.
· "فما كان جواب قومه إلا أن قالوا": أسلوب حصر، يدل على أنهم لم يكن لديهم أي جواب منطقي، فقط التحدي والاستكبار.
· "ائتنا بعذاب الله إن كنت من الصادقين": الجملة الشرطية تدل على استهزائهم وتكذيبهم.

العلاقة مع سياق السورة

السورة كلها عن الفتنة والاختبار، ثم قصص الأنبياء. بعد إبراهيم الذي نجا من النار وهاجر إلى ربه، يأتي لوط ليمثل نموذجاً آخر من الفتنة: فتنة الشهوة المنحرفة. وقوم لوط ابتلوا بهذه الفاحشة، فكانت فتنة عظيمة، لكن لوط ثبت وصبر، وهاجر مع إبراهيم ثم أرسل إلى قومه، فكذبوه واستهزأوا به، فأهلكهم الله.

هذا يبين أن أنواع الفتن متعددة: فتنة الشرك (قوم إبراهيم)، فتنة الشهوة (قوم لوط)، فتنة القوة و

السلطان (فرعون)، فتنة المال (قارون). والمؤمن يحتاج إلى الثبات عليها كلها.

الخلاصة: ماذا أخذنا من الآيتين ٢٨ و ٢٩؟

أخذنا أن الفاحشة التي يعلنها المجتمع هي علامة هلاك محقق، وأن هذه الجريمة - إتيان الذكور - هي من أشنع الجرائم، لم يسبق بها أحد من العالمين.

أخذنا أن الإنكار على المنكرين واجب، ولو كانوا مستكبرين متحدين. لا سكوت عن الفواحش.

أخذنا أن الفطرة السليمة هي ميزان الحلال والحرام. كل ما يخالف الفطرة فهو مردود، مهما قال عنه الناس أنه "حرية" أو "تطور".

أخذنا أن الله يمهل ولا يهمل، وأن عذابه قد يأتي بغتة للمستكبرين الذين يتحدون رسله.

كلمة تصل إلى أعماقك

قف الآن أمام هذه الآيات. تخيل نفسك مكان لوط. مجتمعك يغرق في المنكرات، ليس فقط شذوذاً، بل كل أنواع الفواحش: الزنا، والخمر، والمخدرات، والربا، والظلم. هل تقف لتنكر؟ أم تسكت وتقول "هذه حريات"؟

ربما تخاف من رد فعلهم. ربما تخاف أن يقولوا لك "ائتنا بعذاب الله". لكن تذكر: لوط لم يخَف، والله معه. وأنت أيضاً، إذا قمت بواجبك، فالله معك. لست مسؤولاً عن هدايتهم، أنت مسؤول عن البلاغ. والله غالب على أمره.

ولا تنس أن باب التوبة مفتوح. حتى لو كنت أنت ممن وقعوا في شيء من هذه الفواحش، فتب إلى الله، فهو الغفور الرحيم. لكن لا تيأس من رحمة الله، ولا تستهن بعذابه.

قف، وقل: لا للفاحشة. لا للشذوذ. لا للانحراف. لا للمنكر. ولو قالوا لي "ائتنا بعذاب الله"، فسأقول: سياتيكم عذاب من الله لا تردونه، إن كنتم تعلمون

المبحث الثاني

.تفسير الآية ٣٠ من سورة العنكبوت: دعاء المظلوم واستجابة القوي

المشهد التمهيدي: بعد الصبر الطويل، تأتي لحظة الصدع

تخيل معي هذا المشهد المؤلم: لوط عليه السلام يقف وحيداً بين قومه المنحطين. سنوات طويلة يدعوهم، ينهاهم عن الفاحشة التي ابتدعوها، يذكرهم بالله، يخوفهم بالعذاب. وكلما دعاهم، ازدادوا تكذيباً واستكباراً. وكلما نهاهم، ازدادوا تمادياً وعلانية للمنكر. حتى وصل بهم الأمر إلى أن يتحدوه: "ائتنا بعذاب الله إن كنت من الصادقين".

ماذا يفعل نبي الله في هذه اللحظة؟ هل يقنع؟ هل ييأس؟ هل يتركهم وشأنهم؟ كلا. لوط لم يكن نبي اليأس، بل نبي الصبر والدعوة والثبات. لكن هناك لحظة تأتي في حياة كل داعية، وكل مصلح، وكل مظلوم، حين يشعر أن الأوان قد حان لتغيير الواقع، وأن البشر قد أغلقوا كل أبواب الخير على أنفسهم. عندها لا يبقى إلا باب واحد: باب الله. يرفع يديه إلى السماء، ويدعو ربه دعاء المظلوم الذي لا يرد.

"قَالَ رَبِّ انصُرْنِي عَلَى القَوْمِ المُفْسِدِينَ"

دعوة قصيرة، وجيزة، لكنها تحمل في طياتها ألماً عمره سنوات، وصبراً طويلاً، وحسرة على قوم أصرّوا على هلاك أنفسهم.

"قَالَ رَبِّ" - النداء الذي يكسر الحواجز

لاحظ كيف بدأ لوط دعاءه: "رَبِّ". لم يقل "يا الله"، بل قال "ربي". هذا النداء يحمل معاني العبودية و المحبة والتربية. ربي الذي خلقني ورباني، ربي الذي أنقذ إبراهيم من النار، ربي الذي يعلم ما في نفسي، ربي الذي يسمع دعائي. إنه نداء الألفة والقرب، نداء من يعرف أن الله قريب مجيب.

التربية الإيمانية هنا: اجعل دائماً على لسانك "ربي". هذه الكلمة تذكرك بأن لك رباً يدبر أمرك، يسمع شكواك، ينجيك من كربك.

"انصُرْنِي" - ليس انتقاماً، بل نصرة للحق

لم يقل لوط: "رب انتقم منهم"، أو "رب اهلكهم". قال: "انصُرْنِي". النصرة مختلفة عن الانتقام. النصرة هي أن يعينه الله على إظهار الحق، وخذلان الباطل، ونجاة المؤمنين، وهلاك المفسدين. لوط لم يطلب لنفسه ثأراً، بل طلب أن ينتصر الحق على الباطل، وأن تزول الفاحشة من الأرض.

هذا يعلمك أن الدعاء على الظالمين ليس حقداً شخصياً، بل هو طلب لإقامة العدل، ولحماية المجتمع من الفساد، ولتطهير الأرض من المفسدين.

"عَلَى القَوْمِ المُفْسِدِينَ"

لم يقل "على القوم الكافرين" فقط، بل قال "المُفْسِدِينَ". وهذا وصف دقيق. فسادهم لم يكن فقط في العقيدة، بل تعدى إلى الأخلاق، والسلوك، والعلاقات، والمجتمع كله. لقد أفسدوا الفطرة، وأفسدوا النسل ، وأفسدوا الأمن بقطع الطريق، وأفسدوا العلن بإظهار المنكر. هم مفسدون بكل معنى الكلمة.

تأمل: لوط لم يطلب نصرته على قوم يعبدون الأصنام فقط، بل على قوم أحدثوا فساداً في الأرض. وهذا يذكرك بقوله تعالى: "وَلَا تَعْثَوْا فِي الأ َرْضِ مُفْسِدِينَ". الإفساد في الأرض أشد من الكفر المجرد، لأنه يضر الآخرين.

لماذا هذه الدعوة بعد كل هذا الصبر؟

قد يسأل سائل: لماذا لم يدع لوط عليهم من أول يوم؟ لماذا انتظر كل هذه السنين؟ الجواب: لأن الدعوة تحتاج إلى صبر، والدعاء على القوم يحتاج إلى استيفاء الحجة. لوط أراد أن يمنحهم كل فرصة للتوبة. أراد أن يبلغهم الرسالة، ويقيم عليهم الحجة، حتى إذا لم يبقَ عذر، وحتى إذا أصرّوا على الطغيان، جاء دور الدعاء عليهم. هذه هي سنة الأنبياء: لا يستعجلون النقمة، بل يصبرون ويدعون ، فإن أصر القوم على كفرهم وإفسادهم، رفعوا أيديهم إلى الله.

ماذا حدث بعد الدعاء؟

الآية لا تذكر الاستجابة مباشرة، لكن السورة تكمل بعد آيات، وسيأتي ذكر إهلاكهم. لكن في هذه الآية ، الله يريد أن يوقفنا عند لحظة الدعاء نفسها. لحظة رفع اليدين، لحظة انكسار القلب، لحظة التجاء المظلوم إلى ربه. هذه اللحظة هي قمة العبودية. وهي كفيلة بأن تغير الأقدار.

وفي آيات أخرى، نعرف أن الله استجاب دعاء لوط: " إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ القَرْيَةِ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ" (العنكبوت ٣٤-٣٥؟ بل في مواضع أخرى). والتفصيل في قصة لوط في سور أخرى: أرسل الله الملائكة إلى إبراهيم ثم إلى لوط، ثم أمطر عليهم حجارة من سجيل.

لكن الآية هنا تختصر: دعا لوط، فاستجاب الله. وهذا يكفي للمؤمن أن يعلم أن دعوة المظلوم لا ترد.

دروس نفسية وتربوية وإيمانية

الدرس النفسي: متى يحين وقت الدعاء على الظالم؟

هناك حالة نفسية يمر بها المظلوم: يبدأ بالصبر، ثم يلجأ إلى النصح، ثم يلجأ إلى الهجرة، ثم إذا أصرّ الظالم على ظلمه وفساده، يأتي وقت رفع اليدين إلى الله. ليس ضعفاً، بل هو قوة، لأنك تسلم الأمر لله، وهو أقدر منك على الظالم. هذه المرحلة تحررك نفسياً من عبء محاولة تغيير من لا يريد التغيير.

الدرس التربوي: تعليم الأطفال الدعاء عند الظلم

ربوا أبناءكم على الدعاء عندما يُظلمون. علموهم ألا يردوا الظلم بظلم مثله، بل يرفعوا أيديهم إلى الله. "رب انصرني على من ظلمني" ليست ضعفاً، بل هي قوة إيمانية. وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يدعو على من آذاه أحياناً، لكنه كان أكثر ما يدعو بالهداية لهم.

الدرس الإيماني: ثق بأن الله ينصر المظلوم

لوط كان وحيداً، بلا جيش ولا مال ولا سلطان. لكنه كان معه سلاح قوي: الدعاء. فاستجاب الله له. إذا كنت مظلوماً، فلا تستبطئ نصر الله. قد يأتي متأخراً في ظنك، لكنه يأتي في الوقت المناسب عند الله. وثق أن دعوة المظلوم ليس بينها وبين الله حجاب.

الدرس الدعوي: لا تستعجل النصر

لوط صبر سنين طويلة قبل أن يدعو على قومه. لم يستعجل النقمة، بل أعذر من أنذر. هذا يعلم الداعية أن يكون حليماً، لا يستعجل هلاك من يكذبه. ربما يهديهم الله بعد حين. لكن إذا أصرّوا وأفسدوا في الأرض، واغلقوا أبواب التوبة، فعندها لا حرج في طلب النصر عليهم.

كيف نعيش هذه الآية في واقعنا؟

أولا ً: إذا كنت مظلوماً

· لا تيأس، ولا تنتقم بنفسك .ارفع يديك إلى الله وقل: "رب انصرني على القوم المفسدين" .هذا الدعاء قد يكون أقوى من أي سلاح.
· لكن تأكد أنك قد استوفيت الأسباب: بذلت النصح، حاولت الإصلاح، صبرت على الأذى .فإن لم يجد، فالدعاء سلاحك.
· لا تدعو على الظالم بهلاك عاجل إن كان فيه أمل في التوبة .ادعُ له بالهداية أولا ً، فإن أصرّ فادعُ بالنصر على ظلمه.

ثانياً: كداعية ومصلح

· لا تطلب النصر لنفسك، بل للحق .نوّ نيتك: أن تظهر كلمة الله، ويزول الفساد، ويسلم المجتمع من الشر.
· لا تستعجل هلاك أعداء الدعوة .قد يبدو لك أنهم لا يستجيبون، لكن ربما يهديهم الله بعد حين . استمر في الدعوة والصبر، واترك النتيجة لله.
· إذا شعرت أن الحجة قد استنفدت، وأن القوم مصرون على الفساد، وأنك قد بذلت كل ما تستطيع، فحينها ارفع يديك وقل: "رب انصرني على القوم المفسدين".

ثالثاً: في الحياة اليومية

· إذا رأيت منكراً يُفعل في المجتمع، ولا تستطيع تغييره بيدك ولا بلسانك، فادعُ على أهله بالهداية أو بالعقاب إن كانوا مصرين .فالدعاء سلاح المؤمن.
· إذا وقع عليك ظلم في العمل، أو في البيت، أو في الشارع، فلا تلجأ إلى الظلم المضاد .ارفع أمرك إلى الله، وقل: "رب انصرني" .فقد يكون الدعاء هو الذي يفرج كربتك.
· علم أولادك هذا الدعاء: "رب انصرني على من ظلمني" .يريح قلوبهم، ويعلمهم التوكل على الله، ويمنعهم من الانتقام العنيف.

اللمسات البلاغية والبيانية

"قَالَ رَبِّ"

· النداء بحرف النداء المحذوف) يا (للاستغاثة، وإضافة "رب" إلى ياء المتكلم للدلالة على القرب و الخصوصية.

"انْصُرْنِي"

· فعل أمر، والفعل المضارع منه "ينصرني" لكنه جاء على صيغة الأمر للإلحاح وسرعة الاستجابة.

"عَلَى القَوْمِ المُفْسِدِينَ"

· "القوم" اسم جنس، و"المفسدين" صفة تدل على استمرار الفساد وتجذره .لم يقل "الكافرين" بل

"المفسدين" لأن فسادهم طال المجتمع كله.

حذف المفعول

. لم يقل "انصرني عليهم بما أريد" بل أطلق النصرة، لتعم كل أنواع النصرة: عاجلة وآجلة، حسية ومعنوية.

العلاقة مع سياق السورة

السورة كلها عن الفتنة والاختبار. بعد أن ذكر قصة إبراهيم وهجرته وعطاء الله له، ثم قصة لوط وإنكاره على قومه الفاحشة، تأتي هذه الآية لتكون ذروة الصبر واللجأ إلى الله. لوط لم ييأس، بل لجأ إلى الله. وهذا هو الدرس: مهما طالت الفتنة، ومهما اشتد البلاء، ومهما استكبر المبطلون، فباب الله مفتوح. ارفع يديك وادعُه، فهو الناصر القوي.

ثم ستأتي الآيات بعد ذلك لتبين استجابة الله: إهلاك قوم لوط، ونجاة لوط ومن معه. لكن الآية الحالية تريد أن توقفك عند قوة الدعاء وحاجة المظلوم إلى الله وسنة الله في نصرة أنبيائه.

الخلاصة: ماذا أخذنا من الآية ٣٠؟

أخذنا أن الدعاء سلاح المظلوم، وأنه متى أصرّ الظالم على ظلمه، وأغلق المفسدون أبواب التوبة، حان وقت رفع الأيدي إلى الله.

أخذنا أن النصرة ليست انتقاماً، بل هي إقامة للعدل، وإزالة للفساد، ونجاة للمؤمنين.

أخذنا أن الصبر طويل، وأن الدعاء على القوم لا يكون إلا بعد استيفاء الحجة وبذل الجهد في الدعوة والنصح.

أخذنا أن الله قريب مجيب، وأن دعوة المظلوم لا ترد، ولو تأخر ظهور النصر في الظاهر، فهو آتٍ لا محالة.

أخذنا أن المفسدين هم أخطر الناس، لأن فسادهم يتعدى إلى المجتمع كله، ولهذا كانت دعوة لوط عليهم خاصة.

كلمة تصل إلى أعماقك

أنت الآن، في هذا الزمن، قد تكون مظلوماً. قد تكون في مجتمع يمارس المنكرات علناً، وقد تكون داعية يستهزأ به، وقد تكون إنساناً يرى الفساد في كل مكان ولا يستطيع تغييره. قد تشعر بالوحدة، وقد تشعر أن الأوان قد فات، وأن الباطل قد انتصر.

لكن هذه الآية تهمس في أذنك: لم يفت الأوان بعد. هناك سلاح لم تستخدمه بعد: الدعاء. ارفع يديك إلى الله، وقل من أعماق قلبك: "رب انصرني على القوم المفسدين". لا تظن أن دعاءك يضيع. الله يسمع، والله قادر، والله ناصر أوليائه.

قد لا ترى النصر بعينيك في الحال، لكن النصر قادم. لوط دعا، ثم جاءه العذاب بعد حين. موسى دعا على فرعون، ثم أغرق الله فرعون وجنوده. محمد صلى الله عليه وسلم دعا على قريش يوم بدر، فقتل صناديدهم. والنبي صلى الله عليه وسلم قال: "اتق دعوة المظلوم، فإنه ليس بينها وبين الله حجاب".

فارفع يديك الآن. قل: رب انصرني. وثق أن الله ناصرك، ولو بعد حين.

المبحث الثالث

تفسير الآية ٣١ من سورة العنكبوت: البشرى والنذرة في مشهد واحد

المشهد التمهيدي: لحظة يتداخل فيها الفرح والألم

تخيل معي هذا المشهد العجيب: إبراهيم عليه السلام جالس في أرض كنعان، بعد أن هاجر من قومه، وبعد أن وهبه الله إسحاق ويعقوب بشيراً. هو الآن في حالة انتظار، لا يدري متى يأتيه الفرج، ولا

متى يرزقه الله بالولد الذي وعده به.

وفجأة، ينزل ضيوف على إبراهيم. ضيوف لا يعرفهم، لكنهم يحملون هيبة ووقاراً. يدخلون عليه، فيُسرع ليذبح لهم عجلا ً، ويقدم لهم الطعام. لكنهم لا يأكلون! هنا يشعر إبراهيم بالخوف، فطمأنوه وقالوا: لا تخف. ثم بَشّرُوه بإسحاق ويعقوب. فرح إبراهيم فرحاً عظيماً، وامرأته ضحكت واستبشرت.

لكن في خضم هذا الفرح، وقبل أن ينتهي اللقاء، يأتي الخبر الآخر. خبر ثقيل، خبر مؤلم. تقول الآية: "وَلَمّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالبُشْرَى قَالُوا إِنّا مُهْلِكُو أَهْلِ هَذِهِ القَرْيَةِ إِنّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ"

لحظة فاصلة: في نفس المجلس، في نفس اللقاء، تجتمع البشرى والنذرة. بشرى بإسحاق ويعقوب، ونذرة بإهلاك قوم لوط. إبراهيم يتلقى الخبرين معاً: ابناً وحفيداً من جهة، وهلاك قريب له (لوط) وقوم فاسدين من جهة أخرى.

لماذا هذا الجمع؟ ليعلم المؤمن أن الحياة لا تخلو من فرح وحزن، وأن الفرج يأتي مع البلاء، وأن رحمة الله واسعة لكن عذابه أليم. وأن على المؤمن أن يستعد لاستقبال البشرى والنذرة معاً، بقلب راضٍ بقضاء الله.

"وَلَمّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالبُشْرَى"

"رُسُلُنَا" - تشريف وإضافة

لم يقل "جاءت الملائكة"، بل قال "رُسُلُنَا". إضافة الرسل إلى الله تشريف لهم، وتذكير بأنهم لا يعملون إلا بأمره. والجمع "رسلنا" إشارة إلى أنهم أكثر من ملك: جبريل وغيره من الملائكة.

"إِبْرَاهِيمَ" - نبي الله الخليل

ذكر الله إبراهيم باسمه العلم، مع أن السياق يعرفه، للتكريم والتشريف. فهو خليل الله، وأبو الأنبياء.

"بِالبُشْرَى" - ما هي البشرى؟

البشرى هي إسحاق ويعقوب. في سورة هود: "وَبَشّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ". هنا في العنكبوت اختصرت الآية، لأنها أرادت التركيز على الخبر الآخر.

لمسة بلاغية: "البشرى" نكرة، للتعظيم. أي بشرى عظيمة، لا توصف. بشرى الولد بعد العقم، بشرى النبوة والكتاب في الذرية.

"قَالُوا إِنّا مُهْلِكُو أَهْلِ هَذِهِ القَرْيَةِ"

"إِنّا مُهْلِكُو" - الجزم والقوة

استخدم الملائكة أسلوب التأكيد بـ "إنّا" للدلالة على أن هذا الأمر حتمي لا رجعة فيه. "مُهْلِكُو" صيغة مبالغة: أنهم سيفعلون الإهلاك الكامل الشامل.

"أَهْلِ هَذِهِ القَرْيَةِ"

أي قرية سدوم، أو قرى قوم لوط. لم يذكروها باسمها، لكن إبراهيم يعلم. وهي قرى كانت تقع عند البحر الميت.

لماذا أخبروا إبراهيم؟

إبراهيم كان قريباً من لوط، وكان يهتم بأمره. وقد كان يعلم بفساد قوم لوط، لكنه لم يكن يعلم أن العذاب سيأتي الآن. فأخبرته الملائكة لتكون الحجة قد قامت، وليرى إبراهيم قدرة الله، وليعلم أن الله لا يظلم أحداً.

"إِنّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ"

"ظَالِمِينَ" - سبب الإهلاك

لم يقل "كافرين" فقط، بل قال "ظَالِمِينَ". لأن الظلم أعم من الكفر. ظلموا أنفسهم بارتكاب الفواحش، وظلموا غيرهم بقطع الطريق، وظلموا المجتمع بنشر الفساد. والظلم هو سبب هلاك الأمم. قال تعالى: "وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ".

"كانُوا" - صفة ملازمة

فعل "كانوا" يدل على أن الظلم صفة راسخة فيهم، مستقرة، ليست طارئة. ظلموا واستمروا في الظلم، ولم يتوبوا.

لماذا جمع الله البشرى والنذرة في مشهد واحد؟

هذه من روعة القرآن. لنفهم الحكمة:

أولاً: ليعلِم إبراهيم أن الحياة تجمع بين الفرح والحزن. البشرى بإسحاق تشرح صدره، والنذرة بإهلاك قوم لوط تحزنه. لكن المؤمن يستقبل الأمرين بصبر وشكر.

ثانياً: ليبين أن الفرج يأتي مع البلاء. قد تكون في قمة فرحك، ثم يأتي خبر يحزنك. وقد تكون في قمة حزنك، ثم يأتي الفرج. لا تستعجل شيئاً.

ثالثاً: ليؤكد أن سنة الله واحدة. الله الذي يبشر بالولد يعاقب المفسدين. رحمته وسعت كل شيء، لكن عذابه شديد على الظالمين.

رابعاً: ليدرب المؤمن على تقبل الأقدار. إبراهيم لم يقل: "كيف تجمعون لي البشرى والنذرة؟" بل استقبل الخبرين بقلب مؤمن. هذا هو التسليم.

دلالات تربوية ونفسية عميقة

البعد النفسي: تقبل المشاعر المتضاربة

في حياة الإنسان، كثيراً ما تأتيه أحداث تضعه في حالة من المشاعر المتضاربة: فرح وحزن، رجاء وخوف، بشرى ونذرة. الآية تعلمك أن هذا طبيعي، وأن المؤمن يتقبل ذلك بصدر رحب. لا تظن أن الإيمان يعني أن تكون سعيداً طوال الوقت. الإيمان يعني أن تكون راضياً بقضاء الله في السراء و الضراء.

البعد التربوي: تعليم الأطفال أن الحياة ليست أحادية

ربوا أبناءكم على أن الحياة تجمع النقيضين. لا توهموهم أن كل شيء سيكون جميلاً، ولا تخوفوهم بأن كل شيء سيكون سيئاً. علموهم أن البشرى قد تأتي مع النذرة، وأن النذرة قد تسبق البشرى.

البعد الدعوي: لا تخف من إبلاغ الناس بالحقائق

الملائكة أخبرت إبراهيم بالخبر الثقيل مع الخبر الجميل. كذلك أنت، في دعوتك، لا تخف من أن تقول الحقائق كلها: الترغيب والترهيب، البشرى والنذرة. الناس تحتاج إلى التوازن.

البعد العقدي: الله هو الفاعل المطلق

الملائكة قالوا: "إنا مهلكو أهل هذه القرية". لكنهم أضافوا الأمر إلى أنفسهم مع أن الله هو المهلك حقيقة. هذا أدب: أن ينسب العبد فعله إلى نفسه مع الاعتراف بأن الله هو المسبب الحقيقي. فالملائكة وسائط، والمهلك الحقيقي هو الله.

تطبيقات عملية في حياتنا

أولاً: عندما تأتيك البشرى

· اشكر الله، واسجد شكراً، كما فعل إبراهيم .لا تنسَ أن البشرى من الله، فاحمده عليها.
· لكن توقع أن تأتي معها أو بعدها أخبار أخرى غير سارة .لا تظن أن البشرى تعني نهاية المشاكل.

ثانياً: عندما تأتيك النذرة

· لا تيأس، ولا تقنط من رحمة الله .النذرة قد تكون إنذاراً للتوبة، أو خبراً بهلاك قوم ظالمين.
· تذكر أن الله لا يهلك قوماً إلا بعد أن تقوم عليهم الحجة، وبعد أن يصرّوا على الظلم.

ثالثاً: في تربية الأولاد

· أخبر أبناءك قصص الأنبياء كما هي، بالبشرى والنذرة معاً .لا تخف من أن يحزنوا، فالحزن جزء من الحياة.
· علمهم أن يستقبلوا الأخبار السارة والأخبار السيئة بصبر وشكر.

رابعاً: في الدعوة والإصلاح

· قدم الإسلام كما هو: دين الرحمة والعدل، البشرى والإنذار .لا تختصر الدين في الجانب الجميل فقط ، ولا في الجانب المخيف فقط.
· كن صادقاً مع الناس، وأخبرهم بالحقائق كلها.

اللمسات البلاغية والبيانية

أولا ً: "ولما جاءت"

"لما" ظرف بمعنى "حين"، يدل على أن هذا الحدث وقع في وقت محدد .والفاء في "فقالوا"؟ ليس هنا فاء، لكن في الآية "قالوا" مباشرة، للدلالة على السرعة: ما إن جاءوا حتى قالوا.

ثانياً: "رسلنا"

الإضافة إلى الله للتشريف، وللدلالة على أنهم من عنده، وبأمره.

ثالثاً: "بالبشرى"

التعريف باللام للعهد، أي البشرى المعروفة في قصة إبراهيم: إسحاق ويعقوب. أو للجنس، أي بالبشرى عموماً.

رابعاً: "إنا مهلكو"

"إنّ" للتوكيد، واسمها ضمير الشأن "نا"، وخبرها "مهلكو" ."مهلكو" صيغة مبالغة من الإهلاك، أي سندمر تدميراً كاملا ً.

خامساً: "أهل هذه القرية"

الإشارة بـ "هذه" للتقريب، كأنها أمامهم. و"القرية" مفرد يراد به القرى المتجاورة.

سادساً: "إن أهلها كانوا ظالمين"

تكرار "إنّ" للتأكيد. و"كانوا ظالمين" دلالة على استمرار الظلم ورسوخه.

العلاقة مع سياق السورة

السورة كلها عن الفتنة والاختبار. بعد أن ذكر قصة لوط ودعائه على قومه، تأتي هذه الآية لتبين أن الله قد استجاب دعاءه، وأرسل الملائكة أولا ً إلى إبراهيم بالبشرى، ثم إلى لوط لإهلاك قومه. وهكذا تتكامل القصص: إبراهيم يُبشر، وقوم لوط يُهلكون. وهذا يظهر عدل الله: المؤمنون يفرحون، و المفسدون يهلكون.

ثم تأتي الآيات بعد ذلك لتفصيل ما حدث مع لوط وإبراهيم، ونجاة لوط وأهله إلا امرأته.

الخلاصة: ماذا أخذنا من الآية ٣١؟

أخذنا أن البشرى والنذرة قد تأتيان معاً، وأن المؤمن يستقبلهما بقلب راض.

أخذنا أن الملائكة رسل الله، يأتون بالأمر من عنده، ولا يفعلون إلا بإذنه.

أخذنا أن سبب هلاك الأمم هو الظلم، فمن ظلم نفسه وظلم غيره، فقد استحق العذاب.

أخذنا أن الله لا يهلك قرية إلا بعد أن تقوم الحجة، وقد قامت الحجة على قوم لوط بدعوة لوط الطويلة.

أخذنا أن إبراهيم نبي كريم، بشره الله بالولد في وقت كبر سنه، ثم أخبره بهلاك قوم لوط، فاستقبل الأمرين.

كلمة تصل إلى أعماقك

أنت الآن، في رحلة حياتك، قد تأتيك البشرى: ولد صالح، وظيفة جديدة، زواج مبارك، توبة صادقة. وقد تأتيك النذرة: مرض، فاجعة، خسارة، ابتلاء. وقد تأتيك الاثنتان معاً، في يوم واحد، في ساعة واحدة.

لا تندهش. هذه سنة الله في خلقه. إبراهيم الخليل نفسه جاءته البشرى والنذرة في مجلس واحد. فما بالك أنت؟

استقبل البشرى بشكر، واستقبل النذرة بصبر. واعلم أن كلا ً منهما من عند الله، وأن كلا ً منهما خير لك. البشرى اختبار للشكر، والنذرة اختبار للصبر. والله يحب الشاكرين والصابرين.

وإذا جاءتك البشرى، فاسجد. وإذا جاءتك النذرة، فاصبر. وإذا جاءتك معاً، فاستقبلهما معاً بقلب مؤمن
المبحث الرابع
تفسير الآية ٣٢ من سورة العنكبوت: شفاعة الخليل واستثناء الخائنة

المشهد التمهيدي: قلب إبراهيم ينفطر على لوط

تخيل معي هذا المشهد الإنساني العميق. إبراهيم عليه السلام جالس مع الملائكة الذين جاءوه على صورة بشر. بَشّرُوه بإسحاق ويعقوب، فاستبشر قلبه. ثم قالوا له: إنا مهلكو أهل هذه القرية. وفجأة، يقفز قلب إبراهيم إلى قريب له، إلى ابن أخيه أو قريبه، إلى ذلك الشاب الذي آمن به وهاجر معه ودعا قومه فكذبوه.

"قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا"

كأن إبراهيم يقول: يا رسل الله، انتظروا! في هذه القرية التي تريدون إهلاكها، هناك رجل صالح، هناك نبي كريم، هناك لوط الذي آمن بي وهاجر معي. أتريدون أن تهلكوه معهم؟! إنها شفاعة الخليل، وغيرة النبي على ابن أخيه، ورقة قلب الأب الروحي على ولده في الإيمان.

لكن الملائكة ترد عليه، وردهم يحمل كل معاني العلم والعدل والرحمة في آن واحد:

"قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا"

أي: لا تخف يا إبراهيم، نحن أعلم منك بأهل هذه القرية. نعلم من يستحق الإهلاك ومن يستحق النجاة. لا نظلم أحداً، ولا نخلط بين البر والفاجر.

"لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ"

ونؤكد لك: سننجيه هو وأهله المؤمنين، لكن امرأته لن تنجو، لأنها كانت من الباقين في العذاب، من المتخلفين عن الركب، من الغابرين الذين يغبرون في الهلاك.

"قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا" - شفاعة إبراهيم

"إِنَّ فِيهَا لُوطًا"

لاحظ كيف عبّر إبراهيم. لم يقل "فيه لوط" فقط، بل أكد بـ "إنّ" وباللام في "لوطًا". هذا تأكيد معناه: يا رب، إن فيها لوطاً، لا تنسَ لوطاً، ارحم لوطاً، أنقذ لوطاً.

إبراهيم لم يطلب إعفاء القوم كلهم، لأنه كان يعلم أنهم ظالمون مفسدون. لكنه خاف على لوط أن يهلك معهم. هذا يدل على رحمة الأنبياء وغيرتهم على المؤمنين. حتى في لحظة إعلان العذاب، يفكر في نجاة الصالحين.

لماذا شفع إبراهيم؟

ليس اعتراضاً على قدر الله، بل هو:

· طلب تأكيد: يريد أن يطمئن على لوط.
· شفقة ورحمة: قلبه يفيض حباً للوط.
· أدب مع الله: سأل بطريقة غير مباشرة، عبر التذكير بوجود لوط.

وهذا يعلمنا الأدب في الدعاء: لا تعترض على حكم الله، بل اسأل بالتي هي أحسن، واذكر ما يرجى من رحمة.

"قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا" - رد الملائكة

"نَحْنُ أَعْلَمُ"

لم يقل "الله أعلم"، بل قالوا "نحن أعلم". لأنهم رسل الله، والله أعلمهم بما في القرى. أو لأنهم يتحدثون عن علمهم بما أوحاه الله إليهم. وهذا أدب: لا ينسبون العلم لأنفسهم استقلالا ً، لكنهم يخبرون بما عندهم من علم إلهي.

"بِمَنْ فِيهَا"

علمهم شامل: يعلمون المؤمن من الكافر، والصالح من الطالح، ومن يستحق النجاة ومن يستحق الهلاك. لا يخفى عليهم شيء.

الرد على شفاعة إبراهيم

لم يوبخوا إبراهيم، بل طمأنوه: نحن نعلم أن فيها لوطاً، ونعلم مكانه، ونعلم أنه لا يستحق الهلاك. فلا تخف.

هذا يعلمك أن الله لا يظلم أحداً، وأنه سبحانه أعلم بأحوال عباده من أي نبي مرسل. لو كان في قوم لوط مؤمن غير لوط وأهله، لنجاهم الله. لكنهم كانوا كلهم فاسدين إلا القليل.

"لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ" - وعد النجاة

"لَنُنَجِّيَنَّهُ"

تأكيد بالقسم أو باللام والنون: لننجينه حتماً. لا خوف عليه. سيكون من الناجين.

"وَأَهْلَهُ"

أي أهل بيته المؤمنين. وهم: زوجته؟ لا، زوجته ليست من الناجين كما سيأتي. وبناته؟ كان للوط بنات، وهن من الناجيات. في قصة لوط في سورة هود: إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ. إذن "أهله" يشمل بناته ومن آمن معه من أسرته.

"إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ" - الاستثناء المؤلم

استثناء الزوجة

لماذا استثنت الملائكة امرأة لوط؟ لأنها كانت كافرة، متواطئة مع قومها، تخبرهم بالضيوف، وتؤثر

قومها على زوجها النبي. إنها الخائنة التي لا تستحق النجاة.

"كانتْ مِنَ الغَابِرِينَ"

الغابرين من غبر يغبر: أي بقي وتخلف. الغابر هو الباقي في المكان. والمعنى: أنها كانت من الباقين في العذاب، من المتخلفين عن النجاة. وقيل: الغابرون هم الهالكون. فهي من الذين سيهلكون مع قومها.

دروس من استثناء امرأة لوط

· الزوج الصالح لا ينفع الزوجة الكافرة: لوط نبي، لكن زوجته خائنة، فلم تنفعها صحبته. وهذا رد على من يظن أن النسب أو المصاهرة تنفع عند الله. إنما ينفع الإيمان والعمل الصالح.
· الله لا يظلم: لو نجّى الله امرأة لوط لكان ظلماً، لأنها استحقت العذاب بفسادها. فعدل الله اقتضى هلاكها مع قومها.
· الشفاعة لا تنفع الكافر: حتى لو كان الشافع خليل الله إبراهيم، فإنه لم يشفع لامرأة لوط، بل شفع للوط فقط. والملائكة أكدوا أنهم سينجون لوطاً وأهله إلا امرأته. فالشفاعة يوم القيامة لأهل التوحيد، لا للكافرين.

لماذا هذه الآية بعد البشرى والنذرة؟

لأنها تكمل الصورة: إبراهيم يشفع، والملائكة ترد، والمشهد ينتقل بعد ذلك إلى إرسال الملائكة إلى لوط. الآية تظهر جانبين متناقضين:

· رحمة الله: نجاة لوط وأهله.
· عدل الله: هلاك الباقين ومنهم امرأة لوط.

وهذا يعلمك أن الله رحيم بعباده المؤمنين، شديد العقاب على الكافرين المفسدين.

دروس نفسية وتربوية وإيمانية

الدرس النفسي: شفقة المؤمن على المؤمن

إبراهيم لم ينس لوطاً في لحظة الخطر. قلب المؤمن يظل معلقاً بإخوانه. لا تكن أنانياً، تفكر في نجاة نفسك فقط. اسأل الله لغيرك كما تسأل لنفسك.

الدرس التربوي: العلاقة الزوجية لا تضمن النجاة

كم من زوجة صالحة مع زوج فاسد لا تنفعها صلاحها؟ وكم من زوج صالح مع زوجة فاسدة لا ينفعه صلاحه؟ الآية تعلّم ألا نغتر بالصحبة والقرابة، فالعبرة بالإيمان والعمل. هذا يعزز المسؤولية الفردية في التربية.

الدرس الإيماني: الله أعلم من كل أحد

قد نظن أننا نعرف من يستحق النجاة ومن يستحق الهلاك، لكن الله أعلم. الملائكة قالوا: نحن أعلم بمن فيها. فلا تتسرع في الحكم على الناس، ولا تظن أن من تراه صالحاً ناجٍ حتماً، أو من تراه فاسداً هالك حتماً. الأمور بخواتيمها، والله أعلم بالسرائر.

الدرس الدعوي: لا تيأس من هداية القريب

امرأة لوط كانت أقرب الناس إليه، ومع ذلك لم تؤمن. قد تدعو أقرب الناس إليك فلا يستجيبون. لا تحزن، فأنت لست مسؤولاً عن هدايتهم. لوط نبي ولم تهده زوجته.

كيف نعيش هذه الآية في واقعنا؟

أولاً: في علاقاتنا الأسرية

· لا تظن أن زوجك أو زوجتك سينجو لمجرد أنه قريب منك. الإيمان شخصي. احرص على دعوتهم بـ الحكمة، لكن لا تتحمل وزر ضلالهم إذا أصرّوا.
· إذا كان عندك قريب كافر أو فاسد، فاستمر في دعوته، لكن لا تيأس إذا لم يستجب. لوط لم تهد زوجته.

ثانياً: في شفاعتنا للآخرين

· اشفع للناس بالخير، كما شفع إبراهيم للوط. لا تترك إخوانك في الضيق.
· لكن اعلم أن شفاعتك لا تنفع من كتب الله عليه الهلاك. فاستمر في الدعاء، واترك الأمر لله.

ثالثاً: في التوكل على الله

· لا تتكل على صحبة الصالحين فقط. أنت مسؤول عن نفسك. امرأة لوط كانت مع نبي، لكنها هلكت. اجتهد أنت في طاعة الله، ولا تعتمد على "البركة" فقط.

رابعاً: في تربية الأبناء

· علم أبناءك أن الإيمان ليس بالوراثة. لا ينجيهم أنك أنت مؤمن، بل ينجيهم إيمانهم هم وعملهم.
· لكن مع ذلك، احرص على تربيتهم على الإيمان، وادع الله لهم كما دعا إبراهيم للوط.

اللمسات البلاغية والبيانية

أولاً: "إِنَّ فِيهَا لُوطًا"

تأكيد بـ "إنّ" واللام، يدل على حرص إبراهيم على ذكر لوط، وكأنه يريد أن يقول: لا تنسوا هذا الرجل الصالح.

ثانياً: "نَحْنُ أَعْلَمُ"

ضمير "نحن" للتعظيم، أو للجمع، والمقصود الله والملائكة. والجملة اسمية تدل على الثبات.

ثالثاً: "لَنُنَجِّيَنَّهُ"

القسم المؤكد بـ "لام القسم" و"نون التوكيد"، يدل على الجزم والحتمية.

رابعاً: "إِلَّا امْرَأَتَهُ"

الاستثناء المفرغ، يدل على أن النجاة شملت الجميع إلا هي. وهذا يفيد أنها كانت مستثناة من الحكم.

خامساً: "كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ"

"كانت" تدل على أن صفة الغابرين ثابتة فيها، مستقرة. لم تكن مؤمنة ثم ارتدت، بل كانت من البداية من الغابرين.

العلاقة مع سياق السورة

السورة كلها عن الفتنة والاختبار، ونجاة المؤمنين وهلاك الكافرين. هنا تجلى:

· إبراهيم يشفع، فيُعلم أن الشفاعة في الدنيا لا تنفع إلا لمن أراد الله.
· الملائكة ترد، فتؤكد عدل الله وعلمه.
· امرأة لوط تذكر استثناء، لتعلم أن القرابة لا تنفع، وأن الخيانة في الإيمان تؤدي إلى الهلاك.

ثم ستأتي الآيات بعد ذلك لتصف مجيء الملائكة إلى لوط، ورد قومه، ونجاته هو وأهله إلا امرأته.

الخلاصة: ماذا أخذنا من الآية ٣٢؟

أخذنا أن الشفاعة في الدنيا قد تكون مقبولة إذا كانت لصالح لا يستحق الهلاك، وقد لا تنفع إذا كان

المشفوع له من الغابرين.

أخذنا أن الله أعلم بحال عباده، فلا نحكم على أحد بالنار أو الجنة قبل أوانه.

أخذنا أن القرابة والصحبة لا تضمن النجاة، إنما النجاة بالإيمان والعمل الصالح.

أخذنا أن الزوجة الخائنة لا تنفعها صحبة نبي، كما أن الزوج الفاجر لا يضر زوجته الصالحة إذا تمسكت بدينها.

أخذنا أن رحمته سبقت غضبه، فهو ينجي المؤمنين ويهلك الكافرين، بعدل وحكمة.

كلمة تصل إلى أعماقك

أنت الآن، أمام هذه الآية، اسأل نفسك: هل أنا مثل لوط، ثابت على الإيمان رغم أن أقرب الناس إليّ قد يكون على الباطل؟ أم أنا مثل امرأة لوط، مع زوج صالح لكن قلبي معلق بالفساد؟

لا تغتر بصحبة الصالحين إذا كنت أنت لست صالحاً. ولا تيأس إذا كان أقرباؤك على غير هدى، فأنت لست مسؤولا ً عن هدايتهم، لكنك مسؤول عن دعوتهم. وادعُ الله كما دعا إبراهيم: أن ينجي الصالحين، وأن لا يهلك المؤمنين مع الكافرين.

وتأكد: الله أعلم بمن في الأرض. لن يضيع أجر مؤمن، ولن يترك ظالماً دون عقاب. فثق بالله، واسعَ في طاعته، واطمئن أن النجاة لمن آمن وعمل صالحاً، وإن كانت زوجة نبي.

فكن كالوط وأهله : ثابتين على الإيمان، ولو كنت وحدك. ولا تكن كامرأة لوط: مع نبي لكنك من الغابرين.

المبحث الخامس

.تعتبر الآيتان (33 و34) من سورة العنكبوت هما "نقطة التحول" في السورة، حيث ينتقل السياق من مرحلة "النذير" و"المجاهدة" إلى مرحلة "التنفيذ الفعلي للسنن الإلهية". إليك التحليل العميق والمترابط لهما:

يقول الله تعالى:

> {وَلَمَّا أَن جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ ۖ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا امْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ (33) إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰ أَهْلِ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (34)}

>

أولا ً: الربط بالتحليل السابق (بناء الأمة ومراحل مالك بن نبي)

تأتي هذه الآيات لتؤكد أن الصمود في "مرحلة الروح" (التي مثلها لوط عليه السلام ومن آمن معه) هو الذي يستجلب التدخل الإلهي لإنهاء "مرحلة الجسد" المتعفنة (التي مثلها قوم لوط).

* نموذج الصراع: لوط عليه السلام يمثل الأمة في أضعف حالاتها المادية، لكنها الأقوى روحياً.

* حسم الصراع: الآيات تعلن أن الأمة التي تغرق في الشهوات (الجسد) وتترك الواجبات، تصبح كياناً "هشاً" (كبيت العنكبوت) يستحق الاستئصال ليحل محله "الاستخلاف" الجديد.

ثانياً: اللمسات البيانية والبلاغية

* "سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا": تعبير بليغ عن أقصى درجات الضيق النفسي. بُني الفعل "سِيءَ" للمجهول ليدل على أن السوء غمر كيانه كله. وهذا يصور لنا حال الداعية أو المصلح عندما يشعر بانسداد السبل الأرضية.

* "لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ": جمعت الملائكة بين نفي الخوف (على المستقبل) ونفي الحزن (على الحاضر و الماضي). وهي رسالة طمأنة لكل من يجاهد في سبيل بناء الأمة: إن رعاية الله تحيط بك من الجهتين.

* "إِنَّا مُنَجُّوكَ": التعبير بالجملة الاسمية المفيدة للثبوت، وتقديم "نا" الدالة على العظمة، يفيد القطعية واليقين في النجاة.

* "رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ": "الرجز" هو العذاب الذي يضطرب له الكيان. وتنكيره للتهويل، ووصفه بأنه من السماء ليدل على أنه لا مفر منه ولا قبل للبشر بدفعه.

ثالثاً: الدروس والمفاهيم في حياتنا العملية

* مفهوم "الضيق الذي يسبق الفرج": ضيق لوط عليه السلام كان هو اللحظة التي سبقت نزول الملا ئكة بالبشرى. في حياتنا العملية، عندما تشتد الأزمات ويضيق "الذرع"، اعلم أنك في لحظة "التحول النوعي".

* مفهوم "الاستثناء في الولاء": (إِلَّا امْرَأَتَكَ). هذا درس قاسٍ في الولاء والبراء؛ فالقرابة الجسدية لا

تنفع إذا لم يوجد رابط الروح. بناء الأمة يقوم على "الفكرة" لا على "العرق" أو "النسب".
* مفهوم "ضريبة الفسق": (بِمَا كانُوا يَفْسُقُونَ). الباء هنا للسببية. الفسق (الخروج عن الطاعة) هو المعول الذي يهدم المجتمعات. في واقعنا، الفساد الإداري والأخلاقي هو "رجز" معنوي يدمر الدول قبل أن يدمرها العذاب المادي.
رابعاً: التوجيهات والرسائل (كيف نعيش الآية؟)
* رسالة للمصلحين: قد تشعر أنك غريب وسط مجتمع يقدس "المادية والجسد"، وقد يضيق صدرك بانحرافهم، لكن تذكر (إِنَّا مُنجُوكَ). الثبات على القيم هو طريق النجاة الوحيد.
* رسالة التخطيط والقيادة: الملائكة (الرسل) جاؤوا بخطة واضحة (النجاة للبعض، والعذاب للبعض). التغيير يحتاج إلى "وضوح في الرؤية" وتحديد دقيق لمن يستحق البقاء ومن يجب تركه (الغابرين).
* رسالة التفاؤل: سورة العنكبوت تقول لك: مهما كان بيت الباطل معقداً ومرعباً، فهو عند الله "أوهن من بيت العنكبوت".
خامساً: مقاصد الآيات وأهدافها
* المقصد التربوي: تربية المؤمن على أن القوة الحقيقية ليست في عدد "القوم" المنحرفين، بل في "المعية الإلهية".
* المقصد السنني: تقرير سنة الله في إهلاك الأمم التي تصل لمرحلة "السيولة الأخلاقية" (الجسد) وتفقد توازنها الروحي والعقلي.
* الغرض التشريعي: التأكيد على حماية الفئة المؤمنة وتوفير "الملاذ الآمن" لها (الهجرة أو النجاة) لتبدأ دورة حضارية جديدة.
ختاماً:
هذه الآيات هي قلب "الخريطة الفكرية" في السورة؛ فهي تنقلك من مرحلة "تحمّل الأذى" (بداية السورة) إلى مرحلة "رؤية ثمرات الصمود" وانكسار الباطل. إنها تدعونا لأن نكون مثل نبي الله لوط" في الثبات على المبدأ، حتى لو ضاقت بنا الأرض، فإن سبل الله واسعة

. الموضوع الثاني

، ننتقل الآن إلى كشف "الشيفرة الربانية" في كيفية إدارة الأزمات الكبرى وصناعة التغيير، وربطها بـ الواقع العملي واللمسات البلاغية الدقيقة:

.1الاستراتيجية النفسية في مواجهة الأزمات:) لا تخف ولا تحزن(
في علم النفس الإداري والقيادي، يُعد "الخوف") شلل أمام المستقبل (و "الحزن") انكسار بسبب الواقع أو الماضي (هما أكبر عائقين أمام "مرحلة الروح".
* اللمسة البيانية: جاء النهي بصيغة) لا (الناهية، وهي هنا ليست مجرد مواساة، بل هي أمر قيادي للداعية والمصلح: "لا تسمح للمشاعر السلبية أن تقود قرارك".
* التوجيه العملي: بناء الأمة يتطلب قيادة تمتلك "السكينة" وسط العواصف .عندما يضيق بك "الذرع" وتسوءك الظنون، فإن المنهج الرباني يمنحك "الحصانة النفسية" لكي لا تتخذ قراراً بالانسحاب أو التنازل عن المبادئ.

.2مفهوم "الغابرين" وعزل العناصر المثبطة
)إِلَّا امْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ(:
* الدلالة اللغوية: "الغابر" هو الباقي في العذاب أو المتروك خلفاً.
* التحليل الفكري: الزوجة هنا لم تكن تمارس الفاحشة، لكنها كانت "تميل فكرياً" وتدعم المنظومة الفاسدة) خيانة فكرية ومنهجية.(
* الرسالة للأمة: في "المرحلة الانتقالية") من مكة للمدينة، أو من النظرية للتطبيق(، أخطر ما يواجه ا لأمة هم "الغابرون"؛ أولئك الذين يعيشون معنا بأجسادهم لكن ولاءهم لمنظومة "الجسد والملاهي" . السورة تأمرنا بـ "الحسم الشعوري" مع هؤلاء، فلا مجاملة في بناء الأمم على حساب المبادئ.

.3"رجزاً من السماء" .. قانون الاستحقاق الحضاري
)بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ(:
* الارتباط بالسنن: "الفسق" في اللغة هو خروج النواة من تمرتها .عندما يخرج المجتمع عن "القشرة" الأخلاقية التي تحميه، يصبح عارياً أمام سنن الهلاك.
* الهدف والمقصد: الآية تؤكد أن العذاب) الرجز (ليس فعلا ً عشوائياً، بل هو نتيجة حتمية) السين والتاء في "يفسقون" تدل على الاستمرار في الفساد.(
* الواقع العملي: الأمة التي تترك "الواجب" وتغرق في "المطالبة بالحقوق" الفردية المنحرفة، تسقط فكرياً أولا ً) رجز معنوي(، ثم تسقط مادياً) رجز حسي.(

.4التوازن بين "النجاة الفردية" و "الهلاك الجماعي"
تعلمنا الآيتان أن في لحظات "التحول الكبرى":
* النجاة ليست فردية محضة:) إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ(؛ الأمة تُبنى بالعائلات والمجموعات المترابطة روحياً.
* الهلاك جماعي لمن رضي: القرية بأكملها استحققت الرجز لأن "السكوت عن المنكر" هو مشاركة فيه.

.5كيف نعيش هذه الآيات اليوم؟) التطبيق الفعلي(

* اليقين بالبديل: عندما تشعر بضيق "الذرع" من هيمنة المادية) مرحلة الجسد (في العالم اليوم، تذكر أن الملائكة) بشرى النجاة (كانت موجودة في نفس اللحظة التي شعر فيها لوط بالضيق .الفرج موازٍ لـ لأزمة وليس بعدها دائماً.
* صناعة "بيئة النجاة": لا يكفي أن تكون صالحاً في نفسك، بل يجب أن تبني "أهلاً ") محضناً تربوياً (ليكونوا معك في مركب النجاة.
* الوعي بالسنن: اقرأ الواقع بعين "السنن" لا بعين "الأحداث" .الفسق المجتمعي) الظلم، الانحلال، تضييع الأمانة (هو "مغناطيس" للرجز، فابتعد عن مراكزه.
الخاتمة التركيبية:
هذه الآيات هي "لحظة الانفجار" في خريطة الطريق؛ حيث ينتهي "الصبر الستاتيكي") السكوت و التحمل (ويبدأ "التحرك الديناميكي" نحو بناء المجتمع الجديد .إنها ترجمة عملية لقول مالك بن نبي: "إن الحضارة لا تباع ولا تشترى، بل هي تنبع من أعماق الروح".
سورة العنكبوت بدأت بـ) أحسب الناس (لتختبر صدقك، ووضعت في وسطها نموذج لوط لتريك "لحظة الحسم"، لتصل بك في النهاية إلى) لنهدينهم سبلنا .(فمن ثبت في لحظة) ضاق بهم ذرعاً (استحق معية(وإن الله لمع المحسنين)
المبحث السادس
تأتي الآية (35) من سورة العنكبوت كـ "ختم التوثيق" على مشهد النجاة والهلاك الذي سبقه، وهي الجسر الذي يربط بين التاريخ) قصة لوط (وبين المستقبل) بناء الأمة(، لتقول لنا إن السنن الإلهية ليست أحداثاً عابرة، بل هي "نقاط علام" في طريق الحضارات.
يقول الله تعالى:
{ ﴿وَلَقد تَرَكنَا مِنهَا آيَةً بَيِّنَةً لِقَومٍ يَعقِلُونَ﴾(35)
<
أولاً: اللمسات البيانية والبلاغية
* "وَلَقَد": اجتمعت فيها واو القسم، واللام الموطئة للقسم، و"قد" التحقيقية .هذا التوكيد الثلاثي يهدف إلى لفت انتباه العقل الجمعي للأمة: "انظروا بجدية، فالأمر ليس مجرد حكاية".
* "تَرَكنَا مِنهَا": الفعل) ترك (يوحي بأن الهلاك لم يمحُ الأثر تماماً، بل أبقى الله "بقية" مقصودة لتكون مختبراً مفتوحاً للأجيال.
* "آيَةً بَيِّنَةً": تنكير "آية" للتعظيم، ووصفها بـ "بينة" أي شديدة الوضوح لا تحتاج لمتخصص ليفهمها، بل هي ظاهرة لكل ذي بصر وبصيرة.
* "لِقَومٍ يَعقِلُونَ": ختام معجز؛ فبينما ختمت قصص أخرى بـ "يسمعون" أو "يبصرون"، هنا اختار "العقل" .لماذا؟ لأن إدراك السنن التاريخية وسقوط الأمم) مرحلة الجسد (يحتاج إلى ربط الأسباب بـ المسببات، وهذا وظيفة العقل المحض.
ثانياً: الربط بالتحليل السابق) بناء الأمة والسنن الكونية(
تعد هذه الآية التطبيق العملي لـ "مرحلة العقل" عند مالك بن نبي:
* التراكم المعرفي: الأمة الناهضة لا تبدأ من الصفر، بل تقرأ "الآيات البينة" في جثث الأمم السابقة)مرحلة الجسد المتعفنة (لتتجنب مسارات سقوطها.
* الانتقال من الروح إلى العقل: إذا كانت الآية السابقة33) - (34تمثل "النصر الروحي" والتدخل الإلهي، فإن الآية (35) تدعو الأمة لتحويل هذا النصر إلى "مادة دراسية" وعلم اجتماعي) سنن تغيير.(
ثالثاً: الدروس والمفاهيم في حياتنا العملية
* مفهوم "الذاكرة الحضارية": الأمة التي تنسى تاريخ سقوط أسلافها هي أمة محكوم عليها بتكرار السقوط ."الآية البينة" هي الدرس الذي يجب أن يُدرس في مناهج بناء الأجيال.
* مفهوم "شواهد الفشل": كما ترك الله أثراً من قرية لوط، فإن واقعنا اليوم يترك "آيات بينة")انهيارات اقتصادية، تفكك أسري، ضياع هوياتي (لمن يعقل أن السير في طريق "المطالبة بالحقوق بلا واجبات" يؤدي لنفس النتيجة.
* مفهوم "العقل الجمعي": الآية تخاطب) قوم يعقلون (بصيغة الجمع، مما يعني أن الوعي بالسنن يجب أن يكون ثقافة مجتمعية عامة، وليس ترفاً فكرياً للنخبة فقط.
رابعاً: التوجيهات والرسائل) كيف نعيش الآية؟(
* رسالة للباحث والمفكر: ابحث عن "الآيات البينة" في واقعك .ابحث عن الأسباب التي جعلت هذا المجتمع ينهض وذاك يسقط .الوعي بالسنن هو "القوة الفكرية" التي طلبتها سورة العنكبوت.
* رسالة للمربي: علّم الجيل أن بقاء الأمم ليس بالصدفة، وأن "بيت العنكبوت" المادي سينهار حتماً مهما بدا قوياً، والشاهد هو التاريخ الماثل أمامنا.
* رسالة استشرافية: انظر إلى نهايات الظالمين والمفسدين كـ "آية" تطمئن قلبك بأن المنهج الرباني هو الحقيقة الوحيدة المستقرة.
خامساً: مقاصد الآية وأهدافها
* المقصد البرهاني: إقامة الحجة المادية الملموسة على صدق الوحي) بقاء الأثر الجغرافي لقرية لوط.(

* المقصد السنني: التأكيد على أن "قانون الاستخلاف" ليس غيبياً مجهولا ً، بل هو قانون له مقدمات ونتائج مشاهدة.
* الغرض التربوي: تحويل العاطفة الدينية) الخوف من العذاب (إلى "وعي عقلي" يحمي الأمة من التخبط.
الخاتمة التركيبية:
الآية (35) هي "مختبر السورة" .فإذا كانت الافتتاحية) \}text{الم ({قد وضعتك في قاعة الامتحان، و القصص شرحت لك المنهج، فإن هذه الآية تأخذك إلى "موقع الحدث" لترى النتائج بعينك.
إنها تقول للأمة الشاهدة: "لا تكفيكم الروح العالية) مرحلة لوط(، بل نحتاج إلى عقل راصد يقرأ الآيات البينة في واقع الحياة، لكي لا تبنوا بيوتاً كبيوت العنكبوت، بل تبنوا صرحاً استخلافياً يقوم على عبودية الله وعمارة الأرض بالحق" .هكذا تكتمل "الخريطة الفكرية" للطريق نحو الله، بالجمع بين نور الوحي وبصيرة العقل.
النموذج الثالث
تنتقل بنا سورة العنكبوت في الآيتين 36) و (37إلى نموذج جديد من نماذج بناء الأمم، وهو نموذج " الإصلاح الاقتصادي والاجتماعي" من خلال قصة نبي الله شعيب عليه السلام مع أهل مدين .هذه المحطة هي تجسيد لكيفية انتقال القيم من "عالم التصورات" إلى "عالم الواقع"
يقول الله تعالى:
} ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (36)فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ{(37)
أولا ً: اللمسات البيانية والبلاغية
* "أَخَاهُمْ شُعَيْبًا": تعبير بليغ يبرز "الرابطة الإنسانية والوطنية" .الداعية والمصلح ليس غريباً عن قومه ، بل هو "أخ" يشفق عليهم .وهذا أساس في مرحلة الروح؛ أن ينطلق الإصلاح من دافع الحب و الحرص لا الاستعلاء.
* "اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ": جمع بين "العبودية") القاعدة الروحية (و"رجاء الآخرة") الرقابة الذاتية .(الربط هنا بلاغي ومعجز؛ فلا ينضبط سلوك البشر الاقتصادي) مدين كانت أمة تجارة (إلا إذا ارتبط بوعي غيبي ومسؤولية أمام الله.
* "وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ":) العثي (هو أشد الفساد .وجاءت "مفسدين" حالا ً مؤكدة لبيان بشاعة الفعل .وفي هذا نهي عن "الفساد الممنهج" الذي يفكك مفاصل الأمة.
* "فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ":) الجثوم (هو اللزوم بالأرض على الركب أو الوجوه صرعى .وهو تصوير بلاغي لسقوط "الغطرسة المادية"؛ فبعد أن كانوا يطوفون الأرض تجارةً وعتواً، صاروا جماداً لا حراك فيه.
ثانياً: الربط بمراحل بناء الأمة) مالك بن نبي(
تجسد هاتان الآيتان انتقال الأمة من النظرية إلى التطبيق:
* مرحلة الروح والعقل: شعيب عليه السلام لم يطالبهم فقط بالصلاة، بل طالبهم بإصلاح المنظومة ا لاقتصادية) عدم العثي في الأرض .(بناء الأمة يتطلب "عقلا ً" ينظم الحقوق والواجبات، و"روحا" تمنع التغول المادي.
* الانحدار لمرحلة الجسد: أهل مدين كانوا نموذجاً للأمة التي طغت فيها "المطالبة بالحقوق") الأرباح، المكاسب المادية (على حساب "الواجبات") الأمانة، العدل .(هذا الطغيان المادي هو الذي جعلهم "جثثا" هامدة في النهاية، لأن كيانهم الروحي قد مات قبل عذابهم المادي.
ثالثاً: الدروس والمفاهيم في حياتنا العملية
* مفهوم "الأمن القومي الأخلاقي": الفساد الاقتصادي) التطفيف، الاحتكار، العثي (ليس مجرد "جريمة مالية"، بل هو هدم لأساسات الأمة .الآية تربط مباشرة بين العبادة وبين السلوك في الأرض.
* مفهوم "الرقابة الذاتية") وارجوا اليوم الآخر(: القوانين الوضعية وحدها لا تبني أمة .الأمة القوية هي التي يمتلك أفرادها "وازعاً داخلياً" يجعلهم يؤدون الواجب دون خوف من سلطة البشر، وهذا هو جوهر مرحلة الروح.
* مفهوم "سرعة السقوط":) فأخذتهم الرجفة(؛ الرجفة تأتي فجأة لتهز الأركان .الأمم التي تقوم على الظلم الاقتصادي قد تبدو قوية مالياً، لكنها "هشة" تسقط عند أول هزة) أزمة (اجتماعية أو سننية.
رابعاً: التوجيهات والرسائل) كيف نعيش الآية؟(
* رسالة للمجتمع: إن الصراع الذي نعيشه اليوم بين "القيم" و"المصالح" حسمته هذه الآية؛ فالمصلحة التي تقوم على "الفساد" هي دمار مستقبلي محقق.
* رسالة للمصلح: كن كشعيب "أخا" لقومك، ابدأ بالبناء الروحي) اعبدوا الله (لتصل إلى البناء العملي)لا تعثوا .(التغيير الشامل لا يتجزأ.
* رسالة في الاستخلاف: الاستخلاف في الأرض يتطلب "عمرانا" نظيفا من الفساد .الأمة "الربانية" هي التي تجعل من تجارتها وعملها "عبادة" لله.
خامساً: مقاصد الآيات وأهدافها
* المقصد العقدي: ربط الاستقرار الاجتماعي بتوحيد الله واليوم الآخر.

* المقصد الاجتماعي: التحذير من "السيولة الأخلاقية" في المعاملات المالية، والتي تعد من أخطر علا مات مرحلة الجسد والسقوط.
* الغرض القصصي: بيان أن سُنّة الله في إهلاك المفسدين اقتصادياً لا تختلف عن سُنّته في إهلاك المفسدين عقائدياً أو أخلاقياً) لوط.(
الخلاصة:
تضعنا هاتان الآيتان أمام ركن أساسي في "خريطة الطريق" نحو الله؛ وهو أن بناء الأمة فكرياً وروحياً يجب أن ينعكس فوراً على سلوكها المادي والاقتصادي .الأمة التي "تعبد الله" لكنها "تعثو في الأرض مفسدة" هي أمة لم تفهم حقيقة التوحيد، وهي معرضة لسنة "الرجفة" التي تنهي وجودها الحضاري لتبدأ دورة جديدة ب- "جيل رباني" آخر يقدر قيمة الأمانة والاستخلاف
ثانيا :- نماذج للفاشلين الذين خالفوا قانون الاستخلاف
المبحث الأول
.تنتقل بنا سورة العنكبوت في الآية (38) إلى نموذج فريد من نماذج السقوط الحضاري، وهو نموذج "القوة المادية المغرورة بالعلم". هنا نتحدث عن أمتي (عاد وثمود) اللتين مثلتا ذروة التقدم التكنولوجي والهندسي في زمانهما، وكيف أن هذا التقدم تحول إلى "بيوت عنكبوت" بمجرد انفصاله عن "مرحلة الروح".
يقول الله تعالى:
> {وَعَادًا وَثَمُودَ وَقَد تَبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَاكِنِهِمْ ۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ (38)}
أولا ً: اللمسات البيانية والبلاغية
* "وَقَد تَبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَاكِنِهِمْ": جملة اعتراضية تؤكد أن الدليل المادي على سقوطهما "قائم ومشاهد". التعبير ب- (مساكنهم) يشير إلى تفوقهم العمراني الذي لم يحمهم من "الرجز".
* "وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ": (التزيين) هو إظهار القبيح في صورة الحسن. وهذا أصل "الفتنة الفكرية"؛ حيث تظن الأمة أن قوتها المادية هي "الحق المطلق"، فتستغني بها عن الله.
* "فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ": (الصد) يوحي بوجود مانع حال بينهم وبين "خريطة الطريق الربانية". الشيطان هنا استخدم "إنجازاتهم" لتكون هي الحجاب الذي يصدهم عن الحق.
* "وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ": هذه هي اللمسة الإعجازية المركزية. (مستبصرين) أي أذكياء، متبصرين بعلوم الدنيا، أصحاب عقول راجحة في الصناعة والعمارة. وهذا ينفي عنهم "الجهل المادي" ويثبت عليهم "العمى الروحي".
ثانياً: الربط بمراحل بناء الأمة (فلسفة مالك بن نبي)
هذه الآية هي الشرح الأدق ل- "مرحلة الجسد" التي تلي "مرحلة العقل":
* العقل المادي المقطوع: (مستبصرين) تعني أنهم وصلوا لقمة "مرحلة العقل" المادية، لكنهم عندما فقدوا "مرحلة الروح"، تحول عقلهم إلى أداة لخدمة "الجسد" (الترف، العلو في الأرض، الملاهي).
* فخ الإنجاز: مالك بن نبي يتحدث عن "عالم الأشياء"؛ عاد وثمود غرقوا في عالم الأشياء (المساكن، القوة) وظنوا أنها هي الحضارة، بينما الحضارة هي "الروح" التي تحرك هذه الأشياء.
ثالثاً: الدروس والمفاهيم في حياتنا العملية
* مفهوم "الذكاء القاتل": ليس كل ذكاء (استبصار) هو نجاة. الذكاء التكنولوجي الذي لا يقوده "وحي" يؤدي لدمار البشرية. في واقعنا المعاصر، نجد أمماً (مستبصرة) في الذكاء الاصطناعي والسلاح، لكنها تمارس الظلم (الصد عن السبيل).
* مفهوم "تزيين الأعمال": أخطر أنواع الفشل هو "الفشل المغلف بالنجاح". عندما يزين لنا الشيطان إنجازاتنا المادية لنبرر بها ضلالنا القيمي، نكون قد دخلنا في مرحلة "السقوط الحضاري".
* مفهوم "الأثر الباقي": (من مساكنهم)؛ الدرس العملي هو أن الأبنية تبقى لتشهد على فناء أصحابها. بناء الأمة يجب أن يكون في "الإنسان" أولا ً، لأن الإنسان هو الذي يبني المسكن، لكن المسكن لا يبني إنساناً.
رابعاً: التوجيهات والرسائل (كيف نعيش الآية؟)
* رسالة للمفكر والباحث: لا تنبهر بالنماذج الفاشلة لمجرد قوتها المادية. سورة العنكبوت تطلب منك أن "تعقل" (لقوم يعقلون) أن القوة بلا قيم هي "عنكبوتية" مهما بلغت ضخامة مساكنها.
* رسالة تربوية: علم الأجيال أن "الاستبصار" الحقيقي هو رؤية "السبيل" الرباني، وليس فقط رؤية "المعادلات العلمية" والمكاسب المادية.
* التحذير من الغرور العلمي: العلم المادي سلاح ذو حدين؛ إما أن يكون "هداية" (لنهدينهم سبلنا) أو يكون "صداً" (فصدهم عن السبيل).
خامساً: مقاصد الآية وأهدافها
* المقصد السنني: تقرير أن العلم المادي وحده لا يمنع من وقوع العذاب والهلاك.
* المقصد النفسي: كشف آلية عمل الشيطان في تدمير الأمم القوية عبر "بوابة الغرور بالإنجاز".
* الغرض الاستراتيجي: بناء "الجيل الرباني" الذي يجمع بين قوة الاستبصار المادي وبين الاستقامة على السبيل الروحي.

الخلاصة:
الآية (38) تحذر الأمة من "خديعة الاستبصار". فإذا كانت الأمة تريد الانتقال من "النظرية إلى التطبيق" بنجاح، فلا بد أن تظل بوصلتها موجهة نحو (السبيل)، وأن لا تغتر بمرحلة (الجسد) ومكتسباتها المادية، لأن مساكن عاد وثمود لا تزال قائمة تخبرنا أن "العقل المادي" إذا لم يقده "نور الروح" صار وبالاً على صاحبه.

المبحث الثاني

تأتي الآية (39) من سورة العنكبوت لتكشف لنا عن "مثلث الاستكبار" الذي يمثل قمة هرم "مرحلة الجسد" وسكرة القوة المادية .هنا ننتقل من عقاب الأمم) عاد وثمود (إلى عقاب "الرموز والشخصيات" التي صاغت منظومة الطغيان، لتؤكد السورة أن بناء الأمة لا يستقيم مع وجود هذه النماذج الثلاثة.

يقول الله تعالى:

{ ﴿وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ ۖ وَلَقَدْ جَاءَهُم مُّوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ (39)}

>

أولاً: اللمسات البيانية والبلاغية

* الترتيب المرتكز على "القوة": بدأت الآية بـ) قارون) (سلطة المال(، ثم) فرعون) (سلطة الحكم(، ثم)هامان) (سلطة التنفيذ والوزارة .(هذا الترتيب يشير إلى أن "المال" غالباً ما يكون هو المحرك الأول لفساد السياسة والإدارة في مرحلة السقوط الحضاري.

* "وَلَقَدْ جَاءَهُم مُّوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ": اللام و"قد" للتوكيد .وكلمة) البينات (تعني الحجج الواضحة التي تخاطب العقل والروح .وهذا ينفي عنهم صفة "الجهل"، ويؤكد أن كفرهم كان "كفر عناد" لا "كفر غفلة".

* "فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ": السين والتاء للطلب والمبالغة؛ أي أنهم تكلفوا الكبر وطلبوا العلو بغير حق . وكلمة) في الأرض (توحي بضيق أفقهم؛ فهم استكبروا في حيز ضيق ومحدود أمام عظمة ملك الله.

* "وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ": تعبير بليغ ومعجز) .السابق (هو الذي يهرب ويفلت من المطاردة .الآية تقول: مهما بلغت قوتهم المالية والسياسية والعسكرية، لم يكن بمقدورهم "السبق" أو الإفلات من قبضة السنن الإلهية.

ثانياً: الربط بمراحل بناء الأمة) فلسفة مالك بن نبي(

هذه الآية تلخص تحالف القوى الثلاث التي تدمر "مرحلة الروح" وتكرس "مرحلة الجسد":

* تحالف الطغيان: قارون يمثل "الرأسمالية المتوحشة"، وفرعون يمثل "الديكتاتورية السياسية"، وهامان يمثل "البيروقراطية الفاسدة".

* مرحلة الجسد: هؤلاء الثلاثة هم الذين يقودون الأمة نحو "المطالبة بالحقوق" الشخصية واللذات المادية على حساب "واجبات" الأمة ورسالتها.

* الصد عن الفطرة: موسى عليه السلام جاء بـ) البينات (لإعادة الأمة إلى "مرحلة الروح"، لكن هذا المثلث منع الناس من التغيير حمايةً لمصالحه المادية.

ثالثاً: الدروس والمفاهيم في حياتنا العملية

* مفهوم "عجز القوة المادية": مهما امتلكت من) خزائن قارون (أو) جند فرعون (أو) ذكاء هامان الإداري(، فأنت لست "سابقاً" لله .في واقعنا، نجد مؤسسات أو دولاً تظن أنها فوق المحاسبة، لكن سنن التاريخ تدركها في النهاية.

* مفهوم "الاستكبار عائق للتغيير": الاستكبار الفكري هو أكبر مانع للنجاح .الأمة التي ترفض "البينات")الحقائق، العلم، المنطق (استكباراً واعتداداً بالذات، هي أمة تحكم على نفسها بالهلاك.

* مفهوم "المسؤولية الفردية للرموز": السورة ذكرت الأسماء صراحةً لأن "الفرد المؤثر" في مرحلة القيادة قد يكون هو السبب في جر الأمة بأكملها نحو السقوط) مرحلة الجسد.(

رابعاً: التوجيهات والرسائل) كيف نعيش الآية؟(

* رسالة للجيل الرباني: لا تنبهر بـ "تضخم" القوة الظالمة؛ فهم في ميزان الله) غير سابقين .(اليقين بهذه الحقيقة هو الذي يمنحك القوة في مرحلة المجاهدة.

* التحذير من "مثلث الفشل": بناء الأمة يتطلب محاربة) فساد المال، استبداد الحكم، تملق الإدارة .(إذا اجتمعت هذه الثلاثة في مجتمع، فقد دخل في "بيت العنكبوت" السياسي.

* توجيه للمختصين) قانونيين وباحثين(: الدفاع عن الحق) كما فعل موسى (يتطلب امتلاك) البينات(؛ أي القوة العلمية والحجج القانونية الدامغة لمواجهة الطغيان المادي.

خامساً: مقاصد الآية وأهدافها

* المقصد العقدي: إثبات هيمنة الله على الجبابرة مهما بلغت قوتهم.

* المقصد السياسي: كشف بنية الأنظمة الفاشلة التي تقوم على احتكار) الثروة، السلطة، الخبرة.(

* الغرض التاريخي: التأكيد على أن سيرة موسى مع هؤلاء ليست قصصاً للمتعة، بل هي "قانون استخلاف" يحكم من يأتي بعدهم.

الخاتمة التركيبية:

الآية (39) تضع اللمسات الأخيرة على "النماذج الفاشلة" قبل أن تأتي الآية (40) لتجمعهم جميعاً في

حكم واحد) فكلًا أخذنا بذنبه.(
إنها تقول لنا بوضوح: إن الأمة التي تريد الهجرة نحو "الاستخلاف والعمران" يجب أن تتخلص من "عقلية الاستكبار"، وأن تدرك أن المال والجاه والسلطة هي "أدوات واجب" وليست "أدوات استعلاء"، وأن أي محاولة للهروب من السنن الإلهية هي محاولة فاشلة، لأن أحداً لم يكن ولن يكون) سابقاً (لله في أرضه.

المبحث الثالث

تعد الآية (40) من سورة العنكبوت هي "المذكرة القانونية الختامية" والحكم القضائي المبرم الذي يغلق ملف "النماذج الفاشلة" .إنها اللحظة التي تلتقي فيها السنن الكونية بالعدالة الإلهية، لتضع النقاط على الحروف في "خريطة الطريق" لبناء الأمم.

يقول الله تعالى:

{ ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ{(40)

>

أولا ً: اللمسات البيانية والبلاغية

* "فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ": تقديم المفعول به) كلًا (يفيد الحصر والشمول؛ أي لم ينجُ أحد من قانون "المسؤولية" .والباء في) بذنبِهِ (للسببية، وهي تنسف فكرة "العشوائية" في سقوط الحضارات؛ فالسقوط نتيجة حتمية لـ "خطيئة استراتيجية" ارتكبتها الأمة.

* التفصيل والتقسيم) مّنْ أرْسَلنَا ..وَمِنْهُم مّنْ أخَذتهُ(..: هذا التقسيم البديع يواجه كبرياء المادة بوسائل من جنسها.

* الحاصب: ريح فيها حصى) عذاب من فوق (لمن طغى بقوته.
* الصيحة: صوت مدمر) عذاب نفسي وفيزيائي (لمن تفاخر بعمرانه.
* الخسف: ابتلاع الأرض) سقوط من تحت (لمن تفاخر بكنوزه) قارون.(
* الإغراق:) موت في الماء (لمن تفاخر بملكه وجنده) فرعون.(

* "وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ":) ما كان (مع لام الجحود في) ليظلمهم (هي أقوى صيغ النفي في اللغة العربية، لتنزيه الذات الإلهية عن أي ظلم، وتأكيد أن الهلاك كان "استحقاقاً حضارياً".

* "وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ": تقديم المفعول به) أنفسهم (يفيد الحصر؛ أي أنهم هم وحدهم الذين جنوا على أنفسهم بتبني منهج "الجسد" ورفض منهج "الروح".

ثانياً: الربط بمراحل بناء الأمة) فلسفة مالك بن نبي(

تعد هذه الآية التجسيد النهائي لـ "قانون التحلل الحضاري":

* سقوط "مرحلة الجسد": عندما تصل الأمة إلى ذروة "المطالبة بالحقوق") الاستكبار، الظلم، الترف (وتفقد "الروح"، تصبح كياناً بلا حماية حقيقية .عندها تفعل السنن فعلها) الأخذ بالذنب.(

* الفعالية الحضارية: مالك بن نبي يرى أن الأمة تفشل عندما تفقد "فعاليتها" .والذنب هنا هو "العجز عن أداء الواجب" والانحراف عن "السبيل" الرباني.

ثالثاً: الدروس والمفاهيم في حياتنا العملية

* مفهوم "المسؤولية الذاتية للنجاح والفشل": الأمة الناجحة لا تلوم الظروف أو "المؤامرات" الخارجية ، بل تفتش في) ذنبها (وعيوبها الداخلية .."نحن من نصنع هلاكنا بفساد قيمنا".

* مفهوم "هندسة العقوبات": لكل نوع من أنواع الفساد "نهاية تناسبه" .الفساد المالي يؤدي للخسف ا لاقتصادي، والفساد السياسي يؤدي للغرق في الأزمات .هذا درس للمصلحين والباحثين لربط المقدمات بالنتائج.

* مفهوم "ثبات السنن": الآية تجمع) عاد، ثمود، لوط، شعيب، فرعون (في قاعدة واحدة) فكلًا أخذنا .(هذا يعطينا "يقين علمي" بأن القواعد التي حكمت الماضي ستحكم الحاضر والمستقبل.

رابعاً: التوجيهات والرسائل) كيف نعيش الآية؟(

* رسالة للباحث القانوني والاجتماعي: إن "العدالة" هي أساس بقاء الدول .الظلم) ظلم النفس بالذنب (هو الثقب الذي يغرق منه مركب الأمة) .وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ (تضع قاعدة ذهبية في الحكم والإدارة.

* رسالة لبناء الجيل الرباني: الثقة بأن "القوة الغاشمة" لها موعد مع السنن) .فأخذتهم الرجفة، أغرقنا، خسفنا (ليست كلمات للترهيب، بل هي "حقائق تاريخية" تدعونا للتمسك بالحق حتى في لحظات الضيق.

* تصحيح المسار: إذا وجدت الأمة نفسها تعاني من "الحاصب") الأزمات المتلاحقة(، فعليها العودة فوراً إلى "مرحلة الروح" وتطهير نفسها من "الذنب" البنيوي.

خامساً: مقاصد الآية وأهدافها

* المقصد السنني العام: إثبات أن "الذنب الجماعي" هو السبب الوحيد لزوال الأمم.
* المقصد التربوي: تحرير العقل المسلم من الخوف من الطغيان المادي عبر كشف "نهاياته الحتمية".
* الغرض الاستراتيجي: التمهيد للآية القادمة) مثل العنكبوت(؛ فبعد أن استعرضت الآية (40) وسائل الهلاك، ستشرح الآية (41) "لماذا" هلكوا) لأنهم استندوا إلى بيت واهن.(

الخاتمة التركيبية:

الآية (40) هي "نقطة الارتكاز" في سورة العنكبوت .لقد مهدت لنا الطريق لنفهم أن الأمة التي تريد "ا لاستخلاف" يجب أن تبني نفسها على "برّ من التقوى" وليس على "ذنب" الاستكبار.
إنها تخبرنا كباحثين ومصلحين أن خريطة الطريق نحو الله تمر عبر "العدل" و"أداء الواجب"، وأن السقوط في لحظات اللعب والملاهي) مرحلة الجسد (هو بداية النهاية، لأن الله لا يظلم أحداً، ولكن ا لأمم هي التي تظلم أنفسها عندما تختار "بيت العنكبوت" وتترك "حصن التوحيد".

المبحث الرابع

تأمل معي هذه الآية العظيمة، وكأنها تنزل الآن على قلبك، تخاطب روحك قبل عقلك، تهز كيانك، وتغرس في أعماقك نوراً يميز لك بين الوهم والحقيقة، بين الباطل الذي يزين كالقصر، والحق الذي قد يبدو ضعيفاً لكنه صخر لا يتزعزع.

الآية: "مَثَلُ الذِينَ اتخَذُوا مِن دُونِ اللهِ أَوْلِيَاءَ كمَثَلِ العَنكبُوتِ اتخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ البُيُوتِ لَبَيْتُ العَنكبُوتِ ۖ لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ" (العنكبوت: 41)

دعنا نغوص في كل كلمة، ونستخرج منها كنوزاً لو علمها الناس لغيرت حياتهم.
أولا ً: "مَثَلُ الذِينَ اتخَذُوا مِن دُونِ اللهِ أَوْلِيَاءَ"

الدلالة اللغوية والبيانية:

· "مثل": ليست مجرد صورة، بل هي تشبيه تمثيلي حي، كأنك ترى المشهد أمام عينيك .الله سبحانه يختار أبلغ وسيلة لإيصال المعنى إلى قلبك وعقلك: الصورة البصرية المتحركة.
· "اتخذوا": الفعل يدل على التعمد والاختيار .ليسوا مجبرين على الشرك، بل هم من بنى بأيديهم الواهية هذا البيت الواهي .كل ركن من أركان شركهم هو قرار منهم.
· "من دون الله": أي أنهم تركوا الخالق القوي المتين، وذهبوا إلى مخلوقين ضعفاء مثله.
· "أولياء": جمع ولي، وهو الناصر والمعين والملاذ .هم تعلقوا بهم قلباً وقالباً، ظناً منهم أن هؤلاء يدفعون عنهم ضراً أو يجلبون لهم نفعاً.

المفهوم النفسي العميق:
هنا قانون نفسي خطير: الإنسان خلقه الله مفطوراً على حاجته إلى القوة والحماية. فإما أن يوجه هذه الحاجة إلى الله القوي المتين، فيجد الأمان الحقيقي، وإما أن يحولها إلى أوثان مادية أو بشرية (مال، جاه، سلطان، زعيم، حزب، شركة، جيش). الآية تصور أن هذه الخيارات البديلة ليست مجرد خطأ عقدي، بل هي مرض نفسي: اختيار الوهم على الحقيقة، واختيار الضعف المتوهم على القوة الحقيقية.
ثانياً: "كمَثَلِ العَنكبُوتِ اتخَذَتْ بَيْتًا"

اللمسة البلاغية المذهلة:
الله لم يقل "كبيت العنكبوت" فقط، بل قال "اتخذت بيتاً" ليشبه عملية اتخاذهم الأولياء بعملية اتخاذ العنكبوت بيتها. العنكبوت تبذل جهداً، وتخرج من جوفها خيوطاً، وتنسج وتدور وتبني، وتظن أنها أقامت صرحاً منيعاً. وكذلك المشرك والكافر والمستكبر، يبذل جهده، يجمع ماله، يبني جيشه، يحصن قصره، ينسق علاقاته، فإذا به كالعنكبوت، بنى من نفسه لنفسه، ونسج من وهمه خيوطاً.

دلالة "العنكبوت" (مؤنثة):
التذكير والتأنيث هنا يحمل إشارة: العنكبوت معروف أنها الأنثى هي التي تبني البيت. فالله ضرب المثل بالأنثى الضعيفة جداً التي تظن أنها تبني حصناً. فإذا كانت الأنثى الضعيفة تبني بيتاً واهياً، فكيف بمن يتخذ من دون الله أولياء وهم أضعف من بيت العنكبوت؟

الصورة في ذهنك:
تخيل عنكبوتاً في زاوية غرفة مهملة، يبني بيته في الهواء، معلقاً لا بأي عمود أو أساس، خيوطه دقيقة لا تكاد ترى، تهتز مع أدنى نسمة هواء. هذا هو حال من يتكل على غير الله. تخيل أنك تشاهد هذا البيت، فتمر بجانبه إصبعك، فينهار كله. هذا هو القانون.

ثالثاً: "وَإِنَّ أَوْهَنَ البُيُوتِ لَبَيْتُ العَنكبُوتِ"

القمة البلاغية:

· "إن" و "اللام" : حرفا توكيد، كأن الله يقسم لك: صدقاً يا ابن آدم، لا يوجد بيت على وجه الأرض أضعف وأوهى وأوهن من بيت العنكبوت.

· "أوهن": صيغة تفضيل، تدل على أن كل البيوت فيها شيء من الوهن، لكن بيت العنكبوت هو أضعفها على الإطلاق .بيت الحجر ينهار بالزلزال، بيت الخشب يحترق، بيت الطين يذوب بالمطر، لكن بيت العنكبوت يسقط بأقل من ذلك: بنفخة ريح، بقطرة مطر، بلمسة طفل.
· "البيوت": نكرة في سياق النفي والإثبات، فتشمل كل بيت في الوجود: القصور، الحصون، ناطحات السحاب، المنشآت العسكرية .كلها أمام بيت العنكبوت تبدو قوية، لكنها أمام سنة الله كلها بيوت عنكبوت.

القانون الكوني الذي تعلنه الآية:
أي بناء لا يقوم على توحيد الله وطاعته وقانون الاستخلاف الصحيح، فهو بيت عنكبوت. أي حضارة تبنيها البشرية على الكفر والظلم والاستكبار، هي بيت عنكبوت. أي إمبراطورية تظن أنها باقية، أي جيش يحسب قوته، أي اقتصاد يتباهى بقوته، هو بيت عنكبوت. سيأتي يوم (أو لحظة) تهتز فيه نسمة من نسمات سنة الله، فينهار كل شيء.

الربط بمواضع أخرى:

· في سورة النحل: "وَضَرَبَ اللهُ مَثَلا ً رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لا َ يَقْدِرُ عَلَىَ شَيْءٍ وَهُوَ كلٌّ عَلَى مَوْلا َهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لا َ يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِالعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ") النحل: .(76الذي يتخذ أولياء من دون الله كالأبكم الذي لا يقدر على شيء.
· وفي سورة الحج: "يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ ۚ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ") الحج: .(73 هنا يصل الضعف إلى ذروته: من يعبدون من دون الله أعجز من أن يخلقوا ذبابة، والذباب نفسه أضعف المخلوقات.

إذن القانون الثابت: كلما ازداد الكفر والشرك والاستكبار، ازداد البناء وهواً، وكلما ازداد الإخلاص لله واتباع رسله، ازداد البناء قوة.

رابعاً: "لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ"

هذه الجملة الخاتمة هي صفعة اليقظة.
"لو كانوا يعلمون" ماذا؟ يعلمون حقيقة بيت العنكبوت، يعلمون هشاشة ما يعتمدون عليه، يعلمون أن غداً يأخذ القوي الضعيف، وأن الله إذا أراد بقوم عذاباً لم ترده قوة. ولو علموا أيضاً عظمة من تركوا، وقوة من استغنوا عنه، ونصر من تولوه.

الدلالة النفسية والتربوية:
الجهل هو أصل المصيبة. ليس جهلا ً أكاديمياً، بل جهل وجودي: جهل بحقيقة الأشياء، جهل بميزان القوى الحقيقي، جهل بأن ما يرونه قوة هو في عين الله ضعف، وما يرونه ضعفاً (الإيمان، الصلاة، التوكل) هو القوة الحقيقية. فلو علموا حقيقة ما يعتمدون عليه لتركوه وولوا وجههم شطر الله.
الآن: كيف تبني هذه الآية الأمة؟ خارطة الطريق:

الأمة التي تريد البناء والتمكين والحضارة عليها أن تفهم هذا الدرس جيداً:

.1الاعتماد على غير الله هو بيت عنكبوت: أي أمة تعلق أملها بالغرب، أو بالناتو، أو بالأمم المتحدة، أو بالقوى العظمى، أو بالمال، أو بالنفط، أو بالسلاح فقط، فهي تبني بيت عنكبوت .ستأتي ريح أو زلزال أو حرب أو حصار، فينهار كل شيء.
.2الأساس المتين هو الإيمان والعمل الصالح والاستخلاف الحقيقي: القوة الحقيقية هي القوة المعنوية أولا ً: الإيمان بأن الله معنا، والتوكل عليه، والاستعداد للتضحية، والعدل، والإحسان .ثم القوة المادية تأتي تابعة لهذا الأساس .إذا صلح الأساس، صلح البناء .وإذا فسد الأساس، حتى لو علو في السماء، فهو بيت عنكبوت.
.3الأمة التي تبني على سنة الله لا تهتز: انظر إلى صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم .كانت قوتهم المادية ضئيلة جداً في مكة: قلة عدد، فقر، حصار، لكن بيتهم كان متيناً لأن أساسه "لا إله إلا الله" .فصمدوا أمام كل العواصف، وبنوا أعظم حضارة عرفتها البشرية .أما الأمم الكافرة التي امتلكت كل القوة المادية) فرعون، قارون، نمرود، عاد، ثمود، الفرس، الروم (فكلها انهارت كبيت العنكبوت.

الدروس العملية والتوجيهات التربوية والسلوكية:

كيف نعيش هذه الآية في حياتنا اليومية؟

.1في علاقتنا بالله: كلما شعرت بالخوف من مستقبل، أو ضعف أمام عدو، أو حاجة إلى ناصر، تذكر أن من تعلقته من دون الله) وظيفة، جاه، صديق قوي، حزب (هو بيت عنكبوت .ارفع يدك لله وقل: "حسبي الله ونعم الوكيل" .هذا هو الحصن الحقيقي.
.2في تربيتنا لأبنائنا: لا تظن أن المال والمنصب والشهادات هي التي تحمي أبناءك .علمهم أن قوتهم الحقيقية في علاقتهم بالله، في أخلاقهم، في صدقهم، في توكلهم .علمهم أن من يعتمد على غيره كـ العنكبوت.
.3في مجتمعاتنا: لا نبني مجدنا على القصور الفارهة والبرج العالي والسيارات الفاخرة فقط .نبني مجدنا على المساجد التي تعمر، وعلى العلم النافع، وعلى العدل بين الناس، وعلى نصرة المظلوم .هذا هو البناء الذي لا ينهار.
.4في اقتصادنا: لا نعلق آمالنا على قروض البنك الدولي أو استثمارات الكفار .نبني اقتصادنا على الإ نتاج الحقيقي، على الزكاة، على التكافل، على العمل الجاد، وعلى الاستغناء عن غير الله .هذا اقتصاد لا تنهار قواعده.
.5في سياستنا: لا نبحث عن حلفاء خونة نبيع لهم ديننا مقابل حماية مزعومة .نبحث عن القوة الذاتية، عن اتحاد كلمتنا، عن الاعتماد على الله ثم على أنفسنا .هذا هو الردع الحقيقي.

كيف تغير هذه الآية نفسيتنا وتصنع الإنسان المتزن؟

· الإنسان المتزن: هو الذي يعرف قيمة الأشياء .لا يبهره المظهر، ولا يخيفه ضعف الظاهر .يرى القصر العظيم فيعرف أن داخله قد يكون خاوياً كبيت العنكبوت .ويرى الخيمة المتواضعة التي يسكنها مؤمن صادق فيعرف أنها حصن حصين.
· يتخلص من مرض التعلق بالمخلوقات: كثير منا يعاني من تعلق مرضي بشخص معين، أو وظيفة، أو مال .كلما شعرت بهذا التعلق، تذكر الآية .قل لنفسك: "أنت تعتمد على بيت عنكبوت" .حرر نفسك.
· يكتسب الشجاعة الحقيقية: من يعلم أن قوته من الله لا يخاف من أحد .لن يرهبه سلطان جبار، ولن يخيفه جيش عرمرم .لأنه يعلم أن هؤلاء كلهم كالعنكبوت، مهما كبروا.
· يتعلم التواضع: من يعلم أن كل ما يملكه هو بيت عنكبوت لا يفتخر ولا يتكبر .يدرك أن زواله قريب بأي لحظة.

دور الآية في بناء الحضارة الإسلامية:

الحضارة الإسلامية العظيمة التي امتدت من الصين إلى الأندلس لم تبن على بيت عنكبوت. بُنيت على:

.1التوحيد الخالص: "لا إله إلا الله" كانت أساس كل بناء.
.2العدل: الذي جعل الناس يدخلون في دين الله أفواجاً.
.3العلم: الذي صنعوا به المستحيلات، واكتشفوا به أسرار الكون.
.4الأخلاق: التي جعلت منهم قدوة للبشرية.

أما الحضارة الغربية الحالية، مهما بدت قوية، فهي عند الله بيت عنكبوت. لأنها بنيت على الظلم، والا ستكبار، والإلحاد، واستعباد الشعوب. ستنهار لا محالة، وقد بدأت مؤشرات الانهيار تظهر.

الرسالة الختامية التي تخاطب قلبك مباشرة:

أنت الآن، في هذه اللحظة، إما أنك تبني بيتاً من الإيمان والتوكل والصدق مع الله، فذلك البيت سيبقى لك في الدنيا والآخرة، وإما أنك تبني بيتاً من التعلق بالدنيا والأولياء من دون الله، فذلك البيت سينهار عليك ولو بعد حين.

انظر إلى حياتك الآن: ما هو الشيء الذي لو فقدته تشعر بأن دنياك انتهت؟ هل هو الله؟ أم هو مالك ، وظيفتك، بيتك، جاهك، زوجك؟ أي شيء غير الله إذا جعلته ملاذك، فهو بيت عنكبوت.

تعالَ نبني معاً على الصخر: لنقل: "الله ربنا، لا إله إلا هو، عليه توكلنا، وإليه أنبنا". لنعمل: نصلح نياتنا، نؤدي فروضنا، نصدق في أقوالنا، نعدل في أحكامنا، ننصر الضعيف، نأمر بالمعروف، ننهى عن المنكر. هذا هو البناء الذي لا يزول.

تذكر: العنكبوت تبني بيتاً من جوفها، ثم تأتي ريح فتدمره. ونحن نستطيع أن نبني بيتاً من جوف إيماننا، ثم تأتي رياح الدنيا كلها فلا تزحزحه. اختر.

الموضوع الثاني

الآية الكريمة:
"مَثَلُ الذِينَ اتخَذوا مِن دُونِ اللهِ أوْلِيَاءَ كمَثَلِ العَنكبُوتِ اتخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنّ أوْهَنَ البُيُوتِ لَبَيْتُ العَنكبُوتِ ۖ لوْ كانُوا يَعْلَمُونَ") العنكبوت:(41

هذه الآية تضرب مثلا ً عميقاً للذين أشركوا بالله وتعلقوا بغيره من القوى المزعومة - سواء كانت أصناماً، أو أشخاصاً، أو أموالا ً، أو جيوشاً، أو سلطاناً - ظناً منهم أن هذه الأشياء تنفعهم أو تحميهم أو تمنع عنهم عقاب الله.

فشأنهم كشأن العنكبوت التي تنسج بيتاً لنفسها، تظنه حصناً منيعاً يحميها من الحر والبرد والريح و المطر، لكنه في الحقيقة أضعف البيوت وأوهنها، لا يقوى حتى على حماية نفسه من أدنى هبة هواء أو قطرة ماء .فإذا جاءت سنة الله بالهلاك، انهار هذا البيت الواهي على صاحبه، ولم يقدم له أي نفع.

القانون الذي تضعها الآية لمن يخالف قانون الاستخلاف:

قانون الاستخلاف يقوم على أساس أن الإنسان مستخلف في الأرض ليؤمن بالله وحده ويطيعه، ويبني الحياة وفق منهجه .من يخالف هذا القانون ويتجه لاتخاذ أولياء من دون الله - سواء بالجحد أو التكذيب أو الاستكبار - فإن مصيره محسوم:

أولا ً: قانون هشاشة القوى المادية أمام القوة الإلهية:
أي قوة يعتمد عليها المخالفون - مهما بلغت من ضخامة) مال، جاه، جيش، سلطان، حصون، تقنية (- هي في الحقيقة كبيت العنكبوت: تبدو من بعيد بناءً، لكنها من الداخل واهية ضعيفة .فعندما تأتي سنة الله بإهلاك المكذبين، تنهار هذه القوى كلها كالبيت الورقي، ولا تقدم أي حماية لمن استند إليها.

ثانياً: قانون أن الضعف متأصل في الأساس:
الذين يتخذون غير الله أولياء بنوا حياتهم على أساس باطل من البداية) الشرك والتكذيب والاستكبار(، فكان بنيانهم هشاً من جذوره .أي بناء هش من الأساس لا يمكنه الصمود أمام أي عاصفة، فكيف أمام عاصفة سنة الله في هلاك الأمم المكذبة؟! الآية تقرر أنه لا حصانة للباطل مهما تزين بالقوة.

ثالثاً: قانون عدم جدوى التحصن بالدنيا عند حلول العذاب:
مهما تحصن المخالف بقوة مادية أو سلطان أو مال، فإنه يوم يأتيه أمر الله - سواء في الدنيا بعذاب الاستئصال، أو في الآخرة بعذاب النار - يجد أن كل ما اتخذه من دون الله قد تخلى عنه وتركه . مثلما لا يجد العنكبوت في بيته الواهي حراً ولا برداً ولا أمناً، كذلك الكافر لا يجد فيما اتخذه من قوى دنياوية أي نفع حين يحين وقت الهلاك.

الخلاصة:

الآية تضع قانوناً كونياً ثابتاً: من يخالف قانون الاستخلاف) بالتوحيد والطاعة (ويتخذ قوى مادية أو بشرية ملاذاً له بدلا ً من الله، فإن مصيره الهلاك والزوال، وكل قوته تتبخر كالسراب عند أول امتحان إلهي .فليس هناك حصن أضعف من حصن من يظن أنه يقوى به على الله، وليس هناك خسارة أكبر من أن يبني الإنسان حياته على بيت عنكبوت واهٍ، ثم يفاجأ بأنه لم يكن شيئاً مذكوراً.
اللهم أرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه، وأرنا الباطل باطلا ً وارزقنا اجتنابه، واجعلنا ممن يبنون على صخر الإيمان، لا على وهم بيت العنكبوت.

المبحث الخامس

بعد أن أضاءت لنا الآية السابقة (41) حقيقة هشاشة كل بناء يقوم على غير الله، كبيت العنكبوت الواهي، تأتي الآن الآية التالية مباشرة (42) لترفع الستار عن أعظم حقيقة قد تطمئن بها النفس وتستريح إليها، وتكشف عن السر الإلهي وراء كل ما يحدث .إنها الآية التي تجعل المؤمن واقفاً على قمة الجبل ينظر إلى أسفل فيرى كل المؤامرات والدسائس والمخططات كأنها مجرد ألعاب أطفال.

الآية: "إِنّ اللهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ ۚ وَهُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ") العنكبوت:(42

دعنا نغوص معاً في هذا النور الإلهي، ونتذوق كل كلمة، ونجعلها تنبض في قلوبنا قبل عقولنا.

أولا ً: "إِنّ اللهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ"

الدلالة البيانية واللمسة الإلهية:

· "إِنَّ" و"اللَّهَ": بدأ الآية بـ "إن" للتوكيد، وذكر اسم الجلالة "الله" الجامع لصفات الألوهية كلها .كأنه يقول: تأكدوا وتيقنوا تمام اليقين، الرب الواحد الأحد، مالك الملك، علام الغيوب، هو الذي...
· "يَعْلَمُ": فعل مضارع يدل على الاستمرار والتجدد .ليس علماً سابقاً فقط، بل هو علم مستمر ولحظي، يحيط بكل صغيرة وكبيرة، بكل خفية وعلنية، بكل نية ودسيسة، بكل شعرة في رؤوسهم وبكل خيط من خيوط بيت العنكبوت التي ينسجونها.
· "مَا يَدْعُونَ": استخدام "ما" بدلا ً من "من" للإشارة إلى تحقير وتقليل شأن هذه المعبودات .كأنهم لا يدعون شيئاً حقيقياً، بل يدعون لا شيء، فراغاً، سراباً، وهماً .."ما" تدل على أن هذه الآلهة المزعومة أقل من أن توصف بأنها "من") لغير العاقل(، بل هي في مستوى الجماد والعدم.
· "مِن دُونِهِ": أي أنهم تركوا الخالق العظيم القادر، وتوجهوا إلى ما هو دونه، أي أقل منه في كل شيء .."دون" تفيد التحقير والمخالفة .هم خالفوا طريق الحق وأتوا بما هو أدنى وأحقر.
· "مِن شَيْءٍ": هذه من أعظم اللمحات البلاغية .تأتي "من" زائدة للتوكيد، و"شيء" نكرة في سياق الإ ثبات، فتفيد العموم والشمول .يعني: الله يعلم كل شيء يدعون من دونه، أي أي شيء كان مهما صغر أو كبر، مهما خفي أو ظهر .لا يخرج عن علمه ذرة في الأرض ولا في السماء، ولا خلية في أدمغتهم، ولا فكرة في أوهامهم.

المفهوم العقلي والنفسي العميق:

أولا ً: علم الله المحيط هو سلاح المؤمن القاطع.
تخيل أنك في معركة، والعدو يخطط لك في الظلام، يرسل الجواسيس، يزرع الخونة، يبني التحالفات، يخبئ الأسلحة .وأنت لا تعرف شيئاً .ستكون في قلق ورعب .لكن فجأة يخبرك قائدك: "لدي خريطة كاملة لكل تحركاتهم، أعرف كل كلمة تهمسوا بها، أعرف ما في قلوبهم قبل أن يفكروا به" .هنا يتحول الرعب إلى سكينة، والخوف إلى ثقة .هذه هي الآية: "إن الله يعلم ما يدعون من دونه من شيء" .لا يوجد شيء خفي على الله .كل مؤامرة، كل مكر، كل كيد، كل خيانة، كل جيش، كل سلاح، كل مخطط استعماري، كل ضغطة زر، كل اتصال هاتفي، كل رسالة مشفرة - الله يعلمها قبل أن تحدث.

ثانياً: الدعاء بمعنى العبادة والاستغاثة والطلب.
الفعل "يدعون" هنا يشمل كل أنواع التوجه بقلبك أو لسانك أو جوارحك إلى غير الله .دعاء العبادة: ك السجود للأصنام أو للبشر أو للشهوات .ودعاء المسألة: كأن تطلب الشفاء من الطبيب دون أن تستحضر أن الله هو الشافي، أو تطلب النصر من القوى العظمى دون أن تلتفت إلى الله، أو تطلب الأمن من الحكام الظلمة .كل هذه دعوات إلى غير الله، والله يعلمها كلها، وسيجازي عليها.

ثالثاً: "من شيء" أي حتى ما ليس بشيء.
أي أن ما يدعونه من دون الله هو في الحقيقة لا شيء، لا وزن له، لا قيمة له، لا قدرة له .لكن الله يعلم حقيقة هذا "اللا شيء" .تخيل أن طفلا ً صغيراً يخاف من ظله على الحائط، فيعتقد أنه وحش ، ويختبئ منه، ويطلب المساعدة من ألعابه لمواجهته .أنت كأب تعلم أن هذا الظل لا شيء، لكنك تعلم أيضاً أن الطفل يدعو ألعابه لمواجهة العدم .هكذا الله يعلم أن ما يدعوه المشركون هو عدم محض، لكنه مع ذلك يمهلهم ويملي لهم، ثم يأخذهم أخذ عزيز مقتدر.
ثانياً: "وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ"

اللمسة البلاغية الرائعة:

بعد أن قرر علمه المحيط، يأتي باسميه العظيمين: "العزيز الحكيم" .هذان الاسمان هما الضمانة، و الحصن، والردع، والرجاء.

· العزيز: أي القوي الذي لا يغلب، المنيع الذي لا ينال، الغالب الذي لا يُقهر .عزه يظهر في أنه لا يحتاج إلى شيء مما يدعون .ليس بحاجة إلى حلفاء، أو أنصار، أو وسائط .هو عزيز بنفسه، وبقوته، وسلطانه .وهو يعز من يشاء من عباده المؤمنين، فيجعلهم أعزة رغم قلة عددهم وضعف ظاهرهم . وأعداؤهم أذلاء رغم كثرة جيوشهم وأموالهم.
· الحكيم: أي الذي يضع كل شيء في موضعه، لا يفعل شيئاً عبثاً، ولا يعذب أحداً بظلم، ولا يؤخر عقاباً إلا لحكمة، ولا يعجل بنصر إلا لحكمة .حكمته تقتضي أن يمهل المكذبين، وأن يبتلي المؤمنين، وأن يدمر الأمم في أوقات محددة، وأن يرفع أقواماً ويخفض آخرين.

القانون الرباني الذي تعلنه الآية:

القانون الأول: قانون العلم المطلق = قانون الأمن المطلق للمؤمن.

كلما ازداد يقينك بأن الله يعلم كل شيء، ازداد أمنك وطمأنينتك .لا تخف من مكر الماكرين، لأن الله يعلم مكرهم قبل أن يفكروا فيه .لا تخف من كيد الكائدين، لأن الله يعلم كيدهم .لا تحزن على خيانة الخائنين، لأن الله يعلم خيانتهم .المؤمن يعيش في قلعة من الأمان الإلهي.

القانون الثاني: قانون العزة = قانون النصر الإلهي.
من أراد العزة الحقيقية فعليه أن يطلبها من الله العزيز .قال تعالى: "مَن كانَ يُرِيدُ العِزّةَ فَلِلّهِ العِزّةُ جَمِيعًا") فاطر: .(10 من يطلب العزة من المال أو الجاه أو السلاح أو الأحزاب، فسيذل في النهاية . ومن يطلب العزة من الله، أعزه الله ولو كان فقيراً ضعيفاً وحيداً.

القانون الثالث: قانون الحكمة = قانون التوقيت الإلهي.
حكمة الله تقتضي أن لا ينصر المؤمنين في كل مرة بشكل سريع ومباشر، لأن ذلك سيحرمهم من درجات الصبر واليقين والثواب .وحكمته تقتضي أن يمهل الطغاة ليستكملوا إجرامهم فتستحق قلوبهم العذاب الأكبر .فما يحدث في غزة، وفي سوريا، وفي فلسطين، وفي كل مكان من ظلم الطغاة ليس غفلة من الله، بل هو حكمة إلهية .سيأتي اليوم الذي يقول فيه الله للظالم: "قد علمت كل ما فعلت، و الآن جاء دور العزيز الحكيم".
ربط الآية بما قبلها (41) وما بعدها(43) :

· الآية) 41 بيت العنكبوت(: قالت لنا: كل بناء على غير الله واهٍ .الآن الآية 42 تقول: وهذا البناء الواهي ليس خافياً على الله، بل هو مكشوف أمام عينيه، والله عزيز حكيم سيدمره في الوقت المناسب.
· الآية43 : "وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا العَالِمُونَ") العنكبوت: .(43 أي أن هذه الأمثال)بيت العنكبوت وعلم الله وعزته وحكمته (يضربها الله للناس، لكن لا يفهمها حق الفهم إلا العلماء الذين يستنبطون الدروس والعبر .الآية 42 تضع الأساس العقلي الذي يمكنك من فهم بقية الأمثال: أن الله يعلم كل شيء، فلماذا إذن يضرب الأمثال؟ ليوقظ الغافلين.

الدروس العملية والتوجيهات التربوية والسلوكية: كيف نعيش هذه الآية في واقعنا؟

.1في علاقتنا مع أعدائنا ومكائدهم:

· توقف عن الخوف من المؤامرات: كم مرة سمعنا عن مؤامرة عالمية، أو مخطط استعماري، أو مشروع تقسيم، أو صفقة خيانة .هل يغير ذلك شيئاً؟ الآية تقول: الله يعلم كل ذلك .لا ترهب نفسك، ولا ترعب أبناءك .تعلم العلم، وخطط، واعمل، لكن لا تخف .الخوف من مخلوق يضعف يقينك بعلم الله.
· توقف عن الانبهار بقوة الكفار: انظر إلى أمريكا، روسيا، الصين، الاتحاد الأوروبي .هم يدعون من دون الله أسلحة واقتصاداً وتحالفات .والله يعلم أن هذه كلها "من شيء" في علمه، لكنها في حقيقتها لا شيء .بيوت عنكبوت.

.2في حياتنا الشخصية والعملية:

· لا تخف من الناس: هل تخاف من مديرك في العمل؟ هل تخاف من ظلم حاكم؟ هل تخاف من فقر أو مرض؟ الآية تقول: الله يعلم كل ما تخافه، وهو العزيز الحكيم .إن كان الله معك فمن عليك؟ قال تعالى: "وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ") يونس:.(107
· لا تحسد أحداً على قوة ظاهرية: قد ترى ظالماً يملك القصور والسيارات والسلطان .لا تحسده .لأن الله يعلم ما هو عليه، والله عزيز حكيم .عزة الظالم مؤقتة وحكمته ستظهر عندما يقلب عليه السحر . قال تعالى: "وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ") طه:.(131

.3في تربيتنا لأبنائنا:

· علمهم أن الله معهم يراهم: عندما يشعر الطفل بالخوف من وحش تحت السرير، أو من ظالم في المدرسة، قل له: "الله يراه ويعلم به، وهو أقوى منه" .هذه التربية تنتج جيلا ً لا يهاب إلا الله.
· علمهم ألا يطلبوا العزة من غير الله: لا تقل لابنك: "تعلم لتكون قوياً"، بل قل: "تعلم لتعرف قدرة الله، ولتعمل بإذن الله، ولتكن من عباده الأعزة".

.4في بناء الأمة والمجتمع المسلم:

· العزة الحقيقية تكون بالله وليس بالتحالفات المادية: خذ درساً من غزة .أهل غزة ليس لديهم

جيوش ولا طيران ولا دبابات، لكنهم أعزة بنصر الله وبصبرهم وبإيمانهم .وانظر إلى من تحالفوا مع أمريكا والناتو، أين هم اليوم؟ أذلاء مهزومون.
· الحكمة الإلهية تقتضي منا الصبر والعمل المتقن: لأن الله حكيم، فهو لا يعطينا النصر دائماً بسرعة، بل يريدنا أن نتعلم، نعد، نخطط، نتقن أعمالنا .الحكمة الإلهية لا تعني الكسل، بل تعني أن نعمل بكل طاقتنا ثم نترك النتيجة لله.
*دور الآية في بناء الإنسان المتزن وإقامة الحضارة:

الإنسان المتزن هو الذي يعيش بين علم الله وعزته وحكمته.

· يعلم أن الله يعلم كل شيء، فيستريح من وساوس القلق.
· يعلم أن الله عزيز، فلا يذل لأحد سواه.
· يعلم أن الله حكيم، فلا ييأس إذا تأخر النصر، ولا يستعجل العقوبة، ولا يحكم على الأشياء بظاهرها.

الحضارة الإسلامية لا تبنى على الخوف والجزع، ولا على التعلق بالغرب، بل تبنى على الثقة بأن الله معنا، وأن ما عند الله خير وأبقى، وأن سنة الله في الأمم لا تتغير .الحضارة تبنى بالعلم والعمل، لكن روحها هي هذه الآية .عندما يؤمن المهندس المسلم أن الله يعلم ما يدعو من دونه من شيء، سيصنع أفضل اختراع وهو متوكل على الله لا متباهٍ به .وعندما يؤمن الطبيب المسلم بذلك، سيعالج بإتقان وهو يعلم أن الشافي هو الله .وعندما يؤمن الجندي المسلم بذلك، سيقاتل بشجاعة لا يخاف كثرة العدو.

خلاصة النداء الإلهي الذي يصل إلى أعماقك الآن:

أنت يا من تخاف من المستقبل، يا من ترى أعداءك يتحالفون عليك، يا من تشعر بالضعف والخذلان، يا من يهمس في أذنك الشيطان أن الله ناسيك أو غافل عنك.

استمع إلى هذه الآية: "إِنَّ اللّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ".
لا شيء يخفى عليه .كل دمعة ذرفتها في خلوة، كل سجدة أطلت فيها، كل دعاء رفعته في جوف الليل، كل خطوة مشيتها في سبيله، كل مكيدة كادها لك أعداؤك، كل خيانة خانك بها من تظنهم أقرب الناس، كل حسرة في قلبك، كل أمل في صدرك، كل سر في ضميرك - الله يعلمه.

"وَهُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ".
فهو العزيز الذي لن يتركك ذليلا ً أبداً إذا كنت معه .وهو الحكيم الذي لن يضيع أجرك، ولن يقدم عقوبتهم إلا حين يحين الوقت الذي يليق بعدله ورحمته.

فماذا تفعل الآن؟

1.توقف عن الخوف .قل: "حسبي الله، يعلم ما في نفسي، وسينصرني بعزته وحكمته".
2.ابدأ العمل .لا تنتظر النصر يأتيك دون أن تبذل السبب .اعمل كأن النصر بيدك، وتوكل كأن النصر بيد الله.
3.انظر إلى أعدائك بعين الشفقة .إنهم يبنون بيوت عنكبوت، ويعبدون لا شيء، ويخططون وهم تحت مرأى الله ومسمعه .مصيرهم الزوال.
4.أنعش قلبك بهذه الآية كل صباح ومساء .اجعلها رفيق دربك، تذكرها عندما تهتز نفسك .سترى كيف تتحول حياتك من قلق إلى طمأنينة، ومن ذل إلى عز، ومن يأس إلى رجاء.

اللهم إنا نعلم أنك تعلم ما في قلوبنا، وما يدعو أعداؤنا من دونك، فاجعلنا من عبادك الأعزاء الذين لا يخافون إلاك، وارزقنا الحكمة في أقوالنا وأفعالنا، واجعل هذه الآية نوراً في قلوبنا وحياة في أرواحنا . آمين.

تأمل هذه الآية الآن، كأنها نزلت لتوك .أشعر بعلم الله المحيط بك، بعزته التي تحيط بك، بحكمته التي تدبر أمرك .استرخ، وتنفس، وابتسم .فالله معك، والله يراك، والله ناصرك
.ثالثا
المبحث الأول
أخي الحبيب، أختي الغالية،

بعد أن رأينا بيت العنكبوت الواهي) الآية(41 ، ثم علمنا أن الله يعلم كل شيء وهو العزيز الحكيم) ا

لآية(42 ، تأتي الآن الآية 43 لتختم هذه السلسلة العظيمة بضربة تربوية أعمق، لتعلن عن منهج الله في تعليم عباده، وتضع أمامنا أعظم أداة للبناء والتغيير: المَثَل.

الآية: "وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ") العنكبوت:(43

دعنا نغوص معاً في هذه التحفة الربانية، ونتذوق كيف تحول المثال من مجرد أداة تعليمية إلى منهج حياة، وإلى سلاح في التربية والبناء والتأهيل والإعداد.

أولاً: "وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ"

الدلالة البيانية واللمسة الإلهية:

· "وَتِلْكَ": اسم إشارة للبعيد، والإشارة إلى البعيد تعظيم لشأن الأمثال التي سبق ذكرها) بيت العنكبوت، وعلم الله، وعزته وحكمته .(كأن الله يقول: انظروا إلى هذه الأمثال العظيمة البعيدة في معانيها، العميقة في دلالاتها، والتي تضرب لكم من عالم الغيب والشهادة.
· "الأَمْثَالُ": جمع مثل، وهو التشبيه التمثيلي الذي ينقل المعنى المجرد إلى صورة محسوسة .المثال هو جسر بين العقل والقلب، بين الفكرة والحس، بين الغيب والشهادة.
· "نَضْرِبُهَا": الفعل "نضرب" بصيغة المضارع، يدل على الاستمرار والتجدد .يعني أن سنة الله في ضرب الأمثال مستمرة في القرآن وفي الكون وفي الحياة .كل يوم، كل موقف، كل آية في الكون هي مثل يضربه الله للناس ."نضرب" تحمل معنى الإيقاع والتأثير، كأن المثال يضرب العقل والقلب ضربة تنبيه.
· "لِلنَّاسِ": عامة الناس، كل الناس، مؤمنهم وكافرهم، عالمهم وجاهلهم .الأمثال للجميع، لكن فهمها ليس للجميع.

المفهوم العميق: لماذا الأمثال؟

الله سبحانه يعلم أن البشر يعانون من صعوبة استيعاب المعاني المجردة .الكلام النظري عن "ضعف الشرك" قد لا يؤثر، لكن عندما ترى بيت العنكبوت ينهار، تشعر بالفكرة في أعماقك .الأمثال تغير السلوك لأنها تخاطب الحواس والخيال والعقل معاً .إنها أقصر طريق إلى القلب.

ثانياً: "وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ"

اللمسة البلاغية الرائعة:

· "يَعْقِلُهَا": العقل هنا ليس مجرد فهم سطحي، بل هو فهم عميق يصل إلى درجة الإدراك والتدبر والاستنباط والتطبيق .العقل هو أن تمسك المثال بيد عقلك، وتديره، وتستخرج كنوزه، وتوظفه في حياتك .العقل هنا فعل متعد، يحتاج إلى جهد وإعمال فكر.
· "إِلَّا الْعَالِمُونَ": الحصر .لا يعقلها إلا العلماء .من هم العلماء؟ ليسوا حملة الشهادات فقط، بل العلماء ب الله، وبسننه، وبأسرار خلقه، وبطبائع النفوس .العلماء الذين يربطون النص بالواقع، والمثال بالمثل، و الحكمة بالحياة.

القانون التربوي الإلهي:

القانون الأول: قانون التفاضل في الفهم.
الأمثال مضروبة للناس جميعاً، لكن مستويات الفهم متفاوتة .العامي يسمع المثال فيحس بعبرة سطحية .المتعلم يفهمه بمنطقه .أما العالم الرباني فيغوص إلى أعماقه، ويستخرج أصولاً وقوانين وحكماً يبني عليها حضارات.

القانون الثاني: قانون أن العلم هو مفتاح العقل.
لا يمكن أن تعقل المثل إلا إذا كنت عالماً .والعلم هنا يشمل العلم بالله) معرفة أسمائه وصفاته(، و العلم بالقرآن) أساليبه ومقاصده(، والعلم بالنفس البشرية) كيف تعمل وكيف تتأثر(، والعلم بالسنن الكونية والتاريخية.

القانون الثالث: قانون أن التربية تحتاج إلى أمثال.
لن تغير سلوك الناس بوعظ جاف .تحتاج إلى صور، قصص، تشبيهات، أمثال .النبي صلى الله عليه وسلم كان يضرب الأمثال في كل مناسبة: "مثل المؤمنين في توادهم كمثل الجسد الواحد"، "مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضاً" .التربية بلا أمثال تربية ناقصة.

دور المثال وأهميته في التربية والبناء والتأهيل والإعداد:

.1المثال كأداة لتثبيت المفاهيم في العقل الباطن:

العقل الباطن يستقبل الصور والحكايات أسرع من استقباله للنظريات المجردة .عندما تكرر مثل "بيت العنكبوت" في ذهن طفل، سيبقى هذا المثال معه طول عمره .كلما رأى بناءً واهياً أو تعلقاً بغير الله، سيتذكر العنكبوت .هذا هو التعلم العميق الذي لا يمحى.

.2المثال كوسيلة للتأثير العاطفي والوجداني:

المثال يضرب الوجدان قبل العقل .قول "شرككم ضعيف" كلام جاف .لكن قول "شرككم كبيت العنكبوت" يصيب القلب بالاستخفاف والاشمئزاز من الشرك، وفي نفس الوقت يوقظ الأمل في قلب المؤمن بأن قوة الله ستكسر هذا البيت الواهي .المثال يحرك المشاعر، والمشاعر تحرك الإرادة.

.3المثال كمنهج للبناء الحضاري:

كل حضارة عظيمة قامت على أمثال عظيمة .الحضارة الإسلامية قامت على أمثال القرآن والسنة . المثال يصنع رؤية للعالم . عندما يرى المؤمن الدنيا كلها كبيت عنكبوت، يرتفع همه، ويصبح همه الآ خرة .وعندما يرى أن الله يعلم كل شيء، يمتلئ أمناً .وعندما يرى أن الأمثال للعلماء، يحرص على طلب العلم.

.4المثال في التأهيل والتدريب:

في المجال العسكري والتربوي، التدريب يعتمد على المواقف المحاكاة ، وهي أمثال عملية .في القيادة، القائد الناجح يضرب الأمثال ليرسم الرؤية .في الدعوة، الداعية الناجح يضرب الأمثال ليقرّب المعاني . المثال هو أقصر طريق للإقناع.

الدروس العملية والتوجيهات التربوية: كيف نستفيد من هذه الآية في حياتنا العملية؟

أولا ً: في تربية أنفسنا وأبنائنا:

.1استخدام الأمثال في كل موقف تربوي: عندما تريد تعليم طفلك الصدق، اضرب له مثلا ً: "الصدق كالنور يضيء الغرفة، والكذب كالظلام يخبئك ولا تستطيع الخروج" .عندما تريد تعليمه التوكل، اذكر له مثل الطائر الذي يغدو خماصاً ويروح بطاناً .كن معلماً يضرب الأمثال.
.2حفظ أمثال القرآن والسنة وتدبرها: اجعل لك ورداً يومياً في تلاوة القرآن وأنت تبحث عن الأ مثال .كمثل: مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل) البقرة: .(261 ومثل الذين كفروا كالذي ينعق بما لا يسمع) البقرة: .(171 كل مثل يفتح لك باباً من أبواب الحكمة.
.3تعليم الأبناء كيفية "عقل" الأمثال: لا تكتف بضرب المثل، بل ناقشهم فيه .اسألهم: ما الذي تعلمته من مثل بيت العنكبوت؟ كيف نطبقه في حياتنا؟ ما هي الدروس المستفادة؟ هذا هو "العقل" الذي تذكره الآية.

ثانياً: في دعوتنا وتعليمنا للآخرين:

.1لا تبدأ بالوعظ الجاف: عندما تريد نصيحة صديق أو زميل، ابحث عن مثل يناسب حاله .اجعل القرآن قصصاً وأمثالا ً تنبض بالحياة .فالنفوس مجبولة على حب القصص والأمثال.
.2اجعل هدفك الوصول إلى القلوب: الناس تختلف عقولهم ومستوياتهم، لكن الأمثال تخاطب الفطرة المشتركة .فإذا أردت أن تصل إلى الغني المتكبر، اضرب له مثل قارون الذي خسف الله به الأرض . وإذا أردت أن تصل إلى الضعيف المقهور، اضرب له مثل موسى وفرعون.

ثالثاً: في بناء الأمة وإعداد القادة:

.1صناعة قادة يفقهون الأمثال: الأمة بحاجة إلى "علماء" بمعنى الآية: علماء يعقلون الأمثال، ويفقهون سنن الله، ويستطيعون ترجمة النصوص إلى واقع .القائد الذي لا يفقه الأمثال سيقود أعمى.
.2بناء مناهج تعليمية تقوم على الأمثال: مدارسنا وجامعاتنا تحتاج إلى منهجية "التربية بالأمثال" .بد لا ً من حشو الأذهان بمعلومات جافة، نقدم الصور الحية والأمثال الواقعية التي تترسخ في العقول

وتغير السلوك.
.3الإعلام والخطاب الإعلامي: وسائل الإعلام تؤثر بقوة عندما تستخدم الصورة والأسطورة والمثل . خطابنا الإعلامي الموجه للأمة يجب أن يكون غنياً بالأمثال القرآنية التي توقظ الوعي وتجمع الصف.
كيف نعيش هذه الآية في واقعنا؟

تأمل معي هذا المشهد:

أنت الآن جالس في بيتك أو في مكان عملك .حولك ناس يعيشون على أوهام: يظنون أن المال هو الحصن، أو الجاه، أو القبيلة، أو الحزب، أو الدولة الفلانية .هم يبنون بيوت عنكبوت دون أن يشعروا . أنت تعلم الحقيقة لأن الله علمك إياها .ماذا ستفعل؟

ستفعل ما أمرتك به هذه الآية:

.1ستضرب الأمثال: ستأتي إلى أخيك الإنسان وترفق به .لن تقول له "أنت غبي، شركك باطل" .بل ستقول: "انظر إلى العنكبوت كيف تبني بيتها، ثم تأتي الريح فتدمره .هكذا كل من يتعلق بغير الله" . ستقص عليه القصة، وترسم له الصورة، وتترك المثال يعمل في قلبه .هذا هو عمل الداعي والمرشد و المربي.
.2ستطلب العلم: لن تكتفي بحفظ الآية، بل ستتعلم كيف تضرب الأمثال، وكيف تختار المثل المناسب للموقف المناسب .ستقرأ سير الأنبياء كيف ضربوا الأمثال لأقوامهم .ستقرأ في علم النفس والاجتماع لتكتشف كيف تعمل الأمثال على العقل البشري .أنت تسعى لأن تكون من "العالمين" الذين يعقلونها.
.3ستربّي نفسك على التدبر: لن تمر على آية أو مثل في القرآن إلا وتوقفت عنده .ستسأل: لماذا هذا المثل؟ ما سر هذا التشبيه؟ كيف ينطبق على واقعي اليوم؟ بهذا التدبر تصبح من "العالمين".
أهمية دورنا في تدبر الآية وتبليغها:

دورنا الفردي:

أن نكون نحن أنفسنا تجسيداً حياً للمثل الإيماني .لا يكفي أن نضرب الأمثال باللسان، بل يجب أن نكون أمثالاً بالأفعال .عندما يرانا الناس نتوكل على الله ولا نخاف من بيوت العنكبوت التي بنتها قوى الكفر، سيقولون: هؤلاء قوم آمنوا بمثل إلهي فصاروا أقوى من الصخر .نصبح نحن "المثل" الحي الذي يهتدي به الضالون.

دورنا الجماعي:

أن ننشر ثقافة الأمثال في مجتمعاتنا .في المسجد، في المدرسة، في الجامعة، في الإعلام، في خطب الجمعة، في الندوات، في المناهج .كلما كثرت الأمثال القرآنية في خطابنا، كلما ترسخت العقيدة الصحيحة في النفوس، ونهضت الأمة من كبوتها.

دورنا الحضاري:

أن نعيد بناء الحضارة الإسلامية على أساس من الأمثال القرآنية .الحضارة الغربية قامت على أمثال مادية) الإنسان قرد متطور، الحياة صراع للبقاء، المال هو الإله .(ونحن نبني حضارة على أمثال: "مثل المؤمنين كالجسد الواحد"، "مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل غيث"، "مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة" .هذه الأمثال تصنع مجتمعاً تعاونياً عادلاً متوازناً.

خلاصة النداء الإلهي الذي يصل إلى أعماقك الآن:

أنت يا من تريد أن تغير نفسك، وتغير أسرتك، وتغير أمتك.

اعلم أن الله قد وضع بين يديك أعظم أداة للتربية والتغيير: "المَثَلُ".
إنها آلة إلهية تضرب بها القلوب فتنتبه، والعقول فتفكر، والنفوس فتتطهر.

وقد حدد لك شرط الانتفاع بهذه الأداة: أن تكون من "العَالِمُونَ".
ليس عالماً بالشهادات فقط، بل عالماً بالله، وبالقرآن، وبالناس، وبالحياة .عالماً يعقل المثل، فيخرجه من كونه قصة مسلية إلى كونه دستور حياة.

فماذا ستفعل الآن؟

.1ستجعل هدفك أن تكون من "العالمين": ستطلب العلم الشرعي، والعلم الكوني، والعلم النفسي، و العلم الاجتماعي، كل ما يعينك على "عقل" الأمثال.
.2ستبدأ بضرب الأمثال لنفسك: كل يوم، كل موقف، ستسأل: ما هو المثل القرآني الذي ينطبق على حالي الآن؟ هذا سيجعلك تعيش في تدبر دائم.
.3ستضرب الأمثال للآخرين: في مجلسك، في دروسك، في لقاءاتك، اذكر الأمثال القرآنية .لا تمل من تكرارها .فالمثل يزرع في العقل الباطن ثم يحصد بعد حين.
.4ستصبر على من لا يعقلونها: الآية قالت "وما يعقلها إلا العالمون"، فاعلم أن أكثر الناس لن يعقلوها في البداية .لا تيأس .استمر في ضرب الأمثال، فرب مثل يقع في قلب جاهل فيصبح عالماً.

تأمل قول الله: "تِلكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَاسِ" – لم يقل "للمؤمنين" بل "للناس" – أي أن الله رحيم بـ الناس جميعاً، يحاول أن يوصل إليهم الحق بأقصر الطرق .فكن أنت أيضاً رحيماً بالناس، ادعوهم بالأ مثال، وأبشر بأن الله سيهدي من يشاء.

والآن، قبل أن تترك هذه الصفحة، أغمض عينيك للحظة وتذكر مثل بيت العنكبوت، وتذكر أن الله يعلم كل شيء وهو العزيز الحكيم، وتذكر أن هذه الأمثال مضروبة للناس، وأنت مدعو لأن تكون من العلماء الذين يعقلونها .افتح عينيك وابدأ رحلتك الجديدة.

المبحث الثاني

أخي الحبيب، أختي الغالية،

بعد أن ضرب الله الأمثال لنا في الآيات السابقة: مثل بيت العنكبوت للذين يتخذون أولياء من دونه، ثم أعلن أنه يعلم كل شيء وهو العزيز الحكيم، ثم بين أن هذه الأمثال مضروبة للناس ولا يعقلها إلا العالمون – يأتي الآن المشهد الأعظم، الآية الأفقية التي تفتح أمامك الكون بكامله لتقرأ فيه آية الله الكبرى.

الآية: "خَلَقَ اللهُ السَمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِالحَقِّ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ" (العنكبوت: 44)

هنا ينتقل بك السياق من الأمثال الصغيرة (بيت العنكبوت) إلى أكبر مثال وأعظم آية: خلق السماوات والأرض. فإذا كان بيت العنكبوت أوهن البيوت، فإن بناء السماوات والأرض هو أقوى البياطين وأعظمها. وإذا كان المشركون يتعلقون ببيوت واهية، فإن المؤمنين يتعلقون بخالق هذه الأجرام العظيمة.

دعنا نغوص معاً في هذا النور الكوني، ونرى كيف أن السماء والأرض تحملان رسالة مباشرة إلى قلبك، وتعلنان لك عن الحق، وتدعوانك إلى التوازن الذي تبحث عنه روحك وجسدك.

أولاً: "خَلَقَ اللهُ السَمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِالحَقِّ"

الدلالة البيانية واللمسة الإلهية:

· "خَلَقَ": فعل ماض، يدل على حدث وقع وتحقق .الخلق هو الإيجاد من العدم، وهو خاصية إلهية لا يشاركه فيها أحد .عندما تقرأ "خلق" تتذكر أن كل ما تراه كان عدماً ثم وجد بإرادة الله.
· "اللهُ": الفاعل، اسم الجلالة الذي له الأسماء الحسنى والصفات العلى .هو الخالق، المبدع، المصور، الذي أتقن كل شيء خلقه.
· "السَمَاوَاتِ وَالأَرْضَ": جمع السماوات) سبع سموات طباقاً (والأرض) أرضنا هذه التي نعيش عليها .(هما القطبان العظيمان في الكون: السماء بما فيها من شمس وقمر ونجوم ومجرات، والأرض بما فيها من بحار وجبال وأنهار وكائنات .خلقهما معاً يدل على عظمة الخالق وقدرته.
· "بِالحَقِّ": هذه الكلمة هي مفتاح الآية كلها ."بالحق" يعني: خلقهما قائماً على الحق، ولأجل الحق، ومتضمناً للحق، ومؤدياً إلى الحق .وليس خلقهما عبثاً أو لعباً أو باطلاً .الحق هنا يقابل الباطل .أي أن وجود السماوات والأرض له غاية وحكمة وهدف، وليس عبثاً كما يظن الملحدون.

ما هو "الحق" الذي خلق به السماوات والأرض؟

· الحق في الإبداع: خلقها بإتقان وإحكام، ليس فيها خلل ولا تناقض .قال تعالى: "الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا ۖ مَا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِن تَفَاوُتٍ") الملك:.(3
· الحق في الغاية: خلقها ليعبد الناس الله وحده، وليعرفوا قدرته، وليؤمنوا به .قال تعالى: "وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ وَالإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ") الذاريات:.(56

· الحق في السنن والقوانين: خلقها بقوانين ثابتة) سنة الله في الكون (لا تتغير، ليكون فيها عبرة للمعتبرين.
· الحق في الجزاء: خلقها لتكون دار امتحان، ثم دار جزاء للمؤمنين والكافرين .قال تعالى: "وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا") ص:.(27

القانون الكوني الأول: قانون الحق كأساس للوجود

كل شيء في هذا الكون مبني على الحق. الحق هو أساس الخلق، وهو محور الوجود، وهو غاية المسيرة. من عاش بالحق، استقام أمره. ومن عاش بالباطل، انهار كبيت العنكبوت. الآية تربط ما سبق من أمثال بهذه الحقيقة الكبرى: بيت العنكبوت باطل فانهار، والسماء والأرض بالحق فثبتتا. اختر لنفسك أي الأساسين تريد.
ثانياً: "إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ"

اللمسة البلاغية الرائعة:

· "إِنَّ": للتوكيد، كأن الله يقسم لك.
· "فِي ذَٰلِكَ": الإشارة إلى خلق السماوات والأرض بالحق .أي في هذا الخلق العظيم.
· "لَآيَةً": اللام للتوكيد، وآية تعني علامة واضحة ودليلا ً قاطعاً وعبرة عظيمة .آية على وحدانية الله، وعلى قدرته، وعلى علمه، وعلى حكمته، وعلى صدق رسله، وعلى أن البعث حق.
· "لِّلْمُؤْمِنِينَ": خص المؤمنين بالآية .لم يقل "للناس" كما في الأمثال السابقة .هنا الآية مفتوحة للجميع، لكن الانتفاع بها والاهتداء بها خاص بالمؤمنين .الكافر يرى الشمس والقمر والنجوم فلا يتأثر، والمؤمن يراها فيزداد إيماناً وتوحيداً.

القانون التربوي الثاني: قانون الفرق بين النظر المبصر والبصيرة

الناس جميعاً يرون السماوات والأرض، لكن المؤمن هو من يرى "الآية" فيها. الكافر يرى ظواهر فيزيائية، المؤمن يرى معاني إلهية. الكافر يرى نجوماً وغباراً كونياً، المؤمن يرى آيات خالق مدبر حكيم. الفرق ليس في العين، بل في البصيرة. الآية تدعوك إلى تطوير بصيرتك حتى ترى الكون كله آيات.

ربط الآية بما قبلها (41-43):

· الآية41 : مثل الذين اتخذوا أولياء من دون الله كبيت العنكبوت) باطل واهٍ.(
· الآية42 : الله يعلم كل شيء وهو العزيز الحكيم) علمه وعزته وحكمته هي الحقيقة.(
· الآية43 : الأمثال مضروبة للناس ولا يعقلها إلا العالمون) ضرورة العلم والفهم.(
· الآية44 : خلق السماوات والأرض بالحق، وفيه آية للمؤمنين) أعظم دليل على أن الحق هو أساس الوجود، وأن المؤمنين هم من يدركون ذلك.(

إذاً السلسلة تنتقل من الباطل (بيت العنكبوت) إلى الحق (خلق السماوات والأرض)، ومن عامة الناس إلى المؤمنين خاصة، ومن الأمثال الصغيرة إلى الآية الكونية الكبرى.

لماذا جعل الفهم والإدراك وإقامة التوازن بين مطالب الروح والجسد يصل إليها المؤمنون؟

هذا هو السؤال العميق، والجوهر الذي تريد الوصول إليه. دعني أشرحه بالتفصيل:

أولا ً: المؤمن يملك المفتاح الصحيح لقراءة الكون

الكون كتاب مفتوح، لكنه مكتوب بلغة الإيمان. الكافر يحاول قراءته بلغة المادية والصدفة، فلا يفهم منه إلا فوضى وعبثاً. أما المؤمن فيقرأه بلغة "خلق الله بالحق"، فيرى في كل ذرة آية، وفي كل نجم حكمة، وفي كل خلية إبداعاً. هذا الفهم هو ما يسمى "البصيرة". قال تعالى: "وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ" (الأنعام: 75). إبراهيم رأى الملكوت (الباطن والحكمة) وليس فقط الظاهر.

ثانياً: المؤمن يعرف أن الدنيا ليست كل شيء

الآية تعلن أن السماوات والأرض خُلقت بالحق، أي لغاية نبيلة وهدف سام. هذا يعني أن الحياة الدنيا

ليست لعبة ولا عبثاً، وأن هناك يوماً للجزاء والحساب. هذه المعرفة تحرر المؤمن من العبودية للدنيا، وتجعله يعيش متزناً: يعمل لدنياه كأنه يعيش أبداً، ويعمل لآخرته كأنه يموت غداً. أما الكافر الذي يعتقد أن الحياة مجرد مادة، فهو إما منغمس في الشهوات بلا حدود (فيطغى الجسد على الروح) أو زاهد في الدنيا بلا أمل (فيحبط وتهمل الروح). المؤمن وحده يعرف كيف يرضي جسده بالحلال، ويرضي روحه بالعبادة، ويعيش متوازناً.

ثالثاً: المؤمن يربط بين الآيات الكونية والآيات القرآنية

المؤمن لا يرى تعارضاً بين العلم والدين، لأن كلاهما من عند الله. آيات الله في الكون (السماوات والأرض) وآيات الله في القرآن (الوحي) كلها تشهد للحق. المؤمن يدرس الفلك والطب والفيزياء والكيمياء ، ويراها كلها تفسيراً لآيات الله الكونية، فتزيده إيماناً وخشية. أما الكافر، فإما أن يرفض العلم بحجة الدين، وإما أن يرفض الدين بحجة العلم. المؤمن فقط هو القادر على الجمع بينهما، وتحقيق التوازن بين متطلبات العقل (الذي يدرس الكون) ومتطلبات الروح (التي تطلب الوحي).

رابعاً: المؤمن يدرك أن التوازن هو سنة الكون نفسه

انظر إلى السماوات والأرض: السماء مرفوعة بلا عمد، والأرض موضوعة تمهد. السماء فيها شمس تنير، وليل يسكن. الأرض فيها بحار وأنهار، وجبال وأودية. كل شيء بميزان. قال تعالى: "وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ" (الرحمن: 7). المؤمن الذي يتأمل هذا الخلق يدرك أن التوازن هو قانون الوجود. فيطبق هذا القانون على نفسه: لا إفراط في الروحانية فيترك الدنيا، ولا إفراط في المادية فينسى الآخرة. بل يسير على صراط مستقيم، وسطاً بين الشهوات والرهبانيات. هذا هو المؤمن الذي يعقل الآية.

الدروس العملية والتوجيهات التربوية: كيف نعيش هذه الآية في واقعنا؟

أولاً: تغيير نظرتنا للكون:

· لا تمر على السماء والأرض مروراً أعمى: كل صباح، عندما تشرق الشمس، قل في نفسك: هذه آية من آيات الله، خلقها بالحق .كل ليلة، عندما ترى النجوم، تذكر عظمة الخالق .اجعل من حولك) بيتك، سيارتك، مكتبك (مليئاً بآيات الله الكونية .ضع صورة للمجرة أو للجبال أو للبحر أمامك، وتأمل فيها.

ثانياً: بناء شخصيتنا على أساس التوازن:

· لا تهمل جسدك بحجة الروحانية: بعض الناس يظنون أن التقوى تكون بإهمال الجسد، وعدم الاهتمام بالصحة والجمال الحلال، وعدم الاستمتاع بالطيبات .هذا خطأ .الآية تقول: خلق السماوات والأرض بالحق، والله خلق فيك جسداً وروحاً، فأعط كل ذي حق حقه .قال تعالى: "قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ") الأعراف:.(32
· لا تنغمس في الشهوات بحجة أننا خلقنا من مادة: بعض الناس يقولون: نعيش مرة واحدة، فلنأكل ونشرب ونتمتع .هذا كفر بنعمة الله ونسيان للآخرة .المؤمن يعيش متعة الجسد الحلال، ويربي روحه بالعبادة، ويوازن بينهما.

ثالثاً: في تربية الأبناء:

· علمهم ربط الكون بالخالق: بدلاً من تعليم الطفل "هذه شمس وهذه نجمة" فقط، قل له: "الله خلق الشمس لتعطينا الضوء والدفء، والنجوم لنهدي بها في الظلمات" .اجعلهم يرون البصيرة قبل العلم المجرد.
· علمهم التوازن منذ الصغر: لا تفرط في تدليلهم فينغمسوا في الشهوات، ولا تفرط في حرمانهم فينحرموا من طفولتهم .علمهم أن الجسد له حق) الأكل، اللعب، النوم، الرياضة(، والروح لها حق) الصلاة، الذكر، القراءة، الصدقة.(

رابعاً: في بناء المجتمع والحضارة:

· المجتمع المتوازن هو المجتمع الذي يؤمن بالحق: أي مجتمع يقوم على أساس أن الحياة خلقت بالحق) وليس بالباطل أو الصدفة (سيكون مجتمعاً عادلاً، يهتم بالروح كما يهتم بالجسد، يبني المساجد والمدارس والمستشفيات والمصانع معاً .المجتمع الذي ينكر الحق) كالشيوعية المادية (سينهار لأنه أهمل الروح .والمجتمع الذي يغالي في الروحانية) كالرهبانية المحرفة (سينهار لأنه أهمل الجسد.
· الحضارة الإسلامية قامت على هذا التوازن: العلماء المسلمون كانوا فقهاء وأطباء وفلكيين

وفيزيائيين .جمعوا بين العبادة والعلم، بين الروح والجسد، بين الدنيا والآخرة .وهذا هو سر نهضتهم.

كيف نعيش هذه الآية في حياتنا العملية الآن؟

مشهد عملي:

أنت تستيقظ صباحاً. تفتح نافذة غرفتك، ترى السماء زرقاء، والشمس تشرق، والأشجار تخضر، والطيور تغرد. في هذه اللحظة، أمامك خياران:

· الخيار الأول) الكافر أو الغافل(: يرى هذه المناظر ولا شيء، يقول "صباح جميل" ثم يذهب إلى عمله مشغولا ً بالدنيا فقط.
· الخيار الثاني) المؤمن الذي يعقل الآية(: يقف لحظة، يتأمل، يتذكر قول الله "خلق السماوات والأرض بالحق"، فيقول "سبحان الله، ما أعظم خلقك" .ثم يتذكر أنه خلق لله، فيصلي الفجر بخشوع، ثم يذهب إلى عمله وهو يعلم أن عمله عبادة، وأن الدنيا مزرعة للآخرة .في عمله، لا يظلم ولا يغش، لأ نه يعلم أن الله يراه .بعد العمل، يستمتع بحلاله مع أسرته، ولا ينسى ذكر الله .ينام ليلا ً وهو راضٍ ، لأنه حقق التوازن بين روحه وجسده.

هذا هو المؤمن الذي جعلت الآية منه إنساناً متزناً، قادراً على بناء الحياة والدنيا والآخرة معاً.

خلاصة النداء الإلهي الذي يصل إلى أعماقك الآن:

أنت يا من تبحث عن معنى لحياتك، يا من تحاول التوفيق بين رغبات جسدك وطموحات روحك، يا من تريد أن ترى الله في كل شيء.

انظر إلى السماء والأرض. ليست مجرد كتل صماء. هي آيات مكتوبة بنور الحق. كل نجم يهمس لك: " الله خلقني لأهديك إلى توحيده". كل جبل يصيح: "الله وضعني لأثبت الأرض تحت قدميك". كل نهر يجري: "الله أجراني لأروي عطشك".

ثم انظر إلى نفسك. أنت لست جسداً فقط، ولا روحاً فقط. أنت خليقة الله التي جمعت بين التراب و النفخة الإلهية. فحق على من جمع بين هذين أن يعيش متوازناً، يعطي الجسد حقه من العمل والا ستمتاع، ويعطي الروح حقه من العبادة والقرب.

وكل هذا لا يدركه إلا المؤمن. لأن المؤمن يملك البصيرة التي يرى بها الحق، والقلب الذي يخاف الله، والعقل الذي يوازن. والكافر محروم من هذه النعمة، لأنه أغلق عينيه وآذانه عن آيات الله.

فماذا ستفعل الآن؟

1.ارفع رأسك إلى السماء الآن) إن كنت في مكان مفتوح (أو تخيلها بقلبك .قل: "اللهم، خلقت السماوات والأرض بالحق، فأرني الحق في خلقي، واهدني إلى الصراط المستقيم".
2.اكتب في مفكرتك أو على هاتفك: "اليوم سأعيش التوازن: جسدي له حق، وروحي لها حق" .ثم التزم بهذا المبدأ.
3.علم هذه الآية لأحد أبنائك أو إخوانك اليوم .اشرح له أن السماء والأرض آيات للمؤمنين، وأن الإ يمان هو مفتاح التوازن.
4.اجعل لك وردا يومياً من النظر في خلق الله .خمس دقائق تتأمل فيها السماء، أو البحر، أو الجبال، أو حتى حديقة منزلك .وقل: "ربنا ما خلقت هذا باطلا ً، سبحانك فقنا عذاب النار".

تذكر: بيت العنكبوت ينهار، والسماء والأرض ثابتتان. فاختر لنفسك أي البناءين تريد أن تكون. واعلم أن الله جعل في هذا الكون آية لك، لتكون من المؤمنين المتوازنين الذين يعمرون الأرض ويبنون الحضارة ويصلون إلى ربهم بقلب سليم.

اللهم أرنا آياتك في الآفاق وفي أنفسنا حتى نتبين أنه الحق، واجعلنا من المؤمنين الذين يعقلون آياتك ويعيشون التوازن الذي يرضيك، وثبت أقدامنا على الحق كما ثبّتَ السماوات والأرض. آمين.

والآن، اخرج وانظر إلى السماء. إنها تناديك
المبحث الثالث
أخي الحبيب، أختي الغالية،

بعد أن رسمت لنا الآيات السابقة خريطة كاملة للواقع: بينت هشاشة قوى الشرك والطغيان (بيت العنكبوت)، وكشفت أن الله يعلم كل شيء وهو العزيز الحكيم، وأعلنت أن الأمثال هي أداة التربية لأ هل العلم، ثم فتحت الكون كله آية للمؤمنين – تأتي الآن الآية 45 لتكون الذروة، والقمة، والمنهج العملي الذي به تنتقل الأمة من مرحلة الضعف إلى القوة، ومن بيت العنكبوت إلى بناء الصخر.

إنها الآية التي تحول النظريات إلى واقع، والأمثال إلى حياة، والإيمان إلى سلاح.

الآية: "اتلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ ۖ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الفَحْشَاءِ وَالمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ" (العنكبوت: 45)

هنا ليست وصية عابرة، بل هي دستور البقاء للأمة التي تريد أن تواجه الطغيان والفساد، وأن تعيد بناء مجدها. دعنا نغوص في بحرها، ونستخرج كنوزها التي غيرت مجرى التاريخ.

أولاً: "اتلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الكِتَابِ"

الدلالة البيانية واللمسة الإلهية:

· "اتلُ": فعل أمر، بصيغة المضارع المجزوم، يدل على الوجوب والاستمرار .التلاوة ليست مجرد قراءة بـ اللسان، بل هي تتبع، وترتيل، وتدبر، وتطبيق .أصل "تلا" يعني تبع، فكأن الله يأمرك أن تتبع الوحي تبعاً كاملاً، لا تتقدم عليه ولا تتأخر عنه .والتلاوة تشمل: قراءة القرآن بفهم، وحفظه، وتدبر معانيه، ثم العمل به.
· "مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ": أي الذي أنزله الله عليك عبر جبريل عليه السلام .هذا هو الوحي، المصدر الوحيد للحقيقة المطلقة ."ما" هنا نكرة موصوفة، تشمل كل آية، كل حكم، كل قصة، كل مثل، كل قانون في القرآن والسنة .الوحي هو البوصلة، والخريطة، والقوة الفكرية التي لا تخطئ.
· "مِنَ الكِتَابِ": التلاوة تكون من الكتاب، أي من هذا القرآن العظيم ."من" للتبعيض، لأن الكتاب كبير وعظيم، والمطلوب أن تتلو منه ما تستطيع، لكن الاستمرارية هي المطلوبة ."الكتاب" اسم جامع للقرآن الذي فيه الهدى والنور والفرقان.

المفهوم العميق: الوحي كقوة فكرية وليس مجرد معلومات

هذه الآية تعلن حرباً على فكرة أن الدين مجرد مشاعر وطقوس. إنها تعلن أن الوحي هو القوة الفكرية التي تواجه بها الأمة طغيان الفكر البشري المنحرف. عندما تقرأ الوحي بتدبر، فإنك تشحن عقلك بالمناعة ضد الأفكار الواردة من الثقافات الفاسدة.

· الوحي يمنع العقل من الانحراف نحو المصلحة الذاتية: العقل البشري وحده عرضة للتلاعب بـ الشهوات والطموحات .أما العقل الذي يتغذى بالوحي، فيعرف حدوده ويعرف أن الله يراه .الوحي يزرع في النفس مبدأ "مراقبة الله"، فيصبح الإنسان لا يظلم ولو كان قادراً، ولا يخون ولو كان محتاجاً، لأنه يعلم أن الله يعلم ما يصنع) كما في نهاية الآية.(

القانون الأول: قانون التزود بالوحي لمواجهة الطغيان

أي أمة تريد أن تواجه طغاة الأرض وفسادها، يجب أن تكون قوتها الفكرية مستمدة من الوحي. لا يمكن مواجهة الإعلام الغازي، والنظريات الاستعمارية، والفكر الإلحادي، بآراء بشرية مهما كانت ذكية. بل بالوحي الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. التلاوة المستمرة للوحي هي عملية شحن يومي للعقل والروح، تماماً كشحن بطارية الهاتف. انقطاع التلاوة يؤدي إلى ضعف الإشارة، ثم التشويش، ثم السقوط في شبكات الباطل.

ثانياً: "وَأَقِمِ الصَّلَاةَ"

اللمسة البلاغية:

· "وَأَقِمِ": فعل أمر، و"إقامة" الصلاة تختلف عن "فعل" الصلاة .الإقامة تعني: أداؤها كاملة بشروطها وأركانها وخشوعها في أوقاتها، مع المحافظة عليها والمداومة عليها .إقامة الصلاة تعني أن تجعل الصـ ـلاة قائمة في حياتك، عموداً لا يميل، وركناً لا ينهار.
· "الصَّلَاةَ": مفردة لكنها تشمل الصلوات الخمس، والنوافل، والصلوات في الجماعة .الصلاة هي الركن

العملي الثاني بعد الشهادة، وهي الصلة المباشرة بين العبد وربه.

لماذا الصلاة بعد التلاوة؟

التلاوة (الوحي) تغذي العقل، والصلاة تغذي الروح. العقل يحتاج إلى خريطة (الوحي)، والروح تحتاج إلى طاقة (الصلاة). لا يمكن أن تستمر الأمة بقوة عقلية فقط، ولا بقوة روحانية فقط. التوازن بينهما هو ما يخلق الإنسان المتكامل القادر على التغيير.

المفهوم العميق: الصلاة كعملية شحن روحاني وتربية يومية

الصلاة ليست مجرد حركات وأذكار، بل هي تدريب يومي على:

· الانقطاع عن الدنيا: خمس مرات في اليوم، تترك عملك ومالك وأهلك وتقف بين يدي الله .هذا يحررك من عبودية المادة.
· التذكير بالآخرة: في كل صلاة تقرأ الفاتحة و"مالك يوم الدين"، فتتذكر أن هناك يوماً ستقف فيه للحساب .هذا يردعك عن الظلم.
· التواضع والخشوع: السجود وضع الجبهة على الأرض يذكرك بأنك من تراب وإلى تراب تعود، فيزول الكبر.
· الجماعة والتوحد: عندما تصلي مع الجماعة، تشعر أنك جزء من جسد واحد، تتعلم النظام والطاعة و المساواة.

ثالثاً: "إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ"

اللمسة البيانية العظيمة:

· "إِنَّ": توكيد، كأن الله يقسم: صدقاً، الصلاة التي تؤدى حقاً لها تأثير قوي.
· "تَنْهَى": فعل مضارع، تفيد الاستمرار والتجدد .أي كلما أديت الصلاة بخشوع، فإنها تنهك عن الفحشاء والمنكر بشكل مستمر، كالسد الذي يمنع تسرب المياه.
· "الْفَحْشَاءِ": كل فعل قبيح متناهٍ في القبح، كالزنا، واللواط، والسرقة، والكذب الفاحش، والظلم البين.
· "الْمُنكَرِ": كل ما تنكره الفطرة السليمة والشريعة، وهو أعم من الفحشاء، ويشمل المعاصي الصغيرة و الكبيرة، والبدع، والمنكرات الاجتماعية.

الشرط العظيم: الصلاة التي تنهى هي الصلاة المقامة حقاً

ليست كل صلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر. هناك صلاة لا تنهى، صلاة الجسد بلا روح، صلاة الحركات بلا خشوع، صلاة اللسان بلا قلب. هذه الصلاة لا قيمة لها عند الله، بل هي وبال على صاحبها. قال بعض السلف: "من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر، لم يزدد من الله إلا بعداً".

إذن الآية تضع معياراً للصلاة المقبولة: أن ترى أثرها في حياتك. إذا كنت تصلي ثم تفعل الفحشاء و المنكر، فاعلم أن صلاتك ناقصة، وأنك تحتاج إلى مراجعة كيف تقيمها.

القانون الثاني: قانون أن الصلاة حصن من الاختراق الفكري والأخلاقي

المجتمع الذي لا تنهاه صلاته عن الفحشاء والمنكر هو مجتمع مخترق فكرياً وأخلاقياً. يعني أن الصلاة أصبحت عادة جوفاء، لا تؤثر في السلوك. وهذا أخطر ما يمكن أن يمر به المسلمون. لأن العدو إذا عجز عن قتلك بالسلاح، سيحاول اختراقك بالأخلاق الفاسدة، عبر الإعلام، والمواقع الإباحية، وتشجيع الفواحش. فإن وجد مجتمعاً صلاته شكلية، استطاع أن يدخل إليه بالفحشاء والمنكر، ويفسد شبابه، ويسقط قيمه. لكن إذا كانت الصلاة حقيقية، فإنها تمنع هذا الاختراق، وتكون بمثابة جدار ناري يحمي العقول والقلوب.

رابعاً: "وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ"

اللمسة البلاغية المذهلة:

هذه الجملة لها تفسيران عظيمان، وكلاهما صحيح ومتداخل:

· التفسير الأول: ذكر الله) أي الصلاة نفسها (أكبر من أن توصف، فهي أعظم من كل شيء .أي أن فضل الصلاة وعظمتها أكبر من مجرد أنها تنهى عن الفحشاء والمنكر .هي أعظم من ذلك، لأنها صلة بالله، وقرب منه، وامتثال لأمره.
· التفسير الثاني) وهو الأقوى في السياق(: ولذكر الله إياكم) أي ثوابه لكم ورحمته (أكبر من صلاتكم له .فأنتم تذكرون الله بالصلاة، لكن ذكر الله لكم) بقبوله صلاتكم، وثنائه عليكم، ومغفرته لكم (أكبر وأعظم .وهذا يدعو إلى التواضع والشكر.

المفهوم العميق: غاية الصلاة هي ذكر الله نفسه

ليس الهدف من الصلاة فقط أن تمنعك عن الفحشاء، بل الهدف الأسمى هو أن تذكر الله، وتقترب منه ، وتشعر بعظمته. فإذا كانت الصلاة تمنع الفحشاء، فهذه ثمرة من ثمارها، لكن ثمرتها الكبرى هي ذكر الله الذي يملأ القلب نوراً.

القانون الثالث: قانون أن القوة الحقيقية في ذكر الله

الآية تعلن أن القوة العظمى ليست في المال ولا في السلاح ولا في الجيوش، بل في ذكر الله. فـ المجاهد الذي يذكر الله في قلبه أقوى ألف مرة من الذي ينساه. والأمة التي تذكر الله في شدة ورخاء هي الأمة التي لا تهزم. قال تعالى: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ" (الأنفال: 45). فذكر الله هو سر الثبات في المعركة.

خامساً: "وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ"

الخاتمة الربانية:

بعد الأمر بالتلاوة وإقامة الصلاة، وبعد بيان أن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، وأن ذكر الله أكبر، تأتي هذه الجملة التهديدية التحذيرية: والله يعلم ما تصنعون. أي أنه يعلم أعمالكم، خفية وعلنية، ويعلم هل تقيمون الصلاة حقاً أم شكلاً ، ويعلم هل تنتهون عن الفحشاء أم تستمرون فيها، ويعلم نياتكم. وسيجازيكم على ذلك. هذا يزرع في النفس المراقبة، وهي أعلى درجات الإحسان.

القانون الرابع: قانون أن العلم الإلهي هو الضامن للعدل

لا يفلت أحد من علم الله. الطغاة والظالمون الذين يظنون أنهم يفعلون ما يشاؤون، الآية تذكرهم أن الله يعلم ما يصنعون، وسيأتي يوم ينالون فيه جزاءهم. والمؤمنون الذين يصبرون ويقيمون الصلاة، يعلمون أن الله يعلم صنيعهم، وسيثيبهم.

ربط الآية بما سبق (من 41 إلى 45): المنهج المتكامل لبناء الأمة

دعنا نرسم خارطة الطريق التي رسمتها سورة العنكبوت لاستعادة القوة:

1.الآية) 41 بيت العنكبوت(: التشخيص – قوى الباطل واهية كبيت العنكبوت مهما بدت قوية .هذا يحررك من الخوف والانبهار.
2.الآية) 42 علم الله وعزته وحكمته(: الضمان – الله يعلم كل شيء وهو العزيز الحكيم، فلا تخف من مكرهم.
3.الآية) 43 الأمثال للعالمين(: الأداة – التربية والبناء يحتاجان إلى أمثال تضرب للعقول، فلا تيأس من تكرارها.
4.الآية) 44 خلق السماوات والأرض بالحق(: الأفق – الكون كله آية للمؤمنين، والتوازن بين الروح و الجسد هو سنة الكون.
5.الآية) 45 تلاوة الوحي وإقامة الصلاة(: المنهج العملي – العودة إلى الوحي قوة فكرية، وإقامة الص لاة قوة روحانية، والنتيجة: نهي عن الفحشاء والمنكر، وذكر الله أكبر.

إذن، الخلاصة: الأمة التي تريد استعادة قوتها لا بد أن تمر بهذه المراحل: تفهم حقيقة ضعف قوى الباطل، وتتوكل على الله العزيز الحكيم، وتستخدم الأمثال في تربيتها، وتنظر إلى الكون بعين المؤمن، ثم تعود إلى الوحي وإقامة الصلاة كعملية شحن مستمرة للعقل والروح. هذه هي مرحلة "الروح" التي تتحدث عنها.
الموضوع الثاني
السورة الوحيدة التي فضحت هشاشة القوة المادية: تحذير للأمة في مرحلتي القوة والضعف

سورة العنكبوت انفردت بهذا الاسم (العنكبوت)، وهو اسم يحمل رسالة قوية: كل قوة مادية تنفصل عن المنهج الرباني هي كبيت العنكبوت، وكل حضارة تبنى على الظلم والكفر مصيرها الانهيار. هذه الرسالة موجهة:

· للأمة في مرحلة ضعفها) كما كان المسلمون في مكة(: لا تخافوا من قوة المشركين، فهي بيت عنكبوت.
· للأمة في مرحلة قوتها) كما كان المسلمون في عصور الازدهار(: لا تغتروا بقوتكم المادية، وإلا صرتم مثل الذين اتخذوا أولياء من دون الله .فما زالت سورة العنكبوت تحذر الأمة الإسلامية اليوم من أن تنزلق إلى مرحلة "السقوط الجسدي" حيث تهتم بالشكليات والمباني والمظاهر، وتترك الروح والقيم.

لذلك فإن هذه الآية (45) تأتي في وسط السورة بعد ذكر قصص الأنبياء ونصرهم، لتقول: هذا هو س لاح الأنبياء وأتباعهم في مواجهة الطغيان: تلاوة الوحي وإقامة الصلاة. ليس سلاحاً مادياً فقط، بل س لاحاً فكرياً وروحياً هو أقوى من أي جيش.

الدروس العملية والتوجيهات التربوية: كيف نعيش هذه الآية في واقعنا؟

أولا ً: جعل التلاوة شحناً يومياً للعقل

· لا تقرأ القرآن بلا تدبر: خصص وقتاً يومياً للقراءة مع تفسير وتمعن .اسأل نفسك: ما الذي تريد هذه الآية أن تقوله لي اليوم؟ كيف أطبقها في عملي وعلاقاتي؟
· الوحي هو مصدر قراراتك: عندما تواجه مشكلة، أو معضلة أخلاقية، أو خياراً صعباً، ارجع إلى الوحي أولا ً، وليس إلى عقلك فقط أو إلى عادات المجتمع .الوحي يمنع عقلك من الانحراف نحو المصلحة الذاتية.
· حفظ القرآن وأهمية التكرار: الحفظ يرسخ الوحي في العقل الباطن، فيصبح مرجعاً تلقائياً عند الشدائد.

ثانياً: إقامة الصلاة بخشوع كحصن ضد الاختراق

· خشوع في الصلاة: حاول أن تشعر أنك واقف بين يدي الله .اقرأ بتدبر، واطلب النية قبل التكبير . الصلاة التي تشحن الروح هي التي تأخذ وقتها بخشوع.
· المحافظة على الصلوات الخمس في أوقاتها: لا تؤخر الصلاة أبداً .اجعلها أولوية قصوى .كل صلاة تذكرك بالله وتنهك عن الفحشاء.
· الصلوات النوافل: زد من النوافل) الرواتب، قيام الليل، الضحى (فهي تزيد من قوة الروح وتقوي الإ يمان.

ثالثاً: مواجهة الفحشاء والمنكر في المجتمع

· الفحشاء والمنكر ليسا فقط في الأفعال، بل في الفكر أيضاً: الأفلام الإباحية، الموسيقى المحرمة، التشجيع على العلاقات المحرمة، الظلم الاقتصادي، الفساد الإداري – كلها من الفحشاء والمنكر .إذا كانت صلاتك حقيقية، فستكره هذه الأشياء، وستسعى لتغييرها بقدر استطاعتك.
· لا تكن مجرد "مصل" لا يغير شيئاً: المجتمع الذي تنهاه صلاته عن الفحشاء هو مجتمع صالح .أما إذا كنت تصلي وتترك المنكر يحدث حولك، فاعلم أن صلاتك ناقصة.

رابعاً: ذكر الله أكبر – أعد اكتشاف قوة الذكر

· اجعل لسانك رطباً بذكر الله: سبحان الله، الحمد لله، لا إله إلا الله، الله أكبر .هذه الكلمات تغير فيزيولوجيا دماغك وتريح نفسك.
· ذكر الله في الشدة: عندما تخاف، عندما تغضب، عندما تحزن – اذكر الله .الذكر يمنحك قوة خارقة على التحمل.
· الذكر الجماعي: مجالس الذكر تحصن المجتمع كله .اجتمع مع أهلك وأصحابك على ذكر الله وقراءة القرآن.

خامساً: العلم بالله (يعلم ما تصنعون) يقود إلى الإحسان

· استشعار مراقبة الله: في كل عمل تقوم به، تذكر أن الله يراك .هذا يمنعك من الظلم والخيانة حتى

لو كنت وحدك.
· لا تستهن بأي عمل صغير: قد تظن أن صلاتك غير مهمة، أو أن تلاوتك قليلة، لكن الله يعلمها وسيجزيك عليها.
· لا تأمن مكر الله: إذا كنت تفعل الفحشاء والمنكر سراً وتظن أن أحداً لا يراك، فتذكر أن الله يعلم . هذا يردعك عن الذنوب.

كيف نعيش هذه الآية في حياتنا العملية الآن؟

مشهد تطبيقي لشاب أو فتاة في عصر الفتن:

أنت تعيش في بيئة مليئة بالمغريات: الإنترنت يعج بالفحشاء، الإعلام يدعو إلى المنكر، الأصدقاء يضغطون عليك، الشهوات تغريك. أنت تشعر أنك تريد أن تكون قوياً، لكن القوة المادية ليست في يدك (لست غنياً، لست صاحب سلطان، لست بطلا ً خارقاً). كيف تواجه هذا الطوفان؟

الآية تعطيك المنهج:

.1ابدأ بتلاوة الوحي – اقرأ القرآن بتدبر كل يوم ولو صفحة .ستجد فيه القوة الفكرية التي ترد على شبهاتهم، وتبين لك حقيقة الدنيا .مثلا ً: "زُيِّنَ لِلنَاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ..." آل عمران: (14 تعرفك أن الشهوات مزينة وليست حقيقية.
.2أقم الصلاة بخشوع – عندما تصلي الفجر في وقتها، تشعر أنك بدأت يومك بطاقة إيمانية .عندما تصلي الظهر، تقطع انشغالك بالدنيا لتذكر الله .عندما تصلي العصر، تجدد نشاطك .عندما تصلي المغرب ، تشكر الله على يومك .عندما تصلي العشاء، تختم يومك بخشوع .كل صلاة تمنعك عن الفحشاء و المنكر.
.3ستجد أن الفحشاء والمنكر أصبحت مقيتة في نفسك – لن تعد تشتهي مشاهدة المحرمات، ولن تعد ترضى بالظلم، ولن تعد تتبع أهواءك .هذه هي ثمرة الصلاة الحقيقية.
.4ستشعر أن ذكر الله هو أكبر – في لحظات الضعف، تذكر الله في قلبك، تهمس باسمه، فيمنحك قوة خارقة على المقاومة .ستدرك أن ذكر الله أعظم من أي متعة عابرة.
.5ستعيش في مراقبة الله – لن تخاف من الناس لأنك تعلم أن الله يعلم ما تصنع .ستكون شجاعاً في الحق، قوياً في مواجهة الباطل، ثابتاً على المبدأ.

هذا هو الإنسان الذي بنته الآية. هذا هو الجندي الذي لا يهزم. هذه هي الأمة التي تسترد مجدها.

خلاصة النداء الإلهي الذي يصل إلى أعماقك الآن:

أنت يا من ترى الطغاة يعيثون فساداً، والمنكرات تتفشى، والضعف يضرب الأمة، والشهوات تحاصر الشباب.

الآية تقول لك: لا تنتظر جيوشاً أو أموالا ً لتواجه. ابدأ بنفسك. ابدأ بالوحي. ابدأ بالصلاة.

· اتلُ ما أوحي إليك – ليكن القرآن رفيقك، غذاء عقلك، ودفاعك الفكري.
· أقم الصلاة – اجعلها صلة حية مع الله، تشحن روحك كل يوم.
· ستجدها تنهك عن الفحشاء والمنكر – وستتحول من ضعيف إلى قوي، من منقاد إلى قائد.
· واذكر الله دائماً – فهو الأكبر، الأعظم، الأقوى.
· وتذكر أن الله يعلم ما تصنع – فلا تخف من مخلوق، ولا تيأس من نصر الله.

هذا هو سر الانتصار على الطغيان. هذا هو طريق الأنبياء. هذا هو أمل الأمة.

اللهم اجعلنا من الذين يتلون كتابك حق تلاوته، ويقيمون الصلاة حق إقامتها، وتنهانا صلاتنا عن الفحشاء والمنكر، واجعل ذكرك أكبر في قلوبنا، واغفر لنا ما نصنع وما لا نصنع، واجعلنا من عبادك الصالحين الذين يعمرون الأرض ويبنون الحضارة على منهاج النبوة. آمين.

والآن، ارفع يديك وقل: اللهم أعني على تلاوة كتابك وإقامة صلاتك. ثم ابدأ. اقرأ آية واحدة بتدبر. صل ركعتين بخشوع. ستشعر أن نوراً يدخل قلبك. هذا هو بيت العنكبوت ينهار، والبناء الإيماني يعلو.

المقطع الثالث
المبحث الأول
أخي الحبيب/ أختي الكريمة،
تخيل للحظة أنك تقف على شاطئ بحر من النور، كل موجة منه تحمل حكمة إلهية تخاطب قلبك قبل عقلك .هذه هي الآية 46 من سورة العنكبوت، إنها ليست مجرد كلمات تتلى، بل هي منهج حياة، ودستور أخلاقي، وخريطة طريق للتعامل مع الآخرين في أعمق قضايا الوجود: قضية الإيمان بالله.

دعني آخذ بيدك في رحلة تأملية في هذه الآية الكريمة، لعلها تتحول في وجدانك من نص مقروء إلى واقع معاش، وكأن الله تعالى ينزلها عليك الآن، ليخاطب قلبك ويوجه روحك.

المقدمة: سياق الآية ومقاصدها العظمى

نزلت هذه الآية في وقت اشتد فيه الجدال بين المسلمين وأهل الكتاب) اليهود والنصارى(، حيث كان كل فريق يتمسك بدينه ويرى أنه المحق .هنا يأتي الأمر الإلهي الرقيق العميق، ليضع ضوابط للحوار لم تعرف البشرية لها مثيلا ً .الهدف الأسمى للآية هو:

.1هداية الخلق لا الغلبة: المقصد الأساسي هو إيصال الحق بلطف وحكمة، لا إثبات الذات أو الانتصار في النقاش.
.2بناء جسور التعايش: إرساء قاعدة للتعامل قائمة على الاحترام والمعرفة المشتركة، ألا وهي التوحيد الخالص لله.
.3تزكية النفس المسلمة: تدريب المسلم على أرقى درجات ضبط النفس والحلم والرفق، حتى في أوج الاختلاف.
الامر الاول: دلالة قوله تعالى:(وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ)
/1
لماذا "أحسن" وليست "حسنة"؟ وهل يكفي أن يكون الجدل حسناً؟

تأمل معي الفرق بين "حسنة" و"أحسن" .كلمة "حسنة" تعني أن يكون جدالك خالياً من السب والشتم والتصارع، أي كلاماً مقبولا ً .أما "أحسن" فهي تأتي على وزن "أفعل" التفضيل، لتعني أن تصل إلى الذروة في جمال الحوار، أن تقدم أفضل ما لديك من أدب ورقي وحكمة.

إن الله لا يريد منا مجرد أن نكون "حسنين" في جدلنا، بل يريدنا أن نكون "أحسن" الموجودين . الفرق بين السماء والأرض .إنه يرفع سقف التوقعات من "لا تكن سيئاً" إلى "كن مثالا ً يُحتذى" . الحسنة قد تمنع الشر، لكن "الأحسن" هي التي تجذب القلوب وتغير النفوس.
/2
كيف يوجه القرآن للارتقاء بأساليب الحوار حتى في الاختلاف العقدي؟

هذه الآية تعلمك أيها المسلم أن أخلاقك هي رسالتك .قبل أن تدعو إلى الله بلسانك، تدعو إليه بسمتك ولين جانبك .استخدام "الأحسن" هو اعتراف إلهي بأن النفوس جُبلت على النفور من العنف و العدوان، وأنها تنجذب إلى الجمال واللطف .حتى لو كان الطرف الآخر يختلف معك في الله والرسالة، فأنت تلتقيه على أرضية إنسانية مشتركة: احترام العقل والعاطفة.
/3
ما هو أسلوب الحوار الذي أمرت به الآية؟

إنه أسلوب:

· يبدأ من نقاط الاتفاق: كما سنرى في الشطر التالي من الآية.
· يتجنب التجريح الشخصي: يهاجم الفكرة لا الشخص.
· يستخدم الكلمة الطيبة والمنطق الواضح: وليس التعقيد والجدل العقيم.
· يغلب روح الرحمة والشفقة على روح الانتصار: أنت تريد إنقاذ أخيك الإنسان من النار، لا أن تكسب عليه نقطة.
/4
اللمسات البلاغية وكيف تخدم الدلالات:

استخدام كلمة "أحسن" فيه من التكثيف والمعنى ما لا تستطيع أي كلمة أخرى تقديمه .إنه يصور لك صورة ذهنية حية: هناك ميزان دقيق للحوار، وأنت تضع كلامك في كفة "الحسن"، ثم تضاعف الجهد لتنتقل بكلمتك إلى كفة "الأحسن" .إنه يوقظ في نفس المسلم روح المنافسة الشريفة مع نفسه: "هل

وصلت إلى الدرجة القصوى من الأدب؟"
/5
الرسائل التربوية والنفسية والعقلية:

.1تربية النفس على ضبط النفس: عندما تغضب وأنت في نقاش حاد، تتذكر قوله "بالتي هي أحسن"، فتتوقف، تأخذ نفساً، وتختار أفضل رد .هذا رياضة روحية يومية.
.2تربية الحلم والرفق: النبي صلى الله عليه وسلم يقول: "إن الرفق لا يكون في شيء إلا زانه" .الآية تجعل الرفق فريضة حوارية.
.3تجنب الهجوم الشخصي: "الأحسن" تعني أن تتجنب وصف المخالف بالغباء أو الضلال، بل تشرح له رؤيتك بموضوعية.
.4اختيار أفضل الكلمات: مثل الطبيب الذي يختار أفضل دواء، والمحارب الذي يختار أفضل سلاح، ف الكلمة الطيبة هي سلاح المؤمن.
**
آفاق الآية في بناء النفس المسلمة:

تخيل مجتمعاً مسلماً نشأ على هذه الآية .تجده:

· هادئاً في حواراته، لا يصخب ولا يصرخ.
· قادراً على إقناع غيره ليس بالصوت العالي، بل بالحجة الدامغة والخلق الجميل.
· خطابه الإسلامي يلبي متطلبات العصر، لأنه يقدم الإسلام كرسالة سلام ورحمة للعالمين، لا كمنهج صدامي.
· إنها تربي فينا القدرة على إحداث التغيير بالكلمة الناعمة القوية، كالماء الذي ينحت الصخر بقطراته المتواصلة، لا كالعاصفة التي تمر ولا تترك أثراً.
الامر الثاني: دلالة(آمَنَّا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ)

*1ماذا يعني هذا الكلام العظيم؟

هنا تنتقل الآية من وصف "كيف" تجادل، إلى مضمون "ماذا" تقول .إنها تعلمك أن تبدأ حوارك بأعظم نقطة اتفاق ممكنة:

.1الإيمان المشترك بالوحي: "نحن نؤمن بما أنزل إلينا) القرآن(، ونؤمن أيضاً بما أنزل إليكم) التوراة وا لإنجيل في صورتهما الأصلية(" .هذا اعتراف بأصل الرسالة الإلهية الواحد.
.2التوحيد المشترك: "وإلهنا وإلهكم واحد" .هنا تضرب الآية على الوتر الأكثر حساسية وأهمية في النفس البشرية المؤمنة: حب الله وتوحيده .إنها تقول: نحن وإياك نعبد رباً واحداً، فلننطلق من هذه الحقيقة الكبرى.
/٢
اللمسات البيانية والبلاغية:

· التقديم والتأخير: قدّم الإيمان بما أنزل "إلينا" على ما أنزل "إليكم"، فيه تثبيت للمسلم على هويته أولا ً، ثم انفتاح على الآخر .أنت واثق من دينك، لا خائف منه.
· التكرار في الضمائر: تكرار "أنزل إلينا ..أنزل إليكم" يخلق إيقاعاً موسيقياً يرسخ فكرة الوحدة في التنوع.
· الجمع بين الإيمان والوحدانية: جمع الإيمان بالكتب السابقة مع توحيد الذات الإلهية يخلق أرضية صلبة للحوار لا يمكن لأي عاقل أن ينكرها.
/٣
كيف تؤسس هذه الآية لعلاقة قائمة على الحوار العقلاني؟

هذه الآية هي القاعدة الذهبية في الحوار والتعايش .إنها تمنعنا من حرق المراحل .قبل أن تنتقد ما عند الآخر، أظهر احترامك لما عنده من حق .هذا يجعله يفتح قلبه وعقله لك .إنها تعلم المسلم أن يكون:

· واثقاً لا متبعاً: أنت تؤمن بقرآنك لأنه الحق، لكنك لا تهدم ما سبقه، بل تؤمن به وتكرمه.
· حكيماً لا عنيفاً: تبدأ من حيث ينتهي الطرف الآخر) نقطة التوحيد (لتنطلق به إلى حيث تريد.
/٤
الآفاق الفكرية: تأسيس مرجعية التوحيد وعالمية الإسلام

هذه الآية تعلن أن الإسلام ليس ديناً جديداً غريباً، بل هو امتداد وتصحيح للرسالة الإلهية الواحدة . التوحيد هو القاسم المشترك الأكبر .احترام المعرفة الباحثة عن الحق يعني أن تقول للآخر: "أنت على شيء من الحق، فتعال لنكمل الطريق سوياً".
/٥
مفهوم بناء الجسور) نقاط الاتفاق (وأهميته في زماننا:

نحن اليوم نعيش في عالم يموج بالفتن، وهجمة شرسة على الإسلام من الصليبية الجديدة و الصهيونية العالمية، لا تفرق بين سني وشيعي، بل تستهدف هويتنا كلها .في هذا الوقت بالذات، نصبح أحوج ما نكون إلى هذه الآية.

· داخل الأمة الإسلامية: ألا تستحق هذه الآية أن نطبقها على أنفسنا أولا ً؟ فنقول لإخواننا من كل المذاهب والتيارات: "آمنا بما أنزل إلينا) من قرآن وسنة (ونؤمن بما عندكم من حق، وإلهنا واحد" .لقد ضيعنا القواسم المشتركة) الشهادتان، القبلة، الكتاب، الجهاد ضد الطغيان (وانشغلنا بالاختلافات الثانوية.
· نتجاوز ما نحن فيه: بتطبيق هذه الآية، نمد جسور التعاون على ما نتفق عليه) مقاومة الظلم، الدفاع عن المقدسات، نشر القيم الأخلاقية(، ونؤجل ما نختلف فيه إلى حوار هادئ بالتي هي أحسن.
/٦
التركيز على القواسم المشتركة: هل يعني القبول بالضلال؟

لا، أبداً .التركيز على القواسم المشتركة هو استراتيجية حوارية، وليس تنازلا ً عقدياً .مثله مثل الطبيب الذي يعالج مريضاً لا يأكل ولا يشرب؛ يبدأ بإعطائه مغذيات وريدية) القواسم المشتركة (ليعيد له القوة، ثم يعالج المرض الأصلي.

· الرسول صلى الله عليه وسلم والمنافقون: طلب عمر بن الخطاب رضي الله عنه من النبي أن يضرب أعناق المنافقين) وهم أخطر من أهل الكتاب لأنهم من الداخل(، فقال النبي: "لا، يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه" .هنا راعى النبي القاسم المشترك الأكبر وهو "الصحبة" و"الإسلام الظاهري" لحقن الدماء وعدم إعطاء الفرصة للأعداء لتشويه صورة الإسلام .ما بالك بنا اليوم ونحن نرى من يتغنى بأعداء الإسلام لأنهم هاجموا جماعة مسلمة معينة؟ هذا انتحار فكري .احترام القاسم المشترك يعني أن تتعاون مع من تختلف معه في أمور كثيرة ضد عدو مشترك هو أخطر) الصهيونية العالمية.(

بناء العقلية المنهجية الوسطية: الآية تزرع فينا الواقعية، أن ننظر للأمور كما هي، لا كما نريد .نرى الحق كله عندنا، لكن نرى بعض الحق عند الآخر أيضاً .هذه النظرة المتوازنة تنتج مجتمعاً ناضجاً، قوياً في ثباته، مرناً في تعامله.

الامر الثالث:(آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا)تعزيز الهوية والثقة بالنفس

قبل أن تمد يدك للآخر، تأكد من قوة وقوفك على أرضك ."آمنا" فعل ماض، يفيد الثبات والاستقرار . إنه إعلان هوية واضح:

· الاعتزاز بالعقيدة: أنت تؤمن أن ما عندك هو آخر الوحي وأكرمه، لكن هذا لا يمنعك من الاحترام، بل يجعله واجباً، لأن دينك يأمرك بذلك.
· الاستقلالية الفكرية: تنزع الآية من قلب المسلم التبعية الفكرية للغرب أو الشرق .أنت واثق بمنهجك الرباني، لست بحاجة لأن تكون "قرداً يقلد" أحداً .هذا اليقين هو أعلى درجات التحصين ضد أي تشكيك.
· مجتمع متعايش لا معتزل: الآية تبني مجتمعاً واثقاً، يشارك ويحاور وينفتح، لكنه لا يذوب ولا يتنازل عن ثوابته .مجتمع "يحاور بعزة" لا "يناقش بضعف".

الأمر الرابع: دلالة الاستثناء) إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ(

هنا تتجلى حكمة القرآن في الموازنة بين اللين والحزم.

· التسامح لا يعني الضعف: الاستثناء يعلمك أن هناك فرقاً بين من يختلف معك فكراً، ومن يعتدي عليك عملا ً ."الظلم" هنا يشمل العدوان والقتال والتآمر .تجاه هؤلاء، لا يكون الحوار بالتي هي أحسن، بل يكون بالحزم والقوة التي تردعهم.
· التمييز بين الحوار والعدوان: الآية تحدد بدقة: من كان باحثاً عن الحق، فحاوره بالحسنى .من كان معانداً ظالماً معتدياً، فعامله بما يناسب ظلمه .هذه هي السياسة الشرعية الرشيدة التي تخلط بين "الرحمة للخلق" و"الشدة على المعتدين".

الأمر الخامس:) وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (الانقياد لله كختام الآية

تنتهي الآية بأجمل خاتمة: "ونحن له مسلمون".

· جوهر الدين هو الانقياد لله، لا للجدل: مهما طال النقاش، هدفك النهائي هو أن تسلم وجهك لله . تذكير النفس والناس بهذه الحقيقة ينهي أي تكبر أو تعصب.
· الربط بين الانتماء والالتزام: "مسلمون" ليست مجرد تسمية، بل هي انقياد عملي .أنا مسلم، أي خاضع لله في أمري كله، ومن ذلك الالتزام بهذه الآية نفسها في حواراتي.
· الاستقلال النفسي والأمان الروحي: عندما تشعر أنك مسلم لله وحده، لا تخشى أحداً سواه .هذا يمنحك طمأنينة في حوارك، لأنك لا تطلب رضى الناس، بل تطلب الحق.

ثانياً: المفاهيم والدروس في حياتنا العملية

الموضوع الأول: كيف تبني هذه الآية الإنسان الكامل؟

الآية تبني إنساناً:

· قوياً في عقيدته: لأنه يقول "آمنا بما أنزل إلينا" بكل ثقة.
· راقياً في تعامله: لأنه يجادل "بالتي هي أحسن".
· عادلاً في أحكامه: لأنه يميز بين الظالم والمحاور.
· قادراً في مواقفه: يجمع بين لين الحوار مع الباحث عن الحق، وحزم المواجهة مع الظالم المعتدي.

الموضوع الثاني: الحوار الهادف والتعايش السلمي

هذه الآية هي دستور بناء البيئة الآمنة .بيئة يسودها اللطف والكلمة الطيبة، مما يقلل النزاعات الأ سرية والمجتمعية .إنها تعزز فكر "نصرة الحق" لا "نصرة الأنا" .مجتمع يتعلم أن الهدف هو وصول الجميع إلى الحق، وليس إفحام الآخر .هذا يحرر طاقات هائلة كانت مهدرة في الجدال العقيم، ويوجهها نحو العلم والعمل والبناء.

الموضوع الثالث: القواسم المشتركة

وحدة الإله هي السلاح الأقوى للقضاء على الطائفية والعنصرية .عندما نؤمن جميعاً أن الله واحد، وأننا عباده، تسقط كل الحواجز الجنسية والعرقية والمذهبية .هذه الوحدة تعزز التماسك الوطني والا جتماعي، وتدفع عجلة الإنتاج لأن الجهد يصرف في التعاون على البر والتقوى، لا في التناحر و التشاحن.

الموضوع الرابع: القبول بالآخر والانفتاح العلمي

قولنا "وأنزل إليكم" يفتح أمام المسلم آفاقاً واسعة للاستفادة من خبرات الآخرين، في الطب والهندسة والفنون والعلوم الإنسانية، طالما لا تتعارض مع ثوابت الدين .المسلم الحق لا يعرف "العقدة النفسية" من الآخر، بل يعرف "الاعتراف بالحق" ولو جاء من مخالف .هذا هو سر تقدم الحضارة الإسلامية في عصور ازدهارها.

الموضوع الخامس: الانضباط الذاتي

"ونحن له مسلمون" تعني أنني منضبط بأمر الله .هذا الانضباط هو الذي يحول الفرد إلى طاقة إنتاجية بانية، لا إلى فوضى هدامة.

الموضوع السادس: الحزم في مواجهة التخريب

الاستثناء "إلا الذين ظلموا" يحمي المجتمع من الفوضويين والمفسدين .إنه يعلن أن التسامح له حدود، وأن حماية أمن الوطن واستقراره من أهم المقاصد .الآية تقدم منهجاً متكاملاً: حوار راقٍ مع المسالم، وحزم رادع مع المعتدي.

المواضيع الخاصة:

1/المجادلة الحضارية

"المجادلة الحضارية" هي أن تقدم دينك بثوب أنيق يجذب القلوب، لا بثوب بالٍ ينفر السامعين ."بالتي هي أحسن" تعني استخدام أفضل وسائل العصر وأرقى أساليب التواصل: الإنفوغرافيك، القصة المؤثرة، الحجة المنطقية الهادئة، الخطاب الإعلامي المهني .إنها تربط النجاح في الدعوة بقدرة الخطاب على مخاطبة العقول والقلوب بلغة العصر.

2/الحوار مع الظالمين
ليس بالتي هي أحسن .الآية واضحة .الظالم المتعدي يُردع بالحزم والقوة، ويُواجه بالعدل لا باللين الذي يفسره على أنه ضعف .هذا هو ميزان الرجولة الإسلامية.

3/كيف تعيش هذه الآية في واقعنا المعاصر

· على وسائل التواصل: قبل أن تنشر تعليقاً حاداً أو تتهم شخصاً بالكفر أو الضلال، تذكر: "بالتي هي أحسن" .اجعل نقاشك يبني جسوراً، لا يحرقها .تقرب القلوب، لا تنفرها.
· في مجالسنا: استعمل الحكمة، واجعل هدفك "إظهار الحق" وليس "الانتصار للنفس" .كم من نقاش خسرنا فيه صديقاً رغم أننا كسبنا الحجة!
· مع النفس: استحضر دائماً أن الله يراك ويسمعك، وأنه معجب بعبده الذي يحلم ويصبر ويختار أحسن الكلام، ابتغاء وجهه.

ختاماً، هذه الآية ليست مجرد نص ندرسه، بل هي روح الإسلام في التعامل .إنها تدعوك لتكون قدوة، وحكيماً، ورحيماً .عندما تقرؤها، أشعر أنها تنزل على قلبك الآن، لتقول لك: هكذا كن، فأنت مسلم، وربك واحد، ودينك الحنيف، وغايتك أن تسلم لله، فكن لأخلاقه مثالاً ، ولسنته تابعاً.

فلنعاهد الله اليوم أن نطبق هذه الآية في كل حوار، وفي كل تعامل، مع أهل الكتاب، ومع إخواننا المسلمين، ومع كل من يخالفنا .لنبدأ ببناء الإنسان داخلياً لنبني حضارة إنسانية متقدمة، مستقرة، متعاونة، عنوانها: بالتي هي أحسن
المبحث الثاني
أخي الحبيب/ أختي الكريمة،

توقف للحظة. تخيل أنك تزرع بذرة في أرض صخرية، والجميع يقول لك: لن تنبت. ولكنك تؤمن بقدرة الله، وتواصل السقي والدعاء. فجأة، تتصدع الصخرة وتخرج منها شجرة طيبة. هذه هي صورة الآية التي تليها مباشرة، الآية 47 من سورة العنكبوت. إنها ليست مجرد خبر، بل هي بشارة وتسليّة وتوجيه إلهي لك أيها الداعية، أيها المسلم، أيها الحائر أحياناً في نتائج دعوتك.

قال الله تعالى: "وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ ۚ فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ ۖ وَمِنْ هَٰؤُلَاءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ" (العنكبوت: 47).

دعني آخذ بيدك في رحلة تأملية في هذه الآية، لنشعر معاً أنها نزلت لتخاطب قلبك أنت اليوم، كما خاطبت قلب النبي ﷺ قبل أربعة عشر قرناً.

المقدمة: سياق الآية ومقاصدها العظمى

بعد أن أمرنا الله في الآية السابقة بآداب الحوار العظيمة مع أهل الكتاب، جاءت هذه الآية لتؤسس لقاعدة نفسية وعقدية مهمة: لا تيأس من هداية الخلق، واستمر في تبليغ رسالة القرآن، فالنتائج ليست بيدك بل بيد الله، والناس في استجابتهم درجات. المقاصد العظيمة هنا:

1.تثبيت فؤاد النبي ﷺ والمسلمين من بعده: بأن دعوتك لن تذهب سدى، فهناك من يؤمن وهناك من يكفر، وهذا قدر الله.
2.إظهار أن القرآن ليس بدعاً جديداً: بل هو مصدق ومهيمن على الكتب السابقة، وأهل الكتاب الحقيقيون) الذين لم يبدلوا (يعرفونه كما يعرفون أبناءهم.
3.التفرقة بين أنواع الناس: بين من يطلب الحق فيؤمن، ومن يعاند ويجحد رغم وضوح الدليل.

الأمر الأول: دلالة قوله تعالى (فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ)

من هم "الذين أوتوا الكتاب"؟ وماذا يعني إيمانهم بالقرآن؟

هنا إشارة عظيمة إلى أولئك النبلاء من أحبار اليهود وقسيسي النصارى الذين كانوا مخلصين في دينهم، لم تحرفهم الأهواء. عندما سمعوا القرآن، عرفوا أنه الحق الذي ينتظرونه. مثل النجاشي، وبحيرا الراهب، وعبد الله بن سلام، وسلمان الفارسي (قبل إسلامه كان نصرانياً مخلصاً). إيمانهم بـ القرآن ليس من فراغ، بل هو نتيجة أمانتهم العلمية.

اللمسات البيانية والبلاغية:

· "آتيْنَاهُمُ الكِتَابَ" بصيغة الماضي والمبالغة في الإيتاء، تدل على أنهم أعطوا علماً سابقاً) التوراة والإ نجيل(، وهذا العلم الصحيح هو الذي يقودهم إلى الإيمان بالقرآن .كأن الآية تقول: العلم الحقيقي يوصل إلى الحق، بغض النظر عن مصدره.
· تقديم "الذين آتيناهم الكتاب" في أول الجملة يدل على الاهتمام بهم، وكأن الله يقول: لا تظن أن كل أهل الكتاب ضدك، بل فيهم خير كثير.
· الفعل "يؤمنون" مضارع، يدل على التجدد والاستمرار، أي أنهم كلما يتلى عليهم القرآن يزدادون إيماناً، وهذه صفة المؤمنين الصادقين.

ما هي الرسائل النفسية والتربوية هنا؟

· رسالة أمل للمسلم: لا تحكم على أحد بمظهره أو دينه السابق .كم من شخص كان في أشد العداوة للإسلام ثم أصبح من أئمة الهدى .لا تغلق باب الأبد في وجه أحد.
· رسالة تواضع للمسلم: اعترف أن عند الآخرين) أهل الكتاب الصادقين (علماً نافعاً، وأن هذا العلم يمكن أن يكون جسراً للإيمان .هذا يربي فينا التواضع الفكري.
· رسالة للمناهضين للإسلام: إيمان أهل الكتاب السابقين بالقرآن هو دليل على أن الإسلام ليس ديناً عربياً فقط، بل هو دين عالمي يخاطب العقل والفطرة.

الأمر الثاني: دلالة قوله تعالى (وَمِنْ هَؤُلَاء مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ)

من المقصود بـ"هؤلاء"؟ وما المعنى العميق هنا؟

كلمة "هؤلاء" هي اسم إشارة للقريب، وهي تحمل إشارة عظيمة. قيل: إنها تعود على أهل مكة من المشركين العرب الذين كانوا أميين لم يؤتوا كتاباً. أي: كما آمن أهل الكتاب، فمن هؤلاء العرب الأميين من يؤمن به أيضاً. وقيل: تعود على أهل الكتاب أنفسهم، أي ليس كل الذين أوتوا الكتاب يؤمنون، بل بعضهم. والأرجح - والله أعلم - أنها إشارة إلى الفريقين: من أهل الكتاب ومن المشركين العرب، كقولك: "أكرمت العلماء ومن هؤلاء (أي ومن العامة) من أكرمت". فالمعنى: من الفريقين (أهل الكتاب و المشركين) من يؤمن.

اللمسة البلاغية العجيبة:

استخدام اسم الإشارة "هؤلاء" فيه تقريب وتصغير للمسافة. كأن الله يقول للنبي ﷺ: انظر حولك، ترى أولئك المشركين الذين كانوا يرمونك بالحجارة، تجد فيهم من يؤمن. ترى أهل الكتاب الذين يجادلونك، تجد فيهم من يؤمن. إنهم قريبون منك، ليسوا بعيدين عن رحمة الله. هذه اللمسة تزرع في قلب الداعية عدم اليأس أبداً. فالذي يبدو الآن بعيداً عن الهداية قد يكون قريباً جداً غداً.

الدروس والتوجيهات العملية:

.1عدم التصنيف المطلق للناس: لا تقل: "كل أهل الكتاب كفار" أو "كل العرب كفار" .الآية تعلمك أن الإ يمان ينتشر في كل الأوساط، وأن التغيير الفردي يمكن أن يحدث في أي لحظة.
.2قيمة الدعوة الفردية: ربما كنت سبباً في إيمان واحد من "هؤلاء"، فتكون خيراً لك من الدنيا وما فيها.
.3احترام الحرية الفكرية: الآية تقرر حقيقة أن الناس درجات في الإيمان، بعضهم يؤمن وبعضهم لا . هذا يدفعنا إلى احترام الإرادة الإنسانية، وعدم الإكراه في الدين.

الأمر الثالث: دلالة قوله تعالى (وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الكَافِرُونَ)

ما الفرق بين الجحود والكفر؟ ولماذا هذا التخصيص؟

الجحود هو الإنكار مع العلم بالحقيقة. إنه أشد أنواع الكفر. الكافر قد يكون جاهلا ً أو متبعاً للهوى، لكن الجاحد هو من يرى النور بعينيه ثم يقول: هذا ظلام. الآية تريد أن تقول: الذي لا يؤمن بالقرآن بعد كل هذه البينات، ليس مجرد غافل أو مخطئ، بل هو كافر جاحد، أي متعمد للإنكار.

اللمسة البلاغية: القصر ب-"إلا"

أسلوب القصر (الحصر) في "ما يجحد... إلا الكافرون" يعني: الجحود صفة حصرية للكافرين، ولا توجد في غيرهم. وكأن الآية تقول: لا تتوقع من مؤمن أن يجحد الآيات أبداً. فإذا رأيت أحداً يجحد الحق وضوحاً، فاعلم أن هذا هو الكفر الحقيقي.

التوجيه النفسي والتربوي:

· تحرير الداعية من عقدة الذنب: أحياناً يحزن المسلم عندما يجادل شخصاً ويقدم له مئة دليل، ثم يصر الآخر على الجحود .هنا تخبرك الآية: هذا جحوده لأنه كافر، وليس لأن حجتك ضعيفة أو أسلوبك سيء .ارفع عن نفسك اللوم.
· تحديد المعاند والمكابر: في حواراتنا، نفرق بين من يبحث عن الحق بصدق) فهذا نجادله بالتي هي أحسن ونصبر عليه(، وبين من يعلم الحق ويجحده) فهذا لا فائدة من الجدال معه سوى إقامة الحجة ثم الإعراض عنه .(هذا يوفر علينا طاقة وجهداً كبيرين.
· التربية على الصدق مع النفس: الآية تدعو كل واحد منا ليتفقد نفسه: هل أنا ممن إذا رأى الحق يتبعه، أم أن في قلبي جحوداً وعناداً؟ نسأل الله السلامة.

ثانياً: المفاهيم العملية والدروس الحياتية من الآية

.1مفهوم "التدرج في الدعوة وعدم اليأس"

الآية تضع أمام عينيك نموذجاً عملياً: هناك من آمن من أهل الكتاب، وهناك من آمن من العرب، وهناك من جحد. مهمتك أنت هي الإنزال (التبليغ)، وأما النتيجة (الإيمان أو الجحود) فمن الله. هذا المفهوم يحررك من عبودية النتائج. أنت لست مسؤولا ً عن هداية الناس، بل عن تبليغ الرسالة بأمانة. كم من داعية ترك الدعوة لأنه لم ير نتائج سريعة؟ هذه الآية تقول له: انظر، النتائج تظهر في أوساط مختلفة، ولكن بوقتها. استمر.

.2مفهوم "التنوع في الاستجابة البشرية"

الناس ليسوا كتلة واحدة. فيهم العالم (الذين أوتوا الكتاب)، وفيهم الأمي، وفيهم المؤمن، وفيهم الكافر. هذا التنوع هو سنة كونية. الآية تعلمنا الواقعية في التعامل، فلا نتعامل مع الجميع بنفس الأ سلوب. العالم يحاور بعلم، والأمي بلطف، والمستعد للإيمان ببشارة، والجاحد بإقامة الحجة ثم الإ عراض.

.3مفهوم "العلم الحقيقي يقود إلى الإيمان"

"الذين آتيناهم الكتاب يؤمنون به" – هذه هي القاعدة الذهبية: العلم النافع، بغض النظر عن مصدره، إذا كان صحيحاً ومخلصاً، فإنه سيقود صاحبه إلى الحقيقة المطلقة وهي الإسلام .هذا يعني: يجب أن نربي في أطفالنا حب المعرفة والبحث العلمي، لا الخوف منها .من يخاف من العلم فهو في قلبه مرض .المسلم الحق لا يخاف من أي كتاب أو نظرية، لأنه يعلم أن الحقيقة في النهاية ستتوافق مع دينه.

.4مفهوم "عدم تعميم الأحكام"

الآية تعلمنا أبسط مبادئ العدل: لا تحكم على أهل الكتاب كلهم بأنهم كفرة جاحدون، فمنهم من آمن. ولا تحكم على العرب كلهم بأنهم ضالون، فمنهم من آمن. هذا المفهوم هو أساس الحوار الحضاري و السلام المجتمعي. في زماننا، من أخطر الآفات هو التعميم (الإسلاموفوبيا تعمم أن كل مسلم إرهابي، والتعصب المقابل يعمم أن كل غربي صليبي). هذه الآية تحارب هذا التعميم بكل قوة.

.5مفهوم "الجحود هو القمة في الإنكار"

تضع الآية مقياساً نفسياً لنا: عندما نرى شخصاً يعرف الحق ويجحده، نعلم أننا أمام حالة خاصة تحتاج إلى حكمة. قد يكون من الأفضل ترك هذا الشخص وعدم الدخول معه في جدل لا ينتهي، و التركيز على من يبحث عن الحق. هذا توجيه عملي في إدارة الطاقة الدعوية.

ثالثاً: آفاق الآية في بناء النفس والمجتمع والحضارة

بناء النفس المسلمة:

· التحرر من اليأس: عندما تفشل في إقناع شخص، تذكر هذه الآية .لا تحزن .فشلك معه لا يعني فشلك مع الجميع .فهناك من يؤمن.
· التحرر من الغرور: لا تقل: "أنا أفضل من أهل الكتاب لأني مسلم" .الآية تشير إلى أن فيهم من سبقك إلى الإيمان بالقرآن لأنهم كانوا أمناء على كتبهم .هذا يزرع التواضع.
· التربية على الصبر على البلاء: النبي ﷺ كان يتعذب من جحود قريش، فنزلت هذه الآية لتسليه . أنت أيضاً، إذا تعرضت للإيذاء أو السخرية بسبب دعوتك، فاصبر وتذكر أن مهمتك هي الإنزال فقط.

بناء المجتمع:

· تعزيز الوحدة الوطنية: في أي مجتمع إسلامي، هناك مسلمون وأهل كتاب .الآية تعلن أن الإيمان موجود في الفريقين .هذا يعني أن المواطنة تقوم على الاحترام المتبادل، وليس على إلغاء الآخر . الدولة الإسلامية تحمي أهل الكتاب الذين يعيشون فيها، وتتعاون معهم على البر والتقوى.
· مكافحة التطرف: التطرف ينشأ من نظرة أحادية: "كل من ليس معنا فهو كافر جاحد" .الآية تكسر هذه النظرة: هناك من أهل الكتاب من هو مؤمن، وهناك من المشركين من هو مؤمن .هذه النظرة المتوازنة تنتج مجتمعاً وسطياً.

بناء الحضارة:

· الانفتاح على التراث الإنساني: "الذين أوتوا الكتاب" ليسوا فقط من اليهود والنصارى القدماء، بل يمكن أن يشمل كل حضارة أوتيت علماً .إيمانهم بالقرآن يعني أن العلم الصحيح في أي حضارة سيتوافق مع الإسلام .هذا هو الأساس المنطقي لاستفادة الحضارة الإسلامية من الحضارات السابقة)اليونانية، الفارسية، الهندية (في العصر الذهبي .لقد آمنوا بما في تلك الكتب من حق، ولم يجحدوا به.
· الدعوة بالحكمة: الآية تقدم نموذجاً: خاطب أهل الكتاب بما يعرفونه، وخاطب العرب بما يفهمونه . هذا يعني في عصرنا: خاطب الغربي بلغة العلم والعقل، وخاطب الشرقي بلغة الروح والوجدان، وخاطب الشباب بلغة العصر .الدعوة الواحدة لها أساليب متعددة بحسب المخاطب.
رابعاً: العلاقة بين الآية 46 والآية 47 – نسج رائع للمنهج الإلهي

إذا نظرنا إلى الآيتين معاً، نجد نظاماً متكاملاً:

· الآية46 : أعطتك أداة الحوار) بالتي هي أحسن (و محتوى الحوار) آمنا بما أنزل إلينا وإليكم.(
· الآية47 : أعطتك الرؤية النفسية أثناء الحوار: لا تيأس، فهناك من يؤمن، وهناك من يجحد، وأنت لست مسؤولاً عن الجاحدين، فقط بلغ.

إنهما معاً تشكلان منهج الداعية الرباني:

.1كن حسناً في أسلوبك.(46)
.2كن واضحاً في مشتركك.(46)
.3كن صبوراً على النتائج.(47)
.4كن واقعياً في توقعاتك.(47)

خاتمة: رسالة الآية إليك شخصياً

أخي الحبيب، أختي الكريمة،
ربما تقرأ هذه الكلمات وأنت تشعر بمرارة من شخص جادلته في الحق فلم يستجب، أو من مجتمع رفض فكرتك النيرة، أو من أصدقاء ضلوا الطريق. الآن، تخيل أن الله ينزل عليك هذه الآية وحدها، كرسالة خاصة على قلبك:

"وَكَذٰلِكَ أَنزَلنَا إِلَيكَ الكِتَابَ" – أنزلنا إليك هذا القرآن لتكون حياً به، لا ميتاً عن الحق.
"فَالَّذِينَ آتَينَاهُمُ الكِتَابَ يُؤمِنُونَ بِهِ" – لا تظن أن كل الناس جفاة، فهناك قلوب نقية أعدها الله للإيمان ، وستجدها.
"وَمِنْ هٰؤُلَاءِ مَن يُؤمِنُ بِهِ" – وانظر حولك، ترى أقرب الناس إليك، من عائلتك وجيرانك، قد يفتح الله قلوبهم على يديك.
"وَمَا يَجحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الكَافِرُونَ" – وأما من أعرض وجحد بعد البيان، فلا تحمل همه، فهو كافر جاحد، وحسابه عندنا، ليس عندك.

ارفع رأسك أيها الداعية، أيها المسلم. مهمتك هي أن تكون "الكتاب" المنزل في سلوكك، و"الحوار" الأحسن في لسانك، و"الأمل" الدائم في قلبك. النتيجة على الله. إنه يهدي من يشاء، ويضل من يشاء، وهو العليم الحكيم.

فاسلك طريقك واثقاً، رفيقاً، صبوراً، واقعياً. ولا تنسَ أبداً: كل حرف من هذه الآية هو نور يُزرع في روحك ليحولك إلى إنسان رباني، يعيش للحق، ويجادل بالتي هي أحسن، ولا ييأس من روح الله.

المبحث الثالث

أخي الحبيب/ أختي الكريمة،

تخيل معي مشهداً عظيماً: رجل أمي، لم يقرأ كتاباً في حياته، ولم يجلس إلى معلم، ولم يمسك قلماً قط. يعيش في بيئة من أخفض مستويات الحضارة المادية، فجأة يأتي بكتاب يتحدى به العالم، يتحدث عن أخبار الأمم السابقة بدقة متناهية، عن الفرعون وهامان، عن مريم وعيسى، عن قوانين الكون والنفس الإنسانية. كيف عرف هذا؟ كيف استطاع أن يأتي بهذا النظم الذي عجز عنه فصحاء العرب؟

هذا هو المشهد الذي ترسمه لنا الآيتان 48 و49 من سورة العنكبوت. إنهما ليستا مجرد نفي للأمية عن النبي ﷺ، بل هما أعظم دليل على أن هذا القرآن ليس من عند بشر، بل هو من عند الله العليم الخبير. دعني آخذ بيدك في رحلة مع هاتين الآيتين، لنشعر بعظمة هذا الإعجاز، ولنرى كيف تحول هذه الحقيقة إلى منهج حياة لكل مسلم.

أولاً: الآية 48 – دليل الأمية النبوية

قال الله تعالى: "وَمَا كُنتَ تَتلُو مِنْ قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّارْتَابَ المُبْطِلُونَ"

المقدمة والسياق:

بعد أن أثبت الله في الآيات السابقة أن القرآن حق، وأن أهل الكتاب الصادقين يؤمنون به، يأتي الآن بأعظم برهان عقلي على أن هذا القرآن وحي من الله: حالة النبي ﷺ الأمية. لو كان محمد ﷺ قارئاً أو كاتباً، لقال المبطلون: إنه نقل من كتب السابقين. لكنه أمي، فكيف عرف؟ هذا هو البرهان القاطع.

المعنى الإجمالي:

"ما كنت – يا محمد – قبل نزول القرآن تقرأ أي كتاب، ولا تكتب بيدك .ولو كنت تفعل شيئاً من ذلك، لشك المبطلون في أنك أتيت بهذا القرآن من عند نفسك، ولقالوا إنك نقلته من كتب الأولين."

الأمر الأول: دلالة (وَمَا كُنتَ تَتلُو مِنْ قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ)

لماذا نفي القراءة أولاً ثم الكتابة؟

لأن القراءة هي الطريق الأسهل لمعرفة محتوى الكتب. لو كان النبي ﷺ قارئاً، لكان من الممكن أن يقرأ التوراة والإنجيل ويحفظ منها. فنفى الله أولاً القراءة. ثم بعد ذلك، لو كان لا يقرأ لكن يكتب، فقد يُتهم بأنه كان يملي على كاتب، فنفى الكتابة أيضاً. إنه سد لجميع أبواب الريبة والشك.

اللمسات البيانية:

· "مِنْ قَبْلِهِ" – أي من قبل هذا القرآن .هذا التوقيت مهم جداً: قبل الوحي، لم تكن تقرأ ولا تكتب .أما بعد الوحي، فقد كان النبي ﷺ يقرأ القرآن على الناس) يتلوه(، لكنه بقي أمياً لا يكتب .وهذا من تمام الإعجاز: بعد نزول القرآن، كان يقرأ ولكن لم يكتب، حتى لا يقال إنه تعلم الكتابة بعد ذلك.

· "مِنْ كِتَابٍ" – نكرة في سياق النفي، فتفيد العموم .أي أي كتاب كان، سواء مقدس أو غيره .لم يقرأ أي كتاب مطلقاً.
· "بِيَمِينِكَ" – ذكر اليمين بالخصوص، لأنها أشرف اليدين وأقواهما على الكتابة .كأنه يقول: حتى لو حاولت أن تكتب بيمينك، ما كنت تفعل .وفي هذا دقة عالية، لأن بعض الناس يكتبون باليسار .فنفى الكتابة بأقوى أداة للكتابة.

الأمر الثاني: دلالة (إِذًا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ)

لماذا "المبطلون" وليس "الكافرون"؟

"المبطلون" هم الذين يتبعون الباطل، وليسوا بالضرورة كافرين جاحدين .قد يكون فيهم من يبحث عن أي شبهة ليطعن بها في الحق، حتى لو كان في قلبه شيء من الإيمان .الآية تقول: لو كنت قارئاً أو كاتباً، لوجد هؤلاء المبطلون فرصتهم للشك والارتياب .لكن الله سد عليهم هذا الطريق تماماً.

اللمسة البلاغية:

· "إِذًا" – حرف جواب وجزاء .فيه معنى أن نفي القراءة والكتابة هو السبب المباشر لانتفاء الريبة . وكأنه يقول: لو كان الأمر خلاف ذلك، لكان الريب حاصلا ً لا محالة.
· "لَارْتَابَ" – فعل ماضٍ مبني للمعلوم، يدل على أن الارتياب كان سيحدث من جانبهم .الله لا يترك مج ال ً للشك.

ما هي الرسائل النفسية والتربوية والعقلية هنا؟

.1تربية العقل على طلب الدليل: الآية تعلمنا أسلوباً عقلياً في الاستدلال على النبوة .وهي تدعونا لننظر في حال النبي ﷺ وظروفه .إنها تربي فينا المنهج العلمي: من أين جاء هذا الرجل بهذا العلم؟ إذا كان مصدره ليس كتباً ولا بشراً، فمصدره هو الله.
.2تربية النفس على اليقين: عندما تعرف أن النبي كان أمياً، وترى عظمة القرآن، يزداد يقينك في قلبك .هذا ليس مجرد خبر، بل هو برهان مادي تلمسه.
.3الرد على المطاعن: الآية تحصن المسلم من أي شبهة يثيرها المبطلون .لو قال قائل: "النبي تعلم من كتب اليهود" – تقول له: كيف يتعلم وهو لا يقرأ ولا يكتب؟

آفاق الآية في بناء النفس المسلمة:

هذه الآية تبني في المسلم عزة بالقرآن و ثقة في مصدره الإلهي. عندما تقرأ القرآن، تعلم أن هذا الك لام ليس من كلام بشر، فترتاح له نفسك وتطمئن إليه. كما أنها تربي فينا الصدق و النزاهة العلمية: أن نعترف بأن العلم الحقيقي يأتي من الله، وألا ندعي لأنفسنا ما لم نؤته.

ثانياً: الآية 49 – القرآن آيات بينات في الصدور

قال الله تعالى: "بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ"

المقدمة والسياق:

بعد أن نفى الله عن النبي القراءة والكتابة، يأتي الآن بالإثبات: هذا القرآن ليس بحاجة إلى خط أو كتابة، بل هو آيات بينات محفوظة في صدور العلماء. هذا إشارة إلى حفظ القرآن في الصدور، وإلى أن آياته واضحة جلية لا تحتاج إلى تأويل. ثم يختم بوصف من يجحد بها: هم الظالمون.

المعنى الإجمالي:

"بل هذا القرآن الذي أنزلناه إليك هو آيات واضحات ظاهرات، يحفظها ويتلوها الذين أوتوا العلم من المؤمنين في صدورهم، وما يكفر بآياتنا وينكرها إلا الظالمون المتجاوزون للحد."

الأمر الثالث: دلالة (بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ)

ما معنى "بَلْ" هنا؟

"بل" للإضراب، أي انتقال من الكلام السابق إلى ما هو أهم .وكأنه يقول: ليس الأمر كما يظن المبطلون من أن هذا القرآن يحتاج إلى شهادة كتب سابقة، بل هو نفسه آيات بينات واضحة .هو دليل نفسه بنفسه.

اللمسات البيانية:

· "آيَاتٌ" – جمع آية، وهي العلامة الواضحة .كل جملة في القرآن هي علامة على صدق النبي.
· "بَيِّنَاتٌ" – صيغة مبالغة من البيان .أي أنها واضحة جداً، لا تحتاج إلى شرح أو تفسير لمن تدبر .فيها الوضوح التام.
· "فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ" – هذه أعظم لمسة بلاغية .جعل مكان حفظ الآيات هو "الصدور" وليس "السطور" .الصدور هي قلوب المؤمنين .وكأن القرآن ليس مجرد نص مكتوب، بل هو حياة نابضة في القلوب.

لماذا "صدور" وليس "عقول" أو "قلوب"؟

الصدر هو موضع الإيمان والعلم والحب. قال تعالى: "أَفَمَنْ شَرَحَ اللهُ صَدْرَهُ لِلإِسْلَامِ". الصدر أوسع من القلب وأشمل. الآية تبشر بأن الله سيحفظ هذا القرآن في صدور الأمة، وهذا ما حدث فعلاً: حفظة القرآن عبر العصور، من الأطفال والشيوخ، يحفظونه في صدورهم، وهو المعجزة الكبرى التي لا يستطيع أحد أن يأتي بمثلها.

من هم "الذِينَ أُوتُوا العِلمَ"؟

هم المؤمنون من هذه الأمة الذين علمهم الله القرآن وفهمهم إياه. ويدخل فيهم أيضاً من أهل الكتاب من آمن به، لأنهم أوتوا علماً سابقاً. الآية تعلن أن هذا القرآن ليس حكراً على العرب، بل هو هدى للعالمين، وأهله هم أهل العلم أينما كانوا.

الأمر الرابع: دلالة (وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ)

ما الفرق بين "الكافرون" في الآية السابقة (47) و "الظالمون" هنا؟

في الآية 47 قال: "وما يجحد بآياتنا إلا الكافرون". هنا قال: "إلا الظالمون". لماذا هذا التغيير؟

· الكافرون: وصف للذين يجحدون الحق عناداً أو جهلاً.
· الظالمون: وصف أعمق، لأن الظلم يشمل وضع الشيء في غير موضعه .فالجاحد بالآيات هو ظالم لنفسه) إذ يظلمها بحرمانها من الإيمان(، وظالم للحق) إذ يضعه موضع الباطل .(الظلم أشد من الكفر في بعض السياقات.

اللمسة البلاغية:

أسلوب الحصر ب-"إلا" مرة أخرى، يؤكد أن الجحود بالآيات صفة لا تتوفر إلا في الظالمين. هذا تشخيص دقيق لحالتهم النفسية: ليسوا جاهلين بالحق، بل هم ظالمون يدفعهم ظلمهم إلى الجحود.

ما هي الرسائل النفسية والتربوية؟

1.شرف العلم وأهله: الآية ترفع من قدر العلماء الذين أوتوا العلم وحفظوا آيات الله في صدورهم . إنهم حملة الأمانة.
2.الربط بين الجحود والظلم: من يجحد الحق بعد ظهوره هو ظالم، وليس فقط كافراً .هذا يضع عبئاً أخلاقياً أكبر على الجاحد .يجعله يشعر أنه ليس فقط مخطئاً في المعتقد، بل هو ظالم لنفسه ولـ لآخرين.
3.التشجيع على حفظ القرآن: الآية تشجع كل مسلم أن يكون من "الذين أوتوا العلم" الذين جعل الله آياته بينات في صدورهم .حفظ القرآن ليس مجرد ترديد، بل هو حمل للأمانة الإلهية في القلب.

ثالثاً: المفاهيم العملية والدروس الحياتية من الآيتين معاً

المفهوم الأول: الإعجاز العقلي والواقعي للقرآن

الآيتان معاً تقدمان دليلا ً ماديا يمكن التحقق منه: النبي الأمي الذي لم يقرأ ولم يكتب يأتي بكتاب علمي. هذا هو الإعجاز التكويني الذي لا يمكن دحضه. أي عاقل يدرس حياة النبي ﷺ يجد نفسه أمام خيارين: إما أن يعترف بأن هذا القرآن من عند الله، وإما أن يظل في حيرة وتناقض.

المفهوم الثاني: حماية القرآن عبر الحفظ في الصدور

"في صدور الذين أوتوا العلم" – هذه بشارة نبوية بخلود القرآن وحفظه .بينما ضاعت الكتب السابقة لأنها كانت في السطور فقط، فإن القرآن حفظ في الصدور أولا ً ثم في السطور .وهذا هو السر في عدم تحريفه .الآية تربي فينا حب حفظ القرآن و الاعتزاز به.

المفهوم الثالث: مواجهة الشبهات بالمنهج العلمي

كيف ترد على من يشكك في القرآن؟ لا تحتاج إلى جدل عقيم. فقط أشر إلى حقيقة تاريخية: النبي الأمي. هذا هو الدليل القاطع. الآية تعلمنا أن أقوى رد على المبطلين هو الحقيقة الواقعية، وليس فقط الكلام النظري.

المفهوم الرابع: التمييز بين الجاحد والظالم

الآية 49 تضع مصطلحاً جديداً: "الظالمون". هم الذين يعرفون الحق ويجحدونه. هذا المصطلح يحمل شحنة أخلاقية أكبر من "الكافر". إنه يحرك في نفس المسلم الشفقة على هؤلاء، لأنهم يظلمون أنفسهم. كما يعطيه مؤشراً عملياً: لا تضيع وقتك مع الظالم الذي عاند، بل اتركه وظلمه على نفسه.

المفهوم الخامس: منزلة العلماء في الإسلام

"الذين أوتوا العلم" هم ورثة الأنبياء .الآية ترفع من شأنهم، وتجعل حفظهم للقرآن في صدورهم علامة على صدق الرسالة .هذا يعطينا منهجاً في طلب العلم: ليس العلم مجرد معلومات في الكتب، بل هو نور في الصدر، وأخلاق في السلوك، وهداية في الحياة.
رابعاً: آفاق الآيتين في بناء النفس والمجتمع والحضارة

بناء النفس المسلمة:

· التربية على التوكل على الله: النبي ﷺ كان أمياً، ومع ذلك أتاه الله بأعظم كتاب .هذا يعني أن الله لا يحتاج إلى أسباب البشر .يربي فينا أن العبرة ليس بالشهادات والكتب، بل بالإخلاص والتوكل.
· التربية على عدم التصنع: النبي لم يتكلف تعلم القراءة والكتابة ليُرضي المبطلين .بل بقي على حاله التي اختارها الله له .هذا يعلمنا أن نكون صادقين مع أنفسنا، ولا نتصنع ما ليس فينا.
· التربية على حفظ القرآن: جعل القرآن في الصدر يجعل المسلم حاملا ً للرسالة في أي وقت وأي مكان .هذا يعطيه ثقة وقوة.

بناء المجتمع:

· احترام العلماء: المجتمع الذي يقدّر العلماء الذين يحملون القرآن في صدورهم هو مجتمع محفوظ من الضلال .الآية توجب على الأمة أن ترفع قدر العلماء وتستمع إليهم.
· محاربة الجحود والظلم: الآية تكشف أن من يجحد الحق هو ظالم .هذا يخلق مجتمعاً لا يتسامح مع الظلم، حتى لو كان الظلم فكرياً.
· الوحدة حول القرآن: عندما يكون القرآن "آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم"، فهذا يعني أن ا لأمة تجتمع حول هذا القرآن، لا حول الأشخاص أو المذاهب .القرآن هو المحور الجامع.

بناء الحضارة:

· أساس النهضة العلمية: الإعجاز العلمي في القرآن حفز المسلمين على طلب العلم ليكتشفوا أسرار الكون التي أشار إليها القرآن .هذا أسس حضارة علمية قامت على مبدأ "اقرأ".
· منهجية النقد التاريخي: الآيات تعطينا منهجاً في نقد الروايات: أي نبوة تأتي من نبي أمي بكتاب عظيم هي نبوة حقيقية .هذا المبدأ يمكن تطبيقه على أي دين أو فكرة: انظر إلى مصدرها.
· حفظ التراث الإنساني: فكرة "حفظ الكتاب في الصدور" هي فكرة عظيمة لحفظ أي تراث ثقافي أو علمي .إنها تجعل المعرفة حية في النفوس، لا ميتة على الرفوف.
خامساً: العلاقة بين الآيتين 48 و49 – قمة الإعجاز

لنتأمل معاً كيف تتناغم الآيتان:

· الآية) 48 النفي(: تنفي عن النبي ﷺ أي مصدر بشري للمعرفة) لا قراءة ولا كتابة.(
· الآية) 49 الإثبات(: تثبت أن مصدر القرآن هو الله، وأن دليله قائم في نفسه) آيات بينات (وفي نفوس أهله) صدور العلماء.(

إنهما معاً تشكلان برهاناً دائرياً محكماً:

.1النبي أمي، فكيف عرف؟) يُطرح السؤال.(
.2القرآن نفسه هو الجواب، لأنه معجزة لا تأتي من بشر.
.3وحفظ هذا القرآن في صدور الأمة عبر القرون هو البرهان الحي على استمرار هذه المعجزة.

هذا هو عظمة البيان الإلهي: يبني الحجة ثم يدعمها ثم يخلدها.

خاتمة: رسالة الآيتين إليك شخصياً

أخي الحبيب، أختي الكريمة،
ربما تسأل نفسك أحياناً: كيف أتيقن أن هذا القرآن حق؟ كيف أرد على من يشكك؟ كيف أثبت لنفسي أن ديني هو الحق؟

هاتان الآيتان تجيبانك من أعماق التاريخ ومن أعماق نفسك:

.1انظر إلى النبي ﷺ: رجل عاش بين الناس أربعين سنة، لم يقرأ حرفاً، لم يكتب كلمة .ثم فجأة، يأتي بكلام لو اجتمع الإنس والجن على أن يأتوا بمثله لعجزوا .هل يعقل أن يكون هذا كلام بشر؟
.2انظر إلى القرآن: ألق نظرة فيه .تجد آيات بينات، واضحات، تتحدث عن الماضي والمستقبل والكون والنفس .إنه كتاب لو كنت شكاكاً، فآياته وحدها تكفيك.
.3انظر إلى الحفاظ: هناك أطفال في كل بقاع الأرض، لا يتجاوزون العاشرة، يحفظون هذا الكتاب كله في صدورهم .أي كتاب آخر في العالم يحفظه ملايين الناس حرفاً حرفاً؟ هذا هو حفظ الله.

إذا أردت أن تعيش هذه الآية، فما عليك إلا أن تفتح المصحف وتقرأ. كل آية تقرؤها هي شاهد على صدق هذا الدين. وأنت، عندما تحفظ آية من القرآن وتجعلها في صدرك، تصبح جزءاً من هذه المعجزة المستمرة.

تخيل أن الله يقول لك الآن: "أنزلنا هذا الكتاب إليك. لم يأخذه محمد من أحد. إنه آيات بينات. واجعله في صدرك. كن من الذين أوتوا العلم. ولا تكن من الظالمين الجاحدين."

اللهم اجعلنا من الذين أوتوا العلم، واجعل القرآن آيات بينات في صدورنا، وثبتنا به، ولا تجعلنا من المبطلين الظالمين. آمين.

وهكذا، نكون قد سلكنا معاً في رحلة هاتين الآيتين العظيمتين. نسأل الله أن ينفعنا بما علمنا، وأن يزيدنا فهماً في دينه. في انتظار أي آية أخرى تحب أن تسير معي فيها..
المبحث الرابع.

أخي الحبيب/ أختي الكريمة،

تخيل معي مشهداً يتكرر عبر الزمن: يأتي نبي إلى قومه، يحمل لهم نوراً من السماء، فيقولون له: "أين المعجزة؟ أين البرهان المادي الذي نلمسه بأيدينا؟ أين نرى شيئاً يخرق العادة؟". هذا هو ذات السؤال الذي وجهه المشركون إلى النبي محمد ﷺ، ونزلت الآية 50 من سورة العنكبوت لتجيبهم، ولتجيبه، ولتجيب كل إنسان في كل زمان يطلب آية حسية كشرط للإيمان.

هذه الآية هي نقطة تحول في منهج الدعوة: من طلب المعجزات إلى فهم سنة الله في الآيات. إنها تنتقل بالإنسان من مرحلة الاستدلال بالخرق إلى مرحلة التأمل في الخلق، ومن طلب الإثبات المادي إلى انفتاح القلب على الإيمان الغيبي. دعني آخذ بيدك في رحلة مع هذه الآية، لتعيش لحظات نزولها وكأنها تخاطب قلبك أنت اليوم.
نص الآية وتفصيلها

قال الله تعالى: "وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ" (العنكبوت: 50)

المقدمة: سياق الآية ومقاصدها العظمى

هذه الآية نزلت رداً على طلب المشركين من النبي ﷺ أن يأتي بمعجزات حسية محددة، مثل ما جاء به الأنبياء السابقون: ناقة صالح، أو عصا موسى، أو إحياء الموتى كعيسى. قالوا: "لولا أنزل عليه آيات من ربه"، أي هلا جاءته آيات خارقة كما جاءت لمن قبله. فأمره الله أن يجيبهم.

المقاصد العظيمة هنا:

1.تحديد دور النبي: ليس دوره أن يأتي بالآيات متى شاء، بل دوره البلاغ والإنذار.
2.توحيد السلطان لله: الآيات والمعجزات بيد الله وحده، ينزلها بحكمته ومشيئته، لا بأهواء الناس.
3.تحرير الدعوة من شرط المعجزات المادية: الإيمان لا ينبغي أن يتوقف على رؤية معجزة حسية، بل على التدبر في الآيات الكونية والقرآنية.
4.إعداد النفس للإيمان الغيبي: المؤمن الحقيقي هو من يؤمن دون أن يرى، كما قال النبي: "آمنت ب الله وملائكته وكتبه ورسله".

الأمر الأول: دلالة قوله تعالى (وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ)

من هم القائلون؟ وما معنى "لولا" هنا؟

القائلون هم المشركون المعاندون، وهم نفسهم الذين طلبوا الآيات المقترحة في مواضع أخرى: أن يجعل لهم الصفا ذهباً، أو ينزل عليهم كسفاً من السماء. "لولا" هنا للتحضيض، أي "هلا" أو "ألا" – وهي تفيد التمني أو الطلب بلوم. كأنهم يقولون: هلا حدث هذا؟ لماذا لا تأتينا بمعجزة مادية مثل الأنبياء السابقين؟

ما هي "الآيات" التي طلبوها؟

الآيات هنا هي الخوارق والمعجزات الحسية التي تخرق قوانين الطبيعة المعتادة. كانوا يريدون شيئاً يرونه بأعينهم، يلمسونه بأيديهم، ليصدقوا. وهذا هو قلب الإيمان بالغيب إلى إيمان بالحس، وهو تنازل عن جوهر العقيدة.

اللمسات البيانية:

· "قالوا" – بصيغة الماضي، تدل على أن هذا القول كان متكرراً منهم، وليس مرة واحدة .إنه موقف متصل من العناد والمكابرة.
· "لولا" – أداة تحضيض وتوبيخ، فيها معنى اللوم: ألا تنزل عليك آيات؟ كأنهم يتهمونه بالتقصير .هذا اللوم جاء من جهلهم بحقيقة النبوة.
· "عَلَيْهِ" – أي على محمد .طلبوا أن تنزل الآيات عليه شخصياً، كأنها شرف أو دليل خاص به .هذا يدل على أنهم كانوا يرون النبوة شيئاً مادياً يُثبت بالمعجزات الحسية.

ما هي الرسائل النفسية والتربوية هنا؟

1.فهم طبيعة النفس البشرية: الإنسان يميل بطبيعته إلى الملموس والمشهود .يريد أن يرى ليؤمن . هذه الآية تعترف بهذه النزعة، ثم تتعامل معها بالتصحيح لا بالإنكار.
2.عدم الانخداع بطلبات المعاندين: إذا طلب منك شخص معاند دليلا ً مادياً معيناً، فاعلم أنه قد لا يقتنع حتى لو أعطيته .لأن قلبه مريض، وليس الأمر متعلقاً بالدليل .الآية تعلمنا أن لا نركض وراء مطالب المتعنتين.
3.التربية على الصبر: النبي ﷺ كان يتعرض لمثل هذه المطالب، وكان يصبر ويجيب بالحكمة .هذا يعلمنا أن لا ننفعل أو نغضب عندما يطلب منا المشككون آيات خارقة.
الأمر الثاني: دلالة الأمر الإلهي (قُلْ)

لماذا أمره الله أن يقول بنفسه هذا الرد؟

"قل" – أمر إلهي للنبي ﷺ بأن يرد عليهم مباشرة .هذا يعلمنا أن الداعية يجب أن يكون حاضراً بالرد، لا أن يتجاهل الأسئلة الحارقة .الصمت في مواجهة الشبهات قد يُفهم على أنه عجز .الآية تعلمنا أدب الرد على الاعتراضات بكل حكمة ووضوح.

اللمسة البلاغية:

الفعل "قل" جاء في بداية الجواب، وهو أمر يدل على التكليف. وكأن الله يقول: لا تخف، لا تتردد، قل لهم هذه الكلمات بثبات. هذا يعطي النبي ﷺ ثقة وقوة في الرد.

الأمر الثالث: دلالة (إِنَّمَا الآيَاتُ عِنْدَ اللهِ)

معنى "إنما" وأثرها في الحصر

"إنما" أداة حصر وقصر .أي: الآيات التي تطلبونها ليست بيدي أنا، وليست تحت سلطتي، بل هي حصراً عند الله وحده .هذا حصر كامل: لا يملك أحد غير الله أن ينزل آية خارقة .حتى النبي لا يستطيع أن يأتي بمعجزة بمجرد إرادته، بل بإذن الله ومشيئته.

ما معنى "الآيات عند الله"؟

أي: علمها، وقدرتها، وتوقيتها، ونوعها، كلها بيد الله وحده. الله هو الذي يختار متى ينزل آية، وأي آية ، وعلى يد من. ليست مسألة اقتراح من البشر. هذا رد على فكرة أن النبي يمكنه أن يفعل ما يشاء من المعجزات.

اللمسات البيانية:

· تقديم الخبر "عند الله" على المبتدأ "الآيات" في المعنى) في "إنما الآيات عند الله" (يفيد الحصر والا هتمام .أي: لا تتوهموا أن الآيات عند محمد، بل هي عند الله خالصة.
· كلمة "عند" تدل على القرب والاختصاص .ليست الآيات في مكان بعيد، بل هي في خزانة قدرة الله ، قريبة منه، ينزلها متى شاء.

ما هي الرسائل النفسية والتربوية؟

.1توحيد المصدر: الآية ترسخ في قلب المسلم أن كل شيء بيد الله .لا يملك أحد لنفسه ضراً ولا نفعاً إلا بإذن الله .هذا يحرر الإنسان من الخوف من البشر، ومن التعلق بالأسباب.
.2قطع الطريق على المتلاعبين: لو كان النبي يملك إنزال الآيات، لكان المشركون كلما طلبوا آية أنزلها ، فصاروا هم المتحكمين في النبوة .الآية ترد السلطة إلى الله، فلا أحد يتحكم في الله.
.3الرضا بقضاء الله: إذا لم يستجب الله لطلب آية معينة، فذلك لحكمة يعلمها هو .الآية تربي في المسلم الرضا والتسليم.

آفاق الآية في بناء النفس المسلمة:

هذه الجملة تبني في المؤمن التوكل على الله و الاستقلال عن الخلق. عندما تعلم أن الآيات بيد الله، لا تنتظر من البشر معجزات، ولا تخشى من عدم استجابتهم لدعوتك. أنت تعمل، والله ينصر من يشاء. هذا يعطيك ثباتاً نفسياً عظيماً.

الأمر الرابع: دلالة (وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ)

ما معنى "نذير" و"مبين"؟

· "نَذِيرٌ" – أي مخوّف ومنذر .دور النبي هو أن يخبر الناس بعاقبة الكفر والطغيان، ويحذرهم من عذاب الله .ليس دوره أن يأتي بالآيات عند طلبهم.
· "مُبِينٌ" – أي واضح في إنذاره، لا لبس فيه، ولا غموض .يبين لهم الطريق، ويوضح لهم الحق من الباطل.

اللمسات البيانية:

· "إنّمَا" مرة أخرى للحصر: دوري محصور في الإنذار الواضح، وليس في إنزال الآيات.
· تقديم "أنَا" – فيه تأكيد على الذات، كأنه يقول: أنا شخصياً، بكل ما أوتيت من قوة، ليس لي من ا لأمر إلا أن أكون نذيراً.
· "مُبِينٌ" – صيغة مبالغة، تفيد الوضوح التام .إنذاره ليس غامضاً أو معقداً، بل هو بيّن لكل ذي عقل.

ما هي الرسائل النفسية والتربوية؟

.1تحديد مسؤوليات الداعية: الداعية ليس مسؤولا ً عن جعل الناس يؤمنون، ولا عن إتيان المعجزات .مسؤوليته هي البلاغ المبين .هذا يريحه من ضغط النتائج.
.2التركيز على المهمة الأساسية: بدلا ً من أن ينشغل النبي بتحقيق مطالب المشركين، يركز على دوره الحقيقي: الإنذار والتبشير .هذا يعلمنا أن نركز على جوهر عملنا، ولا نضيع وقتنا في مطالب هامشية.
.3الصدق والوضوح: "مبين" تعني أن كلام النبي واضح لا غموض فيه .هذا يربي في المسلم الصدق والشفافية في الحوار، وعدم التلبيس أو المراوغة.

آفاق الآية في بناء النفس المسلمة:

هذه الجملة تبني في المسلم الوعي بدوره الحقيقي في الحياة. لست مسؤولا ً عن تغيير العالم كله، ولكنك مسؤول عن أن تكون "نذيراً مبيناً" في مجال عملك، في أسرتك، في مجتمعك. تنذر من حولك من عواقب المعصية والغفلة، بكل وضوح ولطف. هذا يحررك من أوهام السيطرة والتحكم.

ثانياً: المفاهيم العملية والدروس الحياتية من الآية

المفهوم الأول: الفرق بين الآيات الكونية والآيات المقترحة

الآية تفرق بين نوعين من الآيات:

· آيات كونية) آفاقية(: وهي ما يطلبها المشركون كخرق للعادة.
· آيات قرآنية وعقلية: وهي ما آتاها الله لنبيه ﷺ من قرآن وإعجاز.

القرآن نفسه هو أكبر آية، لكنهم طلبوا آية أخرى. هذا يعلمنا أن كثيراً من الناس لا يكتفون بالآيات الواضحة، بل يطلبون آيات حسب أهوائهم.

المفهوم الثاني: الحكمة في عدم إنزال الآيات المقترحة

لماذا لم ينزل الله آيات حسية كما طلبوا؟ ليس عجزاً، بل حكمة:

· لو نزلت آية فلم يؤمنوا، لكان الهلاك كما حدث للأمم السابقة) قال تعالى: "وما منعنا أن نرسل بالآ يات إلا أن كذب بها الأولون".(
· الإيمان بالغيب أشرف وأبقى من الإيمان بعد رؤية المعجزة.
· ترك الباب مفتوحاً للتكليف والاختبار، وليس للإكراه.

المفهوم الثالث: حدود سلطة النبي والداعية

النبي ﷺ لا يملك شيئاً من أمر الآيات. هذا ينفي عنه صفة الألوهية، ويؤكد بشريته. وفي نفس الوقت، يحدد دور كل داعية: ليس دوره إتيان المعجزات، بل البلاغ الواضح. هذا يحمي الدعوة من الا نزلاق إلى الخرافات أو ادعاء الكرامات الخارقة كشرط للإيمان.

المفهوم الرابع: "النذير المبين" نموذج للداعية العصري

في عصرنا، يطلب كثير من الناس من الدعاة معجزات أو براهين حسية. هذه الآية تذكر الداعية أن يرد: "ليس بيدي آيات، أنا فقط أوضح لكم الحق بكل بيان، وأحذركم من عواقب الباطل. فمن أراد الهداية فليتدبر، ومن أراد التعنت فليطلب الآيات عند الله".

المفهوم الخامس: تحرير الإيمان من شرط المعجزة المادية

الإيمان الحقيقي لا يقوم على رؤية الخوارق، بل على التفكر في آيات الله في الأنفس والآفاق، وعلى صدق القلب واستعداده لقبول الحق. الآية تدعو الإنسان إلى النضج الإيماني: أن يؤمن لأنه اقتنع عقلا ً ووجدانا، لا لأنه رأى مشهدا خارقا.

ثالثا: آفاق الآية في بناء النفس والمجتمع والحضارة

بناء النفس المسلمة:

.1التحرر من طلب المعجزات: كثير من الناس اليوم يبحثون عن "الكرامات" و"الخوارق" كدليل على صحة الطريق .الآية تربينا على أن نطلب الحق بدليله العقلي والشرعي، لا بالبحث عن المدهشات.
.2الاكتفاء بالقرآن كأعظم آية: عندما تقرأ القرآن، تشعر أنه آية متجددة .كل يوم تكتشف فيه إعجازا جديدا .الآية تدعوك للاكتفاء بهذا الكتاب العظيم.
.3تحمل مسؤولية الإنذار الواضح: أنت مطالب أن تكون نذيرا في محيطك، تنصح وتوجه وتخوف من عاقبة الخطأ، ولكن بأسلوب "مبين" أي واضح غير ملتبس.

بناء المجتمع:

.1منع الفوضى الدينية: لو كان كل من ادعى النبوة يستطيع أن يأتي بمعجزات، لضاعت المعايير .الآ ية تضع القاعدة: الآيات بيد الله، وليس بيد المدّعي .هذا يحمي المجتمع من الدجالين والمشعوذين.
.2تربية المجتمع على العقلانية: بدلا ً من أن يظل المجتمع في مرحلة الطفل الذي يطلب دليلا ً حسيا لكل شيء، الآية ترفعه إلى مرحلة النضج حيث يؤمن بالغيب ويعمل بالعقل.
.3توجيه الجهود نحو العمل لا نحو طلب المعجزات: لو انشغل المجتمع بطلب الآيات الخارقة، لتعطلت عجلة الإنتاج .الآية تطلق طاقات المجتمع نحو البناء والعلم، لأنها تقول: لا تنتظروا معجزات، بل اعملوا وأيقنوا أن الله معكم.

بناء الحضارة:

.1أساس المنهج العلمي: الآية ترسخ مبدأ أن قوانين الطبيعة مستقرة) سنة الله(، وأن الخوارق استثناءات بيد الله لا تحدث كل يوم .هذا هو أساس العلم: أن الطبيعة تخضع لنوامط ثابتة يمكن دراستها .لو كانت المعجزات تحدث كل ساعة، لما أمكن العلم.
.2التحول من ثقافة المعجزة إلى ثقافة الإعجاز: الحضارة الإسلامية قامت على التدبر في آيات الله الكونية والقرآنية، لا على انتظار الخوارق .هذا هو سر نهضتها .الآية تدعونا إلى العودة إلى هذا المنهج.
.3احترام دور النبي الإنساني: النبي ليس ساحرا أو مشعوذا، بل هو بشر نذير .هذا التصور يمنع الغلو في الأنبياء، ويجعل القدوة قريبة وممكنة الاقتداء.
رابعا: الرد على شبهة: لماذا لم تنزل آيات حسية كالأمم السابقة؟

قد يسأل سائل: لماذا أعطى الله موسى العصا وعيسى إحياء الموتى، ولم يعط محمدا ﷺ آيات حسية مماثلة؟

الجواب من خلال الآية نفسها ومن خلال سياق السورة:

.1اختلاف الحكمة الإلهية: كل أمة لها ما يناسبها .أمة موسى كانت تميل إلى السحر، فناسب أن تأتي معجزته من جنس ما يحسنون) العصا تبتلع ما يأفكون .(أمة عيسى كانت تميل إلى الطب، فناسب إحياء الموتى .أمة محمد كانت أمة بلاغة وفصاحة، فناسب أن تأتي معجزتها الكبرى قرآنا يتحداهم.
.2بقاء المعجزة: معجزات الأنبياء السابقين انقضت بانقضائها، أما معجزة القرآن فهي باقية إلى يوم القيامة، يتحدى بها العالمين.
.3الاختبار الأكبر: الإيمان بالقرآن يحتاج إلى جهد فكري وتدبر، وهو اختبار أعمق من الإيمان بعد رؤية العصا تتحرك .فمن آمن بالقرآن عن تدبر، إيمانه أقوى وأثبت.
خامسا: العلاقة بين الآية 50 والآيات السابقة

لنر كيف تنسجم الآية 50 مع ما قبلها:

· الآيات48 -49: أثبتت أن القرآن هو آية بينات في الصدور، وأن النبي أمي، فكيف أتى بهذا الكتاب العظيم؟ هذا هو البرهان.
· الآية50 : جاء رد المشركين: هذا البرهان العقلي لا يكفينا، نريد آية حسية .فأمر الله نبيه أن يقول:

لا أملك آيات، أنا فقط نذير مبين.

وهكذا، الآيات تقدم نموذجاً حوارياً: الدليل العقلي (القرآن وأمية النبي) يقابل بالتعنت (طلب آية حسية)، فيأتي الرد بحسم: لا، لن نلبي طلبك التعسفي، لأن الآيات بيد الله، ودوري أن أوضح لك الحق. فإن أردت الهداية فتدبر، وإن أردت التعنت فأنت وحدك المسؤول.

خاتمة: رسالة الآية إليك شخصياً
أخي الحبيب، أختي الكريمة،

ربما تمر بلحظات تشك فيها، أو يخطر ببالك سؤال: "لماذا لا أرى آية؟ لماذا لا يحدث شيء خارق يثبت لي أن الله موجود؟". أو ربما تسمع شخصاً يقول: "لو رأيت معجزة لآمنت".

هذه الآية تنزل على قلبك الآن لتقول لك:

· الآيات عند الله، وليست عند عبد من عباده .قد لا ترى ما تريد من الآيات في الوقت الذي تريده، لأن الله يعلم أن ذلك قد لا ينفعك، أو قد يكون سبباً في هلاكك لو كذبت.
· دور الأنبياء والدعاة ليس إتيان المعجزات، بل البلاغ المبين .إذا كان النبي نفسه لا يملك آية، فكيف بغيره؟ لا تنتظر من أي إنسان أن يأتي بمعجزة ليصدقك أو لتؤمن به.
· القرآن نفسه هو آيتك .افتح المصحف، تأمل في آياته، في نظمه، في إخباره بالغيب، في تشريعاته . تجد فيه أعظم آية، باقية، حية، تنطق في وجه كل جاحد.
· أنت نذير مبين في مكانك .لا تنتظر أن يحدث أمر خارق لتغير محيطك .فقط ابدأ بأن تكون واضحاً، صادقاً، منذراً بالحق .هذا يكفي.

تخيل أن الله يمسح على قلبك ويقول: "يا عبدي، أنا صاحب الآيات، أنزل منها ما أشاء، متى أشاء. لا تحزن لطلبهم، ولا تتعجل. دورك أن تذكرهم بالآيات التي وضعتها في الكون وفي أنفسهم وفي كتابي. ومن شاء فليؤمن، ومن شاء فليكفر. وأنا النذير المبين الذي يرسل الرسل ليبلغوا، ثم يحاسبون."

ارفع رأسك. أنت لست صانع معجزات. أنت نذير. أنت من يضيء الطريق للآخرين، لا من يجبرهم على السير. ألق عنك ثقل "إثبات" الأشياء بالخوارق، وانطلق لتكون "مبيناً" واضحاً، صادقاً، رحيماً. يكفيك شرفاً أن تكون رسول بلاغ، ونذير حق، وداعية إلى الله على بصيرة.

اللهم اجعلنا من النذر المبينين، الذين يبلغون رسالتك بوضوح وأمانة، ولا تجعلنا ممن يطلبون الآيات تعنتاً، أو ينتظرون الخوارق كشرط للإيمان. واجعل القرآن آيتنا الكبرى، وارزقنا التدبر فيه والعمل به. آمين.

وهكذا، نكون قد سلكنا معاً في رحلة الآية 50. تذكر دائماً: أنت نذير مبين، والآيات عند الله، والقرآن هو معجزتك الخالدة. فامض في طريقك بثقة

المبحث الخامس
أخي الحبيب/ أختي الكريمة،

تخيل أنك تعيش في صحراء قاحلة، ظمآن تبحث عن ماء، فلا تجد إلا السراب. وفجأة، ينهمر عليك مطر غزير من السماء، فيُحيي الأرض بعد موتها، ويُروي ظمأك، ويُخرج لك من كل ثمر. أليست هذه هي أعظم آية؟ أليس هذا هو أكبر دليل على رحمة من أنزله؟

هذا هو بالضبط مشهد الآية 51 من سورة العنكبوت. بعد أن طلب المشركون آيات حسية خارقة، وبعد أن أمر الله نبيه أن يقول لهم "إنما الآيات عند الله وإنما أنا نذير مبين"، جاءت هذه الآية كصاعقة من نور، وكسؤال عظيم يقرع قلوبهم ويوقظ عقولهم: "أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ" – أليس القرآن نفسه بأعظم آية؟ أليست هذه المعجزة الباقية كافية لكل ذي عقل؟

دعني آخذ بيدك في رحلة مع هذه الآية العظيمة، لنعيش معاً لحظة اكتشاف أن أعظم آية هي بين أيدينا، في مصاحفنا، في صدورنا. إنها لحظة أن يقول الله لنا: "كفى بالقرآن آية".
نص الآية وتفصيلها

قال الله تعالى: "أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ" (العنكبوت: 51)

المقدمة: سياق الآية ومقاصدها العظمى

هذه الآية هي الاستفهام التوبيخي الأعظم. بعد أن سأل المشركون: "لولا أنزل عليه آيات من ربه"، يأتي الرد الإلهي بسؤال: ألم يكفهم القرآن؟ أليس هذا الكتاب الذي يتلى عليهم آناء الليل وأطراف النهار أكبر دليل وأعظم برهان؟ إنها تنتقل بهم من طلب الآيات الصغيرة إلى آية الكون الكبرى: الوحي الخالد.

المقاصد العظيمة هنا:

.1تقرير أن القرآن هو المعجزة الكبرى: لا حاجة إلى آيات أخرى بعد هذا الكتاب.
.2لفت النظر إلى نعمة القرآن: أن يتلى عليهم، ويصل إليهم، ويفهمونه بلغتهم، فهذه نعمة عظيمة.
.3بيان وظيفة القرآن: هو رحمة لمن آمن، وتذكرة لمن تدبر.
.4توبيخ المعاندين: كيف تطلبون آية، وأعظم آية بين أيديكم؟
الأمر الأول: دلالة الاستفهام (أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ)

ما معنى هذا الاستفهام؟ ولماذا جاء بهذه الصيغة؟

الاستفهام هنا للتقريع والتوبيخ والإنكار. ليس المقصود به طلب الإجابة، بل هو توبيخ لهم على غفلتهم وعنادهم. المعنى: ألم يكفهم القرآن دليلا ً ومعجزة؟ كيف يستمرون في طلب الآيات وهذا الكتاب العظيم بينهم؟

اللمسات البيانية:

· "أَوَلَمْ" – جمعت همزة الاستفهام، وواو العطف، و"لم" النافية. الواو هنا للعطف على مقدر، أي: ألم تكفهم الآيات الكونية؟ ألم تكفهم دلائل التوحيد؟ ثم ألم يكفهم هذا القرآن؟ إنها تعطف عليهم حجة بعد حجة.
· "يَكْفِهِمْ" – الفعل يكفي، والهاء للغائبين. السؤال: أليس في القرآن غنى وكفاية لكل طالب آية؟ أي دليل يريدون بعد هذا الكتاب؟
· "أَنَّا أَنْزَلْنَا" – "أنّا" هي "أنّ" المشددة و"نا" الدالة على الجلالة. أي: ألم يكفهم كوننا نحن الله العظيم أنزلنا هذا الكتاب. إنه ليس كلام بشر، بل كلام خالق السموات والأرض.

ما هي الرسائل النفسية والتربوية؟

.1التوبيخ المحبب: الله لا يوبخهم بقسوة، بل بسؤال يوقظ فيهم العقل: "أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ؟" هذا الأسلوب يربي فينا أن نوبخ أنفسنا أولا ً: ألم يكفني القرآن؟ ألم يكفني هذا النور؟ لماذا أبحث عن آيات أخرى؟
.2الانتقال من طلب الخوارق إلى تدبر المعجزات: كثير من الناس يلهثون وراء الكرامات والأحلام و المعجزات، وينسون أعظم معجزة: القرآن .الآية تصفعهم برفق: ألم يكفكم هذا الكتاب؟
.3تربية القناعة الإيمانية: المؤمن يكتفي بالقرآن .لا يحتاج إلى معجزة حسية ليزداد إيمانه، لأن كل آية في القرآن هي معجزة .هذا يعطيه استقراراً نفسياً.

الأمر الثاني: دلالة (أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ)

لماذا "عَلَيْكَ"؟ ولماذا "الكتاب" وليس "القرآن"؟

· "عَلَيْكَ" – التنزيل على النبي ﷺ، وهذا يشريف النبي ﷺ. ثم هو يتلى عليهم، فيصلهم النور دون وساطة بشرية بعد النبي. كأن الله يقول: أنزلنا على نبيكم هذا الكتاب، فهو بين أيديكم، لم يحل بينكم وبينه أحد.
· "الْكِتَابَ" – هذا الاسم الجامع يدل على أنه كتاب متكامل، فيه كل ما يحتاجون إليه من هدى ونور وبيان. لو قال "القرآن" لكان خاصاً، أما "الكتاب" ففيه إشارة إلى أنه دستور متكامل.

اللمسة البلاغية:

الجملة "أَنَّا أَنْزَلْنَا" فيها تأكيد بإنّ، ونسبة الفعل إلى الله بضمير الجمع (نحن) الدال على العظمة. إنه إعلان أن هذا الكتاب من عند ملك الملوك، لا من عند بشر. هذا يضفي عليه قدسية وهيبة.

ما هي الرسائل النفسية والتربوية؟

.1شرف القرآن: أنزله الله على خير خلقه .هذا يرفع من قدره في قلوبنا.
.2قرب القرآن منا: "عليك" ثم "يتلى عليهم" – كأن القرآن دائماً حاضر معنا، يتلى علينا في كل وقت . نعمة عظيمة يجب أن نشكر الله عليها.
.3الاستغناء بالقرآن: لا حاجة إلى كتاب آخر .هذا الكتاب كاف.
الأمر الثالث: دلالة (يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ)

ما معنى "يُتْلَى"؟ ولماذا هذا الوصف؟

"يُتْلَى" من التلاوة، وهي القراءة المتتابعة للحروف والمعاني. التلاوة ليست مجرد نطق، بل هي فهم وتدبر. الآية تصف القرآن بأنه يُتلى عليهم، أي أنه يُقرأ في مساجدهم، وفي بيوتهم، وفي مجالسهم. إنه كتاب حي يتلى، ليس كتاباً ميتاً على الرفوف.

اللمسة البيانية:

الفعل "يُتْلَى" مضارع مبني للمجهول، يدل على التجدد والاستمرار. أي أنه يتلى عليهم دائماً، ليس مرة واحدة. كل يوم يتلى، كل صلاة يتلى، كل ليلة يتلى. هذا يجعل المعجزة متجددة كل يوم.

ما هي الرسائل النفسية والتربوية؟

.1القرآن كتاب حي: ليس كتاباً يقرأ ثم يوضع، بل هو يتلى آناء الليل وأطراف النهار .هذا يعلمنا أن نجعله رطباً في ألسنتنا.
.2سماع القرآن نعمة: كونهم يسمعون القرآن بأذانهم، بلغتهم، بفصاحة وبيان، هذه نعمة تستحق الشكر . كثير من الأمم لم تصلهم الرسالة بهذا الوضوح.
.3التربية على التلاوة المستمرة: الآية تشجعنا على أن نكون من أهل التلاوة، الذين يتلى عليهم كتاب الله في كل وقت.
الأمر الرابع: دلالة (إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)

ما معنى "رَحْمَةً" و"ذِكْرَى"؟

· "رَحْمَةً" – القرآن رحمة من الله. يخرج من الظلمات إلى النور، يريح القلوب، يطمئن النفوس، يهدي إلى الصراط المستقيم. أعظم رحمة أنزلت على البشر.
· "ذِكْرَى" – تذكرة وعظة. يذكر الإنسان بربه، ويذكره بالجنة والنار، وبالموت والحساب، وبأيام الله. هو تذكير دائم للغافلين.

لمن هذه الرحمة والتذكرة؟

"لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ" – أي أن الانتفاع بهذه الرحمة والتذكرة خاص بالمؤمنين. أما الكافرون، فهم يحرمون أنفسهم من هذا النور. القرآن رحمة لمن آمن به، وتذكرة لمن تدبره. أما من أعرض، فهو عليه حسرة ووبال.

اللمسات البيانية:

· "إِنَّ" و"لَ" – تأكيدان متتاليان (إنّ واللام المزحلقة) يفيدان القسم والتوكيد. أي: والله إن في القرآن لرحمة عظيمة.
· "فِي ذَٰلِكَ" – اسم الإشارة يعود على مجموع الأمر: إنزال الكتاب وتلاوته. أي في هذا الشأن كله رحمة وتذكرة.
· تقديم الرحمة على التذكرة: الرحمة أعم وأشمل. ثم التذكرة خاصة بالعبر والمواعظ. وكأن القرآن أولا ً رحمة، ثم هو تذكرة. الرحمة هي الأصل، والتذكرة وسيلة.
· "لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ" – وصفهم بالإيمان، لأن الانتفاع بالقرآن فرع عن الإيمان به. من لا يؤمن به لا ينتفع به.

ما هي الرسائل النفسية والتربوية؟

.1القرآن دواء القلوب: إذا شعرت بالضيق أو الحزن، فاعلم أن في القرآن رحمة لك .افتحه، اقرأه،

سيجد قلبك سكينته.
.2القرآن وقاية من الغفلة: "ذكرى" تعني أنه يذكرك بما تنساه .يذكرك باللّه، وبالآخرة، وبالحق .هو صديق يوقظك من نوم الغفلة.
.3الإيمان شرط الانتفاع: لا تنتظر من الكافر أن يجد راحة في القرآن .الرحمة والتذكرة للمؤمنين فقط .هذا يعلمنا أن ندعو الناس بالإيمان أولا ً، ثم يجدوا حلاوة القرآن.
.4شكر نعمة القرآن: كيف لا نشكر اللّه على هذا الكتاب العظيم الذي أنزله رحمة لنا وتذكرة؟ يجب أن يكون شكرنا بتلاوته وتدبره والعمل به.
ثانياً: المفاهيم العملية والدروس الحياتية من الآية

المفهوم الأول: كفاية القرآن كمعجزة

الآية تؤصل لمفهوم عظيم: القرآن هو المعجزة الباقية، وهو كافٍ وحده لإثبات النبوة. لا يحتاج المسلم أن يبحث عن معجزات أخرى، ولا أن يرد على طلبات المشككين بإتيان خوارق جديدة. القرآن بين أيديهم، يتلى عليهم، فليتدبروه. هذا المفهوم يريح الداعية من عناء تلبية مطالب المتعنتين.

المفهوم الثاني: الفرق بين التلاوة والتدبر

"يُتْلَى عَلَيْهِمْ" – مجرد التلاوة ليست كافية، بل لا بد من التدبر. الآية تذكر أن في ذلك رحمة وذكرى للذين يؤمنون، أي الذين يتدبرون ويؤمنون. التلاوة وحدها دون إيمان لا تنفع. هذا يعلمنا أن نركز في دعوتنا على فهم القرآن وتدبره، وليس فقط تلاوته.

المفهوم الثالث: القرآن رحمة للإنسانية

الرحمة في القرآن ليست للمسلمين فقط، بل للعالمين. لكن الانتفاع بها مشروط بالإيمان. فالقرآن يحمل في طياته الحلول لكل مشاكل البشرية، من تشريعات عادلة، إلى أخلاق راقية، إلى نظام حكم وسياسة. من آمن به وجد رحمته، ومن كفر به حرم نفسه.

المفهوم الرابع: التذكرة المستمرة

الإنسان بطبيعته غافل. يحتاج إلى من يذكره كل لحظة. القرآن هو الذكرى الدائمة. يتلى في كل صلا ة، وفي كل مجلس، وفي كل مناسبة. هو يذكرنا بقيمنا، وبهدفنا، وبخالقنا. هذا يعلمنا أن نربط حياتنا بالقرآن، لا أن نجعله مناسبة للتبرك فقط.

المفهوم الخامس: خاصية "لقوم يؤمنون"

الآية تعطينا معياراً: من لم ينتفع بالقرآن، فليتهم نفسه وعدم إيمانه، لا أن يلقي باللوم على القرآن. القرآن نزل رحمة وذكرى، لكنه لا ينفع إلا من آمن. هذا يحرر القرآن من أي نقد بأنه لم يغير واقع الناس. التغيير يتوقف على إيمانهم وتدبرهم.
ثالثاً: آفاق الآية في بناء النفس والمجتمع والحضارة

بناء النفس المسلمة:

.1الاكتفاء بالقرآن: تربية النفس على ألا تطلب آيات خارقة، بل تكتفي بالقرآن كأعظم آية .عندما يمرض قلبك، تذهب إلى القرآن لا إلى السحرة والمشعوذين .عندما تشك، تفتح المصحف لا تذهب إلى عراف.
.2جعل القرآن رفيق الحياة: "يتلى عليهم" – حاول أن تجعل القرآن يتلى عليك كل يوم .في الفجر، في الليل، في السيارة، في العمل .اجعله أنيسك في وحدتك.
.3طلب الرحمة والذكرى: عندما تقرأ القرآن، لا تقرأه قراءة سطحية .اطلب منه الرحمة لقلبك، واطلب منه التذكرة لروحك .قل: "اللّهم اجعله رحمة لي وذكرى".
.4شكر النعمة: من أعظم النعم أن يكون القرآن بين يديك، يتلى عليك .احمد اللّه على هذه النعمة كل يوم، فهي نعمة لم تتح لكثير من الناس.

بناء المجتمع:

.1مجتمع يتلى عليه القرآن: الآية تصف مجتمعاً قرآنياً: مجتمع يتلى فيه كتاب اللّه .هذا المجتمع هو الذي تتحقق له الرحمة والتذكرة .يجب أن نسعى لإقامة مجالس التلاوة والتدبر في بيوتنا ومساجدنا

ومدارسنا.
.2القرآن كبديل عن المعجزات المزعومة: كثير من المجتمعات الإسلامية انشغلت بطلبات "الكشف" و "الكرامات" و"الآيات" عن الانشغال بالقرآن .الآية تعيد البوصلة إلى مكانها الصحيح: القرآن يكفي.
.3محاربة الغفلة المجتمعية: "ذكرى" تعني أن المجتمع بحاجة إلى من يذكره .القرآن هو أداة التذكرة . مجتمع يقرأ القرآن هو مجتمع واعٍ متيقظ.

بناء الحضارة:

.1القرآن أساس النهضة: أي نهضة حضارية لأي مجتمع مسلم لا بد أن تبدأ من القرآن .عندما نؤمن بأن في القرآن رحمة وذكرى، نبدأ في تطبيق تشريعاته وأخلاقه، فتتحقق النهضة.
.2العودة إلى القرآن كمنهج حياة: الحضارة الإسلامية في أوجها كانت قائمة على القرآن كدستور . عندما ابتعدنا عنه، تخلفنا .الآية تدعونا إلى العودة: هذا الكتاب يتلى عليكم، فلماذا لا تطبقونه؟
.3مواجهة التحديات الفكرية بالقرآن: في عصر تتصاعد فيه الشبهات حول الإسلام، يكفينا القرآن .فيه الرد على كل شبهة، وفيه الحجة الدامغة لكل مبطل .الآية تقول: ألم يكفهم القرآن؟ أي حجة أقوى من القرآن؟

رابعاً: العلاقة بين الآية 51 والآية 50 – من طلب الآيات إلى الاكتفاء بالقرآن

لنتأمل الروعة في الانتقال من الآية 50 إلى 51:

· الآية 50: طلب المشركون آيات، فأمر الله نبيه أن يقول: "إنما الآيات عند الله وإنما أنا نذير مبين". كأنه قال: الآيات ليست بيدي، أنا فقط أنذر.
· الآية 51: مباشرة، يأتي الرد: "أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ". كأنه يقول: لا تتعجب من طلبهم، بل قل لهم: أليس في هذا الكتاب كفاية؟

إنه انتقال من "الاعتذار عن عدم إتيان الآيات المقترحة" إلى "التحدي بأن القرآن هو أعظم آية". هذا من بديع الترتيب القرآني.

خامساً: تطبيقات عملية: كيف نعيش هذه الآية اليوم؟

أخي الحبيب، هذه الآية ليست تاريخاً مضى، بل هي حياة تعاش اليوم:

.1عندما تشعر بالحاجة إلى معجزة: ربما تمر بأزمة، وتقول: "يا رب، لو أرسلت لي آية تدلني على الطريق" .تذكر هذه الآية: ألم يكفك القرآن؟ افتحه، ستجد فيه الإجابة.
.2عندما تسمع من يطلب آيات حسية: بعض الناس يقولون: "لو رأيت النبي في المنام لاهتديت" أو "لو حدثت معجزة لازددت إيماناً" .قل لهم: ألم يكفكم القرآن؟ هذا الكتاب العظيم بين أيديكم، فيه الهدى والنور.
.3في لحظات الضيق والحزن: عندما تضيق الدنيا في وجهك، افتح المصحف .ستجد فيه رحمة تسري في عروقك، وذكرى توقظ قلبك .جرب أن تقرأ سورة الضحى، سورة الشرح، ستشعر كأن الله يمسح على رأسك.
.4في مجتمعاتنا التي تعاني من الفرقة: القرآن هو الذي يجمعنا ."أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ" أن هذا الكتاب واحد، يتلى علينا كلنا، ونؤمن به كلنا .فلنترك الخلافات الجانبية، ولنتمسك بهذا الكتاب.
.5في تربيتنا لأولادنا: يجب أن نغرس في قلوب أطفالنا منذ الصغر أن أعظم آية هي القرآن .ليس المهم أن نريهم معجزات خارقة، المهم أن نعلمهم حب القرآن وتدبره .اجعل طفلك يشعر أن بين يديه كنزاً عظيماً.
خاتمة: رسالة الآية إليك شخصياً

أخي الحبيب، أختي الكريمة،

تخيل للحظة أن الله ينزل عليك هذه الآية الآن، وحدك، في غرفتك، تخاطب روحك المتعبة التي تبحث عن آية، عن علامة، عن دليل. تقرأها وكأنها تقول لك:

"أَوَلَمْ يَكْفِكَ؟"

· ألم يكفك أني أنزلت عليك هذا القرآن؟
· ألم يكفك أن بين يديك كتاباً لو اجتمع الإنس والجن على أن يأتوا بمثله لعجزوا؟

· ألم يكفك أن في هذا الكتاب رحمة لقلبك، وذكرى لروحك، ونوراً لعقلك؟

لماذا تبحث عن آيات أخرى، والقرآن بين يديك؟ لماذا تلهث وراء الأحلام والكرامات، وهذا الكتاب العظيم يتلى عليك كل يوم؟ لماذا تشكو من قسوة قلبك، وأنت لا تفتح المصحف؟

اعلم يقيناً: في هذا الكتاب شفاؤك. في هذا الكتاب راحتك. في هذا الكتاب إجابات كل أسئلتك. في هذا الكتاب رحمة تغمرك، وذكرى توقظك.

الآن، امسك المصحف. افتحه. اقرأ أي آية. تأمل. ستجد أن الله يحدثك. ستجد أن كل كلمة تنزل على قلبك بلسم. ستجد أن السؤال "أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ" يتحول في داخلك إلى "كفاني".

نعم، كفاني القرآن. كفاني رحمة. كفاني نوراً. كفاني هدى.

المبحث السادس

أخي الحبيب/ أختي الكريمة،

تخيل أنك تقف في قاعة محكمة كبرى، والجميع يتهمك ويشكك فيك. المتهمون كثيرون، والأدلة المزيفة تطير في وجهك. فجأة، يطرق القاضي مطرقته ويعلن: "كفى! لست بحاجة إلى شهود آخرين. أنا من يعلم كل شيء، وسأكون الشاهد بينك وبين خصومك". أليس هذا هو أعظم طمأنينة تملأ قلبك ؟

هذه هي بالضبط أجواء الآية 52 من سورة العنكبوت. بعد كل الجدال، بعد كل طلب الآيات، بعد كل العناد والمكابرة، يأتي الأمر الإلهي للنبي ﷺ وللمسلمين من بعده: "قل كفى بالله بيني وبينكم شهيداً". إنها لحظة الفصل، لحظة تحويل القضية من جدال أرضي إلى مرجعية سماوية. إنها لحظة أن ترفع يديك وتقول: "حسبي الله، وهو الشاهد على كل شيء".

ثم تنتقل الآية إلى حقيقة أعمق: الله يعلم كل شيء في السموات والأرض، فلا يخفى عليه شيء من نياتكم وأعمالكم. وأخيراً، تعلن النتيجة المحتومة: الذين آمنوا بالباطل وكفروا بالله هم الخاسرون حقاً، ليس في الدنيا فقط، بل في الآخرة أشد الخسران.

دعني آخذ بيدك في رحلة مع هذه الآية، لتعيش طعم التوكل على الله، ولتتذوق حلاوة ترك الحساب له، ولترى كيف أن هذه الكلمات تحول قلبك من قلق إلى سكينة، ومن خوف إلى ثقة، ومن مراءاة الخلق إلى الاستسلام للخالق.

نص الآية وتفصيلها

قال الله تعالى: "قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا ۖ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۗ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ" (العنكبوت: 52)

المقدمة: سياق الآية ومقاصدها العظمى

هذه الآية هي محطة التحكيم النهائية. بعد أن أمر الله نبيه أن يجادل أهل الكتاب بالتي هي أحسن (آية 46)، وبعد أن أخبره أن منهم من يؤمن ومنهم من يجحد (آية 47)، وبعد أن أثبت أميته وأن القرآن آيات بينات في الصدور (آية 48-49)، وبعد أن رد على طلبهم للآيات بأن الآيات عند الله وهو نذير مبين (آية 50)، ثم وبخهم بأن القرآن وحده كافٍ (آية 51) – بعد كل هذا، يأتي دور القطيعة الحضارية الراقية: إحالة الأمر إلى الله شهيداً.

المقاصد العظمى للآية:

1. تحويل النزاع من أرض الجدال إلى سماء الشهادة الإلهية: لا حاجة لإقناع العنيد بالقوة، فقط قل: الله شهيد بيننا.
2. طمأنة قلب النبي والمؤمنين: لست وحدك، الله معك، وهو يعلم كل شيء، وسيحكم بينكم.
3. فضح حقيقة المخالفين: هم آمنوا بالباطل وكفروا بالله، فهذه هي جذور مشكلتهم.
4. تحديد الخاسر الحقيقي: ليس من غُلِب في الجدال، بل من آمن بالباطل وكفر بالله.
5. تربية النفس على التوكل وترك النتائج لله: بعد أن بذلت الجهد في الحوار والتبليغ، فوّض الأمر إلى الله.

الأمر الأول: دلالة (قلْ كفىٰ بِاللهِ بَيْنِي وَبَيْنَكمْ شَهيدًا)

ما معنى "كفى بالله"؟ ولماذا "شهيداً"؟

· "كفى بالله" – "كفى" فعل يدل على الغنى والاكتفاء. "بالله" – الباء هنا للملابسة أو للتوكيد. المعنى: الله وحده كافٍ، لا تحتاج إلى شاهد آخر. إنه إعلان استغناء عن كل الشهود البشرية. عندما يكون الله معك، لا تحتاج إلى من يشهد لك من الناس.
· "شهيداً" – تمييز أو حال. أي: شهيداً بيني وبينكم. شهيد على أقوالي وأفعالي، وشهيد على أقوالكم وأفعالكم. شهيد على صدقي في دعواي، وشهيد على عنادكم في ردكم.

اللمسات البيانية والبلاغية:

· أمر "قلْ" – أمر إلهي للنبي ﷺ أن يقول ذلك بنفسه. فيه تدريب للنبي وللمؤمنين على أن يكونوا جريئين في إعلان اعتمادهم على الله وحده.
· "كفى" – فعل ماضٍ يفيد الثبات واليقين. ليس "يكفي" المضارع، بل "كفى" الماضي، كأن الأمر قد حسم وانتهى. الله كافٍ أبداً.
· "بِاللهِ" – تقديم الجار والمجرور على "شهيداً" يفيد الحصر والاهتمام. أي: بالله لا بغيره.
· "بَيْنِي وَبَيْنَكمْ" – هذه العبارة تخلق مسافة عادلة. النبي في طرف، والمشركون في طرف، والله في الوسط شهيداً. لا تحيز، فقط عدالة إلهية.
· نصب "شهيداً" على التمييز أو الحال، وفيه معنى المفاجأة: كفى بالله أن يكون شهيداً، وهذا أعظم ما يمكن.

ما هي الرسائل النفسية والتربوية والعقلية؟

.1التحرر من حاجة إرضاء الناس: عندما تعلم أن الله شهيد بينك وبينهم، لا تعود بحاجة إلى أن يصدقوك أو يشهدوا لك .أنت حر، الله معك.
.2ضبط النفس عند الغضب: في لحظات الجدال الحاد، قد تشتعل نار الغضب وتريد أن تثبت أنك على حق .هذه الآية تبرد جمرة الغضب: "كفى بالله شهيداً" .لا داعي للصراخ، الله يعلم.
.3التربية على التوكل: التوكل الحقيقي هو أن تبذل الجهد ثم تفوّض النتيجة إلى الله .الآية تجسيد لهذا: بعد كل الحوار، قل: الله شهيد، وهو الذي سيحكم.
.4العزة بالله: عندما تشعر أن الكل ضدي، تذكر: الله معي .فهو شهيد على صدقي .هذه العزة تمنعك من الذل أو التنازل عن الحق.
.5ترك الحساب لله: ليس من دورك أن تحاسب الناس أو تنتقم منهم .دورك أن تبلغ، ثم تقول: "كفى بالله شهيداً" .هذا يريح أعصابك ويطيل عمرك.

آفاق الآية في بناء النفس المسلمة القادرة على ضبط النفس:

تخيل أنك في نقاش حاد على وسائل التواصل الاجتماعي، الكل يهاجمك، يتهمك، يشكك في نواياك. ماذا تفعل؟ بدلا ً من أن تنهال عليهم بالردود المسيئة، تذكر هذه الآية. توقف للحظة، ثم قل في نفسك أو اكتب لهم: "كفى بالله بيني وبينكم شهيداً". هذا الرد الواحد يسكت الخصوم، ويحررك من عناء الردود، ويرفعك في أعينهم لأنك أظهرت ثقة بالغة بالله. إنها تربية إلهية على الحلم و الرفق و تجنب الهجوم الشخصي. إنها تعلمك أن تختار أحسن الطرق وأفضل الكلمات في لحظة الشدة.

الأمر الثاني: دلالة (يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ)

لماذا هذا الخبر بعد "شهيداً"؟

الشهادة تحتاج إلى علم. فمن لا يعلم لا يستطيع أن يشهد. لذلك جاء هذا الخبر ليؤكد أن شهادة الله مبنية على علم مطلق شامل. الله يعلم كل شيء في السموات والأرض، فلا يخفى عليه شيء من أعمالكم وأقوالكم ونياتكم.

اللمسات البيانية:

· الفعل "يَعْلَمُ" – مضارع، يفيد التجدد والاستمرار. علم الله مستمر، لا يتوقف، في كل لحظة.
· "مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ" – تعميم مطلق. يشمل كل شيء: الذرات، الأسرار، الخواطر، النوايا، الأقوال ، الأفعال. لا يستثنى شيء.

· تقديم السموات على الأرض – فيه إشارة إلى عظمة علم الله بما في الأعالي، ثم بما في الأسافل. العلم شامل للعالم العلوي والسفلي.

ما هي الرسائل النفسية والتربوية؟

.1اليقين بأن الله يعلم نواياك: عندما تتعامل مع الآخرين، تذكر أن الله يعلم ما في قلبك .هذا يمنعك من النفاق والرياء .تريد أن تشهد لك الناس؟ لا، يكفي أن الله يعلم.
.2اليقين بأن الله يعلم نواياهم: عندما يسيء إليك الناس، قد تظن أنهم يضمرون شراً .تذكر: الله يعلم ما في قلوبهم .لا تحكم عليهم، بل اترك الحساب لله.
.3الطمأنينة: عندما تخاف من مكيدة أو ظلم، تذكر أن الله يعلم كل شيء، ولن يفلت الظالم من علمه .هذا يعطيك سكينة.
.4المراقبة الذاتية: إذا كنت تعلم أن الله يعلم كل شيء، فستراقب نفسك، وتحاسبها، وتخاف أن يفعل شيئاً يغضب الله .هذه هي عبادة الإحسان.

الأمر الثالث: دلالة (وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللهِ أُولَئِكَ هُمُ الخَاسِرُونَ)

من هم "الذين آمنوا بالباطل"؟ وما هو الباطل؟

الباطل هو كل ما سوى الحق. هنا يشير إلى أصنامهم وطواغيتهم وخرافاتهم. آمنوا بالباطل أي صدقوا به واتخذوه إلهاً من دون الله. وفي مقابل ذلك، "كفروا بالله" أي جحدوا وحدانيته وأنكروا ربوبيته. هذا هو وصف المشركين.

لماذا "أولئك" و"هم" و"الخاسرون"؟ تأكيدات متتالية

· "أُولَئِكَ" – اسم إشارة للبعيد، يفيد التحقير والإبعاد. أي أولئك البعداء عن الرحمة.
· "هُمُ" – ضمير فصل، يفيد الحصر. أي هم وحدهم الخاسرون، لا غيرهم.
· "الخَاسِرُونَ" – معرفة بأل، تفيد الاستغراق والجنس. أي هم الخاسرون الحقيقيون، الخاسرون بكل معنى الكلمة.

اللمسات البلاغية:

· المقابلة بين "آمنوا بالباطل" و"كفروا بالله" – مقابلة بديعة: الإيمان في موضع الباطل، والكفر في موضع الله. وهذا قلب للفطرة. الطبيعي أن نؤمن بالله ونكفر بالباطل. لكنهم قلبوا الأمر.
· الجمع بين الوصفين – ليس مجرد كافر بالله، بل آمن بالباطل أيضاً. هذا يصور حالهم في أبعده: انشغلوا بالباطل حتى نسوا الحق.
· تكرار أدوات التوكيد – "أولئك" + "هم" + "الخاسرون" التعريفية = توكيد بعد توكيد، لإزالة أي شك في خسرانهم.

ما هي الرسائل النفسية والتربوية؟

.1تحديد الخاسر الحقيقي: ليس الخاسر من خسر في الجدال، ولا من خسر المال أو الجاه، بل الخاسر من آمن بالباطل وكفر بالله .هذا يعيد تعريف النجاح والخسارة في حياتنا.
.2الشفقة على المخالف: بدلاً من أن تكرههم، اشفق عليهم .هم خاسرون في تجارتهم مع الله . اشفق على حالهم، وادعُ لهم بالهداية.
.3التحذير من الإيمان بالباطل: الباطل يتخذ أشكالاً كثيرة: الإلحاد، الشيوعية، القومية المتطرفة، الطائفية، عبادة المال أو الجاه .من آمن بأي باطل دون الله فهو داخل في هذه الآية.
.4عكس الآية على النفس: هل أنا مؤمن بالله حقاً، أم أن في قلبي إيماناً بالباطل؟ أحياناً نؤمن بـ الباطل دون أن نشعر: نصدق الإشاعات، نعتمد على الأسباب دون الله، نقدس الأشخاص .الآية تدعونا لمراجعة أنفسنا.

آفاق الآية في بناء النفس المسلمة:

هذه الجملة تبني في المؤمن بوصلة واضحة للحق والباطل. تجعله يميز بين من يستحق الشفقة ومن يستحق القدوة. كما أنها تريحه من التفكير في خسارة دنيوية، لأنه يعلم أن الخسران الحقيقي هو خسران الآخرة. إنها تعطيه استقلالاً نفسياً عن مقاييس الناس: قد يراه الناس ناجحاً لكنه خاسر، وقد يراه الناس خاسراً لكنه رابح عند الله.

ثانياً: المفاهيم العملية والدروس الحياتية من الآية

المفهوم الأول: التحكيم إلى الله في النزاعات

عندما يصل النقاش إلى طريق مسدود، عندما يصر الخصم على العناد، فلا فائدة من الاستمرار في الجدال. الحل هو التحكيم إلى الله. وهذا يعني:

· أن ترفع الأمر إلى الله بالدعاء: "اللهم احكم بيننا".
· أن تترك الجزاء والحساب لله في الآخرة.
· أن تقول بلسان المقال أو الحال: "كفى بالله شهيداً".

المفهوم الثاني: التوكل بعد الأخذ بالأسباب

الآية لا تدعو إلى ترك الحوار أو الدعوة. بل بعد أن بذلت جهدك في الحوار بالتي هي أحسن، وبعد أن بينت لهم الأدلة، تأتي لحظة "كفى بالله". هذا هو التوكل العملي: اعمل ثم فوّض.

المفهوم الثالث: علم الله كأساس للعدالة المطلقة

الإيمان بأن الله يعلم كل شيء يمنح الإنسان شعوراً بالطمأنينة أن الظلم لن يضيع، وأن الحق سيظهر يوماً ما. هذا يعينه على الصبر في مواجهة المحن.

المفهوم الرابع: إعادة تعريف الخسارة والربح

في ثقافتنا المعاصرة، غالباً ما يُقاس النجاح بالمال أو المنصب أو الشهرة. الآية تعيد تعريف الخسارة: الخاسر من آمن بالباطل وكفر بالله. فما قيمة أن تربح الدنيا كلها وتخسر الآخرة؟ هذا المفهوم يحرر المسلم من العبودية للماديات.

المفهوم الخامس: فضح جذور العناد

لماذا يعاند المخالفون؟ لأنهم آمنوا بالباطل أولاً. جذور العناد ليست عقلية بحتة، بل هي إيمانية. آمنوا بباطلهم، فصاروا يدافعون عنه. هذا يساعدنا في تحليل شخصية المخالف، ونتعامل معه وفق ذلك.

ثالثاً: آفاق الآية في بناء النفس والمجتمع والحضارة

بناء النفس المسلمة:

1. تربية النفس على التوكل: تمرين يومي: بعد أن تؤدي واجبك، قل: "كفى بالله شهيداً". اترك النتيجة لله.
2. تربية النفس على عدم الخوف من الناس: إذا كان الله شهيداً لك، فلماذا تخاف من الناس؟ هذا يزرع الشجاعة.
3. تربية النفس على مراقبة الله: استحضر دائماً أن الله يعلم ما في السموات والأرض. هذا يمنعك من الذنوب في الخلوات.
4. تربية النفس على القناعة: ليس مهماً أن يصدقك الناس أو يشهدوا لك. يكفي أن الله شاهد. هذا يعطيك قناعة داخلية.

بناء المجتمع:

1. التحكيم إلى الله في الخلافات المجتمعية: عندما يختلف المسلمون، يجب أن يحكموا شرع الله، لا أهواءهم. الآية تعلمنا أن نرفع الخلافات إلى المرجعية الإلهية.
2. محاربة الباطل بجميع أشكاله: مجتمع يؤمن بهذه الآية يسعى لنبذ كل باطل: من الخرافات إلى الفساد المالي، من الإشاعات إلى الظلم الاجتماعي.
3. تربية الأجيال على معايير الربح والخسارة: بدلاً من أن نربي أبناءنا على أن الناجح من جمع ما لا، نربيهم على أن الناجح من آمن بالله وكفر بالباطل.

بناء الحضارة:

.1أساس الحضارة هو التوحيد: الحضارة التي تقوم على الإيمان بالله ونبذ الباطل هي حضارة مستقرة عادلة .الآية تضع حجر الأساس: من آمن بالباطل فهو خاسر، فلا يمكن أن يبني حضارة ناجحة.
.2العدالة الإلهية كضمان للحق: في غياب العدالة الأرضية، يبقى الأمل في العدالة الإلهية .هذا المفهوم يمنع اليأس ويحفز على العمل للإصلاح.
.3النقد الذاتي للحضارة: كل حضارة تعاني من آفات الباطل) كالإلحاد، الاستغلال، الظلم .(الآية تدعونا لنقد أنفسنا: هل آمنا بالباطل دون أن نشعر؟

رابعاً: العلاقة بين الآية 52 والآيات السابقة – ذروة المنهج الحواري

لنرَ كيف تكتمل الصورة:

· الآية 46: كيف تجادل؟ بالتي هي أحسن.
· الآية 47: ماذا تتوقع؟ منهم من يؤمن ومنهم من يجحد.
· الآية 48-49: ما هو دليلك؟ القرآن وأمية النبي.
· الآية 50: ماذا تقول لطالب الآيات؟ الآيات عند الله وأنا نذير.
· الآية 51: ألم يكفهم القرآن؟
· الآية 52: بعد كل هذا، ماذا تفعل مع المعاند؟ قل: كفى بالله شهيداً.

إنه منهج متكامل: حوار راقٍ، ثم صبر على النتائج، ثم إقامة الأدلة، ثم رد على الطلبات التعسفية، ثم تذكير بالقرآن، ثم أخيراً تحويل القضية إلى الله. هذا هو المنهج الرباني في الدعوة.
خامساً: تطبيقات عملية: كيف نعيش هذه الآية اليوم؟

أخي الحبيب، هذه الآية ليست فقط لفهم الماضي، بل هي لتعيشها في واقعك اليوم:

.1في النقاشات العائلية: عندما تختلف مع والديك أو زوجتك أو أولادك، وتصل إلى طريق مسدود، بدلاً من الصراخ والعناد، قل في نفسك: "كفى بالله بيني وبينكم شهيداً" .ثم اترك النقاش بهدوء، وتوجه إلى الله بالدعاء أن يصلح ذات بينكم.
.2في العمل: قد يتهمك زميلك بالتقصير أو الخيانة، وأنت تعلم أنك بريء .بدلاً من أن تنهال عليه بالردود، ارفع الأمر إلى الله .قل: "كفى بالله شهيداً" .اشرح موقفك بهدوء، ثم فوّض الأمر لله.
.3على وسائل التواصل الاجتماعي: هناك من يهاجمك ويشكك في نواياك .لا تنخدع بالردود الغاضبة . اكتب لهم: "كفى بالله بيني وبينكم شهيداً" .هذا الرد سيكون سيفاً قاطعاً .سيظهر ثقتك بالله، ويخزي المعاندين.
.4عندما ترى منكراً ولا تستطيع تغييره: قد ترى ظلماً ولا تملك إزالته .تذكر: الله شهيد .لا تيأس . ارفع الأمر إلى الله بالدعاء، وثق أن الله لن يضيع حقاً.
.5في تربية الأبناء: علم أبناءك هذه الآية .علمهم أن يكفيهم الله شهيداً، وألا يخافوا من الناس . علمهم أن الخاسر الحقيقي هو من يترك الله ويؤمن بالباطل.
خاتمة: رسالة الآية إليك شخصياً

أخي الحبيب، أختي الكريمة،

ربما تشعر أحياناً أنك وحيد في معركتك مع الحق. ربما تخوض نقاشات مرهقة مع أصدقاء أو أقارب أو زملاء، يرفضون الحق بعناد، ويصرون على باطلهم، ويشككون في صدقك. ربما تتعب نفسك محاولاً إقناعهم، فلا يقتنعون. ربما تحزن عندما يسيئون إليك أو يتهمونك.

الآن، تخيل أن الله ينزل عليك هذه الآية وحدها، لتكون بلسماً لجراحك:

"قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا" – نعم، ارفع رأسك. لا تحتاج إلى شهادة أحد. الله معك. الله يراك. الله يسمعك. الله يعلم صدقك. وهو شهيد بينك وبينهم. يوم القيامة، سينطق كل شيء. ستنطق الجوارح. ستنطق الأرض. وسيعلم الجميع من كان على حق.

"يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ" – لا تخف من مكرهم، ولا من ظلمهم. الله يعلم كل شيء. يعلم نواياهم السيئة، ويعلم صدق نواياك. وهو العليم الحكيم. سيضع كل شيء في نصابه.

"وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ" – لا تحزن على خسارتهم. إنهم خاسرون.

خسروا الدنيا والآخرة. أنت رابح برضى الله، وهم خاسرون. فلا تذهب خلفهم. اتركهم في خسرانهم.

تخيل أن الله يمسح على رأسك ويقول لك: "يا عبدي، كفيتك. لا تخف. لا تحزن. أنا معك. أنا الشهيد. أنا العليم. وأولئك المعاندون هم الخاسرون. فامض في طريقك، واترك الحساب لي".

الآن، ارفع يديك وقل بقلبك: "حسبي الله ونعم الوكيل. كفى بالله شهيداً بيني وبين كل من عاند الحق. اللهم احكم بيننا بالحق، وأنت خير الحاكمين".

ستشعر بسكينة تنزل على قلبك. سترتاح أعصابك. ستهدأ ثورتك الداخلية. لأنك أيقنت أن الأمر كله بيد الله. وأن شهادته تكفي. وأن علمه يحيط بكل شيء. وأن الخاسر الحقيقي ليس أنت، بل هم.

المبحث السابع

أخي الحبيب/ أختي الكريمة،

هل تشعر أحياناً بثقل الصمت الإلهي؟ حين ترى الباطل يعلو، والظلم يستطير، والمعاندين يتطاولون على حدود الله، فتتمنى لو أن السماء تمطرهم ناراً، أو أن الأرض تبتلعهم، أو أن يأتيهم عذاب الله في لحظته، ليرتدعوا ويعرفوا أن الله معك؟

ثم تسمع سخريتهم: "متى هذا الوعد إن كنتم صادقين؟" وتراهم يتباهون بقوتهم وغناهم، كأنهم تحدوا السماء. تلك اللحظة التي يصل فيها الاغترار بالمادة ذروته، ويظن الإنسان أن بيده مقاليد الأمور، ويسخر من سنن الله في إهلاك المكذبين، ظاناً أنها لن تجري عليه.

هذه اللحظة بالذات، لحظة التحدي والاستعجال والاستهزاء، نزلت فيها الآية 53 من سورة العنكبوت. إنها ليست مجرد رد على طلب عابر، بل هي صاعقة من نور تكشف أعمق أمراض النفس البشرية، وتعرض لنا نموذجاً مصغراً من مسيرة الحضارات والأمم. دعني آخذ بيدك في رحلة تأملية مع هذه الآ ية، لنرى كيف تعكس صورة حية لمرض القمة الذي يصيب الأمم قبل انهيارها، وكيف تحمل في طياتها شفاءً لأمراض النفس المسلمة المعاصرة.

نص الآية وتفصيلها

قال الله تعالى: "وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالعَذَابِ ۚ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُسَمًّى لَجَاءَهُمُ العَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ" (العنكبوت: 53).

المقدمة: سياق الآية ومقاصدها العظمى

تأتي هذه الآية في سياق المكابرة والاستكبار. المشركون لم يكتفوا بتكذيب النبي ﷺ، بل أضافوا إلى ذلك التطاول والاستهزاء، فطلبوا العذاب على سبيل التحدي والسخرية. يقول ابن كثير رحمه الله: إن الله يخبر عن جهل المشركين في استعجالهم عذاب الله أن يقع بهم. وهذا ليس مجرد جهل، بل هو قمة الغرور الذي يصيب الإنسان عندما يصل إلى مرحلة الاغترار بقوته، فيظن أنه فوق سنن الله.

المقاصد العظمى هنا عميقة وشاملة:

1. فضح الجهل المركب: الذين يستعجلون العذاب لا يعلمون أنهم يستعجلون هلاك أنفسهم، وهذا أشد أنواع الجهل.
2. بيان حكمة الله في تأخير العذاب: ليس عجزاً، بل رحمة وإمهالا ً واختباراً.
3. إظهار سنة من سنن الله: العذاب يأتي بغتة، في لحظة غفلة واطمئنان، وهذه قاعدة كونية.
4. تحذير للأجيال القادمة: لا تغتروا بقوتكم، فإن العذاب قد يأتيكم من حيث لا تشعرون.

الأمر الأول: دلالة (وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالعَذَابِ)

ما معنى الاستعجال بالعذاب؟

هو طلب العذاب بسرعة، كأنهم يقولون: "إن كنت صادقاً، فأتنا بالعذاب الذي تعدنا به". قال تعالى في موضع آخر: "وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ" (الأنفال: 32). هذا هو قمة التحدي والسخرية.

اللمسات البيانية والبلاغية:

· "يَسْتَعْجِلُونَكَ" – الفعل مضارع، يدل على الاستمرار والتكرار. لم تكن مجرد مرة، بل كانوا يكررون طلب العذاب في كل مناسبة.
· "بِالعَذَابِ" – تعريف العذاب بأل يفيد الجنس والعظمة. أي يطلبون أي عذاب، كأنهم يقولون: أي عذاب كان، نحن مستعدون له.
· "بِالعَذَابِ" وليس "العذاب" – الباء للسببية، أي بسبب العذاب هم يستعجلون. كأن العذاب هو الذي يحفزهم على الطلب!

ما هي الرسائل النفسية والتربوية؟

.1التعرف على مرض "استعجال العقاب": هذه ظاهرة نفسية عميقة، حيث يصل الإنسان إلى مرحلة من الغرور والتحدي تجعله يتمنى العقاب ليُثبت أنه أقوى منه .إنه يريد أن يرى العذاب بعينه، ليُظهر أنه قادر على تحمله! وهذا من أخطر أمراض النفس.
.2عدم الردع بالوعيد: بعض الناس لا يردعهم الوعيد، بل يدفعهم للتحدي .الآية تعلمنا أن نتعامل مع هذه الفئة بالحكمة، ونجعل غايتنا هدايتهم لا إثبات قدرتنا عليهم.
.3تحذير من الاستهزاء بالدين: الذين يستعجلون العذاب هم الذين بلغ بهم التطاول على الدين و الرسول مبلغاً عظيماً .الآية تحذرنا أن نكون منهم.
الأمر الثاني: دلالة (وَلَوْلَا أَجَلٌ مُسَمًّى لَجَاءَهُمُ العَذَابُ)

ما معنى "أجل مسمى"؟

هو وقت محدد عند الله، لا يتقدم ولا يتأخر، لعذابهم في الدنيا أو الآخرة. قال ابن عباس: هو ما وعد الله نبيه من تأخير العذاب عن قومه إلى يوم القيامة. وقيل: هو يوم بدر، حيث حل بهم العذاب. وقيل: هو مدة أعمارهم.

اللمسات البيانية والبلاغية:

· "لَوْلَا" – أداة امتناع لوجود. أي لولا وجود أجل مسمى، لجاءهم العذاب فوراً. هذا يدل على أن التأخير ليس لعدم الاستحقاق، بل لحكمة إلهية.
· "أَجَلٌ مُسَمًّى" – تنكير الأجل للتعظيم، ووصفه بـ"مسمى" يدل على التحديد الدقيق عند الله. ليس أجلاً عشوائياً، بل أجل محدد بدقة متناهية.
· "لَجَاءَهُمُ العَذَابُ" – جواب "لولا"، وفيه تأكيد أن العذاب كان سيأتيهم فوراً لولا هذا الأجل. وهذا يظهر شدة استحقاقهم للعقاب.

ما هي الرسائل النفسية والتربوية؟

.1فهم حكمة التأخير الإلهي: الله لا يعجل بالعقاب رحمة منه، وإمهالاً لعلهم يتوبون، أو ليستكملوا نصيبهم من العذاب .هذا يعلمنا الصبر وعدم اليأس.
.2الإيمان بالقدر: كل شيء في علم الله محدد بأجل .لا يتقدم ولا يتأخر .هذا يريح قلب المؤمن.
.3التمييز بين العذاب العاجل والآجل: قد لا يأتي العذاب في الدنيا، ولكن الآخرة هي موعدهم الأكبر.

آفاق الآية في بناء النفس المسلمة:

هذه الجملة تبني في المؤمن اليقين بعدالة الله، والصبر على أذى الخلق، والثقة بأن الله لا يظلم أحداً. عندما ترى الظالمين يتباهون، تذكر: لهم أجل مسمى، وسيأتيهم العذاب. هذا يعطيك طمأنينة وقوة نفسية.
الأمر الثالث: دلالة (وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ)

ما معنى "بغتة" و"لا يشعرون"؟

"بغتة" أي فجأة، في وقت لا يتوقعونه. و"لا يشعرون" أي لا يدركون اقترابه، فهم في غفلة واطمئنان. هذا أشد أنواع العذاب: أن يأتيهم وهم آمنون مطمئنون، يظنون أنهم في مأمن.

اللمسات البيانية والبلاغية:

· "لَيَأْتِيَنَّهُم" – القسم المؤكد باللام والنون، يفيد القطع والجزم. ليس احتمالاً، بل هو حقيقة واقعة لا

محالة.
· "بَغْتَةً" – مصدر في موقع الحال، يدل على مفاجأة عظيمة. وكأن العذاب يثب عليهم وهم نائمون.
· "وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ" – جملة حالية، تصور حالتهم النفسية: في قمة الغفلة والاطمئنان. إنها صورة مرعبة: ناس يظنون أنهم في قمة الأمان، ثم يفاجئهم العذاب.

ما هي الرسائل النفسية والتربوية؟

.1عدم الاغترار بالأمن: أشد اللحظات خطراً هي لحظات الأمن والاطمئنان .الآية تحذرنا من أن ننام عن اليقظة، أو نغتر بقوتنا.
.2الاستعداد الدائم: المؤمن لا يعرف متى يأتيه الموت أو البلاء .يجب أن يكون دائماً في حالة استعداد وتوبة.
.3أخذ الحيطة: لا تظن أن العذاب لا يأتي إلا بعد إنذار .قد يأتي فجأة .هذا يعلمنا أن نكون في حالة ترقب دائم.
ثانياً: الآية ونظرية مالك نبي في بناء الأمة (مراحل الروح والعقل والجسد)

الآن، أخي الحبيب، دعنا نصعد إلى أفق أوسع. هذه الآية لا تحكي فقط عن قوم عادوا نبيهم، بل ترسم صورة لكل أمة تمر بمراحل الصعود والهبوط. وهنا يأتي عبقرية المفكر الجزائري مالك نبي، الذي حلل حركة الأمم في ثلاث مراحل: مرحلة الروح، ثم مرحلة العقل، ثم مرحلة الجسد (أو الغريزة). هذه الآية هي وصف دقيق لمرحلة الجسد عندما تنحرف وتصل إلى القمة، فتبدأ بالسقوط.

أولاً: مرحلة الروح – البذرة الأولى

كل نهضة تبدأ بفكرة، ببذرة روحانية. هي تلك اللحظة التي يوقظ فيها دين أو قضية الضمير الإنساني. إنها مرحلة الإيمان والتضحية والبناء على القيم. في هذه المرحلة، يبني الأفراد والمجتمعات أنفسهم على أساس من العقيدة الصادقة، فيكونون أقوياء بالإيمان، متواضعين بالجهد، زاهدين في الدنيا.

تطبيق الآية: المشركون الذين استعجلوا العذاب كانوا قد تخطوا هذه المرحلة. لم يكن في قلوبهم روح إيمانية تدفعهم للبحث عن الحق. كانت قلوبهم ميتة، فلا يوقظها إلا طلب العذاب! هذه هي أشد حالات الانحطاط: أن تصل الأمة إلى مرحلة لا يهمها إلا التحدي والمكابرة.

ثانياً: مرحلة العقل – البناء والازدهار

هذه هي مرحلة التخطيط والتنظيم والبناء المنهجي. بعد أن تستقر الروح، يأتي دور العقل ليخطط وينظم ويبني المؤسسات. إنها مرحلة القوة الفكرية، حيث يزدهر العلم والفن والاقتصاد. المجتمع هنا في قمة عطائه، يعمل بجد، ويبني مستقبلاً مشرقاً.

تطبيق الآية: المشركون في مكة وصلوا إلى مرحلة من الازدهار الاقتصادي والقوة العسكرية، لكنها كانت خالية من الروح. لم يبنوا حضارة على أساس من القيم، بل على أساس من القهر والظلم. ولذلك، عندما وصلوا إلى القمة، بدأ الانهيار.

ثالثاً: مرحلة الجسد (الغريزة) – القمة التي تسبق الانهيار

هذه هي أخطر مرحلة، وهي التي تصورها لنا الآية بوضوح. يشرح مالك نبي أن الحضارة تبدأ بفكرة (روح) وتنتهي بغريزة. في هذه المرحلة، يتحول المجتمع إلى جسد بلا روح. تصبح المادة هي القيمة العليا. الناس يعبدون الغريزة (المال، الجاه، الشهوات). ويسود الاغترار بالقوة، فيظنون أنهم بلغوا الذروة التي لا يمكن لأحد أن يصل إليها، ويستهينون بسنن الله.

صفات مرحلة الجسد في الآية:

.1الاستعجال بالتحدي: "وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ" .هذا هو لسان المرحلة التي وصلت إلى ذروة الغرور، و التي تتحدى السماء نفسها .إنهم لا يخافون الله، بل يستعجلون عقابه ليُثبتوا أنهم أقوى منه!
.2الاغترار بالمادة: عندما يصل المجتمع إلى هذه المرحلة، يظن أن قوته المادية تحميه من أي عقاب . يظن أن الجيوش والمال والبنية التحتية هي التي تمنع نزول العذاب .وهذا هو عين الجهل .قال تعالى: "فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ") الأنعام:.(44

.3السخرية من السنن الكونية: "وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالعَذَابِ" هو استهزاء بسنن الله في إهلاك المكذبين . يقولون: نحن نعرف أن العذاب لم ينزل، فنحن على حق، وأنت على باطل .وهذا هو الكفر بالسنن الكونية.

كيف يكون الاغترار بالمادة سبباً في السقوط؟

عندما يصل المجتمع إلى مرحلة الجسد، يحدث التالي:

.1انفصال القيم عن المادة: يظن الناس أن القوة المادية وحدها تكفي، فينفصلون عن القيم الروحية والأخلاقية التي هي أساس البقاء .هذا هو عين الانحراف.
.2تحول الوسائل إلى غايات: وسائل القوة) المال، الجيوش، التقنية (تصبح هي الغاية نفسها، ويُنسى الهدف الأسمى من الوجود.
.3فقدان البوصلة: لا يعود الناس يعرفون الصواب من الخطأ، بل يعبدون النجاح المادي فقط.
.4الظلم والفساد: عندما تسود الغريزة، يكثر الظلم والفساد، ويصبح القوي هو الذي يسن القوانين، ويصبح الضعيف مهمشاً.

لماذا يأتي العذاب "بَغْتَةً" و"وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ"؟

لأن المجتمع في مرحلة الجسد يكون في قمة الغفلة. إنه مشغول بملذاته وشهواته وقوته، لدرجة أنه لا يرى العلامات. يظن أن الأمن دائم، والقوة مستمرة، والرخاء لا ينتهي. وفجأة، تنهار كل شيء. هذا هو أشد أنواع العذاب: أن تأتيك الصاعقة وأنت في قمة الفرح والاطمئنان.

ثالثاً: الآية وصورة المجتمع المنحرف – تطبيقات على واقعنا

أخي الحبيب، هذه الآية ليست مجرد حكاية قديمة. إنها مرآة تعكس واقع مجتمعاتنا المعاصرة. نحن نعيش في عصر وصلت فيه البشرية إلى ذروة القوة المادية، لكنها في الوقت نفسه تعاني من أعمق أزمة روحية. تأمل معي كيف تتجلى صورة "مرحلة الجسد" في واقعنا:

.1الاستعجال بالعذاب في العصر الحديث

نرى اليوم من ينادي: "أين عذاب الله؟ لماذا لا ينزل؟ نحن نعصيه ولا نرى عقاباً!". هذا هو عين الا ستعجال الذي ذكرته الآية. بعض الناس يصل بهم الغرور إلى درجة تحدي الله، فيطلبون العذاب استهزاءً، ظانين أن قوتهم المادية تحميهم. ولكن الآية تحذر: إنهم لا يعلمون أن أجلهم مسمى، وأن العذاب قد يأتيهم بغتة.

.2الاغترار بالمادة والتباهي بها

نشهد اليوم تطوراً تقنياً هائلا ً، وثروات طائلة، وأبنية شاهقة، وأساطير جيوش. البعض يظن أن هذه القوة تجعله فوق سنن الله. لكن التاريخ يعلمنا أن أعظم الحضارات انهارت في لحظة غفلة، عندما بلغت ذروة قوتها. قال تعالى: "وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْماً آخَرِينَ" (الأنبياء: 11).

.3السخرية من سنن الله في هلاك المكذبين

من أخطر ما نراه اليوم هو استهزاء البعض بقصص الأمم السابقة. يقولون: "هذه أساطير الأولين، لم تحدث. والعذاب الذي تتحدثون عنه لم نره". هذا هو عين ما قاله المشركون للنبي ﷺ. والآية ترد عليهم: لولا أجل مسمى لجاءهم العذاب. وسيأتيهم بغتة وهم لا يشعرون.
رابعاً: المفاهيم العملية والدروس الحياتية من الآية

المفهوم الأول: الصبر على أذى الخلق

الآية تعلمنا أن لا نستعجل بنزول العذاب على أعدائنا. الله له حكمة في تأخيره، ورحمته وسعت كل شيء. مهمتنا هي الصبر والتبليغ، وليس الانتقام.

المفهوم الثاني: عدم الاغترار بالقوة

مهما بلغت قوتك، تذكر أنها ليست دائمة. وأن الله قادر على أخذها في لحظة. هذا يزرع التواضع و الخوف من الله.

المفهوم الثالث: الإيمان بالأجل المسمى

كل شيء في هذه الدنيا له وقت محدد. لا تستعجل الأمور، وكن على يقين أن كل شيء سيأتي في وقته.

المفهوم الرابع: الاستعداد للموت والبلاء

لا تدري متى يأتيك الموت أو البلاء. كن دائماً في حالة استعداد، بالتوبة والعمل الصالح.

المفهوم الخامس: مراقبة علامات الانحراف

تعلم كيف تراقب مجتمعك. إذا لاحظت أن المادة أصبحت هي القيمة العليا، وأن الغريزة تحكم الناس، وأن السنن الإلهية تُستهزأ بها، فاعلم أن المجتمع في مرحلة خطر، وأن العذاب قد يأتي بغتة.
خامساً: آفاق الآية في بناء النفس والمجتمع والحضارة

بناء النفس المسلمة:

.1تربية النفس على التواضع: لا تغتر بقوتك أو مالك أو جاهك .كلها زائلة، وقد تزول في لحظة.
.2تربية النفس على الصبر: لا تستعجل العقاب لأعدائك، بل ادعُ لهم بالهداية، وتوكل على الله.
.3تربية النفس على اليقظة: لا تغفل عن ذكر الله، ولا عن الاستعداد للموت .كن دائماً في حالة ترقب.
.4تربية النفس على مراجعة الحساب: قبل أن يحاسبك الله، حاسب نفسك .هل أنت في مرحلة الروح أم العقل أم الجسد؟

بناء المجتمع:

.1بناء مجتمع قائم على القيم: لا تجعل المادة هي الهدف الوحيد .بل اجعل القيم الروحية والأخلا قية هي الأساس.
.2تحذير المجتمع من الغفلة: ذكر الناس دائماً بأن الدنيا زائلة، وأن العذاب قد يأتي بغتة.
.3إحياء سنة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: لا تدع المجتمع ينحرف دون أن تنذره .كن نذيراً مبيناً.

بناء الحضارة:

.1التوازن بين الروح والمادة: أي حضارة ناجحة لا بد أن توازن بين متطلبات الروح ومتطلبات الجسد .لا تطغى المادة على القيم.
.2دراسة سنن التاريخ: افهم سنن الله في هلاك الأمم، وتجنب الأخطاء التي أدت إلى انهيار الحضارات السابقة.
.3الإيمان بأن العذاب ليس فقط عذاباً أخروياً: العذاب قد يأتي في الدنيا على شكل حروب، أو أوبئة، أو فساد، أو ظلم .احذروا من هذه العواقب.

خاتمة: رسالة الآية إليك شخصياً

أخي الحبيب، أختي الكريمة،

ربما تمر بأوقات تشعر فيها أن الباطل يعلو، والظلم يستطير، والمعاندون يتطاولون. ربما تتمنى لو أن الله أرسل عليهم عذاباً من السماء، ليرتدعوا. ربما تشعر بالإحباط عندما ترى أن العذاب لا ينزل، و الظالمون يزدادون قوة.

الآن، تخيل أن الله ينزل عليك هذه الآية وحدها، لتكون بلسماً لجراحك:

"وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالعَذَابِ" – لا تتعجب من استعجالهم، فهذه طبيعتهم في مرحلة الغرور والطغيان.
"وَلَوْلَا أَجَلٌ مُسَمًّى لَجَاءَهُمُ العَذَابُ" – لا تظن أن الله غافل عنهم. بل هو يمهلهم لأجل مسمى، لحكمة

يعلمها. ولو شاء لجاءهم العذاب فوراً.
"وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ" – سيأتيهم العذاب فجأة، في لحظة غفلة واطمئنان. عندما يكونون في قمة فرحهم بقوتهم، تأتيهم الصاعقة.

تخيل أن الله يمسح على رأسك ويقول لك: "يا عبدي، لا تحزن. لا تستعجل. أنا الذي أمهل ولا أهمل. سنتي في الأمم لا تتغير. من بلغ ذروة الطغيان، يأتيه العذاب بغتة. فكن أنت على يقين، وامض في طريقك. ولا تكن ممن يستعجل العذاب، بل كن ممن يخشى الله في السر والعلن".

الآن، ارفع رأسك. لا تيأس. لا تستعجل. اعمل أنت على بناء روحك، وعقلك، ومجتمعك. واترك الباقي على الله. إنه هو العليم الحكيم، الذي يملك الأجل المسمى، والذي يأتي بالعذاب بغتة.

المبحث الثامن
أخي الحبيب/ أختي الكريمة،

هل تتذكر ذلك الشعور عندما كنت طفلاً، تلعب غافلاً، وتنسى أن والدك قد حذرك من الاقتراب من النار؟ ثم فجأة، تشتعل النار في وجهك، وتصطدم بالواقع المرير. هذا الشعور بالصدمة والندم، عندما يتحول التحذير إلى حقيقة محرقة، هو ما تصوره لنا الآيتان 54 و55 من سورة العنكبوت.

بعد أن أخبرنا الله في الآية السابقة أن المشركين يستعجلون العذاب، وأنه سيأتيهم بغتة وهم لا يشعرون، يأتي الآن الكشف عن حقيقة هذا العذاب. إنها ليست مجرد صاعقة أو زلزلة، بل هي جهنم نفسها، محيطة بهم من كل جانب. ثم ينتقل المشهد إلى يوم القيامة، حيث يغشاهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم، ويقال لهم: "ذوقوا ما كنتم تعملون".

هاتان الآيتان هما قمة التصوير الفني القرآني للمشاهد الأخروية. إنهما ترسمان لوحة مرعبة في خيال القارئ، ليس فقط لإخافته، بل لإيقاظ ضميره، وتحقيق ما يسمى بـ "مبدأ الإشفاق" – أي أن يشفق الإنسان على نفسه، فيتقي الله قبل فوات الأوان. دعني آخذ بيدك في هذه الرحلة، لنرى كيف يحول القرآن المشهد الأخروي إلى واقع حي يعيشه القارئ بكل جوارحه.
نص الآيتين وتفصيلهما

قال الله تعالى:
"يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ" (العنكبوت: 54)
"يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ" (العنكبوت: 55)

المقدمة: سياق الآيتين ومقاصدهما العظمى

هاتان الآيتان تأتيان كالرد النهائي على استعجال المشركين للعذاب. هم يطلبونه استهزاءً وتحدياً، والله يخبرهم أنهم لو علموا حقيقة العذاب لما استعجلوه. إنه عذاب ليس بعيداً عنهم، بل هو محيط بهم من كل جهة. ثم يفصل المشهد في يوم القيامة، ليريهم أن العذاب يغشاهم من فوق ومن تحت، فلا مهرب ولا مناص.

المقاصد العظمى:

1. تحويل الاستعجال إلى رهبة: بدلاً من أن يستعجلوا العذاب، يخوفهم الله منه.
2. تصوير شمولية العذاب: جهنم محيطة بهم، والعذاب يغشاهم من كل جانب.
3. ربط العذاب بالعمل: "ذوقوا ما كنتم تعملون" – الجزاء من جنس العمل.
4. تحقيق مبدأ الإشفاق: إيقاظ الخوف في القلوب لعلها ترجع عن غيها.

أولاً: الآية 54 – جهنم محيطة بالكافرين

الأمر الأول: دلالة (يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ)

هذا تكرار للتأكيد على صفة الاستعجال التي ذكرتها الآية السابقة (53). لكن هنا، يأتي الرد مباشرة: بدلاً من أن يستعجلوا العذاب، ليعلموا أن العذاب الحقيقي هو جهنم، وهي محيطة بهم.

اللمسة البلاغية: التكرار هنا ليس مجرد إعادة، بل هو تقرير لحالهم، ثم مقابلة بحقيقة العذاب. كأنه يقول: هم في استعجال، وأنا أريهم أن ما يستعجلون له هو محيط بهم أصلاً.

الأمر الثاني: دلالة (وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالكافِرِينَ)

ما معنى "محيطة"؟

المحيط هو الذي يحيط بالشيء من كل جوانبه، فلا يستطيع الهروب. إنها صورة جهنم كأنها سجن لا مخرج منه، أو كحلقة تطوق العنق. ووصفها بأنها محيطة "بالكافرين" يدل على أنهم هم المستحقون لها، وأنها خلقت لهم.

اللمسات البيانية والبلاغية:

· "إِنَّ" و"لَ" – تأكيدان متتاليان) إنّ واللام المزحلقة (يفيدان القسم والجزم .إنها حقيقة لا شك فيها.
· "جَهَنَّمَ" – ذكر الاسم العلم للنار، فيه إيحاء بالفظاعة .ليس مجرد "نار"، بل جهنم بكل ما تحمله الكلمة من معاني الرعب والعذاب.
· "لَمُحِيطَةٌ" – صيغة اسم فاعل، تدل على الثبات والاستمرار .ليست محيطة بهم في لحظة، بل هي محيطة بهم دائماً.
· "بِالكافِرِينَ" – التخصيص: هم الكافرون، وليس غيرهم .هذه طمأنة للمؤمنين، ووعيد للكافرين.

ما هي الرسائل النفسية والتربوية؟

.1تحويل الاستعجال إلى خوف: عندما يعلم الإنسان أن جهنم محيطة به، لا يمكن أن يستعجلها .بل يخاف منها .الآية تعالج مرض الاستعجال بالخوف من العذاب.
.2الإحساس بالحصار: الصورة النفسية التي ترسمها "محيطة" تجعل الكافر يشعر بأنه في قفص لا مفر منه .هذا يزرع القلق والاضطراب في نفسه، وقد يكون سبباً في توبته.
.3طمأنة المؤمن: المؤمن يرى أن عدوه محاط بجهنم، فلا يحزن على ما يفوت، ولا ييأس من نصر الله.

آفاق الآية في بناء النفس المسلمة:

هذه الجملة تبني في المؤمن اليقين بعدالة الله، وأن الكافرين لن يفلتوا. كما تربي فيه الشفقة على الكافرين، لأنه يعلم أن مصيرهم هذا. وهذا هو أولى خطوات الدعوة: أن تشفق على المخالف، لا أن تكرهه كرهاً أعمى.
ثانياً: الآية 55 – يوم يغشاهم العذاب من فوق ومن تحت

الأمر الثالث: دلالة (يَوْمَ يَغْشَاهُمُ العَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تحْتِ أَرْجُلِهِمْ)

ما معنى "يغشاهم"؟

"يغشاهم" من الغشاء، وهو التغطية والشمول .أي يغطيهم العذاب من كل جانب .العذاب ليس شيئاً يأتيهم من جهة واحدة، بل يلفهم من فوق ومن تحت.

ما هو العذاب من فوق ومن تحت؟

· "مِنْ فَوْقِهِمْ" – قد يكون لهب النار يعلوهم، أو ظلال من الدخان، أو الزبانية تنزل عليهم.
· "مِنْ تحْتِ أَرْجُلِهِمْ" – الأرض التي تحت أقدامهم تصبح ناراً، أو تخرج منهم النار من تحتهم .إنه حصار كامل.

اللمسات البيانية والبلاغية:

· "يَوْمَ" – منصوب بفعل مقدر، أي "اذكر يوم" .هذا التوقيت يضع القارئ في قلب الحدث.
· "يَغْشَاهُمُ" – فعل مضارع، يفيد التجدد والاستمرار .أي يتجدد غشيان العذاب عليهم.
· "مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تحْتِ أَرْجُلِهِمْ" – ذكر الجهتين المتقابلتين) فوق وتحت (يفيد العموم والشمول .كأنه يقول: من كل اتجاه.
· الإضافة في "أَرْجُلِهِمْ" – إضافة الأرجل إليهم تشعرهم بأن العذاب يأتي من أقرب شيء إليهم، من تحت أقدامهم التي يمشون عليها .هذا يزيد الإحساس بالرعب.

ما هي الرسائل النفسية والتربوية؟

.1لا مهرب: عندما يحيط بك العذاب من فوق ومن تحت، لا تستطيع الفرار .هذا يزرع اليأس من الهروب، ويدفع إلى الندم.
.2الجزاء من جنس العمل: من مشى على الأرض متكبراً، عذب من تحت أقدامه .من رفع رأسه بالا ستكبار، عذب من فوقه .هذا تطابق بديع.
.3التذكير بأن الدنيا ليست كل شيء: مهما كانت قوتك في الدنيا، يوم القيامة لا تنفعك .أنت عاجز أمام عذاب الله.

التصوير الفني في هذه الآية:

تخيل معي هذا المشهد: أنت واقف، فجأة، ترى ناراً تنزل من السماء تغشاك، وفي نفس الوقت، تشعر أن الأرض التي تقف عليها تتحول إلى جمر يحرق قدميك. لا ملجأ، لا مفر. أنت في قلب كرة من النار. هذا هو التصوير الفني الذي يضرب به المثل. القرآن لا يخبرك فقط، بل يرسم لك المشهد. تسمع صوت النار، تشعر بحرارتها، ترى الدخان يعلو، وتسمع الزفير. إنه يجعل المشهد حياً في ذهنك، كأنك تعيشه الآن. وهذا هو سر تأثير القرآن العظيم.

الأمر الرابع: دلالة (وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)

من القائل؟ وما معنى "ذوقوا"؟

القائل هم خزنة جهنم، أو الله عز وجل، أو النار نفسها. "ذوقوا" أمر، يفيد التوبيخ والتحقير. الذوق هو ألم اللمس، وهو أشد من مجرد الرؤية. إنهم يأمرونهم أن يذوقوا العذاب بأيديهم وأجسادهم، ليعلموا أن ما كانوا يعملونه هو سبب هذا العذاب.

اللمسات البيانية والبلاغية:

· "يَقُولُ" – فعل مضارع، يفيد التكرار .أي يقال لهم هذا القول مرة بعد مرة.
· "ذُوقُوا" – فعل أمر، فيه إهانة وتحقير .كأن يقال للأسير: "ذق هذا العذاب، كما كنت تذوق لذة المعصية".
· "مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ" – "ما" موصولة، والعائد محذوف .أي ذوقوا جزاء الذي كنتم تعملون .ربط العذاب بـ العمل، ليعلموا أنهم لم يظلموا، بل جزاؤهم بما كسبت أيديهم.

ما هي الرسائل النفسية والتربوية؟

.1المسؤولية الفردية: كل إنسان يذوق جزاء عمله .لا ينفع فيه شفاعة ولا فداء.
.2الندم المتأخر: في ذلك اليوم، يندمون، لكن الندم لا ينفع .الآية تحذرنا من أن نكون منهم.
.3العدالة المطلقة: الله لا يظلم أحداً .أنت الذي عملت، وأنت الذي تذوق.
ثالثاً: خطورة الانحطاط الروحي المصاحب للتقدم الحضاري المادي

أخي الحبيب، الآن نصل إلى جوهر الرسالة التي تريدها. هذه الآيات ترسم صورة مرعبة لمجتمع وصل إلى ذروة القوة المادية، لكنه انحط روحياً. دعنا نربط هذا بتحليل مالك نبي وغيره.

مراحل الأمة من الروح إلى الجسد (كما سبق):

.1مرحلة الروح: الإيمان والتضحية والقيم.
.2مرحلة العقل: التخطيط والتنظيم والبناء.
.3مرحلة الجسد) الغريزة(: الاغترار بالمادة، عبادة الشهوة، السخرية من الدين.

كيف يحدث الانحطاط الروحي مع التقدم المادي؟

عندما تزدهر الحضارة مادياً، يبدأ الإنسان في الشعور بالاكتفاء الذاتي. يظن أن قوته المادية تغنيه عن الله. يبدأ في نسيان القيم الروحية، ويتجه إلى عبادة المال والجاه واللذة. هذا هو عين ما كان عليه قوم عاد وثمود وفرعون. قال تعالى عن قارون: "إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ" (القصص: 76). ثم ماذا كانت نهايته؟ خسف الله به وبداره الأرض.

أثر الانحطاط الروحي على التصورات والنظرة للحياة:

.1تحول الغايات إلى وسائل: يصبح الهدف من الحياة هو جمع المال والتمتع بالشهوات .تصبح الصلاة والزكاة والحج مجرد طقوس فارغة من الروح.
.2فقدان البوصلة الأخلاقية: لا يصبح هناك حرام ولا حلال، بل كل ما يجلب المتعة هو مباح .ينتشر الفساد والظلم والربا والزنا.
.3السخرية من سنن الله: يستهزئون بقصص الأنبياء والأمم السابقة، ويقولون: "أساطير الأولين" .وهذا ما أشارت إليه الآية "يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ" – كأنهم يقولون: أين العذاب الذي تخوفنا به؟ لم نره.
.4الغرور بالأمان: يشعرون أنهم في منأى عن أي عقاب، لأنهم بنوا جيوشاً قوية، واقتصاداً ضخماً، وتقنية عالية .ينسون أن الله قادر على أن يأخذهم بغتة.

كيف يوصل الانحطاط الروحي صاحبه إلى الهلاك؟

.1عدم الاستعداد للمستقبل: عندما ينشغل الإنسان بالدنيا ولذاتها، ينسى الآخرة .لا يعمل لها، ولا يتوب، ولا يستعد للموت .يظن أن الموت بعيد، أو أن الشباب دائم.
.2الغفلة عن العلامات: لا يرى العلامات التي تنذره .يمرض، لكنه لا يتعظ .يرى موت غيره، لكنه لا يخاف .تظلم الأرض من حوله، لكنه لا يبالي.
.3المفاجأة بالعذاب: ثم يأتي العذاب "بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ") الآية .(53 في لحظة غفلة، بينما هم في لهوهم، تأتيهم الصاعقة .إما موت مفاجئ، أو حرب مدمرة، أو وباء قاتل، أو خسف، أو أي نوع من العذاب.

وهذا هو بالضبط ما تصوره الآية 55: "يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ" – أي من كل جهة، لا مهرب. إنها صورة حية لمن غرق في المادة حتى نسي الروح، فجاءه العذاب من حيث لا يحتسب.
رابعاً: دور التصوير الفني في تحقيق مبدأ الإشفاق

ما هو مبدأ الإشفاق؟

الإشفاق هو خوف ممزوج بالرأفة والشفقة على النفس. إنه ليس خوفاً جامداً، بل خوف يدفع الإنسان إلى تغيير سلوكه، والتوبة، والاستعداد للآخرة. هو خوف يوقظ الضمير، لا يشل الحركة.

كيف يحقق التصوير الفني القرآني الإشفاق؟

القرآن لا يخبرك فقط بأن هناك ناراً، بل يرسمها لك. يستخدم كلمات حية، وصوراً متحركة، وأصواتاً، وألواناً، ليخلق في مخيلتك مشهداً كاملا ً. هذا المشهد يلامس مشاعرك، فينقلب الخوف المجرد إلى إشفاق حقيقي.

أمثلة من الآيتين:

.1"مُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ" – الصورة: كأن جهنم سجن ضيق لا مخرج منه .أو كأنها حبل يلف حول رقبتهم .هذا يخلق شعوراً بالاختناق والخنق، فيشفق الإنسان على نفسه من أن يكون محاطاً بها.
.2"يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ" – الصورة: كرة من النار، لا يوجد فيها نقطة أمان . من فوق يحرقهم، ومن تحت يحرقهم .الإنسان العادي يشعر بالرعب عندما يحاط به من جهتين، فكيف من كل جهة؟ هذا يخلق إشفاقاً كبيراً.
.3"ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ" – الصورة: صوت آمر زاجر، فيه توبيخ وتحقير .كأنك تسمع الصوت في أذنك .هذا يخلق شعوراً بالندم والعجز، فيشفق الإنسان على نفسه من أن يسمع هذا الصوت.

أهمية الإشفاق في التربية والدعوة:

· الإشفاق يحرك الإرادة: الخوف المجرد قد يشل الإنسان، أما الإشفاق) الخوف الممزوج بالرأفة (فيدفعه إلى العمل .إنه يجعله يقول: "أنا أخاف على نفسي، فلا بد أن أتغير".
· الإشفاق يمنع اليأس: عندما تشفق على نفسك، لا تيأس من رحمة الله، بل تبادر إلى التوبة.
· الإشفاق يجعل الدعوة مؤثرة: عندما تخاطب الناس بهذه الصور، لا تخيفهم إخافة جامدة، بل توقظ فيهم الشفقة على أنفسهم .هذا أكثر تأثيراً من مجرد الوعيد الجاف.

كيف نستثمر هذا المبدأ في حياتنا؟

.1في تربية أنفسنا: كلما هممت بمعصية، استحضر هذه الصور .تخيل جهنم محيطة بك .تخيل العذاب يغشاك من فوق ومن تحت .تخيل صوت "ذوقوا ما كنتم تعملون" .هذا سيزيدك إشفاقاً على نفسك، فترتدع.
.2في تربية أبنائنا: لا تخوفهم تخويفاً يبعث على اليأس، بل استخدم القصص والصور المؤثرة لتحقيق الإشفاق .أخبرهم عن النار، ولكن أخبرهم أيضاً عن الجنة .الخوف المطلوب هو الذي يدفع إلى العمل، لا الذي يشل الحركة.
.3في الدعوة: عند دعوة الناس إلى الله، استخدم التصوير الفني .ارسم لهم مشاهد الآخرة بأسلوب مؤثر، يجعلهم يشفقون على أنفسهم .لكن لا تنسَ أن تتبع ذلك ببشارة الرحمة والمغفرة.
خامساً: المفاهيم العملية والدروس الحياتية من الآيتين

المفهوم الأول: الاستعجال بالعذاب جهل مركب

الذي يستعجل العذاب لا يعرف حقيقته. لو عرفها لما استعجلها. هذا يعلمنا أن نكون حذرين في أمنياتنا، فقد نتمنى شيئاً نجهل عواقبه.

المفهوم الثاني: جهنم ليست بعيدة، بل محيطة

قد نظن أن جهنم في مكان بعيد، ولكن الحقيقة أنها أقرب إلينا من حبل الوريد. من مات على الكفر، فهو محاط بها. هذا يزرع فينا الخوف الدائم.

المفهوم الثالث: العذاب شامل لا مهرب منه

عندما يأتي عذاب الله، لا تنفع القوة، ولا المال، ولا الجاه. الإنسان عاجز تماماً. هذا يعلمنا التواضع.

المفهوم الرابع: الجزاء من جنس العمل

"ذوقوا ما كنتم تعملون" – أنت تذوق ثمرة عملك .إن كان خيراً فخير، وإن كان شراً فشر .هذا يعلمنا أن نعمل لأنفسنا خيراً.

المفهوم الخامس: الإشفاق أداة تغيير

الخوف الذي يدفع إلى التغيير هو خوف ممزوج بالشفقة على النفس. الآيات تحقق هذا الهدف.
سادساً: آفاق الآيتين في بناء النفس والمجتمع والحضارة

بناء النفس المسلمة:

.1التربية على الخوف من الله: ليس خوفاً يائساً، بل خوفاً يدفع إلى العمل الصالح.
.2التربية على استحضار الآخرة: كلما ازدادت الدنيا في يدك، ازدد تذكراً للآخرة .لا تغتر بالقوة المادية.
.3التربية على التوبة الدائمة: لا تؤخر التوبة، فالعذاب قد يأتي بغتة.
.4التربية على الشفقة: اشفق على نفسك أولا ً، ثم اشفق على الآخرين فادعهم إلى الله.

بناء المجتمع:

.1مجتمع يخاف الله: إذا خاف أفراد المجتمع الله، صلح المجتمع .يقل الفساد، وينتشر العدل.
.2مجتمع يتذكر الموت: إقامة مجالس التذكير والموعظة، ليبقى المجتمع يقظاً.
.3مجتمع يكافح الانحطاط الروحي: لا يدع المادة تطغى على القيم .يربي أبناءه على التوازن بين الروح والجسد.

بناء الحضارة:

.1حضارة متوازنة: لا تنجرف وراء المادة فقط، بل تعلي من شأن القيم الروحية.
.2حضارة تعلم من سنن التاريخ: تدرس أسباب انهيار الحضارات السابقة، وتتجنبها.
.3حضارة تؤمن بالآخرة: تجعل الآخرة هي الهدف الأسمى، والدنيا وسيلة .هذا يمنع الفساد والظلم.

خاتمة: رسالة الآيتين إليك شخصياً

أخي الحبيب، أختي الكريمة،

ربما تشعر أحياناً أن الدنيا قد ألهتك. ربما انشغلت بجمع المال، أو ببناء منزل، أو بالتمتع بالشهوات. ربما أهملت صلاتك، أو تهاونت في ذكر الله. ربما ظننت أنك في أمان، وأن العذاب بعيد.

الآن، تخيل أن هذه الآيات تنزل عليك وحدك، لتوقظك من غفلتك:

"يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالعَذَابِ" – ألا تستعجل أنت أحياناً؟ ألا تقول في نفسك: "لقد عصيت الله ولم يعذبني، إذن الأمر ليس بذلك الخطورة"؟ هذا هو عين الاستعجال والاستهزاء الخفي.

"وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالكَافِرِينَ" – انتبه .لا تكن من الكافرين .جهنم قريبة منك .إنها محيطة بكل من يستحقها .لا تغتر بحلم الله.

"يَوْمَ يَغْشَاهُمُ العَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ" – تخيل نفسك في ذلك اليوم .أين ستهرب؟ أين ستمضي؟ لا ملجأ إلا إلى الله.

"وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ" – تسمع هذا الصوت .تذوق العذاب .تتمنى لو أنك لم تعمل ما عملت . لكن الندم لا ينفع.

الآن، ماذا ستفعل؟ هل ستنتظر حتى يأتيك العذاب بغتة؟ أم ستتوب الآن؟ هل ستستمر في غفلتك، أم ستوقظ روحك؟

تخيل أن الله يمسح على رأسك ويقول لك: "يا عبدي، لم أنزل هذه الآيات لأعذبك، بل لأشفق عليك. لأخوفك كي تتوب. لأريك الطريق قبل فوات الأوان. ارجع إلي. تب. استغفر. اعمل صالحاً. فإني غفور رحيم. وإلا، فجهنم محيطة، والعذاب يغشى، والقول سيكون: ذوقوا".

اختر الآن. اختر الحياة. اختر التوبة. اختر أن تكون من الذين يشفقون على أنفسهم، فيعملون لدنياهم وآخرتهم. ولا تكن من المستعجلين الغافلين.

القسم الثاني

المبحث الأول

أخي الحبيب/ أختي الكريمة،

تخيل معي مشهداً يملأ القلب فخراً ويهز الوجدان إجلالاً: رجال ونساء، شباب وشيوخ، يتركون بيوتهم التي نشأوا فيها، وأموالهم التي تعبوا في جمعها، وأهلهم الذين أحبوهم، ووطنهم الذي اعتادوا ترابه وهواءه. يتركون كل شيء، لا لشيء إلا لأنهم قالوا: "ربنا الله". يمشون على أقدامهم في الصحاري القائظة، يحملون أطفالهم على أكتافهم، يخفون إيمانهم في صدورهم، لا يطلبون إلا رضوان الله ونجاة دينهم.

هذا هو مشهد الهجرة الذي ترسمه لنا الآيتان 56 و 57 من سورة العنكبوت. إنهما ليستا آيتين عابرتين، بل هما دستور التضحية، وميثاق البذل، ودعوة للخروج من المألوف إلى المغامرة الإيمانية الكبرى. إنهما تمثلان مرحلة بناء الروح، تلك المرحلة التي لا تقوم أي نهضة بدونها، حيث يضع المؤمن الله في قلبه، فيصبح كل شيء دونه – وطناً، ومالاً، وأهلاً – مجرد تضحيات تُبذل في سبيله.

دعني آخذ بيدك في رحلة مع هاتين الآيتين، لتعيش روح الصحابة وهم يتركون مكة، ولترى كيف أن القرآن كان المادة التربوية التي حولت العرب الفخورين بقبائلهم وأوطانهم إلى عُبّاد الله الذين لا تأخذهم في الله لومة لائم.

نص الآيتين وتفصيلهما

قال الله تعالى:

"إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ" (العنكبوت: 56) – ملاحظة: بعض المصاحف تبدأ الآية 56 بـ "يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ" وهذا هو الصحيح في ترقيم الآيات 56، ثم الآية 57: "كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ۖ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ". سأعتمد هذا السياق.

الآية 56: "يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ"
الآية 57: "كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ۖ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ"

)سياق السورة: هذه الآيات نزلت في مكة قبل الهجرة، تحث المؤمنين المستضعفين على الخروج من مكة إلى أرض الحبشة أو المدينة، وكان المشركون يضيقون عليهم في دينهم.(

المقدمة: سياق الآيتين ومقاصدهما العظمى

هاتان الآيتان نزلتا في فترة عصيبة من تاريخ الدعوة الإسلامية. المؤمنون في مكة كانوا يعذبون، يضربون، يحبسون، يمنعون من الطعام والشراب، ويمنعون من إقامة شعائر دينهم. بعضهم قتل، وبعضهم هرب. وكان المشركون يريدون ردهم عن دينهم. فجاء هذا النداء الإلهي الحنون: "يا عبادي الذين آمنوا"، ثم أعطاهم الحل: "إن أرضي واسعة" – لا تبقوا في المكان الذي تمنعون فيه من عبادة الله، فالهجرة مشروعة. ثم ذكرهم بحقيقة الموت: كل نفس ذائقة الموت، فلا تخافوا من الموت في سبيل الله.

المقاصد العظمى:

.1تحرير المؤمن من عبودية المكان: الوطن ليس مقدساً بذاته، بل هو وسيلة لعبادة الله .إذا منعك الوطن من عبادة الله، فاهاجر.
.2تأكيد أن الأرض كلها لله: لا تحزن على أرض معينة، فالله يملك كل شيء.
.3التربية على التضحية: اترك المال، والأهل، والوطن، واذهب حيث تستطيع عبادة الله.
.4تذكير بالموت: لا تخف من الموت في سبيل الله، فالموت آت لا محالة، فاختر أن تموت شهيداً.
.5بناء مرحلة الروح: هذه الآيات هي مادة بناء الشخصية المؤمنة التي تضع العقيدة فوق كل اعتبار.

أولاً: الآية 56 – نداء الحبيب واتساع الأرض

الأمر الأول: دلالة النداء (يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا)

لماذا "عبادي" وليس "المؤمنين" فقط؟

هذا النداء هو من أرقّ وأحنّ النداءات في القرآن. إنه نداء من الله لعباده الذين آمنوا به. كلمة "عبادي" مضاف إلى ياء المتكلم، فتفيد القرب والحنان والاختصاص. كأن الله يقول: "يا عبادي الذين آمنوا بي، أنا قريب منكم، أعلم ما أنتم فيه، وأنا أرحم بكم من أنفسكم". هذا النداء يسبق الأمر بـ الهجرة، ليؤنس قلوبهم ويطمئنهم بأن الله معهم.

اللمسات البيانية والبلاغية:

· "يَا" – حرف نداء، يخلق لقاءً مباشراً بين الله وعباده .إنه نداء لا يفصل بينه وبينهم حجاب.
· "عِبَادِيَ" – إضافة إلى ياء المتكلم، فيها من الحنان ما لا يوصف .كقول الحبيب لحبيبه: "يا حبيبي".
· "الَّذِينَ آمَنُوا" – وصفهم بالإيمان، لأن الإيمان هو الذي جعلهم أهلاً لهذا النداء الكريم.
· تقديم النداء على الأمر – فيه تهيئة نفسية للأمر بالهجرة .قبل أن يأمرهم، ناداهم بأحب الأسماء.

ما هي الرسائل النفسية والتربوية؟

.1الشعور بالقرب من الله: في لحظات الضعف والخوف، يحتاج المؤمن إلى أن يشعر أن الله قريب منه .هذا النداء يحقق ذلك.
.2رفع المعنويات: المؤمنون في مكة كانوا يشعرون بالضعف والقهر .هذا النداء يرفع معنوياتهم، ويذكرهم أنهم عبيد الله، وليس عبيد البشر.
.3تثبيت الهوية: أنت "عبد الله" أولاً وأخيراً، وليس عبداً لوطن أو قبيلة أو مال.

الأمر الثاني: دلالة (إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ)

ما معنى "أرضي واسعة"؟

الله يخبرهم أن أرضه ليست محصورة في مكة. هناك أرض أخرى، واسعة، يستطيعون فيها أن يعبدوا

الله بحرية. هذا رد على الذين كانوا يقولون: "إن تركنا مكة، أين نذهب؟". الله يقول: أرضي واسعة، فاخرجوا منها إلى غيرها.

اللمسات البيانية والبلاغية:

· "إِنَّ" – للتوكيد، ليزيل أي شك أو تردد.
· "أَرْضِي" – إضافة إلى الله، تشريف للأرض .الأرض كلها ملك لله، فلماذا تتمسكون ببقعة صغيرة؟
· "وَاسِعَةٌ" – صيغة مبالغة، تفيد السعة العظيمة .ليس فيها ضيق عليكم.

ما هي الرسائل النفسية والتربوية؟

.1فك الارتباط بالمكان: من أعظم ما يربط الإنسان هو وطنه .هذه الآية تحرر المؤمن من عبودية الوطن .الوطن الحقيقي هو حيث يُعبد الله.
.2عدم اليأس من ضيق المكان: إذا ضاقت عليك الأرض بما رحبت بسبب ظلم أو فتنة، فتذكر أن أرض الله واسعة .ابحث عن مكان آخر.
.3التوسع في الرزق: الهجرة قد تكون سبباً في توسيع الرزق والفرص.

الأمر الثالث: دلالة (فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ)

لماذا "فإياي" وليس "فاعبدوني"؟

تقديم المفعول به "إياي" على الفعل "فاعبدون" يفيد الحصر والتخصيص. أي: لا تعبدوا أحداً سواي. الهجرة ليست غاية في حد ذاتها، بل هي وسيلة لتحقيق الغاية الأسمى: عبادة الله وحده. إياي فاعبدون، وليس غيري.

اللمسات البيانية والبلاغية:

· "فَإِيَّايَ" – تقديم الضمير المنفصل "إياي" يفيد الحصر .أي: إياي وحدي، لا غيري.
· "فَاعْبُدُونِ" – أمر بالعبادة، والعبادة تشمل كل ما يحبه الله ويرضاه.
· الفاء – للترتيب والتعقيب، أي إذا كانت أرضي واسعة، فباشروا عبادتي فيها.

ما هي الرسائل النفسية والتربوية؟

.1الهدف النهائي: الهدف من الهجرة ليس تغيير المكان فقط، بل تمكين العبادة لله وحده.
.2التوحيد الخالص: لا تخلطوا عبادتكم لأحد سواي .لا تتبعوا الأهواء، ولا تقدسوا الأشخاص أو الأماكن.
.3العمل بعد المعرفة: بعد أن عرفتم أن أرضي واسعة، اعملوا واهاجروا.

ثانياً: الآية 57 – حقيقة الموت كدافع للتضحية

الأمر الرابع: دلالة (كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ)

ما معنى "ذائقة"؟

الذوق هو إدراك الطعم عن طريق الفم. استعير للعذاب والألم. الموت ليس مجرد حدث، بل هو طعم يذوقه كل إنسان. كأن الموت شراب مرّ، كل نفس سترتشفه لا محالة.

اللمسات البيانية والبلاغية:

· "كُلُّ نَفْسٍ" – تعميم شامل، لا يستثنى أحد .النبي، والملك، والفقير، والغني، الجميع سيموتون.
· "ذَائِقَةُ" – اسم فاعل، يدل على أن الذوق سيحدث لا محالة .إنه وعد مؤكد.
· "الْمَوْتِ" – تعريف الموت بأل يفيد الجنس، أي الموت المعروف الذي يرهبه الناس.

ما هي الرسائل النفسية والتربوية؟

.1مواجهة الخوف من الموت: كثير من الناس لا يهاجرون أو لا يجاهدون خوفاً من الموت .الآية

تذكرهم: الموت آت لا محالة، سواء في أرضك أو في أرض الهجرة .فاختر أن تموت شهيداً.
.2تفويت فرصة التردد: من كان ينتظر ظروفاً آمنة ليعمل، يذكره الله بأن الأمن التام لا وجود له في الدنيا .الموت يأتي في أي لحظة.
.3تزكية النفس: ذكر الموت يطهر النفس من حب الدنيا، ويدفعها إلى العمل للآخرة.

الأمر الخامس: دلالة (ثمّ إليْنا ترْجَعُونَ)

ما معنى "إلينا ترجعون"؟

بعد الموت، المرجع إلى الله. هناك حساب وجزاء. ليس الأمر منتهياً بالموت، بل هو بداية الحياة الحقيقية.

اللمسات البيانية والبلاغية:

· "ثمّ" – تفيد الترتيب مع التراخي .أي بعد الموت، بعد فترة) في القبر أو يوم القيامة(، ترجعون.
· "إليْنا" – إضافة إلى الله، تفيد أن المرجع هو الله وحده .لا ملجأ ولا مهرب منه.
· "تُرْجَعُونَ" – فعل مضارع مبني للمجهول، يدل على أنهم سيُردّون إلى الله قسراً، ليس لهم خيار.

ما هي الرسائل النفسية والتربوية؟

.1الإيمان بالبعث: من يهاجر ويجاهد في سبيل الله، يرجو رحمة الله في الآخرة .هذا الرجاء هو الدافع الأكبر للتضحية.
.2المساءلة: ستحاسب على كل شيء: على هجرتك أو بقائك، على جهادك أو قعودك.
.3الطمأنينة: المؤمن يطمئن بأنه سيعود إلى ربه الرحيم، فيرضى بما قدم.
ثالثاً: القرآن مادة تربوية لبناء مرحلة الروح

أخي الحبيب، الآن نصل إلى لبّ الرسالة. كيف كانت هذه الآيات مادة تربوية غيرت قلوب الصحابة وجعلتهم يتركون المألوف ويتمسكون بالمبادئ؟

.1الهجرة: ترك المالوف والمألوف

كان العرب في الجاهلية يعشقون أوطانهم عشقاً لا حدود له. كانوا يفخرون بقبائلهم وديارهم، وكانت الغربة عندهم موتاً. لكن القرآن جاء بـ "يا عبادي الذين آمنوا إن أرضي واسعة" فحررهم من عبودية الوطن. أصبحوا يعرفون أن الوطن الحقيقي هو حيث يطيعون الله. فتركوا مكة، أحب البقاع إليهم، وذهبوا إلى الحبشة والمدينة. لقد تركوا المال، والأهل، والعشيرة، والمكانة الاجتماعية، كل شيء، في سبيل أن يقولوا "ربنا الله".

.2التمسك بالمبادئ والقيم حتى لو أدى إلى ترك الأوطان

القرآن لم يطلب منهم أن يتفرقوا بدينهم فقط، بل جعل ذلك علامة على صدق الإيمان. المؤمن الحقيقي هو من يضع مبادئه فوق كل اعتبار. إذا كان الوطن يمنعه من الصلاة، أو من الحجاب، أو من الأمر بالمعروف، فهذا الوطن ليس وطناً له. وطنه حيث يُطاع الله. هذه التربية صنعت جيلا ً لا يبالي بترك الديار.

.3التضحية بكل شيء في سبيل الله

"ثمّ إليْنا ترْجَعُونَ" – هذا هو الدافع الأكبر .عندما أيقن الصحابة أنهم سيعودون إلى الله، وأن ما عند الله خير وأبقى، هانت عليهم الدنيا .كانوا يبيعون الدنيا بالآخرة .يخرجون من بيوتهم وأموالهم، لا يطلبون إلا رضوان الله .هذه هي مرحلة بناء الروح.

.4مرحلة بناء الروح في نظرية مالك نبي

كما ذكرت سابقاً، أي نهضة لأمة تبدأ بمرحلة الروح. هذه المرحلة تتطلب:

· التضحية: أن تترك ما تألفه وتعتاده من أجل قضية أعلى.
· الإيمان الغيبي: أن تؤمن بما لا تراه، وأن تثق بوعد الله.

· التربية القرآنية: أن يغرس القرآن في النفوس حب الله وخوفه ورجاءه.
· الهجرة: الخروج من بيئة الفتنة إلى بيئة الطاعة.

سورة العنكبوت نزلت قبل الهجرة، وكانت تمهد لهذا الحدث العظيم. الآيات التي نزلت في مكة كانت تحض المؤمنين على الصبر والهجرة، وتبشرهم بأن الأرض واسعة، وأن الموت لا مفر منه، فليختاروا الموت في سبيل الله. هذا هو أساس بناء الأمة.

.5كيف كان القرآن يربي الصحابة على الهجرة؟

· بالحوار الهادئ: "يا عبادي الذين آمنوا" – بدأ بالنداء الحنون، لا بالوعيد.
· بتوسيع الأفق: "إن أرضي واسعة" – كسر حاجز الخوف من المجهول.
· بتذكير الهدف: "فإياي فاعبدون" – ربط الهجرة بالعبادة.
· بتذكير الموت: "كل نفس ذائقة الموت" – إزالة الخوف من الموت.
· بتذكير المرجع: "ثم إلينا ترجعون" – تحفيز الرجاء في رحمة الله.

رابعاً: المفاهيم العملية والدروس الحياتية من الآيتين

المفهوم الأول: الوطن ليس مقدساً، بل الدين هو المقدس

يخلط كثير من الناس اليوم بين حب الوطن وبين تقديسه. الإسلام يعلمنا أن نحب أوطاننا، لكن لا نعبدها. إذا تعارض الوطن مع الدين، فالدين أولى. الهجرة من دار الكفر إلى دار الإسلام فريضة على من يقدر عليها.

المفهوم الثاني: التضحية هي ثمن الريادة

لا يمكن لأمة أن تصل إلى القمة بدون تضحيات. الصحابة ضحوا بأرواحهم وأموالهم وأوطانهم، فمكّن الله لهم في الأرض. نحن اليوم بحاجة إلى استعادة روح التضحية هذه.

المفهوم الثالث: لا تيأس من ضيق الأرض

إذا شعرت أنك مضطهد في مكان ما بسبب دينك، فابحث عن مكان آخر. أرض الله واسعة. لا تبق في مكان لا تستطيع فيه إقامة شعائر دينك.

المفهوم الرابع: الموت آت، فاستثمر حياتك

لا تؤخر العمل الصحيح خوفاً من الموت. الموت سيأتيك في كل الأحوال، فاختر أن تموت وأنت تؤمن بالله وتعمل له.

المفهوم الخامس: مرحلة الروح تحتاج إلى هجرة

أي إصلاح يبدأ بهجرة: هجرة من الذنوب إلى الطاعات، هجرة من الكسل إلى العمل، هجرة من التبعية إلى الاستقلالية. لا تنتظر أن يتغير الوضع، بل غيّره بنفسك.
خامساً: آفاق الآيتين في بناء النفس والمجتمع والحضارة

بناء النفس المسلمة (مرحلة الروح):

.1تربية النفس على حب الله فوق كل شيء: اجعل حب الله هو المحرك الأول لأفعالك.
.2تربية النفس على التضحية: درب نفسك على ترك ما تحب من أجل ما يحبه الله.
.3تربية النفس على الاستعداد للموت: عش كل يوم كأنه آخر يوم في حياتك.
.4تربية النفس على عدم التعلق بالمكان: لا تجعل وطنك سجناً لك .كن مرناً في التنقل من أجل دينك.

بناء المجتمع:

.1مجتمع يهاجر من الفساد: الهجرة ليست فقط مكانية، بل معنوية .اهاجر من المعاصي إلى الطاعات.
.2مجتمع يرحب بالمهاجرين: كما فعل الأنصار مع المهاجرين، يجب أن نستقبل كل من يهاجر في

سبيل الله.
.3مجتمع يقدر التضحية: من يضحي بماله أو وقته أو راحته في سبيل الله، يجب أن يُكرم.

بناء الحضارة:

.1الهجرة كآلية لتجديد الحضارة: عندما تتعطل الحضارة في مكان، يهاجر أصحاب الأفكار إلى مكان آخر، فيؤسسون حضارة جديدة .هذا ما فعله المهاجرون عندما أسسوا دولة المدينة.
.2المواطنة تقوم على الدين، لا على الأرض: الدولة الإسلامية تستقبل كل من يؤمن بالله، بغض النظر عن أصله.
.3الموت في سبيل الله هو أعلى مراتب العطاء: من يزرع الخوف من الموت في قلوب الناس، يزرع الجبن .ومن يزرع حب الموت في سبيل الله، يزرع البطولة.

خاتمة: رسالة الآيتين إليك شخصياً

أخي الحبيب، أختي الكريمة،

ربما تمر بظروف صعبة. ربما تشعر أن مجتمعك يضيق عليك، أنك لا تستطيع أن تعبد الله كما تحب، أن الفساد منتشر، وأن الحق مهان. ربما تفكر في الهجرة، لكنك تخشى المجهول. تخاف أن تترك بيتك، وظيفتك، أهلك، وطنك.

الآن، اسمع هذا النداء الإلهي، كأنه ينزل عليك وحدك:

"يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا" – نعم، أنت من هؤلاء .أنت عبد الله المؤمن .والله يناديك بأحب الأسماء.

"إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ" – لا تظن أن الدنيا ضيقة .هناك مكان آخر .هناك فرص أخرى .هناك حياة أخرى . اخرج من منطقتك المريحة .ابحث عن المكان الذي تستطيع فيه أن تكون عبداً لله حقاً.

"فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ" – لا تعبد غيري .لا تعبد الوطن، ولا المال، ولا الجاه، ولا الناس .اخرج من كل عبودية سواي.

"كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ" – لا تخف من الموت .الموت آتٍ .لو بقيت في بيتك، ستموت .لو هاجرت، ستموت .فاختر أن تموت وأنت في طريق العبودية لله.

"ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ" – وستعود إلى الله .وستجد عنده ما قدمت .إن كنت هاجرت، فستجد الجنة .وإن بقيت خوفاً، فستجد الندم.

تخيل أن الله يمسح على رأسك ويقول لك: "يا عبدي، أنا الذي وسعت أرضي لك. أنا الذي جعلت لك منفذاً. فلماذا تبقى في الضيق؟ اخرج. اضح. اهاجر. لا تخف. أنا معك. أنا أرحم بك من أمك وأبيك. أنا الذي أقول للشيء كن فيكون. فثق بي، وتوكل علي، واهاجر في سبيلي".

الآن، ماذا ستفعل؟ هل ستستمر في مكانك رغم الضيق؟ أم ستستجيب لنداء الله وتهاجر – هجرة مكانية إن استطعت، أو هجرة قلبية بترك المعاصي والانتقال إلى حياة أفضل؟

تذكر: مرحلة الروح تحتاج إلى تضحية. تحتاج إلى أن تترك المألوف. تحتاج إلى أن تكون كالصحابة الذين تركوا كل شيء لله. هؤلاء هم الذين بنوا أعظم حضارة عرفها التاريخ.

اختر أن تكون منهم. اختر الهجرة. اختر التضحية. اختر بناء روحك قبل أن يفوت الأوان.

المبحث الثاني

أخي الحبيب، أختي الكريمة، تخيل معي للحظة أنك تقف على أرض محترقة، أرض مليئة بالتعب و العناء والفقد. حولك أصوات الألم، ووجوه مرهقة من هول ما ترى. أنت تبحث عن متنفس، عن أمل يلملم شتات قلبك. فجأة، يصل إلى مسامعك نداء من السماء، وعد من رب الأرض والسماء، يخترق طبقات اليأس والظلام. هذا النداء هو قوله تعالى: {وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ (58) الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (59)} [العنكبوت].

هاتان الآيتان ليستا مجرد كلمات تُتلى، بل هما دستور حياة، وبوصلة نفسية، ومحرك للإرادة. ستحاول

معًا أن نغوص في أعماقهما، كأننا نفتح صندوقًا ثمينًا، كل جوهرة فيه تشفي جرحًا وتقوي يقينًا.

دعني أبدأ معك بوضع المقدمة والأفكار الرئيسية:

هاتان الآيتان نزلتا في سياق الحديث عن الهجرة والتضحية في سبيل الله. بعد أن وصف الله شدة ا لابتلاء، وذكر قصة نوح وإبراهيم ولوط، جاء هذا الوعد العظيم كتعويض إلهي لمن آمن وعمل صالحًا وصبر وتوكل. الأفكار الرئيسية هي:

.1الربط الوثيق بين الإيمان والعمل: لا يكفي التصديق القلبي، بل لا بد من ترجمته إلى سلوك عملي.
.2الوعد بالغرف في الجنة: مكانة سامية ورفيعة، تتناسب مع عظم الصبر والعمل.
.3الخلود الأبدي: طمأنة بأن التعب زائل والنعيم دائم.
.4مدح الأجر وعظمته: مقابل بساطة العمل في الدنيا.
.5الصبر والتوكل: الركيزتان الأساسيتان اللتان تحملان المؤمن على القيام بهذا العمل والوصول إلى هذا الجزاء.

والآن، لنبدأ الرحلة التفصيلية، وكأنني أحدثك مباشرة، ألمس قلبك وعقلك.

أولا ً: دلالات قوله تعالى: {وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ}

.1من هم الذين وعدهم الله؟
هم الذين جمعوا بين أمرين عظيمين: إيمان صادق في القلب، وعمل صالح تنطق به الجوارح. ليسوا الذين يرددون الكلمات فقط، وليسوا الذين يعملون بلا إيمان فيُصابون بالرياء أو الضياع.

.2لماذا قرن الإيمان بالعمل الصالح وعلاقته بالتطبيق الفعلي؟
انظر إلى نفسك، عندما تؤمن بشيء حقًا، ألا يحركك هذا الإيمان للفعل؟ لو آمنت أن هذا الطريق يؤدي إلى هاوية، ألن تبتعد عنه؟ لو آمنت أن هذا الدواء ينقذ حياتك، ألن تتناوله؟ إذاً، اقتران الإيمان بالعمل هو دليل صدقه. كأن الآية تقول لك: "لا تخدع نفسك، الإيمان ليس أمنية في القلب، بل هو حياة تعاش."

في تعاملك التجاري: إيمانك بأن الله يراك ويحاسبك، يترجم إلى صدق في البيع والشراء، وامتناع عن الغش والربا والظلم. هذا هو العمل الصالح الذي يثبت صدق إيمانك.
في حياتك كلها: العمل الصالح هو أن يظهر الإسلام في سلوكك، في عدلك، في إحسانك، في أمانتك.

.3دلالة تقديم الإيمان على العمل:
هي كتقديم الأساس قبل البناء، أو الروح قبل الجسد. العمل بدون إيمان كجسد بلا روح، لا قيمة له في الآخرة وقد يكون وبالا ً على صاحبه. والإيمان بلا عمل كشجرة بلا ثمر، أو كسحاب لا يمطر. التقديم يخبرك أن العمل فرع عن الإيمان، وأن الإيمان هو المنبع الصافي الذي إن نبع منه العمل كان صالحًا مقبولا ً.

.4كيف تبرز الآية ضرورة اقترانهما لنيل النعيم؟
الآية لم تقل "الذين آمنوا" فقط، ولا "الذين عملوا" فقط، بل جمعتهما بحرف الواو الذي يفيد الجمع المطلق. إنها صياغة بيانية رائعة تجعلك تشعر أن الجنة لا تُعطى إلا لمن جمع العقد بكامل حلقاته. لو انفصل أحد الركنين، انهار البناء.

اللمسة البلاغية: تعريف "الذين" (أل الموصولة) تفيد العموم والثبات. وكأن الله يقول: "كل من اتصف بهاتين الصفتين، أيًا كان زمانه ومكانه، فهو داخل في هذا الوعد."

الرسائل والدروس التربوية والإيمانية والعقلية والنفسية:

· رسالة إيمانية: الإيمان الحقيقي هو ما ترجم إلى واقع. هذه الآية تخلصك من وهم "الإيمان المجرد" الذي يرضي به كثيرون ضمائرهم.
· رسالة تربوية: ربي ابنك على أن يكون "إنسان فاعل" منذ صغره. لا يكفي أن يقول "أحب الله"، بل ليترجم حبه إلى سلوك نافع.
· رسالة عقلية: الآية تحارب الكسل والتواكل العقلي. تقول لك: فكر في علاقة السبب والنتيجة. إيمانك هو السبب، وعملك الصالح هو الطريق، والجنة هي النتيجة. هذا منطق عقلاني رفيع.
· رسالة نفسية: عندما تشعر بضعف إيمانك، الطريق لعلاجه هو العمل. ابدأ بعمل صالح ولو صغير،

ستجد الإيمان يزداد في قلبك. فالعمل يغذي الإيمان، والإيمان يدفع للعمل، دورة تكاملية رائعة.
· تنمية الشخصية المتوازنة: هذا الربط بين الإيمان والعمل يخلق فيك شخصية متوازنة، لا هي روحانية منعزلة تسبح في الأحلام، ولا هي مادية جافة تشقى في العمل دون هدف. أنت تعمل دنياك كأنك تعيش أبدًا، وتعمل لآخرتك كأنك تموت غدًا. هذا التوازن هو الذي يبني الأمم؛ فالأمة التي تتمسك بعقيدتها وتعمل وتنتج هي أمة صامدة لا تسقط. أما إذا انفصل الجانبان: إيمان بلا عمل فهو وهن وضعف، وعمل بلا إيمان فهو استغلال ودمار. السقوط يأتي باختلال هذا الميزان.

ثانياً: دلالة {لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الجَنَّةِ غُرَفًا}

.1ما هي الغرف؟
الغرف هي القصور العالية والمنازل المرتفعة في الجنة، التي ترى ظهورها من بطونها وبطونها من ظهورها، كما وصفها النبي صلى الله عليه وسلم. هي رمز الرفعة والمكانة، يعلو بعضها فوق بعض.

.2لماذا جاءت "اللام" في المقدمة والنون الثقيلة؟

· لام القسم (لَنُبَوِّئَنَّهُمْ): هذه اللام تدخل على فعل المستقبل (نبوئنهم) وتؤكده. إنها قسم من الله بنفسه العظيمة. تخيل معي! الله العظيم الجليل يقسم أن يمنحك هذه الغرف. أي طمأنينة أكبر من هذه؟ أي يقين يملأ قلبك عندما تسمع قسم رب العالمين؟!
· النون الثقيلة (لَنُبَوِّئَنَّهُمْ): هي حرف تأكيد أيضًا، لتشديد الوعد وتقويته. كأن الله يقول: "أقسم وأؤكد لكم، لا رجعة ولا تبديل، هذا وعد حق".

.3وصف} غُرَفًا) {نكرة(:
التنكير هنا للإبهام والتعظيم. لم يقل "الغرف" المعروفة، بل قال "غرفًا" مبهمة، ليتسع خيالك وتتوق نفسك إلى ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر. هذا الإبهام يخلق شوقًا لا نهائيًا في قلبك، فكلما فكرت في الجنة، تشوقت إلى تلك الغرف المجهولة المدهشة.

.4أهميته في غرس الشوق ودوره في تقوية الإرادة والثبات:
الشوق إلى الجنة هو وقود الطاعة ودافع الصبر. عندما تشتاق إلى مكان جميل، تتحمل مشقة السفر إليه. عندما تشتاق إلى حبيب، تتحمل بعده. هكذا، الشوق إلى غرف الجنة يجعلك:

· تصبر على الشهوات: تترك الحرام الآن لأنك تشتاق إلى لذة أعظم وأبقى.
· تصبر على الطاعات: تواصل الصلاة والصدقة والجهاد، لأن كل طاعة هي خطوة تقربك من تلك الغرف.
· تثبت عند الأزمات: عندما تضيق الدنيا، يتحول ألمك إلى شوق. تقول في نفسك: "هذه الدنيا الزائلة لا تساوي شيئًا، ما ينتظرني أجمل". هذا الشوق يمنحك طمأنينة ويبني فيك إنسانًا واثقًا بالله متفائلا ً، يعلم أن التضحية في الدنيا لها مقابل عظيم، وأن الموت في سبيل الله ليس نهاية، بل هو بوابة لنعيم مقيم.
ثالثاً: دلالة {تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ العَامِلِينَ}

} .1تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ(:
الأنهار الجارية ترمز إلى الحياة والحركة والبركة. ليست الجنة سكونًا مملًا، بل هي حياة لا تتوقف، ونعيم متجدد. "من تحتها" إشارة إلى أن النهر يمر تحت الغرفة، فتنظر إليه من كل جانب، في بهجة وسرور. هذا الوصف يدفع للشوق، فمن منا لا يحب أن يسكن في قصر تجري من تحته الأنهار؟

} .2خَالِدِينَ فِيهَا(:
هذه الكلمة العظيمة... تأمل فيها. "خالدين" تعني البقاء بلا نهاية، والأبدية بلا زوال.

· الأثر النفسي: في أشد لحظات البلاء في الدنيا، عندما تشعر أن همومك لا تنتهي، وأن تعبك مستمر، استحضر كلمة "خالدين". تذكر أن تعب الدنيا مهما طال فهو مؤقت، أما نعيم الجنة فهو أبدي. ساعة من صبر تقابل بخلود في راحة. هذا الاستحضار يقلب الألم رجاء، والضيق فرجًا.
· الزهد في الدنيا: عندما تتأكد أن هناك حياة أبدية أفضل، يسهل عليك الزهد في زخرف هذه الدنيا الفانية. لا يعني الزهد أن تترك العمل، بل أن لا تجعل الدنيا أكبر همك، وأن تستثمر فيها لتصنع مجدك الأبدي.

} .3نِعْمَ أَجْرُ العَامِلِينَ{:
هذه الجملة خبرية لفظًا إنشائية معنى، وفيها مدح عظيم من الله.

· لماذا "نِعْمَ"؟ فعل مدح، يخبرك أن هذا الأجر هو خير الأجر وأجمله وأوفاه. كأن الله يقول: "لو تعلمون حقيقة هذا الأجر، لما اشتغلتم بغيره".
· "أَجْرُ العَامِلِينَ": والمؤكد أنها "نِعْمَ" الفاعلة للتعظيم. انظر إلى عظمة المقابل: "أجر" وليس "هدية" أو "عطاء". الأجر يوحي بالكفاءة والعمل. وكلمة "العاملين" تشمل كل عمل صالح، كبيرًا كان أم صغيرًا.
· عظمة الثواب مقابل بساطة العمل: الآية تشعرك أن أعمالك الدنيوية، مهما بدت صغيرة، هي تجارة رابحة مع الله. تتصدق بتمرة، فتجد غرفًا في الجنة. تصبر على أذى، فتجد أنهارًا. هذا يخلق دافعًا هائلًا للطاعة، ويحفزك على الإتقان والإبداع، لأنك تعلم أن الله لا يضيع أجر من أحسن عملا ً.

.4كيف أعيش هذه الآية ليكون لها أثر في حياتي؟

· عند التحدي: قل لنفسك: "أنا أعمل من أجل تلك الغرف التي وعدني الله بها، ولن يضيع هذا التعب".
· عند المعصية: قل لنفسك: "هل أبيع تلك الغرف بلذة عابرة؟ هل أستبدل الخالد بالفاني؟".
· في العمل والإنتاج: تقنن "نعم أجر العاملين" في ذهنك لتجعل عملك عبادة. أنت تعمل لإعمار الأرض، وفي نفس الوقت تبني قصرك في الجنة.

اللمسات البلاغية المؤيدة:

· الجملة الاسمية في "خالدين فيها" تدل على الثبات والاستقرار.
· الجملة الفعلية في "تجري" تدل على التجدد والحركة.
· تعريف "الأجر" والإضافة في "العاملين" تفيد أن هذا الأجر خاص بهم، لا يناله غيرهم.

رابعاً: دلالة {الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ}

هذه الآية تصف الصفات التي جعلتهم يستحقون ذلك الوعد العظيم. إنها خاتمة الآية الأولى وشرحها.

.1من هم الموصوفون؟ وما علاقة الصبر؟
هم الذين اتصفوا بالإيمان والعمل الصالح، ومفتاح ذلك هو الصبر والتوكل. لم يقل الله "الذين صلوا وصاموا" فقط، بل ذكر الصبر والتوكل لأنهما روح الأعمال الصالحة وقوامها.

· علاقة الشوق بالصبر: الشوق للجنة يولد الصبر، والصبر يحقق الشوق. كلاهما صنوان.

.2لماذا قدم الجار والمجرور} وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ{؟
قدم "على ربهم" على الفعل "يتوكلون" للاهتمام والحصر. كأنه يقول: "لا تتكلوا على أحد غيره، ولا على أسبابكم ولا على حولكم وقوتكم، بل عليه وحده". هذا التقديم يفيد التخصيص والتوكيد.

.3ما المقصود بالصبر هنا وعلاقته بالهجرة وترك الأوطان؟
الصبر المقصود في هذه الآية، في سياقها، هو صبر الهجرة والمشقة. هو:

· الصبر على البلاء: على الأذى، والفقر، والمرض.
· الصبر على الطاعة: على أداء الفرائض، خاصة في ظل الصعوبات.
· صبر عن المعصية: عن ترك ما تهوى النفس، والخروج من الديار والأحباب والأموال من أجل العقيدة. هذا أقصى درجات الصبر.

.4لماذا قدم الصبر على التوكل؟
لأن الصبر هو مقدمة التوكل. أنت تصبر على الأسباب أولا ً (بتحمل المشقة)، ثم تتوكل على مسبب الأسباب (الله). أو أن الصبر يحمل هموم الدنيا، والتوكل يفوضها إلى الله. فالصبر عمل العبد، والتوكل ثقته بربه. وهما جناحان لا يطير أحدهما بغير الآخر.

.5ما الفرق بين الصبر والتوكل؟

· الصبر: حبس النفس عن الجزع، وعن المعصية، وعلى الطاعة. هو قوة تحمل سلبية وإيجابية.
· التوكل: صدق الاعتماد على الله مع فعل الأسباب، مع اليقين بأن النتيجة بيده. هو قوة دفع إيجابية تريح القلب.
معًا: تصبر على شدة الهجرة (تترك بيتك ومالك)، وتتوكل على الله أن يرزقك ويؤويك.

.6كيف تربط هذه الآية بين مشقة السعي واليقين باللّه؟
"من صبر على أمر الله تولى الله أمره". أنت تسعى وتتعب، لكنك لا تنتظر النتيجة من السعي، بل من الله. هذا يحررك من الخوف:

· لا تخاف على الرزق: لأن الرزاق هو الله.
· لا تخاف على الأجل: لأن الآجال بيد الله.
· لا تخاف من الظالمين: لأن النصر من عند الله.
التطبيق العملي: عندما تواجه ضيقًا في الأرض، أو فتنًا تغريك، أو ضغوطًا تثنيك عن مبادئك، لا تنهار. تمسك بمبادئك صابرًا (متحملًا للنتائج المؤلمة) ومتوكلا ً على الله (واثقًا أنه سيفرجها). هذا ليس تقاعسًا، بل هو صبر إيجابي يصحبه عمل وثقة.

.7ما هو الصبر الإيجابي والتوكل الفعال؟

· الصبر الإيجابي: ليس مجرد تحمل سلبي للألم. هو الاستمرار في العمل والعطاء رغم الألم. كالزارع الذي يصبر على حرث الأرض وزرعها وسقيها، وهو يعلم أن الحصاد آت.
· التوكل الفعال: هو أن تعمل بكل طاقتك كأن النتيجة بيدك، ثم تفوض النتيجة إلى الله كأنك لم تعمل شيئًا. إنه الجمع بين الأخذ بالأسباب وقطع التعلق بها.
· علاقة بالرزق: التوكل لا يعني ترك العمل، بل العمل ثم الاعتماد على الله في البركة والنتيجة. أسباب النزول في هذه الآية تتحدث عن المهاجرين الذين تركوا ديارهم وأموالهم، فهاجروا وعملوا وجاهدوا، وتوكلوا على الله فرزقهم.

اللمسات البلاغية والرسائل:

· تخصيص {رَبِّهِم}: ذكر الربوبية فيه إشارة إلى أن الله هو المربي والمدبر، الذي يربي عبده في الصبر ، ويكفله إذا توكل عليه. إنه يغرس فيك الطمأنينة: "ربك لن يضيعك".
· الرسائل النفسية: تخلص من قيود الخوف. الخوف من الفقر، الخوف من الناس، الخوف من المستقبل. التوكل يحررك، والصبر يثبتك.
· الرسائل العقلية: تؤكد أن السنن الإلهية ثابتة: "إن تنصروا الله ينصركم". لا مكان للتفكير السلبي أو التشاؤم.
ثانيا: أهم المفاهيم العملية من الآيتين

دعنا الآن نستخرج الدروس العملية التي تبني الفرد والمجتمع:

.1دعوة للتحلي بالعمل الصالح كمنهج حياة:
الآية تحول المؤمن من مجرد "أمنيات" إلى "إرادة وعمل". الفرق بين الأمنية والإرادة: الأمنية تمني النفس بالخير دون حركة، والإرادة هي العزم المصحوب بالعمل. الآية تدفعك لتقول: "سأعمل الآن، سأنتج، سأتقن، لأن كل درجة أعملها هي خطوة نحو غرفتي في الجنة". هذا المفهوم يبني مجتمعًا يتنافس على فعل الخيرات، فيتماسك ويتقدم.

.2التركيز على الجوهر وليس المظهر:
الآية لم تقل "الذين لبسوا أحسن الثياب" أو "الذين بنوا أعلى القصور". ركزت على جوهر الإنسان (إيمانه وعمله الصالح). هذا يحرر المجتمع من التفاخر بالأنساب والأموال والمظاهر الزائفة. ويرفع قيمة الإنسان الحقيقية: تقواه وعمله. عندما يهتم المجتمع بالجوهر، يبنى الإنسان الصالح الذي لا ينخدع بالمظاهر.

.3بناء العقلية التفاؤلية والهدف بعيد المدى:
عندما تؤمن بوجود غرف في الجنة، تصبح متفائلا ً لا ييأس. تضيق الدنيا، لكن أملك بالآخرة يتسع. أنت تعمل لمستقبل أبدي، فلا تتعلق بالمؤقت. هذا يمنحك طموحات بعيدة المدى، فلا تسقط أمام إخفاقات اليوم، لأنك تنظر إلى النهاية المذهلة.

.4تحويل الحياة من القلق إلى الطمأنينة:
بدل أن تقلق: "كيف سأعيش؟ كيف سأرزق؟ ماذا سيحدث لي؟"، تأتيك الطمأنينة: "الله وعدني، وهو لا يخلف وعده". تتحول حياتك من حالة دفاع وقلق إلى حالة هجوم وعمل بناء. أنت تنتج وتسعى، وفي قلبك سكينة ويقين.

.5بناء النفس الثابتة المتزنة:

هذه النفس لا تعلق بالدنيا الزائلة، ولا تعطل العمل للآخرة. هي تعمر الأرض كما تبنى الآخرة. هذا هو الإنسان المتزن الذي تحتاجه الحضارة. لا متطرف في دنيا فينسى آخرته، ولا متطرف في آخرته فيعطل دنياه. التوازن هو مفتاح القيادة.

.6التضحية من أجل العقيدة لبناء مجتمع عزيز:
الآية نزلت في المهاجرين الذين تركوا الأوطان والأموال والأولاد. هذا يبني مجتمعًا متماسكًا قويًا، لا يذل أمام المغريات ولا الضغوط. المجتمع الذي أفراده مستعدون للتضحية بكل شيء من أجل عقيدتهم، هو مجتمع عزيز لا يُقهَر. المواطن الحقيقي هو المتحرر من عبودية المال والجاه والوطن، ليعبد الله وحده. هذه التضحية تؤدي إلى بناء وتنمية حقيقية، لأنها تنبع من إخلاص وقوة.

.7تحرير الإنسان من كل المخاوف:
الخوف من الفقر ومن الناس ومن الموت هو أكبر معوق للإنتاج والتنمية. الآية تحررك من هذه المخاوف عبر التوكل. حينها تتحول العقيدة من أفكار نظرية إلى حركة بناء وتنمية. تبدأ تبني، تخترع، تسافر، تجاهد، ولا يردعك إلا خوف الله وحده. هذه هي الأمة القوية الواثقة.

.8أهمية الحافز والمكافأة في العمل الجاد:
"نعم أجر العاملين" هي أعظم نظام حوافز في الكون. كلما أتقنت عملك، وكلما صبرت وتوكلت، ازداد أجرك. هذا يرفع الكفاءة والإنتاجية في المجتمع، ويحول العقبات إلى فرص (فالصبر يحول الألم إلى أجر). عمل المؤمن هو العمل المنتج، العظيم، الذي له قيمة عند الله، فيؤديه بإتقان.
كيف نطبق هذه الآية في حياتنا العملية؟

· في مجال عملك: انظر إلى عملك كعبادة. أتقنه، اصدق فيه، اصبر على تعبه، وتوكل على الله في رزقك. لا تغش، ولا ترتشي، ولا تظلم. هذا هو "العمل الصالح".
· في أزماتك: عندما تمر بضيق، أو هجرة معنوية (ترك مكان سيء إلى مكان أفضل)، أو تفقد عزيزًا، أو تفشل في مشروع، تذكر قوله: "خالدين فيها". قل لنفسك: "هذا التعب مؤقت، وما ينتظرني أبدي". توكل على الله واستمر.
· في علاقاتك: اصبر على أذى الناس، وتوكل على الله في رد الحق. لا ترد الظلم بظلم، بل اصبر واحتسب.
· في تربيتك لأولادك: علمهم أن الإيمان الحقيقي هو العمل، وأن الشوق للجنة هو أعظم دافع، وأن الصبر والتوكل هما سلاح المؤمن. اجعل همّهم بناء شخصياتهم لا مظاهرهم.
· في مجتمعك: كن داعية بالقدوة. اجعل من نفسك نموذجًا للإنسان المؤمن العامل الصابر المتوكل. عندما يراك الناس متزنًا منتجًا قويًا، سيسألونك عن سر هذا الصمود، فتدعوهم إلى الله.

ختامًا، تأمل معي: كأن الله يهمس في أذنك وأنت في وسط معركة الحياة: "تعالَ إلى هنا... أنا وعدتك. اقترب مني بالإيمان والعمل، وستسكن في أعلى القصور. فقط اصبر قليلا ً، وتوكل عليّ، فإني معك". هذه الآية ليست للموتى، بل للحياة. هي لمن أراد أن يبني قصرًا في الجنة بلبنات من صبره وعمله ويقينه.

المبحث الثالث
أخي الحبيب، أختي الكريمة، بعد أن قطعنا شوطًا في تفسير الآيتين 58 و59 من سورة العنكبوت، وتحدثنا عن الوعد العظيم بالغرف في الجنة للذين آمنوا وعملوا الصالحات وصبروا وتوكلوا، قد يخطر في بالك سؤال مشروع جدًا، سؤال يمس صميم حياتك اليومية: "هذا الكلام جميل، ولكن كيف أصبر وأتوكل وأنا خائف على رزقي؟ كيف أهاجر في سبيل الله أو أضحي بمالي وأنا لا أعلم من أين سيأتي قوت يومي؟ أليس من الطبيعي أن أقلق على لقمة عيالي؟"

هنا، فان الله يسمع هذا السؤال الذي يدور في نفسك، بل ويسبقك إليه، فينزل الآية التالية مباشرة، لتكون الإلهية العملية، والرد الحاسم على هذا القلق الإنساني الفطري. يقول تعالى:

}وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ العَلِيمُ] {العنكبوت:[60

تخيل معي هذا المشهد: أنت على وشك أن تخطو خطوة إيمانية كبيرة، قد تكلفك الكثير ماديًا. قلبك خائف، عقلك يحذر، نفسك تتملص. فجأة، تسمع هذه الآية. إنها ليست مجرد معلومات، إنها صدمة إيجابية لقلبك، وصفعة منبهة لعقلك، وطوق نجاة لنفسك الخائفة.

دعنا نغوص فيها معًا، بنفس الأسلوب الذي نخاطب به قلبك ووجدانك قبل عقلك.
المقدمة والأفكار الرئيسية للآية 60

بعد أن دعانا الله إلى الصبر والتوكل ووعدنا بالجنة، ينتقل بنا إلى إزالة أكبر عائق أمام تحقيق هذا الصبر والتوكل، ألا وهو الخوف من الرزق. هذه الآية هي برنامج عملي لعلاج القلق المادي.

أفكارها الرئيسية:

.1نفي الحجة: عرض مشهد كوني يثبت أن كثيرًا من المخلوقات لا تحمل رزقها معها، بل تعيش يومها.
.2إسناد الرزق إلى الله وحده: الله هو الرازق لها ولكم، وليس أنتم ولا قدراتكم.
.3صفات الله المطمئنة: "السميع" لشكواكم وخوفكم، "العليم" بحاجتكم وضعفكم.
.4النتيجة العملية: تحرير القلب من هم الرزق ليتفرغ للصبر والتوكل والجهاد والعمل الصالح.

والآن، لنبدأ الرحلة التفصيلية:

أولا ً: دلالات قوله تعالى: {وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا}

.1ما معنى "وكأين من"؟
"كأين" هي أداة تفيد التكثير، أي "كم من كثير" .إنها تفيد العدد الكبير الهائل .الله لا يقول: "انظر إلى هذه الحشرة فقط"، بل يقول: "انظر إلى كل هذه المخلوقات التي لا تعد ولا تحصى" .إنها جملة افتتاحية قوية تجعلك ترفع رأسك إلى السماء وتنظر حولك، وترى هذا الجيش العظيم من المخلوقات التي لا تملك شيئًا.

.2"من دابة":
الدابة تشمل كل ما يدب على وجه الأرض، من أصغر نملة أو جرثومة إلى أكبر فيل أو حوت. كلها تحت هذا الاسم. والله يختار "دابة" وليس "طائر" أو "حيوان" ليشمل كل شيء. حتى أنت يا إنسان تدخل تحت اسم "دابة" من الناحية اللغوية، لأنك تدب على الأرض.

.3"لا تَحْمِلُ رِزْقَهَا":
هذه العبارة هي الضربة القاضية للخوف. ماذا تعني "لا تحمل رزقها"؟

· معناها الحرفي: ليس معها رزقها في جيبها، ولا تخزنه في مخازنها، ولا تحمله على ظهورها .الطائر يخرج في الصباح خالي الوفاض، السمكة في البحر ليس معها صندوق طعام، النملة تخرج من جحرها ليس معها شيء.
· اللمسة البلاغية: الفعل "تحمل" في سياق النفي يفيد العجز والضعف .هذه الدواب في قمة ضعفها وعجزها، لا تملك قوت يومها، ولا تدخل السوق لشرائه، ولا تزرع الأرض، ولا تطبخ طعامها .هي أعجز منك بألف مرة.

.4ما هي الرسالة التربوية والإيمانية والنفسية هنا؟

· رسالة إيمانية) قتل التعلق بالأسباب(: أنت يا من تخاف على رزقك، انظر إلى عصفور صغير يغرد على غصن شجرة .هل معه بطاقة ائتمان؟ هل معه مخزون من القمح؟ هل يملك شركة؟ لا .ومع ذلك فهو حي يرزق، ينام ويصحو ويملأ بطنه .إذا كان الله يرزق هذا العاجز الذي لا يحمل رزقه، أفلا يرزقك أنت الذي خلقتك بيدك ونفخت فيك من روحك؟!
· رسالة نفسية) علاج القلق(: القلق الحقيقي ينشأ من شعورك أنك "أنت" المسؤول عن جلب الرزق . هذه الآية تفيدك إفلاس هذا المفهوم .أنت لست مسؤولا ً عن الرزق، مسؤوليتك هي "العمل" فقط، أما النتيجة) الرزق (فعلى الله .عندما تدرك أنك "لا تحمل رزقك"، يسقط عنك حمل ثقيل، هو حمل الضمان والنتيجة .يصبح همك فقط أن تفعل الأسباب المشروعة، وتترك الباقي لله .هذا هو الطمأنينة بعينها.
· رسالة تربوية: ربي نفسك وأولادك على أن الرزق من الله، ليس بالأحلام الكبيرة فقط، بل بالثقة الصغيرة .علمهم أن يراقبوا النملة والطائر ويتأملوا كيف يأتي رزقها .هذا يزرع فيهم التوكل العملي منذ الصغر.
· رسالة عقلية: الآية تضرب أروع مثال منطقي بالاستدلال من الأضعف إلى الأقوى .إذا كان الله يرزق هذه المخلوقات الضعيفة جدًا، فمن باب أولى) الأولى المنطقية (أن يرزقك أنت، بل ويرزقك أكثر وأفضل .هذا قياس منطقي سليم يقنع العقل قبل أن يطمئن القلب.

لمسة بيانية بديعة: اختيار كلمة "دابة" التي تشمل الإنسان أيضًا، فيها تذكير ضمني للإنسان المتكبر

بقوته وماله: "أنت أيضًا دابة مثلها، لا تختلف عنها في ضعفك الأساسي. الفرق أنك وهبت عقلا ً، وهذا العقل يجب أن يقودك إلى معرفة الرازق، لا إلى القلق".
ثانيا: دلالات قوله تعالى: {اللهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ}

هذا هو محور الآية وقاعدة اليقين.

{ .1اللهُ يَرْزُقُهَا}:

· تقديم اسم الجلالة "الله" على الفعل "يرزقها": هذا يفيد الحصر والقصر .أي: الله وحده هو الرازق، لا أنت، ولا قوتك، ولا وسائلك، ولا وظيفتك، ولا تجارتك .هذه هي العقيدة الخالصة .كأنه يقول: "لا تظن أن الرزق يأتي من عمل يدك أو ذكائك .هذه مجرد أسباب .المسبب الحقيقي هو الله وحده".
· الفعل المضارع "يَرْزُقُهَا": يفيد التجدد والاستمرار .ليس رزقا مرة واحدة، بل كل يوم، كل ساعة، كل لحظة .رزق الأمس انتهى، ورزق اليوم لم يأت بعد، وهو الآن ينزل .هذا يجعلك تعيش في حالة ارتباط لحظي بالله، لا تعتمد على مخزون الماضي، بل تنتظر عطاء الله في الحاضر والمستقبل.

{ .2وَإِيَّاكُمْ}:

· هذا هو القفزة النوعية في الآية .بعد أن ذكر الدواب، التفت إليك مباشرة بـ "وإياكم" .كأنه يضع يده على كتفك ويقول: "وأنت أيضًا يا هذا".
· لماذا إياكم منفصلة؟ لأنها ضمير نصب منفصل، يفيد التوكيد والاختصاص .المعنى: الله يرزق هذه الدواب، ويرزقكم أنتم أيضًا، بل ويرزقكم أكثر وأفضل .إنه يشعرك أنك لست غريبًا عن هذا النظام الكوني، بل أنت جزء منه ومقصود بالرعاية.
· الرابط بالآيات السابقة: الآيات السابقة تحدثت عن الهجرة والجهاد والتضحية .هنا يأتي الضمان الإلهي: "هيا اخرجوا وضحي، أنا الذي سأعوضكم .أنا الذي أرزق الطيور التي تخرج بلا زاد، وسأرزقكم أنتم أيضًا" .إنها صفقة رابحة: تخلى أنت عن رزقك الدنيوي مؤقتًا في سبيلي، وأنا أرزقك خيرًا منه في الدنيا والآخرة.

الأثر النفسي والإيماني لهذه العبارة:

· تزرع الثقة بالله: عندما تتأكد أن الرزاق هو الله وليس أنت، تتحرر من عبودية الوظيفة، والزبون، والمدير، والبنك .تصبح عبدًا لله وحده.
· تقتلع الخوف من الفقر: الخوف من الفقر هو أحد أكبر مفسدات التوحيد .هذه الآية تقول: "لا تخافوا ، أنا المسؤول .أنا السميع لدعائكم، العليم بضعفكم" .من كان الله كفيله، فلا يخاف من إفلاس أحد.
· تدفع للعمل الجاد لا الكسل: فهم خاطئ للتوكل أن تجلس لا تعمل .ولكن الآية تقول: انظر إلى الدابة! هي "لا تحمل رزقها" ولكنها تخرج وتسعى .الطائر يغدو ويذهب ويبحث .النملة تعمل وتكد . التوكل ليس تعطيلا ً للأسباب، بل هو عمل الأسباب مع قطع التعلق بنتائجها .فالآية تحفزك على العمل لأنها تؤمن لك النتيجة .أنت تعمل والله يضمن الرزق .أي دافع أكبر من هذا للإنتاج؟

ثالثا: دلالات قوله تعالى: {وَهُوَ السَّمِيعُ العَلِيمُ}

هذه الخاتمة العظيمة للآية، كأنها تاج على رأس المعنى.

{ .1وَهُوَ السَّمِيعُ}:

· السميع: اسم من أسماء الله الحسنى، يدل على إحاطة سمعه بكل شيء .يسمع دبيب النملة في ليل البهيم، ويسمع دعاءك المكسور، ويسمع صراخ فرخ في عشه، ويسمع شكوى مهاجر ترك أهله .هو يسمع:
· شكواك من ضيق الرزق.
· دعاءك أن يوسع لك.
· خوفك الذي لم تنطق به.
· همس قلبك عندما تفكر: "كيف سأعيش؟"
· الأثر النفسي: عندما تعلم أن هناك من يسمعك، يسمع كل تفاصيل ضعفك، وتعلم أنه ليس أصمًا كآلهة البشر، بل هو السميع الذي يتفاعل مع ما يسمعه، يتحول يأسك إلى رجاء .ارفع يدك وادعُ، اشتكِ له، فهو يسمع.

{ .2العَلِيمُ}:

· العليم: يحيط علمه بكل شيء .يعلم ما في بطن الحوت، وما في جوف الأرض، ويعلم ما تحتاجه أنت قبل أن تعرفه أنت بنفسه .يعلم:
· حاجتك الحقيقية) قد تطلب شيئًا هو شر لك.(
· وقت نزول الرزق المناسب لك.
· مقدار الرزق الذي يصلحك) لا يزيد عن حاجتك فتطغى، ولا ينقص عن كفافك فتشقى.(
· الربط بين السميع والعليم: هو يسمع حاجتك ويعلم مصلحتك .فاستجابته تكون وفق علمه وحكمته، لا وفق جهلك وضعفك .قد لا يعطيك ما تريد حالا ً لأنه يعلم أن تأخيره خير لك .وهذا هو عين الأ دب مع الله .الثقة بأنه إذا أخر الرزق، فلأنه يعلم أن في تأخيره حكمة.

اللمسة البلاغية:
جاء الاسم "السميع" قبل "العليم" في هذا السياق، لأن المقام مقام حاجة ودعاء، فحاجة العبد أن يسمع ربه صوته أولا ً، ثم يعلم حاجته. تقديم السمع يوحي بأن الله قريب مجيب، وأن العبد لا يحتاج إلى وسيط، فقط ارفع صوتك (حتى لو همسًا) يسمع. ثم يأتي العلم ليطمئنك بأنه يعرف ما تريد وما هو خير لك.

الرسائل الإيمانية والتربوية:

· رسالة للقلب: لا تيأس، فالذي يسمع دبيب النملة السوداء على الصخرة الصماء في ليل البهيم، يسمعك أنت.
· رسالة للعقل: فكر في نظام الرزق الكوني .كيف يصل رزق كل مخلوق؟ هذا يتطلب علمًا لا نهائيًا وقدرة لا متناهية .هذا يقودك إلى الإيمان بالله العليم السميع.
· رسالة عملية: اجعل هذه الصفات شعارك في كل أزمة مالية .قل: "يا سميع، اسمع دعائي .يا عليم، اعلم حالي وتولني برحمتك".

المفاهيم العملية الكبرى من الآية (كيف تحول حياتك)

الآن، دعنا ننزل من السماء إلى أرض الواقع. كيف تطبق هذه الآية في لحظات قلقك اليومي؟

.1مفهوم "تحرير القلب من هم الرزق":
أكبر سر في هذه الآية أنها تنقل هم الرزق من قلبك إلى ربك. أنت لا تزال تعمل، بل تعمل أكثر وأجد ، ولكن قلبك ليس معلقًا بالنتيجة. قلبك مطمئن في يد الله. هذا هو الفرق بين المؤمن وغيره:

· غيره: يعمل وقلقه يزداد كلما زاد عمله.
· المؤمن: يعمل وطمأنينته تزداد، لأنه يعلم أن النتيجة مضمونة من الله.

.2بناء عقلية الوفرة) الغنى (بدل عقلية الندرة) الفقر(:
عقلية الندرة تقول: "الرزق محدود، إن أخذ غيري نقص نصيبي". عقلية الوفرة الإيمانية تقول: "خزائن الله لا تنفد، ورزقه مضمون لكل مخلوق. إن رزق غيري لا ينقص رزقي، كما أن رزق الطيور لا ينقص رزق الحيتان". هذه العقلية تمنع الحسد والبخل، وتدفع إلى الكرم والتعاون.

.3التوكل الإيجابي الفعال:

· التوكل السلبي: "سأجلس في البيت وأقول الله يرزقني") هذا كسل وليس توكلًا.(
· التوكل الإيجابي الفعال: هو الذي تعلمه الآية: "سأخرج كالدابة التي لا تحمل رزقها، ولكنها تخرج وتسعى، وتثق أن الله سيرزقها .سأفتح مشروعي، وأسافر، وأتعلم، وأعمل، ولكن قلبي ليس معلقًا ب الربح أو الخسارة، بل بالله" .هذا التوكل هو أصل الإنتاج والتنمية.

.4تحويل الخوف من الفقر إلى قوة دافعة للأخلاق:
كثير من الانحرافات الأخلاقية (الغش، السرقة، الرشوة، الكذب في البيع) سببها الخوف من الفقر. هذه الآية تقطع جذور هذا الخوف. عندما تؤمن أن الله هو الرزاق، لن تقدم على حرام لجلب رزق، لأنك تعلم أن الحرام لا يزيد الرزق، بل يمحو البركة. فتتحول إلى إنسان أمين، نزيه، منتج.

.5العلاقة بين الآية 60 وما قبلها58) -(59:

· الآيات السابقة قالت: "اصبر وتوكل على ربك لتنال الغرف في الجنة".

· هذه الآية تقول: "ولكي تصبر وتتوكل، لا تخف على رزقك .الله يضمنه لك كما ضمنه لجميع خلقه".
· إذاً: الخوف من الرزق هو العدو الأول للصبر والتوكل والجهاد .أزل هذا الخوف، وسيتبعها كل خير.

.6التطبيق العملي في حياتك اليومية:

· صباح كل يوم: عند استيقاظك، قبل أن تتفقد هاتفك أو بريدك الإلكتروني، تذكر هذه الآية .قل: "الله م أنت رزاقي، وسميعي، وعليمي .سأخرج اليوم كالدابة لا أحمل رزقي، وأثق أنك سترزقني".
· عندما تأتيك فاتورة مرتفعة أو ضائقة مالية: لا داعي للهلع .تذكر الدابة التي لا تحمل رزقها .قل: "يا الله، أنت الذي ترزق هذه الدواب الضعيفة، وأنت ترزقني .هذا أمر بسيط عليك".
· عند التفكير في هجرة أو تضحية مالية من أجل دينك أو مبدأك: لا تدع الخوف من المستقبل يثنيك .هذه الآية هي الضمان .اخطُ، واترك الباقي على الله.
· في تعاملك التجاري: لا تخف من أن يخسر زبون أو تكسد سلعة .أنت لست المسؤول عن الرزق . أنت مسؤول عن الصدق والأمانة والإتقان .والله مسؤول عن الرزق .هذا يجعلك تاجرًا أمينًا مطمئنًا.
· عندما ترى غيرك يغش ويأكل الحرام ويثرى: لا تحسدهم .تذكر أن رزقك عند الله، ليس عندهم .وأن الحرام يذهب البركة، حتى لو كثر المال .وطمئن نفسك أن الدابة التي لا تحمل رزقها تأكله حلالا ً، وأنت أيضًا سترزق حلالا ً.

الرسالة النهائية التي تخرج بها من هذه الآية:

أنت لست مسؤولا ً عن النتائج. أنت مسؤول عن الأسباب الصحيحة (العمل والإتقان) وعن النية الصالحة. أما النتيجة، فهي على الله. عندما تدرك ذلك، تسقط عنك أغلال القلق والتوتر، وتنطلق حرًا، قويًا، منتجًا، صابرًا، متوكلًا، تشق طريقك إلى غرف الجنة التي وعدك بها في الآيات السابقة، غير مكترث بصخب الدنيا وزينتها الزائلة.

والله السميع العليم بدعائك، يعلم جهادك، وسيمنحك فوق ما تمنيت.

القسم الثالث

المبحث الأول

أخي الحبيب، أختي الكريمة، بعد أن أزاحت الآية السابقة (60) أكبر عائق أمام الصبر والتوكل وهو الخوف من الرزق، وجاءت الطمأنينة بأن الله هو الرزاق السميع العليم، يأتي السؤال المنطقي التالي الذي لا بد أن يدور في ذهنك: "لماذا إذا كان الله هو الرازق، وهو السميع العليم، يبقى هناك من يشرك به؟ لماذا يعبد الناس غيره؟"

هنا تأتي الآية 61 من سورة العنكبوت لتدق أعظم حجة على فطرة التوحيد، ولتكشف عن تناقض بشع في أعماق المشركين أنفسهم. إنها ليست آية تخاطب الكافر فقط، بل هي آلة حادة لتنظيف قلبك أنت أيضًا من أي شرك خفي. يقول تعالى:

{وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ] {العنكبوت: 61]

تخيل معي نفسك في حوار مع إنسان يعبد الأصنام، أو يعتمد على الحظ، أو يقدس العلماء أو القادة كآلهة. تقترب منه وتسأله سؤالا ً بسيطًا مباشرًا: "من خلق هذا الكون الهائل؟ من خلق السماوات والأ رض؟ من سخّر الشمس والقمر لتدور بحساب دقيق؟" ماذا تتوقع أن يقول؟ لن يقول: "صنمنا"، ولن يقول: "الطبيعة"، ولن يقول: "الصدفة". بل سيهتز قلبه الفطري السليم، وسينطق لسانه دون تردد: الله.

وهنا تكمن المفارقة العجيبة. بعد هذا الإقرار الواضح، يسألهم الله سؤالا ً توبيخيًا: {فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ} أي: كيف يصرفون عن عبادته؟ كيف يلتفتون إلى غيره بعد هذا الاعتراف؟

دعنا نغوص في هذه الآية العظيمة، ونستخرج دررها.
المقدمة والأفكار الرئيسية للآية 61

هذه الآية تمثل الدليل العقلي الفطري على وحدانية الله، وتفضح تناقض المشركين.

أفكارها الرئيسية:

.1الإقرار الفطري: كل البشر يعترفون فطريًا أن الله هو الخالق المدبر لهذا الكون.
.2الامتنان الإلهي: ذكر نعمتي الخلق والتسخير) الشمس والقمر (كأكبر دليل على القدرة والربوبية.

.3التوبيخ والاستنكار: "فأنى يؤفكون" – كيف ينقلبون عن هذا الحق بعد إقرارهم به؟
.4النتيجة: كشف زيف الشرك، وأنه ليس نابعًا من العقل أو الفطرة، بل من الأهواء والاتباع الأعمى.

والآن، لنبدأ الرحلة:

أولا ً: دلالات قوله تعالى: {وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَمَاوَاتِ وَالأَرْضَ}

} .1وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ{:

· اللام) لَ(: لام القسم .كأن الله يقسم لك: "لو ذهبت إلى أي مشرك على وجه الأرض، وسألته هذا السؤال..."
· "سَأَلْتَهُمْ" بصيغة الماضي الشرطي) فعل شرط .(تفيد أن هذا الأمر مفروغ منه، ونتيجته محتومة . ليست مجرد احتمال، بل هي حقيقة واقعية .جربها بنفسك.

} .2مَنْ خَلَقَ السَمَاوَاتِ وَالأَرْضَ{:
لم يقل "من خلقكم" فقط، بل بدأ بأعظم المخلوقات: السماوات والأرض. هذا السؤال يصل إلى أعماق الفطرة البشرية لأن:

· السماوات والأرض هما أكبر وأعظم وأوسع ما يراه الإنسان .عظمة خلقهما) ارتفاع السماء بلا أعمدة، واتساع الأرض، وإحكامهما (تدحض أي فكرة أنها خلقت نفسها بنفسها أو أنها وجدت صدفة.
· فعل "خَلَقَ" في الماضي، يدل على أن هذا الخلق حدث في زمان ماض، وله بداية .وهذا يبطل كل نظريات الأزلية والأساطير القديمة.
· السماوات جمع تكثير، والأرض مفردة .هذا يشمل كل ما فوقنا وكل ما تحتنا.

اللمسة البيانية والبلاغية:
تقديم السؤال باسم الاستفهام "مَنْ" (للمن يعقل) وليس "ما" (لغير العاقل)، يفيد أن فطرة الإنسان تدفعه إلى إسناد الخلق إلى كائن حي عاقل قادر، لا إلى قوة عمياء أو طبيعة صماء. حتى أشد الملحدين عنادًا، عندما يتأمل في نظام الكون، يضطر إلى التساؤل: "من وراء هذا؟" فهو ينفي الإله بلسانه، لكن فطرته تقول له "من".

الأثر النفسي والعقلي:

· العقلي: هذا أسلوب جدلي راقٍ .لا يحتاج إلى برهان معقد .فقط اسأل خصمك سؤالا ً بسيطًا عن الخالق الأكبر، وسيجيبك بما يدين به نفسه .إنه دليل الإقرار، وهو أقوى من دليل الإثبات.
· النفسي: يشعر المؤمن بالفخر والطمأنينة عندما يرى أن عقيدته هي الأصل الفطري لكل البشر، وأن الشرك والكفر هما الشذوذ والمرض.
ثانياً: دلالات قوله تعالى: {وَسَخَرَ الشَمْسَ وَالقَمَرَ}

هذا هو التفصيل الدقيق لعملية الخلق. بعد أن ذكر خلق السماوات والأرض (البنية الأساسية)، انتقل إلى تسخير أعظم جرمين يؤثران في حياة الإنسان: الشمس والقمر.

} .1وَسَخَرَ{:

· فعل التسخير يدل على الإذلال والإخضاع لقوة أعلى .الشمس والقمر ليسا آلهة، بل هما مسخران، مذللان، مطيعان لأمر الله .لا يخرجان عن طاعته طرفة عين .هذا يبطل عبادة الشمس والقمر التي كانت سائدة في كثير من الأمم.
· الفعل الماضي "سَخَرَ" يفيد أن هذا التسخير تم منذ البداية وهو مستمر .لم يتركهما الله هملا ً، بل سخرها لخدمتك أنت يا إنسان.

} .2الشَمْسَ وَالقَمَرَ{:

· لم يذكر الله غيرهما من الكواكب، لأنهما الأكثر ظهورًا وتأثيرًا في حياة الإنسان: الضوء، والحرارة، و الليل والنهار، والفصول، والمد والجزر، والتقويم الزمني.
· التعريف بأل في "الشمس" و"القمر" يفيد أنها المعهودة المعروفة لدى كل إنسان .كل الناس يرونها، ويعرفونها .فكيف يعقل أن يسجد لها من هو أعظم منها وأعقل منها؟!

اللمسة البلاغية:
العطف بـ "وسخر" على "خلق" يفيد التدرج من الأكبر إلى الأخص. كأنه يقول: "هذا هو الخالق العظيم الذي خلق كل شيء، ثم هو الذي يحرك أدق التفاصيل ويسخرها لخدمتك". إنه يضرب لك مثا لا ً بالشمس والقمر ليقنعك بأن الرازق (الآية السابقة) هو نفسه الخالق المسخر. من قدر على خلق هذا الكون العظيم، أفلا يقدر على رزق دابة صغيرة؟! هذا الربط بين الآيات يزيد يقينك.

الدروس والرسائل:

· رسالة إيمانية: الشمس والقمر يعملان من أجلك مجانًا.لقد سخرهما الله لخدمتك ألا تستحق هذه النعم أن تشكر خالقها؟
· رسالة تربوية: علم أبناءك أن ينظروا إلى الشمس والقمر نظرة العبد للآية، لا نظرة العابد للمعبود . استغلال هذه التسخيرات في العلم والإنتاج هو جزء من شكر الله.
ثالثاً: دلالات قوله تعالى: {لَيَقُولُنَّ اللَّهُ}

هذه هي ذروة الإقرار، والجواب الحتمي.

{ .1لَيَقُولُنَّ}:

· اللام والنون الثقيلة: تأكيدان متتاليان) القسم والتوكيد (يدلان على أن هذا الجواب ليس مجرد احتمال، بل هو جزم ويقين لا يتزعزع في نفوسهم .كأنه يقول: "سيجيبون جواباً حازماً لا يخلطون فيه ولا يشكون".
· صيغة المضارع "يَقُولُنَّ" تدل على التجدد والتكرار .كلما سألتهم في أي زمان ومكان، سيكون جوابهم واحدًا.

{ .2اللَّهُ}:
لم يقولوا "ربنا" أو "إلهنا"، بل قالوا "الله" بالاسم الجامع لصفات الألوهية والربوبية. هذا الاسم يدل على أنه المألوه المعبود بحق، وأنه صاحب كل صفات الكمال. فهم يعترفون بوجوده وربوبيته، لكنهم لا يعبدونه! هنا تظهر المفارقة.

اللمسة البلاغية العظيمة:
الآية كلها مبنية على حذف الجواب الذي يدل على النتيجة. التقدير: "لئن سألتهم... ليقولن الله، ولكنهم يعبدون غيره". هذا الحذف يترك مجالا ً للتأمل والتعجب. كأن الله يقول: "انظر وتأمل هذا التناقض الصارخ، ثم احكم بنفسك".

الرسالة النفسية والعقلية:

· نفسيًا: المؤمن يشعر بأن فطرته سليمة، وأن عقيدته متوافقة مع عقله وفطرته .أما المشرك فهو يعيش في حالة انفصام بين ما يعتقده قلبه جملة، وما يمارسه لسانه وجوارحه بسبب التقليد والأ هواء.
· عقليًا: الآية تقدم أقوى برهان عقلي على أن الشرك ليس له أصل في العقل، بل هو مرض في الإ رادة والاتباع .فكيف يعقل أن تعترف بأن الله هو الخالق وحده، ثم تعبد غيره؟ هذا أشبه بشخص يعترف بأن طبيبًا ماهرًا هو من شفاه، ثم يذهب ليسجد للمشرط الذي أجرى به العملية!
رابعاً: دلالات قوله تعالى: {فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ}

هذه الجملة هي التوبيخ والتعجب والاستنكار الإلهي.

{ .1فَأَنَّى}:

· اسم استفهام بمعنى "كيف" أو "من أين" .وهو يدل على الاستبعاد والاستنكار .كأنه يقول: "من أين لهم هذا الانصراف؟ كيف يسوغون لأنفسهم هذا التحول القبيح؟"

{ .2يُؤْفَكُونَ}:

· فعل مضارع مبني للمجهول) يُؤْفَكون (أي: يُصرفون عن الحق .وليس "يأفكون" بصيغة المعلوم .هذا يفيد أنهم ليسوا هم الفاعلين فقط، بل هناك من يصرفهم) الشيطان، الأهواء، قادة الضلال .(ولكن مع ذلك، هم قابلون لهذا الصرف، فهم مسؤولون.

· أصل "الإفك" هو الكذب والانقلاب عن الحق .ووصفهم بهذا الفعل يفيد أنهم منقلبون عن جادة الصواب، متيهون في باطلهم.

اللمسة البيانية:
التعبير بـ "يؤفكون" بصيغة المضارع المبني للمجهول، فيه إشارة إلى أن هذا الانصراف عن الحق هو حالة مستمرة ومتجددة فيهم. كلما جاءهم دليل على الحق، يُصرفون عنه بأساليب متجددة. إنها سمة دائمة في أهل الباطل.

الرسائل التربوية والإيمانية والعملية:

.1تنبيه للعقل: لا تكن كمن يعترف بالله نظريًا ثم يعمل بغيره عمليًا .كم من مسلم يقول "لا إله إلا الله" بلسانه، ثم يخاف من مخلوق كخوفه من الله، أو يتوكل على سبب كتوكل على الله، أو يقدس شخصًا أو شيئًا دون الله! هذه الآية توقظك من شرك الخفي.
.2دعوة للمناظرة الحسنة: تعلم من هذه الآية أسلوب الدعوة بالحكمة .ابدأ مع المخالف بما يتفق عليه) فطرة التوحيد(، ثم انتقل إلى ما تختلفون فيه، ووجّه له السؤال الناقض: "إذا كنت تعترف أن الله خالق الكون، فكيف تعبد غيره؟"
.3مفهوم "القلب السليم": القلب السليم هو الذي لا يصرف عن الحق .أما القلب المريض فهو يتقلب مع كل شبهة وشهوة .اسأل نفسك: هل أنا ثابت على الحق، أم أتأفك) أنصرف (مع تغير الظروف والأ هواء؟
.4الربط بالآيات السابقة) الرزق والتوكل(: هذه الآية تكمل العلاج .الآية 60 قالت: "لا تخف على الرزق، الله يرزقك" .والآية 61 تقول: "وهذا الرازق هو خالق السماوات والأرض والمسخر للشمس والقمر" .إذا كان الرازق هو الخالق العظيم، أفلا تستحق أن تتوكل عليه وحده؟ وأفلا تستحق ألا تخاف من مخلوق ضعيف مثلك؟ إنها تحطيم لآلهة الخوف من دون الله.
المفاهيم العملية الكبرى من الآية (كيف تحول حياتك)

الآن، كيف تنزل هذه الآية إلى أرض الواقع في حياتك؟

.1مفهوم "الفطرة التوحيدية":
أيقن أن التوحيد هو الأصل في كل إنسان، والشرك هو عارض طارئ بسبب البيئة أو التقليد أو الأ هواء. هذا يمنحك ثقة هائلة عندما تدعو إلى الله، لأنك تخاطب ما هو مفطور عليه الناس، وليس ما هو غريب عنهم. كما أنه يجعلك حريصًا على تنشئة أطفالك على هذه الفطرة السليمة قبل أن تفسدها المؤثرات.

.2كشف زيف "الشرك الخفي":
الآية تفضح أي شرك، حتى لو كان صاحبه ينطق "لا إله إلا الله". تطبيق عملي:

· شرك الخوف: تخاف من ظالم أو مدير أو فقر، خوفًا يمنعك من فعل واجب أو يدفعك لحرام .تذكر: الذي خلق السماوات والأرض هو الذي يرزقك، فلا تخف من أحد سواه.
· شرك الرجاء: تعلق رجاءك بشخص ميت أو غائب، أو بحظ أو طالع .تذكر: الذي سخر الشمس والقمر هو الذي يقضي حوائجك، فارجُه وحده.
· شرك المحبة: تحب مالا ً أو جاهًا أو شخصًا حبًا يجعلك تقدمه على طاعة الله .تذكر: من خلق هذا الكون يستحق منك الحب الأكبر.

.3بناء الشخصية الواثقة بالله:
عندما تتأكد أن خالق هذا الكون العظيم هو إلهك وربك، تزداد ثقتك بنفسك. لماذا؟ لأنك تعلم أنك تنتمي إلى أقوى قوة في الوجود. أنت لست ضائعًا في كون صامت، بل أنت عبد لخالق هذا الكون. هذه الثقة تجعلك شجاعًا، قويًا، لا يرهبك أحد ولا شيء.

.4تحويل الحوار الداخلي من القلق إلى اليقين:
في لحظات الضعف، عندما يهمس الشيطان: "من سينصرك؟ من سيعينك؟ من سيرزقك؟"، رد عليه بهذه الآية: "الله، الذي خلق السماوات والأرض وسخر الشمس والقمر، هو ناصري ومعيني ورازقي. فكيف أخاف أو أجزع؟"

.5التطبيق في الدعوة والتربية:

· في دعوتك لغير المسلم: لا تتعقده بجدل فلسفي معقد .ابدأ بالسؤال الفطري البسيط: "من خلقك؟

من خلق السماء؟" .ستصل به إلى أن الإجابة هي "الله"، ثم وجه له السؤال نفسه: "فلماذا تعبد غيره؟". . في تربيتك لأولادك: اجعلهم يتأملون في الشمس والقمر وفي خلق السماوات والأرض .سؤال "من خلق هذا؟" يجب أن يكون دائمًا على ألسنتهم، والإجابة "الله" يجب أن تستقر في أعماقهم .هذا يبني فيهم العقيدة الصحيحة منذ الصغر، ويجعل التوحيد فطرة راسخة لا يتزعزع.

الرسالة النهائية التي تخرج بها من هذه الآية:

أخي الحبيب، أختي الكريمة، هذه الآية تخبرك أن الجميع يعرفون الله على مستوى الفطرة والإقرار النظري. لكن الفرق بين المؤمن والكافر ليس في المعرفة، بل في العبادة والانقياد. المؤمن هو من ترجم هذه المعرفة إلى عبادة وتوكل وخوف ورجاء. والكافر هو من صرفه عن ذلك هواه أو تقليده.

لذا، لا تكن من الذين يقولون "الله" بألسنتهم، ثم تتعامل مع غيره كأنه رب. اجعل خالق السماوات والأ رض هو محور حياتك، هو مالك، هو غايتك، هو ملجأك. عندما تصل إلى هذه الدرجة، فلن تخاف من شيء، ولن تحزن على شيء، ولن تعلق قلبك بأحد سواه. وهنا يتحقق لك التوحيد الخالص، وتستحق أن تبوأ غرف الجنة التي وعدك بها في الآيات السابقة، بصبرك وتوكلك على ربك، الذي أقررت بلسانك وفطرتك أنه الخالق المدبر.

المبحث الثاني

أخي الحبيب، أختي الكريمة، بعد أن أثبتت الآية السابقة (61) أن المشركين يعترفون فطريًا بأن الله هو خالق السماوات والأرض والمسخر للشمس والقمر، يأتي الآن سؤال حارق، سؤال يمس واقع كل إنسان بلا استثناء: "لماذا إذن يتفاوت الناس في أرزاقهم؟ لماذا نجد غنيًا فقيرًا، صحيحًا مريضًا، واسع الرزق وآخر ضيقًا؟ أليس من العدل أن يكون الجميع سواء؟ أليس هذا دليلا ً على أن الله ليس عاد لا ً؟"

هنا، وكأن الله يسبق شبهتك التي في نفسك، ويجيبك بهذه الآية التي هي مفتاح الفهم لنظام الرزق ا لإلهي، والتي تحول نظرة القلوب من الحسرة والحسد إلى الرضا والحكمة. يقول تعالى:

}اللهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ] {العنكبوت:[62

تخيل معي أنك تقف على تل عال، وتنظر إلى الناس في الوادي. ترى هذا غارقًا في المال، وذاك يعيش كفافًا. قلبك يتساءل. فجأة، تسمع صوتًا من السماء يشرح لك الخريطة الكاملة للقسمة الإلهية. ليس عن جهل أو عبث، بل عن علم وحكمة بالغة. هذه الآية هي ذلك الشرح المطمئن.

دعنا نغوص في أعماقها، وكأن الله يحدثك أنت شخصيًا.
المقدمة والأفكار الرئيسية للآية 62

هذه الآية هي الموازنة العادلة لمفهوم الرزق. ترد على من يظن أن الغنى علامة رضا الله، والفقر علا مة سخطه.

أفكارها الرئيسية:

.1إسناد الأمر إلى الله وحده: الله هو الفاعل المطلق في البسط والقبض.
.2مبدأ المشيئة الإلهية: "لمن يشاء" – الأمر كله لله، وليس لاجتهاد العبد فقط.
.3نفي العدل المزعوم: البسط لبعض العباد، والقدر) التضييق (لآخرين.
.4ختم الآية بالعلم المطلق: "إن الله بكل شيء عليم" – ليؤكد أن هذا التفاوت ليس ظلمًا ولا عبثًا، بل عن علم كامل بحال العباد وما يصلحهم.

والآن، لنبدأ الرحلة:
أولا ً: دلالات قوله تعالى: {اللهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ}

{ .1اللهُ}:
تقديم اسم الجلالة في بداية الآية يفيد الحصر والقصر. أي: الله وحده هو الذي يبسط ويقبض. لا أنت، ولا ذكاؤك، ولا تعبك، ولا وسائلك. هذا يقطع الطريق على من يظن أن الرزق نتيجة حتمية لجهده فقط. بل هو هبة من الله، يجعل العمل سببًا، لكن النتيجة بيده.

{ .2يَبْسُطُ}:

· فعل مضارع، يدل على التجدد والاستمرار .ليس بسطًا واحدًا، بل هو عملية مستمرة كل لحظة . يرزق هذا ويوسع عليه، ويمنع عن ذاك.
· البسط لغة: هو التوسيع والإكثار .الله يوسع الرزق لبعض الناس فيرزقهم مالا ً وجاهًا وصحة وأولا دًا .هذا البسط قد يكون اختبارًا) أيُشكر أم يكفر؟ (وقد يكون استدراجًا) أيُعاقب بأن يغرق في نعمه ثم يأخذه فجأة؟ (وقد يكون كرامة لعبده الصالح.

} .3الرِّزْقَ{:
جاء نكرة في سياق الإثبات، فتفيد العموم والشمول. الرزق ليس مالا ً فقط، بل يشمل:

· الصحة والعافية.
· الأمن والاستقرار.
· العلم النافع.
· الزوجة الصالحة والأولاد.
· الأكل والشرب والملبس.
· القدرة على الطاعة.
حتى الابتلاء الذي تصبر عليه فيه أجر، فهو رزق أيضًا .الرزق أوسع مما تتصور!

} .4لِمَنْ يَشَاءُ{:

· "لمن" لام الاختصاص .يعني: هذا البسط مخصص لمن اختاره الله بمشيئته.
· "يشاء" المشيئة الإلهية هي السر الأعظم .ليست عبثية، بل هي مقرونة بالحكمة والعلم) كما في خاتمة الآية .(لا تسأل "لماذا فلان؟" لأن الإجابة: "لأن الله شاء ذلك" .وهذا هو التسليم الكامل.
· "من عباده" يا لها من لفظة حانية! لم يقل "من خلقه" أو "من الناس"، بل قال "عباده" .هذا يشعرك بأن العلاقة بينك وبين الله هي علاقة عبودية، وأن كل ما يحدث لك من بسط أو قبض هو من سيد كريم بعبده .حتى لو قدّر عليك الفقر، فأنت عبد والله سيدك، وسيدك لن يظلمك.

اللمسة البيانية والبلاغية:
استخدام الفعل المضارع "يبسط" يدل على الحركة والتغيير. ليس الوضع ثابتًا. قد يبسط الله على فقير فيصبح غنيًا، وقد يقبض عن غني فيصبح فقيرًا. الدنيا دولاب يدور. هذا يمنعك من اليأس إذا كنت فقيرًا، ومن الغرور إذا كنت غنيًا.

الأثر النفسي والإيماني:

· يمنع الحسد: عندما تعلم أن البسط بمشيئة الله، وليس بجدارة العبد أو سعيه فقط، تزول عنك الحسرة على ما عند الآخرين .تقول: "هذا ما شاء الله له، ولو شاء لأعطانيه".
· يزيل العجب والغرور: إذا كنت غنيًا، لا تقل "أنا جاهدت أنا وذكائي" .تذكر: الله هو الذي بسط لك، وهو القادر أن يقبض في لحظة .يبقى قلبك خاشعًا شاكرًا.
· يرسخ الرضا: الفقير يرضى لأن يعلم أن البسط ليس دائمًا خيرًا، والقبض ليس دائمًا شرًا .قد يبسط الله ليبتلي، وقد يقبض ليحمي.
ثانياً: دلالات قوله تعالى: {وَيَقْدِرُ لَهُ}

هذا هو الجانب الآخر من الميزان. بعد البسط، يأتي التقدير.

} .1وَيَقْدِرُ{:

· من "قدر" بمعنى ضيق وحصر، وهو نقيض البسط .أي يضيق الرزق على من يشاء، فيعيش عيشة كفاف أو حتى عسرة.
· الفعل المضارع "يقدر" يدل على التجدد أيضًا .قد يقدر على شخص في وقت دون آخر .الفقر ليس حكمًا مؤبدًا، بل هو حالة عابرة قد تتغير.
· اللمسة البلاغية: الجمع بين "يبسط" و"يقدر") الطباق (يوضح تمامًا أن الأمر كله بيد الله، وأن الدنيا قائمة على هذا التفاوت .لولا التفاوت لما عُرفت قيمة الشكر والصبر.

} .2لَهُ{:
اللام في "له" تفيد الاختصاص. أي يقدر الرزق لذلك العبد بعينه. ليس الأمر عشوائيًا. كل إنسان له نصيبه المقدر له. حتى في التضييق، هو مقدر خصيصًا له. هذا يزيل الشعور بالظلم: "هذا قدري أنا، وليس خطأ في النظام الكوني".

.3العلاقة بين البسط والتقدير:
هذا التفاوت هو أعظم حكمة إلهية:

· لو بسط الله الرزق لجميع الناس، لطغوا وتجبروا، ولفسدت الأرض .قال تعالى:} وَلَوْ بَسَطَ اللهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الأَرْضِ] {الشورى:.[27
· التفاوت يخلق نظامًا اجتماعيًا: غني يتصدق، وفقير يتقبل، وغني يشكر وفقير يصبر.
· التفاوت يبين حقيقة الدنيا: أنها دار ابتلاء وامتحان، وليست دار جزاء.

الرسائل النفسية والتربوية:

· علاج القلق من الفقر: لا تخف من "التقدير") الضيق(، فهو من الله .ومن كان الله هو المقدر له، فلماذا يجزع؟ قد يكون التقدير خيرًا لك: يحميك من الكبر، ويدفعك للدعاء، ويكفر عنك ذنوبك.
· مكافحة الطمع: إذا كنت في بسط، فاحمد الله، واعلم أن غيرك في تقدير، فساعدهم .وإذا كنت في تقدير، فاصبر، واعلم أن غيرك في بسط، فلا تحسدهم.
· تربية النفس على عدم التعلق بالحالة المادية: قيمتك عند الله ليست بمالك .قد يكون أفقر الناس أغنى عند الله، وأغنى الناس أفقرهم عند الله.
ثالثاً: دلالات قوله تعالى: {إِنَّ اللهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ}

هذه الخاتمة هي السر العظيم وراء البسط والتقدير.

} .1إِنَّ اللهَ{:
"إنّ" تفيد التوكيد .يؤكد لك أن الله على علم تام.

} .2بِكُلِّ شَيْءٍ{:
"كل شيء" تعم كل ما يخطر ببالك .من أكبر مجرات إلى أصغر ذرة .ومن أهمها:

· علمه بحالك أنت: يعلم ما يصلح لك من البسط أو التقدير .قد تطلب البسط وهو يضرك، وتهرب من التقدير وهو ينفعك.
· علمه بوقت ومقدار الرزق المناسب: يعلم متى تعطي، ومتى تمنع.
· علمه بنيتك: هل ستشكر إذا أعطيت، وستصبر إذا منعت؟

} .3عَلِيمٌ{:
صيغة مبالغة (فعيل) تفيد الكمال والشمول والاستمرار. ليس عليمًا في لحظة ثم ينسى، بل علمه أزلي أبدي شامل.

الربط بين خاتمة الآية ومضمونها:
هذه الخاتمة هي الإجابة المباشرة على كل من يسأل: "لماذا يتفاوت الرزق؟". الإجابة: لأن الله عليم. هو يعلم ما لا تعلم. فثق بعلمه. لو كنت أنت الذي توزع الأرزاق، لفسدت الأرض في يوم واحد. ولكن الله العليم الحكيم هو الذي يبسط ويقدر.

الأثر الإيماني والنفسي العميق:

· يمنحك الرضا المطلق: عندما تستحضر علم الله، ترضى بأي قسمة .تقول: "رب العالمين يعلم أن هذا التقدير خير لي من البسط، فله الحمد على كل حال".
· يطمئنك على مستقبل أطفالك: لا تقلق على أرزاقهم .الله العليم بما يصلحهم سيرزقهم .أنت فقط علمهم العمل الصالح.
· يحررك من الخوف على الرزق: إذا كنت تعلم أن الرزق يأتي بعلم الله وحكمته، لا بعملك فقط، فلماذا تخاف؟ خف من الله فقط.
المفاهيم العملية الكبرى من الآية (كيف تحول حياتك)

الآن، كيف تنزل هذه الآية لتصبح واقعًا تعيشه؟

.1مفهوم "الرضا بالقضاء":
ليس المقصود الرضا السلبي (الجلسة والكسل)، بل الرضا الفعال. أن ترضى بما قدره الله لك من رزق، وفي نفس الوقت تسعى وتعمل وتجتهد، ولكن بدون تعلق قلب بالنتيجة. هذا الرضا هو أعلى درجات

الإيمان، وهو قوة نفسية هائلة. الراضي لا يمرض نفسيًا بالفقر أبدًا، لأنه يعيش غنيًا بقلبه.

.2كسر صنم "الغنى هو النجاح":
المجتمع المادي يعبد الغنى ويعتبر الفقر فشلا ً. الآية تحررك من هذا الوهم. قد يكون الفقر علامة نجاح عند الله إذا كان مقرونًا بالصبر والتقوى. وقد يكون الغنى علامة فشل إذا كان مقرونًا بالطغيان. قيم نفسك بإيمانك وعملك الصالح، لا بميزانك البنكي.

.3مفهوم "الاستدراج الإلهي":
أخطر ما في البسط أن يكون استدراجًا. قال تعالى: {فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ} [الأنعام: 44]. فإذا رأيت عاصيًا يزداد غنى، فلا تحسده. قد يكون هذا ابتلاءً له، وعلامة قرب عقابه. وأنت إذا كنت فقيرًا عاصيًا، فقلقك على الفقر هو نعمة عظيمة، فقد يكون حاجزًا يمنعك من الطغيان.

.4الفقر ليس عيبًا، بل قد يكون شرفًا:
الفقراء هم أسرع الناس دخولا ً الجنة كما في الحديث، إذا صبروا. الفقر يزكي النفس، ويكسر الكبر، ويدفع للدعاء، ويذكر بنعم الله. النبي ﷺ كان فقيرًا في معظم حياته، وخير الناس بعده أبو بكر وعمر كانا تاجرين وفلاحين لكن لم تكن الدنيا أكبر همهم. المهم هو قلبك مع الله.

.5التطبيق العملي في الحياة:

· عندما ترى غنيًا: قل: "اللهم لا تؤاخذني بما آتيتهم، ولا تفتني بهم .اللهم بارك له إن كان صالحًا، وإلا فاحفظني من شر ماله" .ولا تحسد، فقد تكون نعمة تفتنه.
· عندما ترى فقيرًا: اشكره على أنه يذكرك بنعمة الله عليك .وساعده .وتذكر أنه قد يكون أقرب إلى الله منك.
· عند تمرض أو تمر بضائقة مالية: لا تقل "لماذا أنا؟" قل: "اللهم إنك عليم، فأنت تعلم ما يصلح لي . فإن كان هذا خيرًا فزدني صبرًا، وإن كان شرًا فاصرفه عني" .هذا هو التسليم.
· في تربية أولادك: علمهم أن الغنى ليس مقياس التفاضل .علمهم أن يرضوا بما قسمه الله لهم، وألا ينظروا إلى من فوقهم في المال، بل إلى من تحتهم، كما علم النبي .علمهم أن يعملوا بجد، ولكن ألا تعلق قلوبهم بالنتائج، بل بالله.

.6الفرق بين الأخذ بالأسباب والتوكل على النتيجة:
الآية لا تنفي العمل. النبي ﷺ كان يعمل ويتعب. لكن التوكل يكون على الله، لا على السبب. فأنت تدرس وتعمل وتجتهد، ثم بعد ذلك تقول: "اللهم إن شئت أن ترزقني من هذا السبب فافعل، وإن شئت أن ترزقني من سبب آخر فافعل، فأنا لا أتعلق بهذا السبب". هذا هو التوكل الصحيح.

الرسالة النهائية التي تخرج بها من هذه الآية:

أخي الحبيب، أختي الكريمة، هذه الآية تخبرك أن نظام الرزق في الكون ليس عشوائيًا ولا جائرًا، بل هو مضبوط بدقة إلهية كاملة، خاضع لعلم الله المطلق وحكمته البالغة. البسط والتقدير هما وجهان لعملة واحدة اسمها الابتلاء والاختبار.

فلا تنظر إلى من بُسط عليه فتحسده، فقد يكون في حسره. ولا تنظر إلى من قُدِّر عليه فتحتقره، فقد يكون في راحة. وانظر إلى قلبك أنت: هل أنت شاكر عند البسط؟ هل أنت صابر عند التقدير؟ هل أنت راضٍ في الحالين؟

عندما تصل إلى هذا المستوى، تصبح حرًا حقًا. حرًا من عبودية المال، حرًا من عبودية الفقر، حرًا من عبودية الناس. لا تسعك دنيا ولا تضيق بك. تعيش مطمئنًا، تعمل بجد، وتترك الباقي على الله العليم الخبير.

المبحث الثالث

أخي الحبيب، أختي الكريمة، بعد أن تأكدنا في الآيات السابقة من أن المشركين يعترفون بأن الله هو خالق السماوات والأرض، والمسخر للشمس والقمر، والباسط والقابض للرزق بعلمه وحكمته، يأتي السؤال الأعمق: "إذا كان الأمر كذلك، فلماذا لا يعبدونه وحده؟ لماذا يصرون على الشرك؟"

هنا، في الآية63 ، ينتقل الله بهم من الإقرار النظري إلى المشهد الحي المتحرك، من السماء إلى الأ رض، من الكواكب البعيدة إلى قطرة الماء التي تلامس جلدك وتروي ظمأك .إنها آية تقذف في قلبك برهانًا حسيًا لا يقبل الجدل، ثم تعلن عن أعظم مرض يصيب البشرية: تعطيل العقل .يقول تعالى:

{وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ} {العنكبوت:63]

تخيل نفسك تقف مع رجل يعبد صنمًا من حجر، أو يقدس قبرًا، أو يخاف من نجم .تنظران معًا إلى سماء مقفرة، ثم فجأة تتنزل سحب، وتهطل أمطار غزيرة .ترى الأرض الجرداء الصماء، الميتة التي لا حياة فيها، تبدأ فجأة في الاهتزاز بالنبات، وتخرج الخضرة من شقوقها، ويتفتح الزهر، وتنشر الحياة جناحيها .ثم تسأله: "من أنزل هذا الماء؟ من أحيا هذه الأرض؟" بعيدًا عن كل التعقيدات، سينطق قلبه قبل لسانه: الله.

وهنا تأتي الصدمة: بعد كل هذا الإقرار، لا يزالون يشركون! فما هو السبب؟ السبب ليس جهلهم بالله، بل هو تعطيلهم لعقولهم عن استنتاج النتيجة المنطقية ."بل أكثرهم لا يعقلون".

دعنا نغوص في هذه الآية التي تجمع بين المشهد الكوني وجراحة العقل.
المقدمة والأفكار الرئيسية للآية63

هذه الآية هي البرهان الحسي الأقرب إلى قلب الإنسان .تنتقل من البرهان العقلي) خلق السماوات (إلى البرهان الحسي الواقعي) إنزال المطر وإحياء الأرض.(

أفكارها الرئيسية:

.1إعادة بناء الحجة: سؤالهم مرة أخرى، ولكن بقضية أقرب إليهم وأكثر تكرارًا: إنزال المطر.
.2وصف دقيق لعملية الإحياء: الماء ينزل، ثم يحيي الأرض بعد موتها .هذا تحول مذهل يرونه بأعينهم.
.3إقرارهم الجازم: "ليقولن الله" – نفس الإقرار السابق، بل وأقوى لأنه مشاهد.
.4الأمر بالحمد: "قل الحمد لله" – توجيه للنبي والمؤمنين أن يحمدوا الله على هذا الإقرار وعلى هذه النعم.
.5كشف العلة: "بل أكثرهم لا يعقلون" – السبب الحقيقي للشرك ليس الجهل، بل تعطيل العقل عن العمل.

والآن، لنبدأ الرحلة التفصيلية:

أولا ً: دلالات قوله تعالى:} وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً{

} .1وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ{:

· اللام للقسم، والتأكيد .نفس الأسلوب السابق، ولكن مع تغيير في المضمون .لاحظ أن السؤال هنا موجه عن فعل متكرر) إنزال المطر (وليس عن خلق كان مرة واحدة .هذا يجعل الإقرار أشد وأقوى، لأنه يحدث أمام أعينهم كل عام، بل كل يوم في بعض البقاع.

} .2مَنْ نَزَّلَ{:

· الفعل "نَزَّلَ" بصيغة التضعيف) التنزيل (وليس "أنزل" .التنزيل يدل على التكرار والتدريج .الله لم ينزل المطر مرة واحدة، بل ينزله في أوقات متفرقة، على دفعات، رحمة بعباده .لو نزله دفعة واحدة لأغرقت الأرض .هذا التكرار هو عين الرحمة والحكمة.
· "مِنَ السَّمَاءِ" السماء هنا بمعنى العلو) الجهة العالية (وليست مجرد الغلاف الجوي، فالمطر ينزل من السحاب الذي خلقه الله في السماء .ولكن التعبير القرآني يثبت في الأذهان أن المصدر الحقيقي هو من عند الله.

} .3مَاءً{:

· تنكير "ماء" يفيد التعظيم والتكثير .ليس ماءً عاديًا، بل ماءً له خصائص عجيبة: صافٍ، عذب، يروي، ينبت، ويسبب الحياة .لاحظ أن الماء من أبسط العناصر (H2O) ولكنه يحمل أعظم أثر .لو كان ماءً م الحًا لما نفع .فتنكير "ماءً" يوحي بالعظمة والبركة.

اللمسة البيانية:

استبدال السؤال عن خلق السماوات والأرض) الآية (61 بالسؤال عن إنزال المطر وإحياء الأرض) الآية (63هو انتقال من الأبعد إلى الأقرب، من النظري إلى المحسوس .إنه ينزل من القضايا الكونية الكبرى إلى القضية التي تمس حياة الإنسان يوميًا: الماء والحياة .وهذا أبلغ في الإقناع وأشد تأثيرًا على القلب.

الرسالة النفسية:
الماء هو رمز الحياة والأمل .عندما ترى المطر ينزل، تشعر بالراحة والأمل والتجدد .الآية تربط بين هذا الشعور الإنساني الفطري وبين مصدره الحقيقي: الله .فلا تعلق أملك بـ "السحاب" أو "الأسباب" فقط، بل تعلق بالله مسخر السحاب.
ثانياً: دلالات قوله تعالى:} فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا{

هذه هي المعجزة المتكررة التي تبهر العقول.

} .1فَأَحْيَا بِهِ{:

· الفاء للتعقيب، تفيد السرعة والترابط بين نزول الماء وإحياء الأرض .لا يوجد تأخير كبير .بمجرد أن يصل الماء، تبدأ الحياة تظهر .هذا يثبت أن الماء ليس سببًا مستقلا ً، بل هو مجرد أداة بيد الله، يخلق به الحياة متى شاء.
· الإسناد إلى الله) أحيا (وليس "فأحييت الأرض" أو "فأحيا الماء الأرض" .إسناد الإحياء إلى الله مباشرة يقطع الطريق على من يعتقد أن الماء هو الفاعل .الله هو المحيي.

} .2الْأَرْضَ{:
الأرض هنا مفردة وجنسية، فتشمل كل أرض في أي مكان .صحراء قاحلة، أرض جرداء، أرض سبخة . كلها تحت قدرة الله.

} .3مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا{:
هذه العبارة هي ذروة البيان .وصف الأرض بـ "موتها" فيه تشبيه بليغ .الأرض كائن حي يموت ويحيا .جفافها وتصحرها موتها، وخضرتها واخضرارها حياتها.

· "من بعد" تفيد أن هناك حالة موت سابقة، ثم تأتي الحياة .هذا هو النمط الذي يريكم الله إياه في كل عام لتعلموا أن قدرته على إحياء الموتى يوم القيامة هي نفس قدرته على إحياء الأرض بعد موتها} .وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ] {الحج:.[5

اللمسة البلاغية:
وصف الأرض بـ "موتها" ثم إحيائها يخلق صورًا متضادة في ذهنك: الجفاف/الخصب، الصفرة/الخضرة ، الموت/الحياة .هذا التضاد يبرز قدرة الله الباهرة، ويجعل القلب يتأثر، والعقل يخشع.

الرسائل التربوية والإيمانية:

· رسالة إيمانية: كل ربيع تراه هو درس في البعث والنشور .إذا كان الله يحيي الأرض بعد موتها، فسيُحييك أنت أيضًا بعد موتك .هذه الآية تزرع اليقين بالآخرة في قلبك بشكل حسي.
· رسالة نفسية: لا تيأس من رحمة الله .قلوبنا أحيانًا تموت بالقنوط والذنوب، ولكن الله ينزل عليها ماء الإيمان والتوبة فيحييها .كما يحيي الأرض بالماء، يحيي القلوب بالقرآن والهداية.
· رسالة عقلية: هذا المشهد يقودك إلى الإيمان بـ سببية خارجة عن المادة .المادة وحدها) الماء و التربة (لا تنتج الحياة .هناك فاعل وراء ذلك .هذا يفند الإلحاد المادي الذي يفسر كل شيء بالصدفة.
ثالثاً: دلالات قوله تعالى:} لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ{

} .1لَيَقُولُنَّ اللَّهُ{:
نفس التوكيد السابق .إقرارهم هنا أشد وضوحًا لأنه يتعلق بمشهد متكرر لا يمكن إنكاره .حتى أشد الناس إلحادًا عندما يشاهد صحراء قاحلة ثم تتحول إلى جنة خضراء، لا يملك إلا أن يقول: "هناك قوة ما فعلت ذلك" .المؤمن يسمي هذه القوة: الله.

} .2قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ{:

· هذا أمر للنبي ﷺ وللمؤمنين من بعده .لماذا الحمد؟ الحمد هنا له عدة معان:
· حمدًا على إقرارهم: أنهم لم ينكروا الخالق، فهذه نعمة أن الفطرة ما زالت حية فيهم.

· حمدًا على النعمة نفسها: على إنزال المطر وإحياء الأرض.
· حمدًا على تمام الحجة: فقد أقمنا البرهان، وأصبحوا بلا عذر.
· اللمسة البلاغية: الأمر بالحمد بعد إقرارهم فيه توبيخ خفي .كأنه يقول: "بما أنكم أقررتم أن الله هو الفاعل، فلماذا لا تحمدونه أنتم؟ لماذا تشركون به؟ أما يستحق الحمد؟" هذا أمر للمؤمنين أن يعلنوا الحمد، ويشكروا الله علنًا.

الرسالة التربوية:
علمني هذه الآية أن أكون دائم الحمد لله على كل شيء: على المطر، على الخضرة، على إقرار الخلق بالربوبية، على أن هداني للإسلام .الحمد يملأ القلب رضا، والرضا قوة.

رابعاً: دلالات قوله تعالى:} بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ{

هذه هي الجراحة الإلهية التي تكشف الورم الحقيقي.

} .1بَلْ{:
حرف إضراب وانتقال .معناه: ليس الأمر كما تظن) من أن لهم عذرًا(، بل الأمر أعظم .إنها تنتقل من السرد الهادئ إلى الصدمة التشخيصية.

} .2أَكْثَرُهُمْ{:
لم يقل "كلهم" بل "أكثرهم" .فيه رحمة أن بعضهم قد يعقل .ولكن الأغلبية العظمى من البشر تعاني من هذه الآفة.

} .3لَا يَعْقِلُونَ{:

· العقل هنا ليس مجرد إدراك أو معرفة .هم يعرفون الله ويعترفون به .العقل المقصود هو العقل الوظيفي، العقل الذي يستنتج النتائج من المقدمات .مقدمتهم: "الله هو خالق المطر ومحيي الأرض" . النتيجة المنطقية: "إذن لا نعبد إلا الله" .لكنهم لا يعقلون هذه النتيجة.
· "لا يعقلون" في هذا السياق تعني: لا يستخدمون عقولهم الاستخدام الصحيح .عقولهم معطلة عن أداء وظيفتها الأساسية: الوصول إلى التوحيد.
· اللمسة البيانية: الفعل المضارع "يعقلون" يدل على التجدد .أي أن هذه الحالة ليست عارضة، بل هي صفة مستمرة فيهم .كلما جاءهم دليل، عطلوا عقولهم عنه.

لماذا لا يعقلون؟ العوائق التي تحول دون عمل العقل:

· التقليد الأعمى: "وجدنا آباءنا على أمة".
· اتباع الهوى: "إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس".
· الكبر والعناد: "وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا".
· حب الدنيا والزخرف.

الرسائل الإيمانية والعقلية والنفسية:

· رسالة عقلية حاسمة: الآية تقرر أن الكفر ليس ناتجًا عن ضعف في الإدراك الحسي أو المعرفي، بل عن خلل في الإرادة والعقل الوظيفي .المشرك يرى المطر، يرى الحياة، يعترف بالله، ثم يشرك .هذا ليس نقص ذكاء، بل هو فساد في القلب والعقل .إذاً، العبادة تحتاج إلى تفعيل العقل وليس تعطيله.
· رسالة تربوية: علمني أن أستخدم عقلي دائمًا للوصول إلى الحق .لا أقبل شيئًا لمجرد أني ألفته أو ورثته .العقل نعمة عظيمة، والله يمدح من يعقلون ويذم من لا يعقلون .يجب أن أكون من "أولي الألباب".
· رسالة نفسية: هذه الآية تريح المؤمن عندما يرى إصرار المشركين على باطلهم .لا تحزن، ليس لأنهم أغبياء، ولكن لأنهم عطلوا عقولهم عن العمل .وهذا مرض قلبي إرادي، وليس مجرد نقص معرفي . دورك أن تذكر، والله يهدي من يشاء.
· رسالة دعوية: لا تركز فقط على إعطاء المعلومات .المشرك يعرف المعلومات .ركز على إزالة العوائق القلبية والفكرية: الكبر، التقليد، الهوى .وادع الله أن يفتح عقله ليعمل.
المفاهيم العملية الكبرى من الآية) كيف تحول حياتك(

.1مفهوم "الحمد العملي":
"قل الحمد لله" ليس مجرد كلمة ترددها .الحمد العملي هو أن تشكر الله على نعمة المطر وعلى نعمة

العقل .شكر نعمة المطر: أن تستخدم الماء في طاعة الله، لا في إسراف أو معصية .شكر نعمة العقل: أن تستخدم عقلك للوصول إلى الحق والعمل به.

.2إعادة إحياء "عقلك الوظيفي":
كل يوم، وأنت ترى المطر ينزل، والأرض تخضر، اسأل نفسك: "ما هي النتيجة التي يستنتجها العقل السليم من هذا المشهد؟" الإجابة: وحدانية الله وقدرته على البعث .لا تكن ممن يرون الآيات ثم يمرون عليها كالبهائم .كن ممن يتفكرون.

.3علاج آفة "تعطيل العقل" في حياتك:
قد تعاني أنت أيضًا من تعطيل العقل في جوانب من حياتك:

· تعلم أن الغش حرام، لكنك تغش في امتحان أو تجارة .عقلك معطل عن استنتاج النتيجة: "الحرام يؤدي إلى الخسران في الدنيا والآخرة".
· تعلم أن الصلاة واجبة، لكنك تؤخرها .عقلك معطل عن استنتاج النتيجة: "الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر".
· تعلم أن الله يسمع ويرى، لكنك تغتاب .عقلك معطل.
طبّق هذه الآية على نفسك: "بل أكثرهم لا يعقلون" – واجعل نفسك من القلة الذين يعقلون.

.4اليقين بالبعث من خلال المطر:
كل عام تمر عليك دورة الحياة والموت في الطبيعة .استحضر مشهد القيامة .كما أحييت هذه الأرض بالماء، ستُحيا الأجساد بالماء) ماء المطر أو ماء خاص ينزل يوم القيامة .(اجعل من منظر المطر عبادة فكرية تؤدي إلى إيمان أقوى بالآخرة.

.5التطبيق العملي في الدعوة:
عند دعوة شخص لا يؤمن بالله، لا تتعب نفسك في جدل معقد في البداية .خذه إلى الطبيعة . اجلس معه في حديقة بعد المطر، أو أره صورة لأرض قاحلة ثم مخصبة .اسأله: "من برأيك فعل هذا؟ " ستصل به إلى الإقرار بالخالق، ثم واجهه بعد ذلك بالسؤال: "فلماذا لا تعبده وحده؟" واشرح له أن عوائق التقليد والهوى هي التي تعطل عقله.

.6مفهوم "أكثرهم" وليس "كلهم":
هذا يعطيك أملًا في الدعوة .فليست القضية يائسة .هناك من يعقلون، وهناك من سيهديهم الله .فلا تيأس من دعوة الناس .قد يكون أحدهم ممن سيفتح الله بصيرته.

الرسالة النهائية التي تخرج بها من هذه الآية:

أخي الحبيب، أختي الكريمة، هذه الآية تخبرك أن الإيمان ليس مجرد معرفة بالله .فالمشركون يعرفون الله .الإيمان هو أن تترجم معرفتك بالله إلى عبادة وعمل وعقل مستنير.

أنت تملك أعظم آلة في الوجود: عقلك .استخدمه في أهم قضية: توحيد الله .انظر إلى المطر وإلى الحياة وإلى نفسك .اسأل: من خلق؟ من رزق؟ من أحيى؟ ستجد الجواب: الله .ثم اسأل نفسك: إذن، من أستحق أن أعبد؟ من أستحق أن أخاف؟ من أستحق أن أرجو؟ الجواب: الله وحده .هذا هو العقل .هذا هو الفرق بين المؤمن وغيره.

فكن من "أولي الألباب" الذين يعقلون آيات الله في الأنفس والآفاق، والذين يصلون من المشهد إلى المعبود، ومن النعمة إلى الشكر، ومن الدنيا إلى الآخرة .والحمد لله رب العالمين على نعمة العقل والإ يمان.

المبحث الرابع

أخي الحبيب، أختي الكريمة، بعد أن سارت بنا الآيات السابقة في رحلة من اليقين: بدأت بالوعد بـ الغرف في الجنة للذين آمنوا وعملوا الصالحات وصبروا وتوكلوا، ثم أزالت الخوف من الرزق بأن الله يرزق الدواب ولا يحمل رزقها، ثم أثبتت أن المشركين يعترفون فطريًا بأن الله هو خالق السماوات وا لأرض ومسخر الشمس والقمر ومنزل المطر المحيي للأرض، ثم فضحت أن أكثرهم لا يعقلون .الآن، وبعد أن ترسخت هذه الحقائق، تأتي الآية 64 لتعطيك الخلاصة النهائية، والميزان الدقيق الذي تزن به كل شيء .إنها الآية التي تعيد تعريف الحياة نفسها.

يقول تعالى:

{وَمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ } [العنكبوت:64]

تخيل معي أنك في سفر طويل، وتتوقف في استراحة على جانب الطريق .هناك تلهو وتلعب قليلا ً، ثم تنسى أنك مسافر، وتبدأ في بناء قصر من الرمال، وتتشاجر مع الآخرين على من يملك أكبر كومة رمل .فجأة، يأتي منبه القافلة ليصرخ في وجهك: "هذه ليست دارك! هذه مجرد استراحة! دارك الحقيقية هي نهاية الطريق!" هذه الآية هي ذلك المنبه .إنها تصفع قلبك وعقلك لتوقظك من غفلة السفر.

دعنا نغوص في أعماق هذه الآية المحورية، التي هي عنوان سورة العنكبوت، والهدف الذي تسير إليه كل الآيات السابقة.
المقدمة والأفكار الرئيسية للآية64

هذه الآية هي الموازنة الكونية بين الدنيا والآخرة .تضع كل شيء في نصابه الصحيح.

أفكارها الرئيسية:

.1نفي الحقيقة عن الدنيا: "وما هذه الحياة الدنيا إلا..." أي أنها ليست شيئًا حقيقيًا مستقرًا.
.2وصف الدنيا بـ "اللهو واللعب": اللهو ما يلهي القلب عن الجد، واللعب ما يشغل البدن بلا فائدة.
.3إثبات الحقيقة للآخرة: "وإن الدار الآخرة لهي الحيوان" – أي الحياة الحقيقية الكاملة الأبدية.
.4الشرط المعلق على العلم: "لو كانوا يعلمون" – أي لو كانوا يعلمون علمًا نافعًا يغير سلوكهم، لما آثروا الدنيا على الآخرة.
.5النتيجة العملية: تحويل حياة المؤمن من العبث إلى الجد، ومن القلق إلى الطمأنينة، ومن البناء الوهمي إلى البناء الحقيقي.

والآن، لنبدأ الرحلة التفصيلية، وكأن الله يخاطبك أنت شخصيًا:
أولا ً: دلالات قوله تعالى:{ وَمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ}

{ .1وَمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا}:

· "ما" النافية للحقيقة، و"إلا" للحصر .كأنه يقول: ليست هذه الحياة في حقيقتها شيئًا آخر سوى اللهو واللعب .إنها جملة تدميرية لكل أوهام العظمة التي يعلقها الناس بالدنيا.
· "هذه" للإشارة إلى القريبة الحاضرة .كأن الدنيا بين يديك، تنظر إليها، فيقول لك: هذه التي تراها، هذه التي تلهث وراءها، ليست إلا...
· "الحياة الدنيا" الحياة المضافة إلى "الدنيا") القريبة الدانية (مقابل الآخرة) المتأخرة .(تسميتها "دنيا" لأ نها دنت) قربت (وزالت .هي قريبة منك في الزمن، ولكنها سريعة الانقضاء.

{ .2إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ}:

· "لَهْوٌ" : هو كل ما يشغل القلب ويصرفه عن الجد والهدف الحقيقي .إنه ما يلهي الإنسان عن ذكر الله وعن الاستعداد للآخرة .مثل: الانشغال بالمال، والنساء، والمناصب، والمقتنيات، والترف، بلا هدف أسمى.
· "لَعِبٌ" : هو كل عمل ليس له نتيجة حقيقية، كبناء رمال، أو صيد خيالات .إنه العبث الذي ينتهي ولا يبقى منه شيء.
· الفرق بين اللهو واللعب: اللهو في القلب، واللعب في الجوارح .أو اللهو ما يشغل القلب، واللعب ما يشغل البدن .والمجتمع المادي المعاصر هو مجتمع "لهو ولعب" بامتياز: ألعاب الفيديو، المسلسلات، المقاهي، الأسواق، بل حتى الحروب أحيانًا تكون لعبًا وهوى.
· اللمسة البلاغية: الجمع بين اللهو واللعب) وهما متقاربان (يفيد العموم والشمول .كل ما في الدنيا من ملذات وشهوات ومشاغل، إن لم يكن لله وفي سبيله، فهو داخل في هذا الوصف .حتى العبادات إذا فقدت الإخلاص والخشوع، قد تتحول إلى لهو ولعب) رياء وسمعة.(

.3هل الدنيا محرمة؟
لا .الآية لا تقول إن الدنيا حرام، بل تقول إن حقيقتها ليست إلا لهوًا ولعبًا إذا قورنت بالآخرة .يعني أن قيمتها الحقيقية كقيمة استراحة في السفر .تأكل وتشرب وتستريح، ولكن لا تبني فيها قصرك الدائم .المؤمن يأخذ من الدنيا ما يعينه على الآخرة، ولا تجعل الدنيا أكبر همه .قال النبي ﷺ: "كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ".

الأثر النفسي والإيماني:

· يقتل التعلق بالدنيا: عندما تستحضر أن كل ما تشتهيه نفسك من مال وجاه وجمال هو مجرد "لهو ولعب"، يسهل عليك الزهد فيه .لا يعني الزهد أن ترمي مالك، بل أن لا يملك قلبك.
· يعالج الاكتئاب والحسرة: كثير من الناس يحزنون حزنًا شديدًا على فقدان شيء دنيوي) مال، وظيفة ، علاقة .(هذه الآية تقول: ما الذي تحزن عليه؟ إنه لهو ولعب .مثل طفل بكى على انهيار بيته من الرمال .الشيء التافه لا يستحق هذا الحزن.
· يحررك من ضغوط المنافسة: المجتمع يدفعك للتنافس على المظاهر: من سيارته أغلى؟ من بيته أوسع؟ الآية تقول: هذا كله لهو ولعب .تنافسوا على الآخرة، على الإيمان والعمل الصالح .هذا يريح أعصابك ويوفر طاقتك للجوهر.

الرسالة التربوية:
ربي نفسك وأولادك على أن الدنيا مزرعة الآخرة، ليست دار قرار .علمهم أن يستمتعوا بالحلال دون تعلق، وأن يقدروا النعم دون عشق لها .علمهم أن اللعب واللهو المباح جائز، لكن لا يصبح هو الهدف والغاية.
ثانياً: دلالات قوله تعالى:} وَإِنّ الدّارَ الآخِرَة لَهِيَ الحَيَوَانُ{

هذا هو القسم الثاني من الميزان، وهو الطرف الراجح.

} .1وَإِنّ الدّارَ الآخِرَة{:

· "إنّ" للتوكيد، و "اللام" في "لهي" للتوكيد أيضًا .توكيدان متتاليان لقطع الشك وإزالة الريب .كأنه يقول: حقًا حقًا، الدار الآخرة هي الحياة الحقيقية.
· "الدار الآخرة" مقابل "الحياة الدنيا" ."الآخرة" من التأخر، أي المتأخرة عن الدنيا، ولكنها الباقية.

} .2لَهِيَ الحَيَوَانُ{:

· "الحيوان" ليست جمع "حيوان" كما نعرفه، بل هي صيغة مبالغة من "الحياة" بمعنى الحياة الحقيقية الكاملة الأبدية التي لا موت فيها ولا نقص ولا تعب .إنها الحياة بكل ما تعنيه الكلمة من معنى.
· اللمسة البلاغية: اختيار كلمة "الحيوان") على وزن فعلان (تدل على القوة والامتلاء والنشاط .حياة الآخرة ليست حياة ضعيفة أو ناقصة، بل هي الحياة القوية الشاملة التي لا يشوبها موت ولا مرض ولا هم ولا غم .قال تعالى:} وَإِنّ الدّارَ الآخِرَة لَهِيَ الحَيَوَانُ {أي هي الحياة الدائمة الكاملة.
· المقارنة المذهلة: الدنيا "لهو ولعب") لا شيء(، والآخرة "هي الحيوان") كل شيء .(فرق بين العبث و الحياة الحقيقية .كل ما في الدنيا من متع هو بمثابة ومضة أو حلم، أما الآخرة فهي اليقظة والواقع.

الأثر النفسي والإيماني:

· يغرس الشوق الحقيقي: عندما تعلم أن الآخرة هي "الحيوان" وليست مجرد حديقة أو قصر، تشتاق إليها اشتياق العليل إلى الشفاء، والعطشان إلى الماء .هي الحياة التي نبحث عنها، حياة بلا موت، بلا حزن، بلا تعب، بلا ملل.
· يعيد تعريف النجاح: النجاح الحقيقي ليس جمع المال، بل هو الفوز بالجنة والنجاة من النار .الفشل الحقيقي ليس الفقر، بل هو الخسران في الآخرة .هذا المفهوم يقلب موازين المجتمع رأسًا على عقب، لصالح القيم الحقيقية.
· يمنح القوة على تحمل مشاق الدنيا: عندما تكون الآخرة هي "الحيوان"، تصبح الدنيا مجرد "لهو ولعب" .فلماذا نحزن على لهو؟ ولماذا نبخل في لعب؟ يصبح العطاء في سبيل الله سهلا ً، والهجرة والتضحية يسيرة، لأن ما ينتظرني هو الحياة الحقيقية.

الرسالة الحضارية:
هذه الآية هي أساس النهضة الحضارية الحقيقية .عندما يؤمن مجتمع أن الدنيا ليست دار قرار، فإنه لا يتعلق بها، بل يستخدمها كوسيلة لبناء الآخرة .هذا المجتمع هو أكثر المجتمعات إنتاجًا وعدلا ً وأخلاقًا، لأنه يعمل لله، ويجيد في عمله لأنه عبادة، ولا يظلم لأنه يخاف الله .المفارقة: الذي لا يتعلق بالدنيا هو الذي يعمرها أفضل تعمير، لأنه يعمل فيها لوجه الله، بينما من يتعلق بها يفسدها بسبب الطمع والصراع.

ثالثاً: دلالات قوله تعالى:} لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ{

هذه الجملة هي الخاتمة الموجعة، وتفسير كل الشرك والغفلة.

} .1لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ{:

· "لو" حرف شرط غير جازم، يدل على الامتناع .أي أن الواقع أنهم لا يعلمون، ولهذا السبب آثروا الدنيا على الآخرة.
· "يعلمون" : العلم هنا ليس مجرد المعرفة النظرية، بل العلم النافع الذي يورث العمل .هم يعرفون هذه الحقائق نظريًا، ولكنهم لا يعلمونها علمًا يغير سلوكهم .العلم الحقيقي هو ما يظهر أثره على الجوارح.
· اللمسة البيانية: حذف مفعول "يعلمون" ليشمل كل ما سبق .لو كانوا يعلمون حقيقة الدنيا) أنها لهو ولعب (وحقيقة الآخرة) أنها الحيوان(، لما اختاروا اللّهو على الحيوان .ولكن جهلهم هو الذي أرداهم.

من هم "هم"؟
السياق عام، لكنه يشمل المشركين الذين يعترفون باللّه ولكن لا يعقلون، ويشمل كل من يغفل عن هذه الحقيقة .حتى المسلم الذي ينشغل بالدنيا عن الآخرة، هو داخل في هذا الوصف إذا غلب عليه الجهل العملي.

الأثر التربوي والنفسي:

· تحذير من الغفلة: لا تكن ممن يعلمون نظريًا ولكن لا يعملون .العلم بدون عمل هو حجة عليك .قال تعالى:} وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ {فالعلم بلا عمل وبال.
· دعوة للتفكر: "لو كانوا يعلمون" تعني أن عليك أن تطلب العلم النافع، وأن تتفكر في عاقبة الأمور . كم من إنسان ضحى بآخرته من أجل دنيا غيره؟ كم من إنسان باع "الحيوان" ب "اللّهو"؟ هذه خسارة مبينة.

دور الآية في بناء الأمة: بين دار اللّهو ودار القرار

والآن، نصل إلى لب الموضوع الذي تريد .كيف تبني هذه الآية أمة؟ كيف تحول "اللّهو واللعب" إلى "جد وبناء"؟ وكيف تجعل الآخرة هي "الحيوان" فتنهض الحضارة؟

.1بناء الروح) البعد الإيماني والوجداني(:

· تعيد تعريف القبلة: الآية تحول قبلة القلب من الدنيا إلى الآخرة .عندما تكون الآخرة هي "الحيوان")الحياة الحقيقية(، تصبح الدنيا مجرد ممر .هذا يريح الروح من عبء أن تكون "ناجحة" بمقاييس الدنيا فقط .الروح تتحرر من القلق الدائم على الرزق والمنصب والسمعة .تبدأ تعيش لله، وتعمل لوجهه ، فتسعد وتسعد.
· تزرع الأمل والتفاؤل: في وسط ظلم الدنيا وفقرها ومرضها، يأتي الأمل من أن هذه ليست النهاية . هناك "حيوان") حياة حقيقية (تنتظرني، لا ظلم فيها ولا فقر ولا مرض .هذا الأمل يمنع اليأس والا نتحار العاطفي والروحي .الأمة التي تؤمن بالآخرة هي أمة لا تنهار أمام المصائب، لأن لديها بديلا ً أفضل.
· تغرس الصبر: من يعلم أن الدنيا "لهو ولعب"، وأن الآخرة هي "الحيوان"، يسهل عليه الصبر على أذى الدنيا .فمشقة السفر الصغير تستحق الراحة الدائمة .هذا الصبر هو وقود الثبات في وجه الفتن.

.2بناء الإنسان) البعد الأخلاقي والسلوكي(:

· تجعل الإنسان "جادًا لا عابثًا": المؤمن الذي فهم هذه الآية لا يعيش حياته عبثًا .كل حركة له لها هدف: رضا الله .لا يضيع وقته في لهو لا ينفع، ولا يلعب بجدية الأمور .يصبح إنسانًا منتجًا، يقدر الوقت، ينظم حياته، لأن حياته استعداد للدار الآخرة.
· تحرره من عبودية المادة: الإنسان الذي يظن أن الدنيا هي دار القرار يصبح عبدًا للمال والجاه و الزوجة والأولاد .أما من آمن أن الآخرة هي دار القرار، فإنه يستخدم هذه الأشياء ولا يخدمها .لا يظلم لجمع المال، ولا يكذب لمنصب، ولا يخون لشهوة .هو حر، وهذا هو أعلى مراتب الإنسانية.
· ترسخ العدل والصدق: إذا كانت الآخرة هي الحيوان، فلماذا أغش في تجارتي؟ ولماذا أظلم في قضائي؟ لماذا أخذ الرشوة؟ لأن الظلم وإن أعطاني متعة في الدنيا) اللّهو(، فهو يخسرني الحياة الحقيقية) الآخرة .(إذن، الآية هي أقوى رادع أخلاقي، وأقوى باعث على الصدق والإخلاص.

.3بناء الحضارة) البعد الاجتماعي والعمراني(:

· المفارقة العجيبة: المجتمع الذي يؤمن أن الدنيا ليست دار قرار هو المجتمع الذي يعمرها أفضل تعميرا لماذا؟ لأنه يعمل فيها لله، فيتقن عمله، ويحافظ على البيئة، ويبني المساجد والمدارس و المستشفيات، لا للفخر والرياء، بل ابتغاء وجه الله .بينما المجتمع المادي الذي يؤمن أن الدنيا هي كل شيء، يفسد فيها، لأن همه اللذة الآنية فقط، فيستنزف الموارد، ويلوث البيئة، ويظلم الضعفاء.
· توجيه الطاقات: عندما يفهم المجتمع أن الدنيا "لهو ولعب"، فإنه لا يصرف طاقاته في التنافس على المظاهر) السيارات، القصور، الأزياء .(بل يصرف طاقاته في التنافس على الخيرات: العلم، الإنتاج، العدل، الإحسان .هذا المجتمع هو مجتمع الإتقان والابتكار، لأن كل عمل صالح يقربه إلى "الحيوان".
· الاستقرار النفسي الجماعي: مجتمع يوقن أن هناك حياة أخرى أفضل، هو مجتمع أقل عنفًا وحسدًا وجريمة .لماذا؟ لأن الحسد على متع الدنيا يقل عندما تعلم أنها "لهو ولعب" .والجريمة من أجل المال تقل عندما تعلم أن المال ليس هو الحياة الحقيقية .هذا المجتمع هو مجتمع الطمأنينة والسكينة.
· مقاومة الإحباط الحضاري: عندما تمر الأمة بأزمات) هزيمة، فقر، فتن(، تتجه الأنظار إلى الآخرة فترتفع المعنويات .لا انهيار ولا انتحار حضاري .لقد كانت هذه الآية هي زاد الصحابة حين تركوا ديارهم وأموالهم وهاجروا .كانوا يعلمون أن ما ينتظرهم هو "الحيوان"، فسهل عليهم ترك "اللهو و اللعب".

خلاصة دور الآية في بناء الأمة:
الآية تحول عقلية الأمة من "عقلية الاستهلاك واللهو" إلى "عقلية الإنتاج والجد" .تضع الأهداف البعيدة)الآخرة (بدل الأهداف القريبة) الدنيا .(وهذا هو سر قيام الأمم: أمة تعمل لغاية سامية وراء المادة، هي أقوى الأمم وأبقاها .الأمة التي تؤمن بأن الدنيا "لهو ولعب" لا تحتقر الدنيا، بل تستثمر فيها للآ خرة، فتعمرها أحسن عمارة.
كيف تعيش هذه الآية في حياتك اليومية؟

.1في قراراتك المصيرية:
عندما تختار بين وظيفة حلال ووظيفة حرام) أكثر مالا ً(، تذكر: "ما هذه الحياة الدنيا إلا لهو ولعب" .الخسارة في الرزق الحرام هي خسارة الدنيا) اللهو(، أما الربح في الحلال فهو ربح الآخرة)الحيوان .(أي الصفقتين أنفع؟ ستختار الحلال بسهولة.

.2عند المصيبة:
إذا خسرت مالا ً، أو فشلت في مشروع، أو مرضت، قل: "الدنيا لهو ولعب، والآخرة هي الحيوان" . هذا الألم المؤقت لا يساوي شيئًا أمام النعيم الأبدي .هذا لا يعني أن لا تحزن، بل لا تغرق في الحزن.

.3في إدارة وقتك:
اسأل نفسك كل مساء: كم ساعة قضيتها في "لهو ولعب") لا ينفع في الآخرة(؟ وكم ساعة قضيتها في بناء "الحيوان") عبادة، علم نافع، عمل صالح، إصلاح ذات البين(؟ وازن وقتك.

.4في تربيتك لأولادك:
لا تجعل همك الوحيد أن يكونوا أغنياء أو مشهورين .اجعل همك أن يكونوا "أبناء الآخرة" الذين يستعملون الدنيا للوصول إلى الله .علمهم الفرق بين "اللهو" و "الجد" .شجعهم على اللعب المباح، ولكن لا تجعله هدف حياتهم .علمهم أن النجاح الحقيقي هو الفوز بالجنة.

.5في إنفاق المال:
أنفق مالك في طاعة الله) صدقة، بناء مسجد، تعليم محتاج (لأن هذا المال سيُحوّل إلى "حيوان" يدوم لك في الآخرة .أما المال الذي تنفقه في اللهو المحرم أو الترف الزائد، فهو يذهب ولا يعود .ق ال تعالى:} مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللهِ بَاقٍ.{

.6في مواجهة فتن الدنيا:
عندما ترى من ينغمس في الشهوات والملذات ويظن أنه سعيد، لا تحسدهم .تذكر: إنهم يلهون ويلعبون، وأنت تبني حياة حقيقية .الفارق شاسع.

الرسالة النهائية التي تخرج بها من هذه الآية:

أخي الحبيب، أختي الكريمة، هذه الدنيا ليست منزلك .أنت فيها مسافر .نزلت في استراحة، ستأكل وتشرب وتستريح قليلا ً، ثم ترحل إلى دارك الحقيقية .فلا تبني قصرًا في الاستراحة، ولا تتشاجر على كومة رمل، ولا تعلق قلبك بمتعة زائلة.

دارك هي الآخرة .حياتك الحقيقية هي الآخرة .الآخرة هي "الحيوان" بكل ما تحمله الكلمة من معنى:

حياة لا موت فيها، شباب لا هرم فيه، صحة لا سقم فيها، غنى لا فقر فيه، سرور لا حزن فيه.

فلا تبع هذه الحياة الأبدية بلذة عابرة في الدنيا .كن جادًا في سعيك، مبتهجًا برجائك، صابرًا على بلا ئك .استثمر وقتك ومالك وجهدك في ما يبقى، واترك ما يزول.

إذا عشت بهذه العقلية، بنيت نفسك، بنيت أهلك، بنيت مجتمعك، وبنيت أمتك .وستكون يوم القيامة من الفائزين الذين قال الله فيهم:} وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ.{
المبحث الخامس
أخي الحبيب، أختي الكريمة، بعد أن رسمت لنا الآيات السابقة معالم الإيمان الصحيح: التوحيد، العمل الصالح، الصبر، التوكل، اليقين بأن الدنيا لهو ولعب والآخرة هي الحيوان... تأتي الآن آية تصور لك أشنع تناقض بشري، وتكشف عن مرض أصيل في النفس الإنسانية إن لم يعالج .إنها آية تحلل سلوك الإنسان في أحلك لحظات الخوف، وفي أشد أوقات الأمن .إنها اختبار صادق للإخلاص .يقول تعالى:

}فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ (65) لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ] {(66) العنكبوت:65 -[66

تخيل معي هذا المشهد الذي يتكرر كل يوم، بل في كل لحظة .أنت على متن سفينة في عرض البحر اللجي، والأمواج تتكسر من حولك، والرياح تعصف، والموت يزحف إليك من كل جانب .في هذه اللحظة، ماذا تفعل؟ أين تتجه؟ كل الأصنام التي كنت تعبدها، وكل الأوثان التي كنت تقدسها، وكل الآ لهة الباطلة التي كنت ترجوها وتخافها، تتساقط من قلبك كأوراق الخريف .تنسى الطبيب، تنسى القائد، تنسى المال، تنسى الجاه .يتجه قلبك بفطرته النقية إلى الله وحده، لا شريك له .تدعوه مخلصًا له الدين، لا تشرك به أحدًا.

ثم... تمر العاصفة، وتهدأ الرياح، وتلمس قدمك أرض البر اليابس .فماذا يحدث؟ وكأنك أبرمت صفقة مع الله وقت الخطر، ثم نقضتها عند الأمان .تعود إلى شركك، إلى معاصيك، إلى غفلتك .هذه هي القصة المختصرة للإنسان، وهذه هي الآية التي تفضح هذا السلوك المتناقض.

دعنا نغوص في أعماق هاتين الآيتين، لنكتشف أعظم دروس التوحيد العملي، ولنحمي أنفسنا من هذا الداء القاتل.
المقدمة والأفكار الرئيسية للآيتين65 -66

هاتان الآيتان ترسمان خريطة نفسية للإنسان في حالتي الخوف والأمن .إنهما تظهران التوحيد الفطري الذي يظهر وقت الشدة، والشرك العملي الذي يعود وقت الرخاء.

أفكارهما الرئيسية:

.1حالة الاضطرار: الإنسان إذا واجه خطرًا حقيقيًا لا منجى منه) كالغرق في البحر(، تتجرد فطرته، ويدعو الله وحده مخلصًا.
.2حالة النجاة: بمجرد أن يزول الخطر ويعود إلى البر) الأمن والرخاء(، يعود إلى شركه وكفره.
.3سبب الانتكاسة: يفعل ذلك لكي "يكفروا بما آتيناهم") يجحدوا نعمة النجاة (و"ليتمتعوا") ينغمسوا في ملذات الدنيا الغافلة.(
.4الوعيد الحتمي: "فسوف يعلمون" – تهديد ووعيد شديد بعاقبة وخيمة.
.5الهدف من الآية: تنبيه المؤمن إلى هذا الداء في نفسه، وتحذيره من أن يكون كأولئك الذين يذكرون الله عند الشدة وينسونه عند الرخاء.

والآن، لنبدأ الرحلة التفصيلية:
أولا ً: دلالات قوله تعالى:} فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ{

} .1فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ{:

· "الفلك" هي السفينة .اختيار كلمة "الفلك") وهو اسم جمع، واحده فلك (يوحي بضخامة السفينة وهي تعبٌ في البحر .لكن مهما كبرت السفينة، فهي عاجزة أمام قوة البحر والريح.
· "ركبوا" الفعل الماضي هنا يدل على حصول الركوب، و"إذا" الفجائية تدل على أن الأمر مفاجئ .كأنهم كانوا في أمن واطمئنان، ثم فجأة ركبوا الفلك في عاصفة .أو المعنى: كلما ركبوا الفلك في حالة خوف، دعوا الله.

· السياق: البحر هو أقصى ما يمكن أن يشعر فيه الإنسان بفقدان السيطرة .لا أرض تحت قدميه، لا وسيلة للهروب، الموت محيط به من كل جانب .في هذه اللحظة، تنكشف له حقيقة أنه لا يملك لنفسه ضرًا ولا نفعًا.

{ .2دَعَوُا اللهَ}:

· الفعل "دعوا" يدل على التضرع والابتهال، وليس مجرد النداء .إنه الدعاء الذي يصدر من أعماق القلب المكسور، من يقين بأن لا منجي إلا الله.
· اسم الجلالة "الله" وحده، ليس "اللات والعزى" ولا "مناة" ولا أي إله آخر .لماذا؟ لأن الفطرة في حالة الخطر تتجرد من كل شرك، وتعرف أن الأصنام لا تنفع، وأن الأطباء لا ينفعون، وأن الأسباب لا تنفع .تعرف أن الخالق المدبر وحده هو الذي ينجي.

{ .3مُخْلِصِينَ لهُ الدّينَ}:

· "مخلصين" حال من فاعل "دعوا" .أي أنهم يدعونه وهم في حالة إخلاص تام، لا يخلطون معه شيئًا . الإخلاص هنا هو نفي الشرك الأكبر والأصغر .لا يذكرون مع الله صنمًا، ولا وليًا، ولا سببًا يعتمدون عليه.
· "الدين" هنا بمعنى العبادة والطاعة والخضوع والدعاء .يخلصون له كل أشكال الدين.
· اللمسة البلاغية: تقديم "له" على "الدين" يفيد الحصر .أي: يجعلون الدين خالصًا لله وحده لا شريك له .هذه هي الفطرة التي فطر الله الناس عليها، ولكنها تغلف بغلاف الشرك في حالات الأمن والرخاء.

الرسائل الإيمانية والنفسية والتربوية:

· رسالة إيمانية: دليل قاطع على أن التوحيد هو أصل الفطرة، وأن الشرك أمر طارئ دخيل .كل إنسان مسلم بالفطرة، ولكن البيئة والتقليد يصرفانه .وهذا يعطي المؤمن ثقة كبيرة في دعوته.
· رسالة نفسية: النفس البشرية تعرف ربها في الشدة وتنساه في الرخاء .هذا مرض نفسي اسمه "نكران الجميل" تجاه الله .الآية تكشفه لتعالجه .كم من مريض قال "يا رب" عند شدة المرض، ثم عاد إلى معصيته بعد الشفاء؟ كم من فقير تضرع لله عند الفقر، ثم نسي فضل الله بعد الغنى؟
· رسالة تربوية: ربي نفسك وأولادك على أن تكون علاقتك بالله واحدة في السراء والضراء .لا تكن ممن "إذا مسه الشر فزع، وإذا مسه الخير منع" .المؤمن الحقيقي هو الذي يثبت على التوحيد في العسر واليسر.

ثانياً: دلالات قوله تعالى:} فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ{

هذه هي النقلة الصادمة، والفضيحة الكبرى.

{ .1فَلَمَّا نَجَّاهُمْ}:

· "لما" ظرفية تدل على أن النجاة قد تحققت بالفعل .إنها لحظة وصولهم إلى البر، لحظة زوال الخطر.
· "نجّاهم" بصيغة التضعيف) التنجية (تدل على أن الله أنجاهم من خطر عظيم، وكان يمكن أن يهلكوا، فأنقذهم برحمته .الفعل مسند إلى الله مباشرة، فهو المنجي الوحيد.

{ .2إِلَى الْبَرِّ}:

· البر هو الأرض اليابسة، رمز الأمن والاستقرار والرخاء .بعد أن كانوا في البحر الهائج، وصلوا إلى البر الآمن .هذا هو الاختبار الحقيقي: عند الأمن، ماذا سيفعلون؟

{ .3إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ}:

· "إذا" المفاجئة .تفيد أن الشرك حدث فجأة وبسرعة، وكأنهم ما أن وطئت أقدامهم الأرض حتى قلبوا ظهورهم .تعبر عن سرعة الانقلاب وسوء العهد.
· "هم" ضمير فصل، يفيد التوكيد .أي: هم بأنفسهم، بعد كل هذا الإخلاص، يعودون إلى شركهم.
· "يشركون" فعل مضارع يدل على التجدد والاستمرار، أي أنهم يستمرون في الشرك كعادتهم السابقة . وكأن رحلة البحر كانت مجرد وقفة قصيرة، ثم عادوا إلى ما كانوا عليه.

اللمسة البلاغية العظيمة:

المقابلة بين "دعوا الله مخلصين" و"إذا هم يشركون" هي أبلغ أسلوب لتصوير التناقض .إنها تصدم القارئ وتجعله يسأل: كيف يجتمع هذا وذاك في نفس الإنسان؟ الجواب: لأن النفس جبولة على الغدر إلا من رحم الله.

الرسائل الإيمانية والنفسية:

· رسالة في الغدر البشري: الآية تفضح أن الإنسان بطبيعته كفور) جحود للنعم (إلا من هداه الله . النجاة من الغرق نعمة عظيمة، فكيف يقابلها بالشرك؟ لأنه نسى من أنجاه.
· رسالة في اختبار الرخاء: الاختبار الحقيقي ليس في الشدة فقط، بل في الرخاء أكثر .الشدة تذل القلب وتلجئه إلى الله .أما الرخاء فيطغي الإنسان .قال تعالى:} كلا إنّ الإنسانَ ليَطغى (6) أنْ رآهُ استغنى.{(7)
· رسالة للمؤمن: لا تظن أنك أفضل من هؤلاء .كلنا معرض لهذا الداء .احذر من أن تكون قريبًا من الله في المرض، وبعيدًا عنه في الصحة .احذر من أن تدعو الله في الفقر، ثم تنساه في الغنى.
ثالثا: دلالات قوله تعالى:} لِيَكْفُرُوا بِمَا آتيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا{

هذه الجملة تفسر الدافع الخفي وراء هذا الشرك بعد النجاة.

1. {لِيَكْفُرُوا بِمَا آتيْنَاهُمْ}:

· اللام هنا لام العاقبة أو لام التعليل .أي أن عاقبة فعلهم هذا أو سببهم هو أن يكفروا بنعمة الله التي أنعم بها عليهم) النجاة.(
· "يكفروا" : الكفر هنا بمعنى الجحود وعدم الشكر، وليس الكفر الأكبر فقط .أي أنهم يقابلون النعمة بـ المعصية والشرك .كأنهم يقولون عمليًا: "لا حاجة لنا بربنا، لقد نجونا بقوتنا وذكائنا، أو بالأصنام".
· "بما آتيناهم" : ما أنعمنا به عليهم من النجاة .إنها أعلى درجات الجحود: جحد نعمة النجاة بعد أن دعوا الله وأخلصوا له فيها.

2. {وَلِيَتَمَتَّعُوا}:

· اللام مرة أخرى، والواو للعطف .أي ليمتعوا أنفسهم بمتاع الدنيا الزائل، فينغمسوا في الشهوات و الملذات واللهو واللعب، غافلين عن الآخرة.
· "يتمتعوا" : المتعة مؤقتة، قصيرة، سريعة الزوال .إنهم يختارون المتعة المؤقتة على الشكر الدائم . يختارون لذة عاجلة على نعيم آجل.

اللمسة البلاغية:
جملة "ليكفروا وليتمتعوا" فيها تهكم خفي .كأنه يقول: "أهكذا يكون جزاء النعمة؟ جحود ومتاع زائل؟ هل هذا كل ما تريدونه؟" إنها توبيخ لطيف ولكن قاس.

الرسالة النفسية والتربوية:

· كشف غريزة "النفور من الشكر": الإنسان بطبيعته يميل إلى نسيان الجميل، خاصة جميل الله، لأنه يحب أن ينسب النجاح إلى نفسه .الآية تحارب هذه الغريزة وتأمر بالشكر.
· العلاقة بين الكفر والمتعة: من يكفر بالله ويجحد نعمه، يغرق في المتع الحسية ليملأ الفراغ الروحي .هو يحاول أن يعوض غياب الإيمان بلذة عابرة .هذا هو واقع المجتمعات المادية: كلما زاد الجحود، زاد السعي وراء المتع، وكلما زادت المتع، زاد الجحود .حلقة مفرغة.
· تحذير من "استغلال النعم": النعمة أمانة .من يستخدم نعمة الله في معصيته، فهو مثل من يستخدم سلاح منقذه ليقتل به نفسه .النجاة من البحر كان يجب أن تكون مدخلًا للطاعة، فجعلوها مدخلًا للشرك.
رابعاً: دلالات قوله تعالى:} فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ{

هذه هي القنبلة الموقوتة، والوعد الإلهي المؤكد.

1. {فَسَوْفَ}:

· "سوف" حرف استقبال يدل على التحقيق والاستقبال القريب .ليس غدًا البعيد، بل قريبًا جدًا .إما في الدنيا بالعقوبات، أو عند الموت، أو في القبر، أو في القيامة.

{ .2يَعْلَمُونَ}:

· العلم هنا سيكون علم عيان ويقين، ليس علم خبر .سيعلمون عاقبة كفرهم وجحودهم .سيعلمون أن المتعة التي تمتعوا بها كانت قليلة، وأن العذاب الذي ينتظرهم كان عظيمًا.
· حذف المفعول ليشمل كل شيء: سيعلمون سوء صنيعهم، وندامتهم، وعذابهم .كأنه يقول: سيعلمون كل ما يجهلونه اليوم من عواقب وخيمة.

اللمسة البلاغية:
جاءت الجملة باسمية "سوف يعلمون" وليست فعلية، لتثبت أن هذا العلم سيقع حتمًا .لا شك فيه .و التعبير بـ "يعلمون" بدل "يعذبون" فيه إشارة إلى أن ألم العلم بالخطأ والندم قد يكون أشد من العذاب الجسدي.

الرسالة الإيمانية والنفسية:

· طمأنة للمؤمن: لا تحزن من غدرهم وكفرهم .الله سوف يعلمهم عاقبة أمرهم .العدل الإلهي آتٍ لا محالة.
· تحذير للغافل: لا تظن أن الله غافل عن كفرك بنعمه .سوف يأتي يوم تندم فيه، ولكن لا ينفع الندم . استغل وقت النعمة في الشكر قبل فوات الأوان.
· بناء الصبر في نفس المؤمن: عندما ترى من يكفرون بنعم الله ويشركون به، تذكر "فسوف يعلمون" . هذا يريح قلبك ويصبرك على أذاهم.
المفاهيم العملية الكبرى من الآيتين) كيف تحول حياتك(

.1مفهوم "صدق التوحيد في السراء والضراء":
المؤمن الحقيقي ليس من يدعو الله عند الشدة فقط، بل من يبقى على طاعته وتوحيده عند الرخاء أيضًا .أعظم درجات الإيمان هي الثبات عند الأمن والقوة .كيف تعيش هذه الآية؟

· عند الشدة: تذكر أن هذه الشدة هي فرصة لتجديد إخلاصك .لا تنتظر الشدة لتعود إلى الله، بل كن دائمًا مع الله.
· عند الرخاء: بعد أن يشفيك الله من مرض، أو ينجيك من محنة، أو يرزقك بمال أو وظيفة، اسجد شكرًا لله، وازدد طاعة .لا تكن ممن يقول "أنا وجهدي" أو "حظي حلو" .قل: "الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات".

.2اختبار "الإخلاص في النعمة":
أخطر أنواع الشرك هو شرك الرخاء .وهو أن تعتمد على الأسباب وكأنها هي الفاعلة .مثلا ً:

· تأتي بمال وتقول: "أنا تعبت وجمعت" وتنسى أن الله هو الذي أعطاك القدرة والمال.
· تشفى من مرض وتقول: "الدكتور ماهر" وتنسى أن الله هو الشافي.
الآية تدعوك أن تنسب النعم كلها إلى الله، في السراء والضراء.

.3مبدأ "رد الجميل":
الله ينجيك من الغرق، في مقابلة ذلك تشرك به؟! هذا هو قمة الجحود .علمني هذه الآية أن أرد الجميل لمن أحسن إليّ، وأعظم المحسنين هو الله .كيف أرد جميله؟

· بطاعته وشكره.
· باستخدام نعمه في مرضاته.
· بذكره في الرخاء كما أذكره في الشدة.

.4مفهوم "المتعة الزائلة مقابل النعيم الباقي":
الآية تطرح مقارنة: "يتمتعوا") متعة قصيرة (مقابل ما فاتهم من أجر الشكر والثواب العظيم .المؤمن العاقل يختار الباقي على الزائل .كن أنت من يختار.

.5التطبيق العملي في حياتك اليومية:

· بعد كل نجاة: كل يوم تمر بك نجاة من الله: نجاة من حادث، نجاة من مرض، نجاة من فقر، نجاة من فتنة .اجعل بعد كل نجاة توبة وشكرًا، لا شركًا وغفلة.
· عند الخوف والطمأنينة: راجع نفسك: هل أنا مع الله في الخوف والطمأنينة على حد سواء؟ أم أنني

أتقلب مع الظروف؟ كن ثابتًا.
· في حالات الضعف: عندما تشعر بضعف وقلة حيلة، تذكر أن هذه هي حالتك الحقيقية أمام الله .فلا تنس هذه الحالة عندما تأتي القوة.
· في الدعوة: استخدم هذه الآية لمن يشرك بالله في الرخاء .قل له: "أنت تعرف الله في الشدة، فلماذا تتركه في الرخاء؟ أليس هذا تناقضًا؟"

.6دور الآيتين في بناء الأمة:

· بناء أمة ثابتة لا تتزعزع: الأمة التي تفهم هذه الآية تكون ثابتة على مبادئها في العسر واليسر، في الحرب والسلم، في الفقر والغنى .لا تتغير قيمها بتبدل الظروف .هذا هو سر قوة الأمم.
· بناء أمة شكورة: الأمة الشكورة هي أمة منتجة، لأنها تستثمر نعم الله في طاعته، فتبارك الله لها في قوتها ومالها وعلمها .الأمة الجحودة تنعم ثم تكفر، فتسلب النعمة.
· بناء أمة واعية بفخاخ النفس: الآية تعلم الأمة كيف تصطاد أعداءها الداخليين) النفس والهوى .(الأمة التي تعرف أمراض نفسها تستطيع أن تعالجها وتتقدم.
الخلاصة النهائية:

أخي الحبيب، أختي الكريمة، هذه الآيات تصور لك أخطر آفة في العلاقة بين العبد وربه: النسيان و الجحود بعد النعمة، والشرك بعد التوحيد، والغفلة بعد اليقظة .إنها تدعوك إلى أن تكون من القلة الذين أوفوا بعهدهم مع الله، الذين قال فيهم:} وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ] {الحج:.[11

لا تكن ممن يذكر الله عند الغرق وينساه عند الوصول إلى البر .كن عبدًا لله في كل حال، في السراء والضراء، في المنشط والمكره .اخلص له الدين في العسر واليسر .اشكره على النعم، ولا تكفرها بـ المعاصي .تمتع بالدنيا الحلال، ولكن لا تجعلها غايتك.

وتذكر دائمًا: "فسوف يعلمون" .يوم القيامة، سيعلم كل من جحد نعمة الله وعبد غيره، عاقبة أمره . فكن من الذين يعلمون اليوم، قبل أن يعلموا غدًا حين لا ينفع العلم.
المبحث السادس
أخي الحبيب، أختي الكريمة، بعد أن كشفت لنا الآيات السابقة حقيقة الإنسان المتناقض: يخلص لله في الشدة ويشرك به في الرخاء، ويجحد النعمة وينغمس في المتعة الزائلة، يأتي الآن سؤال مباشر، سؤال يقرع العقل والقلب معًا، سؤال يضرب على وتر النعمة الكبرى التي يعيش فيها المشركون أنفسهم ولا يشعرون بها .إنه سؤال يفضح أعلى درجات الجحود، وأغرب أنواع الكفر .يقول تعالى:

}أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ {]العنكبوت:[67

تخيل معي هذا المشهد: أنت تعيش في مدينة محاطة بالخوف من كل جانب .خارج أسوار مدينتك، يخطف الناس، وتُسفك الدماء، وتُنتهك الأعراض، وتُنهب الأموال .الناس في كل مكان ينامون على خوف ويستيقظون على هلع .أما أنت، فتعيش في أمان تام، لا يمسك أحد بسوء، ولا يخافون على أنفسهم ولا على أموالهم .هذه النعمة من أين أتتك؟ من قوتك؟ من ذكائك؟ من حلفائك؟ لا، بل من الله الذي جعل هذا المكان "حرماً آمناً".

ثم يأتي السؤال الموجع: بعد كل هذا، كيف تؤمن بالباطل) الأصنام، الكهانة، الظنون (وتكفر بنعمة الله)الأمن والأمان(؟!

هذه الآية هي أعظم درس في شكر النعم، وهي فضيحة لمن يبدل نعمة الله كفراً، وهي دعوة صارخة لرؤية الآيات بعيون البصيرة.

دعنا نغوص في أعماق هذه الآية، ونرى كيف تبني الأمة على أساس رؤية النعم وشكر المنعم.
المقدمة والأفكار الرئيسية للآية67

هذه الآية تخاطب قريشًا والمشركين عامة، وتخص مكة المكرمة كأعظم مثال، ولكنها تنطبق على كل مؤمن في أي بقعة.

أفكارها الرئيسية:

1.تذكير بالنعمة العظمى: نعمة الأمن في الحرم، وسط فوضى الخطف والفوضى من حولهم.
2.لفت النظر إلى المشهد المحسوس: "أو لم يروا" – أليس بأعينهم يرون هذا التناقض الصارخ؟
3.المقارنة بين الأمن والخطف: جعل الحرم آمناً، والناس من حولهم يُتخطفون.
4.التوبيخ والاستنكار: "أفبالباطل يؤمنون وبنعمة الله يكفرون؟" – أي عقل هذا الذي يرضى بهذا؟
5.النتيجة: الكفر بالنعمة والإيمان بالباطل هو قمة الجهل والظلم.

والآن، لنبدأ الرحلة التفصيلية:

أولا ً: دلالات قوله تعالى:{ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا}

{ .1أَوَلَمْ يَرَوْا}:

· الهمزة للاستفهام التوبيخي والإنكاري .أي: ألم يروا هذا الأمر الواضح؟!
· الواو للعطف على مقدر، أي: أغفلوا عن هذه النعمة أم لم يروها؟
· "يروا" : الرؤية هنا بصرية وعقلية معًا .أي ألم يبصروا بأعينهم، ثم يتدبروا بعقولهم؟ الرؤية البصرية وحدها لا تكفي، بل لا بد من الرؤية البصيرة .كأنه يقول: "أنتم ترون هذا المشهد كل يوم، فلماذا لا تتفكرون فيه؟"

{ .2أَنَّا جَعَلْنَا}:

· "أنا" تأكيد للفاعل) الله .(إنها نعمة من الله وحده، لا من قوة البشر.
· "جعلنا" الفعل الماضي يدل على أن هذا الأمر قد تقرر واستقر منذ زمن إبراهيم عليه السلام .ليس أمرًا جديدًا .أنتم ترثون هذه النعمة جيلا ً بعد جيل.

{ .3حَرَمًا آمِنًا}:

· "حرما" : الحرم هو المكان ذو الحرمة، الذي جعله الله آمنًا، لا يسفك فيه دم، ولا يظلم فيه أحد، ولا يصاد فيه صيد، ولا يقطع فيه شجر .هذه حرمة وضعها الله، وليست من صنع البشر.
· "آمنا" : صفة مشبهة تدل على الثبات والاستقرار .أي هو مكان الأمن الثابت .لا يخاف من فيه من عدو، ولا من جائر، ولا من خطف .في وسط جزيرة العرب التي كانت تعج بالغارات والثأر والحروب، كان حرم مكة واحة أمن وسلام .الناس يدخلونه خائفين فيأمنون.

اللمسة البلاغية:
وصف الحرم بـ "آمنا") نكرة (مع أنه معرف بأل، يفيد المبالغة في الأمن .أي هو أمن كامل، ليس فيه أي خوف .هذا يهيئ للسؤال: أمن بهذا المستوى، مقابل خطف من حولهم .كيف لا تشكرون؟

الأثر النفسي والإيماني:

· تذكير بالنعم الأساسية: كثير من الناس يغفلون عن أعظم النعم: الأمن، الصحة، الطعام، الشراب .الآية تلفت النظر إلى نعمة الأمن التي هي أساس كل نعمة .قال النبي ﷺ: "من أصبح منكم آمناً في سربه، معافى في جسده، عنده قوت يومه، فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها".
· الشعور بالامتنان: عندما تعيش في بلد آمن، أو في بيت آمن، أو في مجتمع مستقر، تذكر أن هذه نعمة من الله، ليست محققة بذاتها .كثير من الناس في العالم يعيشون في خوف وقلق .هذه الآية تدعوك للحظة تأمل وامتنان.

ثانياً: دلالات قوله تعالى:{ وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ}

هذه هي الصورة المقابلة، التي تبرز النعمة بوضوح.

{ .1وَيُتَخَطَّفُ}:

· فعل مضارع مبني للمجهول، يدل على التجدد والاستمرار .ليس خطفًا حدث مرة، بل هو حالة دائمة . الناس من حول الحرم يُخطفون على الدوام.
· التخطف هو أخذ الشيء بسرعة واختطافه .إنه مشهد الرعب: شخص يمشي آمناً، فجأة يُختطف، لا يدري مصيره .هذه كانت حال قبائل العرب حول مكة: الغارات، الثأر، قتل القبائل بعضها لبعض.

} .2النَّاسُ{:
عامة الناس، من كل قبيلة ومن كل مكان حول الحرم .لا يستثنى أحد.

} .3مِنْ حَوْلِهِمْ{:

· "من حولهم" أي من كل الجهات، من كل جانب .الحرم في الوسط، والخوف يحيط به من كل ناحية . كأنهم في جزيرة آمنة وسط بحر من الخوف.
· الضمير في "حولهم" يعود على أهل الحرم .أي أنتم أيها المشركون في مكة، تعيشون في أمان، بينما الناس من حولكم يُخطفون .أفلا تشكرون؟

اللمسة البلاغية:
المقابلة بين "حرماً آمناً" و"يتخطف الناس من حولهم" هي صورة بيانية بديعة توضح النعمة بأبلغ وجه .النعمة تعرف بأضدادها .لولا الخوف من حولهم، لما شعروا بقيمة الأمن .وكذلك، لو كان كل الناس في أمان، لما أدركوا فضل الله عليهم بهذا الأمن الخاص.

الرسائل النفسية والتربوية:

· تعلم شكر النعمة بمشاهدة من حُرِمها: طريقة تربوية فعالة: إذا أردت أن تشكر الله على نعمة، فانظر إلى من حرم منها .انظر إلى المريض تشكر الصحة، وإلى الفقير تشكر الغنى، وإلى الخائف تشكر الأ من .هذه الآية تفعل ذلك.
· تنبيه على أن الأمن ليس أمراً عادياً: الأمن هو أعظم نعمة بعد الإيمان .المجتمعات التي تعيش في حروب وقلق تعرف قيمة الأمن جيدًا .فإذا كنت في أمان، فاحمد الله كثيرًا.

ثالثاً: دلالات قوله تعالى:} أَفَبِالبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللهِ يَكْفُرُونَ{

هذه هي الخاتمة الصاعقة، والسؤال الذي لا إجابة عنه إلا بالجنون.

} .1أَفَبِالبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ{:

· الهمزة للإنكار والتعجب، والفاء للعطف على مقدر، أي: أبعد هذا البيان الواضح، يؤمنون بالباطل؟
· الباطل: كل ما يعبد من دون الله) الأصنام، الأوثان، الطاغوت(، وكذلك الخرافات والكهانة والظنون التي لا أصل لها .هو مقابل الحق.
· "يؤمنون" : الإيمان هنا بمعنى التصديق والانقياد .فهم يصدقون بآلهة باطلة لا تنفع ولا تضر، ويعطونها من الخضوع ما لا يعطونه لله.

} .2وَبِنِعْمَةِ اللهِ يَكْفُرُونَ{:

· نعمة الله: أشار المفسرون إلى أنها نعمة الأمن في الحرم، وقيل: النعم كلها .وأبرزها هنا نعمة الأمن.
· "يكفرون" : الكفر هنا جحود النعمة وعدم شكرها، وعبادة غير الله مع أنها منه .أعلى درجات الكفر: أن تعرف أن النعمة من الله، ثم تعبد غيره شكرًا عليها!
· اللمسة البلاغية العظيمة:
· تقديم الباطل على نعمة الله في الذكر، مع أن نعمة الله هي الأصل، فيه إشارة إلى أنهم قدموا الباطل على الحق في اهتمامهم.
· الإتيان بـ "الباطل" نكرة، و"نعمة الله" معرفة بالإضافة .النكرة تفيد التحقير) أي باطل مهما كان(، والمعرفة تفيد التعظيم) النعمة المعروفة العظيمة .(أي: يؤمنون بشيء تافه حقير) باطل(، ويكفرون بشيء عظيم جليل) نعمة الله .(هذا غاية الجحود.

الرسائل الإيمانية والعقلية والنفسية:

· رسالة عقلية: كيف يعقل أن يؤمن إنسان بالباطل) صنم لا يسمع ولا يبصر ولا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًا (ويكفر بنعمة الله الواضحة؟ هذا خرق للعقل والمنطق .الآية تفضح هذا التناقض.
· رسالة إيمانية: شكر النعمة أساس الإيمان .فمن كفر بنعمة الله، فكأنه كفر بالله .من رأى الأمن و الرزق والصحة، ثم عبد غير الله، فهو جاحد.
· رسالة نفسية: الباطل يجذب النفس لأنه لا يطلب منها تكليفًا، بينما نعمة الله تطلب شكرًا وطاعة .الإ نسان الكسول يختار الباطل لأنه سهل، ويكفر بالنعمة لأنه لا يريد أن يقوم بواجب الشكر .الآية تكشف عن كسل روحي وفكري.

المفاهيم العملية الكبرى من الآية) كيف تحول حياتك(

.1مفهوم "رؤية النعم":
"أَوَلَمْ يَرَوْا" تعني أن كثيرًا من الناس لا يرون النعم رؤية قلبية .يرونها بأعينهم ولا يشعرون بقيمتها . كيف تطبق؟

· خصص وقتًا يوميًا لتذكر النعم، واكتبها إن استطعت .نعمة الأمن، الصحة، البصر، السمع، الماء، الهواء، الإسلام، الإيمان.
· كلما رأيت من حرم نعمة، اشكر الله على نعمتك .انظر إلى مريض تشكر صحتك، إلى فقير تشكر غناك، إلى خائف تشكر أمنك.

.2مفهوم "الحرم الآمن" في حياتك:
ليس الحرم مكانًا فقط .كل مؤمن له "حرم" من رحمة الله .بيتك يجب أن يكون "حرماً آمناً" تسوده السكينة والطمأنينة .قلبك يجب أن يكون آمناً بالإيمان .مجتمعك يجب أن تسوده الأمن والأمان .الآية تحفزك على:

· بناء بيت آمن نفسيًا لأسرتك.
· العمل على أمن مجتمعك ومحاربة كل ما يهدده.
· شكر الله على نعمة الأمن القومي الذي نعيشه.

.3الفرق بين الإيمان بالحق والإيمان بالباطل:
الإيمان بالحق يورث الطمأنينة والثبات .الإيمان بالباطل يورث القلق والتخبط .انظر إلى من يؤمن بـ الخرافات والطواويس والأبراج، كيف يعيش في قلق دائم .أما المؤمن بـالله فقلبه مطمئن .الآية تدعوك لاختيار الحق الواضح.

.4كفران النعمة: صوره في حياتنا:
ليس كفران النعمة هو الشرك فقط، بل:

· استخدام نعمة الصحة في المعصية.
· استخدام نعمة المال في الحرام.
· استخدام نعمة الوقت في اللهو.
· الشعور بالأمان التام ونسيان أن الله هو المؤمن.
· الكبر والغرور، ونسب النعم إلى النفس أو إلى الأسباب.
كل هذه صور لكفران النعمة.

.5شكر النعمة: صوره العملية:

· بالقلب: اعترافها والإقرار بأنها من الله.
· باللسان: الثناء على الله وحمده عليها.
· بالجوارح: استخدام النعمة في طاعة الله .نعمة الأمن تستخدم في العبادة والدعوة والعمل الصالح . نعمة المال تستخدم في الصدقة والبر.

.6دور الآية في بناء الأمة:

· بناء أمة شكورة: الأمة التي تشكر الله على نعمة الأمن، تحافظ عليه، وتستثمره في البناء والتطوير . الأمة الجاحدة تسلب نعمة الأمن، كما سلبت من قريش حين كفروا، فسلط الله عليهم الفقر والجوع و الخوف بعد أن كانوا آمنين مطمئنين.
· بناء أمة واعية بقيمة الأمن: الآية تعلم الأمة أن الأمن ليس سلعة رخيصة، بل هو أعظم نعمة بعد ا لإيمان .الأمن هو الذي يمكن من الإنتاج، والتعليم، والعبادة، والسفر، والتجارة .فإذا فقد الأمن، فقد كل شيء .لذلك، على الأمة أن تحافظ على أمنها بكل غالٍ ونفيس.
· بناء أمة لا تفرط في النعم: الأمة التي تفهم هذه الآية لا تفرط في نعم الله عليها بالفساد والظلم و الغش .لأن كفران النعمة يؤدي إلى زوالها .قال تعالى:} ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ.{
· بناء أمة عاقلة: الآية ترد الأمة إلى العقل .أمة لا تؤمن بالباطل) خرافات، أوثان مادية كالمال والجاه، أيديولوجيات زائفة (ولا تكفر بنعمة الله) الأمن، الرزق، الحرية .(هذا هو الطريق إلى الحضارة.

.7التطبيق العملي في حياتك اليومية:

· صباح كل يوم: عندما تستيقظ آمناً في بيتك، قل: "الحمد لله الذي رد علي روحي، وعافاني في جسدي، وأذن لي بذكره" .أشعر بقيمة الأمن قبل أن تفقده.
· عند رؤية الأخبار: تشاهد أناسًا يخطفون، وتفجيرات، وحروب .استحضر هذه الآية .اشكر الله على نعمة الأمن في بلدك .وتضرع إليه أن يحفظ الأمن على الجميع.
· في بيتك: اجعل بيتك "حرماً آمناً" من الخلافات، ومن الغضب، ومن الأذى .كن أنت مصدر أمن لأهلك.
· في مجتمعك: كن سببًا في نشر الأمن، لا في زعزعته .لا تنقل الفتن، لا تشيع الخوف، لا تظلم أحدًا . كلمة طيبة، ابتسامة، مساعدة، كلها تعزز الأمن المجتمعي.
· في علاقتك مع الله: استخدم نعمة الأمن في زيادة طاعتك .لا تؤجل التوبة أو العبادة بحجة انشغالك أو راحتك .الأمن نعمة عظيمة، فاشكرها بالعمل الصالح.

الخلاصة النهائية:

أخي الحبيب، أختي الكريمة، هذه الآية تصفعك صفعة رقيقة ولكن قوية: انظر حولك .انظر إلى الذين يُتخطفون من كل جانب، وإلى أنت في أمان .هذه نعمة عظيمة من الله .فلماذا تؤمن بالباطل؟ لماذا تشرك بالله؟ لماذا تكفر هذه النعمة العظيمة بالمعاصي والغفلة؟

النعمة أمانة، والله يسأل عنها .قال تعالى:} ثمّ لتُسْأَلنّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النّعِيمِ .{الأمن من النعيم الذي ستسأل عنه .فماذا أعددت لسؤال الله عن نعمة الأمن؟

كن من الشاكرين، الذين يرون النعم بأعين قلوبهم قبل أعين رؤوسهم .الذين يستخدمون الأمن في طاعة الله .الذين لا يبدلون نعمة الله كفراً .وعندها، سيزيدهم الله من فضله، كما وعد:} لَئِنْ شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنّكُمْ.{
المبحث السابع .

أخي الحبيب، أختي الكريمة، بعد أن تتابعت الآيات لتكشف لنا حقيقة المشركين: يعترفون بأن الله خالق ورازق، لكنهم يشركون به عند الرخاء، ويكفرون بنعمة الأمن التي جعلها الله لهم في الحرم، ويؤمنون بالباطل... الآن، وبعد أن تقررت الحجة، وظهر الحق واتضح الباطل، يأتي السؤال الحاسم: من هو أعظم الناس ظلماً؟ من يتجاوز كل حدود الظلم إلى ذروته؟ ومن يستحق أشد العذاب؟ إنها الآية التي تضع ميزان الظلم الإلهي، وتعلن النتيجة النهائية لمن يكابر بعد البيان .يقول تعالى:

}وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا أَوْ كَذّبَ بِالحَقّ لَمّا جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنّمَ مَثْوًى لِلْكَافِرِينَ {]العنكبوت:[68

تخيل معي مشهد المحكمة الإلهية الكبرى .الحق واضح كالشمس، والبراهين ملأت الآفاق: السماوات والأرض، الشمس والقمر، المطر والحياة، الأمن وسط الخوف .ثم يأتي فريقان:

· فريق افترى على الله الكذب، فنسب إليه شركاء، وادعى أن له ولداً، أو جعل الأصنام شركاء له، أو حرم ما لم يحرمه، كل ذلك بغير علم.
· وفريق كذب بالحق لما جاءه، فقد وصلته رسالة محمد ﷺ بالبينات والهدى، ولكن استكبر وعاند وكذب.

ثم يصدر الحكم: أليس في جهنم مثوى – مكان إقامة دائم – لهؤلاء الكافرين الظالمين؟

إنها الآية التي تقطع الطريق على كل من يظن أن الظلم يقتصر على ظلم الناس لبعضهم، بل أعظم ظلم هو الظلم في حق الله: الافتراء عليه أو تكذيب رسله.

دعنا نغوص في هذه الآية العظيمة، لنرى كيف تبني فينا العدل مع الله، وكيف تحصننا من كبريتي الكذب والتكذيب.
المقدمة والأفكار الرئيسية للآية68

هذه الآية هي حكم قضائي إلهي في أعلى درجات الظلم، وهي ردع لكل من يعاند الحق بعد ظهوره.

أفكارها الرئيسية:

.1تحديد أعلى درجات الظلم: لا ظلم أعظم من الافتراء على الله أو تكذيب الحق.
.2وصف الفريقين:) أ (المفترون الكذابون على الله) .ب (المكذبون بالحق بعد مجيئه.
.3الاستفهام التقريري: "أليس في جهنم مثوى للكافرين؟" – إقرار واثبات لا يقبل الجدل.
.4النتيجة: جهنم هي المكان الدائم) المثوى (للكافرين الظالمين.
.5الربط بالسابق: بعد أن أقام الله الحجة بالآيات الكونية والنعم، جاء دور الحكم على من كفر وجحد.

والآن، لنبدأ الرحلة التفصيلية:
أولا ً: دلالات قوله تعالى:} وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا{

} .1وَمَنْ أَظْلَمُ{:

· "من" استفهامية بمعنى النفي .أي: لا أحد أظلم ممن يفعل كذا .هذا الأسلوب) صيغة أفعل التفضيل على سبيل الاستفهام (يفيد الحصر والمبالغة .إنها تعلن أن هذا الظلم بلغ الذروة، فلا ظلم فوقه.
· "أظلم" : الظلم وضع الشيء في غير موضعه .أعظم الظلم هو ظلم الإنسان لربه، لأنه تعدى على حق الله الذي لا أعظم منه .ظلم العبد لنفسه أو لغيره كبير، لكن ظلمه لله بالافتراء عليه هو قمة الطغيان.

} .2مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا{:

· "افترى" : أصل الفري: القطع .الافتراء هو اختلاق الكذب وقطعه من عنده بلا أصل .إنه اتهام لله بما لم يقله، أو نسبة شيء لم يفعله.
· "على الله" : الجار والمجرور يدل على عظمة الجريمة .الافتراء على مخلوق عظيم، فكيف على خالق المخلوقات؟! إنه أعظم اعتداء.
· "كذبًا" : نكرة في سياق الإثبات تفيد عموم الكذب وتعظيمه .أي أي كذب كان، صغيرًا كان أم كبيرًا.
· صور الافتراء على الله:
· شركاء لله: جعل الأصنام شركاءه، أو ادعاء الولد) كما قالت اليهود: عزير ابن الله، والنصارى: المسيح ابن الله، والمشركون: الملائكة بنات الله.(
· تحليل وتحريم بلا علم: تحريم ما لم يحرمه الله، أو تحليل ما حرمه، ونسبة ذلك إلى الله.
· ادعاء النبوة كذبًا: أو ادعاء الوحي من عند الله.
· نسبة القول لله بلا علم: في التفسير أو الأحكام، دون دليل.

اللمسة البلاغية:
تقديم "على الله" على "كذبًا" يفيد الاهتمام والعناية بمفعول الافتراء .أي: تأملوا! جرمهم ليس مجرد كذب، بل كذب موجه إلى الله نفسه، رب العالمين.

الرسائل الإيمانية والنفسية:

· رسالة إيمانية: عظمة الجريمة تقاس بعظمة من جرمت في حقه .الله هو أعظم من جرم في حقه، فجريرمة الافتراء عليه هي أفظع الجرائم .هذا يدفع المؤمن إلى أقصى درجات الخشية من أن يقول على الله بلا علم.
· رسالة تربوية: علمني أن أتوقف قبل أن أقول "قال الله" أو "قال الرسول" إلا بعلم ويقين .الكذب على الله ليس كالكذب على الناس .إنه يهدم الدين من أساسه.
· رسالة نفسية: الافتراء على الله يأتي غالباً من الكبر واتباع الهوى .الإنسان يريد أن يشرع لنفسه ما يوافق هواه، فينسبه إلى الله .الآية تحذر من هذا المرض القاتل.
ثانياً: دلالات قوله تعالى:} أَوْ كَذَّبَ بِالحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ{

هذا هو الفريق الثاني من أظلم الناس.

} .1أَوْ كَذَّبَ بِالحَقِّ{:

· "أو" للتنويع، وليست للشك .هناك فريقان كلاهما في غاية الظلم.
· "كذب" : الفعل الماضي، يشمل التكذيب القلبي واللساني والعملي .هو إنكار الحق مع العلم به.
· "بالحق" : الحق هو ما جاءت به الرسل من التوحيد والهدى والقرآن .الحق هو الله، والإسلام، والقرآن ، ومحمد ﷺ .تكذيب أي من هذه هو تكذيب للحق.
· اللمسة البلاغية: تنكير "الحق" مع أنه في ذاته معرفة، يفيد التعظيم والشمول .أي كل حق، أيًا كان

نوعه، من توحيد أو نبوة أو شريعة.

{ .2لَمَّا جَاءَهُ}:

· "لما" ظرفية تدل على أن الحق قد جاءه ووصل إليه، ولم يبق لديه عذر .إنه رأى البينات، وسمع الآ يات، وعرف الدلائل، ثم بعد كل ذلك كذب.
· "جاءه" : الحق جاءه شخصيًا، ليس غائبًا عنه .هذا أشد إدانة .من لم يبلغه الحق له عذر، أما من جاءه الحق فكذبه، فلا عذر له.

الفرق بين الفريقين:

· المفترى على الله: أضاف إلى الله ما لم يقله، وشرع من عنده.
· المكذب بالحق: رفض ما قاله الله وأنزله على رسله.
كلاهما ضل، وكلاهما أظلم الناس .فالمفترى عليه أساء إلى الله بالزيادة، والمكذب أساء إليه ب النقصان.

الرسائل العقلية والنفسية:

· رسالة عقلية: الآية تضع مبدأ المسؤولية العقلية .من جاءه الحق وتبين له، ثم كذب، فهو أعظم ظلماً ممن لم يأته .لذلك، طلب العلم والبحث عن الحق فريضة، لأن الجهل قد يكون عذراً، أما العناد بعد العلم فهو الهلاك.
· رسالة نفسية: التكذيب بعد مجيء الحق سببه غالباً الكبر والخوف واتباع الهوى .الإنسان قد يعرف الحق ولا يتبعه لأنه يخاف على منصبه، أو ماله، أو عاداته .الآية تكشف هذا المرض وتفضحه.
ثالثاً: دلالات قوله تعالى:} أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْكَافِرِينَ{

هذا هو الحكم النهائي، والجواب على سؤال "من أظلم؟".

{ .1أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ}:

· الاستفهام هنا للتقرير والإثبات .ليس استفهامًا حقيقيًا، بل معناه: بلى، إن في جهنم .إنه أسلوب بلا غي يقرر حقيقة مسلم بها، كأن يقول: أليس معلوماً عندكم أن جهنم موجودة؟ أليس من المعلوم أنها للكافرين؟ هذا أسلوب يوقظ الضمير ويحرك العقل ليقر بما يعرفه.

{ .2مَثْوًى}:

· "مثوى" : من الثواء، وهو مكان الإقامة الدائمة، والمبيت المستقر .ليس مجرد عبور أو زيارة، بل هو الدار والوطن الدائم للكافرين .هذا اللفظ يرعب القلب: جهنم ليست محطة عابرة، بل هي المقر الذي لا يخرجون منه .قال تعالى:} كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا.{
· اللمسة البلاغية: تقديم الظرف "في جهنم" على "مثوى" يفيد الاهتمام والحصر .أي: في جهنم وحدها ، لا في غيرها، هو المثوى.

{ .3لِلْكَافِرِينَ}:

· اللام للاختصاص .أي هذا المثوى مخصص للكافرين، ليس للمؤمنين .والكافرون هم من جمعوا بين ا لافتراء على الله والتكذيب بالحق، أو أحدهما.
· اللمسة البلاغية: جاءت "للكافرين" في ختام آية تحدثت عن "أظلم" و"افترى" و"كذب" .هذا يثبت أن الكفر هو الظلم العظيم .قال تعالى:} إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ.{

الأثر النفسي والإيماني:

· ترسيخ الخوف من الله: عندما تعلم أن أعظم الظلم يؤدي إلى جهنم كمثوى دائم، يزداد خوفك من أن تقع في الافتراء على الله أو تكذيب الحق .هذا الخوف المحمود يدفعك إلى التثبت والصدق.
· طمأنة المؤمن: المؤمن يطمئن بأن العدل الإلهي سينصفه .الظالمون المفترون المكذبون سيكون مصيرهم جهنم، وهذا يعزز صبره على أذاهم.
· تحذير شديد: الآية تنذر كل من يتلاعب بدين الله، أو يكذب بالحق عناداً، بأن جهنم هي منزله الدائم .لا مهرب، ولا خروج.

المفاهيم العملية الكبرى من الآية) كيف تحول حياتك(

.1مفهوم "أعلى درجات الظلم":
الآية تعلمك أن تزن الأمور بميزان الله .قد يظن الناس أن أكبر ظلم هو قتل النفس أو أكل المال بـ الباطل .ولكن الآية تقرر أن الظلم في حق الله أعظم .لأن ظلم المخلوق يمكن تعويضه في الدنيا أو ا لآخرة، أما ظلم الخالق بالافتراء عليه أو تكذيب رسله فهو جريمة لا تغتفر إلا بالتوبة .قال تعالى:} إِنَّ اللهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ.{

.2مفهوم "الحق إذا جاء" ماذا تفعل؟
الآية تحدد موقفك مما يصلك من الحق .إذا جاءك الحق من القرآن أو السنة النبوية الصحيحة، أو من دليل عقلي واضح، ليس أمامك إلا خيار واحد: الإذعان والقبول .أما التكذيب أو المكابرة أو اللف والدوران، فهي من صفات أظلم الناس .كيف تطبق؟

· إذا جاءك حديث صحيح يخالف هواك، لا تقل "هذا لا يعجبني" أو "هذا صعب" .بل قل: سمعنا وأطعنا.
· إذا تبين لك أن قولاً معيناً هو الحق، وكنت على خلافه، فتوقف وارجع إلى الحق، ولو كان ذلك يكلفك الاعتراف بالخطأ .هذا هو التواضع للحق، وهو أعلى درجات الإيمان.

.3الفرق بين "الافتراء" و"التكذيب":

· الافتراء هو إضافة الباطل إلى الدين) بدع، خرافات، تحريم وتحليل بلا علم.(
· التكذيب هو رفض الحق الذي جاء به الدين) إنكار التوحيد، أو السنة، أو الأحكام.(
الآية تحذرك من كليهما .كن حذراً:
· لا تقل عن شيء "هذا حلال" أو "هذا حرام" إلا بعلم.
· لا ترفض حكماً شرعياً ثابتاً بحجة أن "العصر تغير" أو "هذا لا يناسبنا" .هذا تكذيب بالحق.

.4مفهوم "المثوى" وأثره النفسي:
عندما تتذكر أن جهنم هي مثوى) مكان إقامة دائمة (للكافرين، تدرك أن العذاب ليس ساعة ثم ينجلي، بل هو أبدي لا نهاية له .هذا الإدراك يدفعك إلى:

· الهروب من الكفر والمعاصي بكل قوتك.
· تجديد التوبة والاستغفار خوفاً من أن تكون ممن يستحق هذا المثوى.
· الدعوة إلى الله بحكمة، لتنقذ الناس من هذا المصير الأليم.

.5دور الآية في بناء الأمة:

· بناء أمة تعظم حق الله: الأمة التي تفهم هذه الآية تقدس حرمات الله، ولا تجرؤ على الافتراء عليه أو على رسله .تحترم نصوص الدين، ولا تتعامل معها باستهتار .هذه الأمة هي أمة العدل الإلهي في ا لأرض.
· بناء أمة توقر العلماء الراسخين: لأن الافتراء على الله يكثر من أهل الأهواء والجهل .الآية تدفع الأ مة إلى طلب العلم الشرعي من مصادره الموثوقة، وإلى ترك التقليد الأعمى والخرافات.
· بناء أمة لا تكابر الحق: من صفات الأمة القوية أنها تعترف بالخطأ، وتصحح مسارها، وتتقبل النقد .ا لآية تحارب العناد والكبرياء، وهما من أسباب التخلف .الأمة التي تقول "نحن نعرف الأفضل" وترفض الحق إذا جاء من غيرها، هي أمة مكذبة بالحق، مستحقة للوعيد.
· بناء أمة تتحرى الصدق مع الله: الصدق مع الله هو أساس النهضة .الأمة الصادقة في إيمانها، الصادقة في نياتها، الصادقة في أعمالها، هي أمة تبارك الله لها .أما الأمة التي تفتري على الله)بتشريعات بشرية تخالف دينه (أو تكذب بالحق) ترفض تطبيق دينها (فهي أمة في وعيد.
· بناء أمة تخاف من "المثوى" قبل أن يكون واقعاً: الخوف من جهنم ليس خوفاً جباناً، بل هو خوف يدفع إلى العمل .الأمة الخائفة من عذاب الله هي أمة تجتهد في الإصلاح، وتحارب الفساد، وتقيم العدل، وتجاهد أعداءها، وتتوب من ذنوبها .هذا الخوف هو قوة دافعة، وليس شللاً.

.6التطبيق العملي في حياتك اليومية:

· في علاقتك مع النصوص الدينية: قبل أن تقول "أنا أرى أن هذا الحكم لا ينطبق اليوم"، تذكر: أنت على وشك تكذيب الحق .بل سلم للحكم الشرعي، وابحث عن تطبيقه في واقعك، ولا ترفضه.

· في فتواك أو قولك في الدين: إذا سئلت عن أمر ديني، فقل "لا أعلم" إن لم تكن متأكداً .لا تفتِ من عندك .الافتراء على الله يبدأ بالكلمة بلا علم .قال السلف: "من أفتى بغير علم لعنته ملائكة السماء والأرض".
· عندما تصلك نصيحة أو كلمة حق: لا تتعصب لرأيك السابق .تواضع للحق .قل: "بارك الله فيك، لقد كنت مخطئاً، وهذا هو الصواب" .هذا ليس ضعفاً، بل هو قوة إيمان.
· في مجتمعك: كن حذراً من نشر الأكاذيب والأقاويل المنسوبة لله أو للرسول ﷺ .تأكد من أي خبر ديني قبل أن ترسله .نشر الافتراء على الله ولو بجهل، جريمة عظيمة.
· في نفسك: اسأل نفسك: هل أنا ممن يكذب بالحق إذا جاءه من شخص لا أحبه؟ هل أنا ممن يتكبر عن قبول الحق من زوجتي، أو ولدي، أو مرؤوسي؟ احذر من هذا الداء القاتل.
الخلاصة النهائية:

أخي الحبيب، أختي الكريمة، هذه الآية تضعك أمام مرآة الحقيقة .أعظم ظلم ليس ظلمك للناس، بل ظلمك لله بالافتراء عليه أو بتكذيب الحق الذي جاءك .فأنت مدعو إلى:

1.إخلاص التوحيد: لا تشرك بالله، ولا تفتري عليه بأن تجعل له شريكاً أو ولداً.
2.الانقياد للحق: مهما كان الحق صعباً على نفسك، أو مخالفاً لهواك، أو جاء على لسان من لا تحب، فاقبله واستسلم له.
3.الخوف من المثوى: تذكر أن جهنم هي المقر الدائم لمن كفر بالله وافترى عليه وكذب رسله .هذا الخوف يجعلك تجتهد في طاعته.

وتذكر دائماً: لا أحد أظلم ممن افترى على الله كذباً أو كذب بالحق لما جاءه .فاحرص ألا تكون من هؤلاء.
الختام
أخي الحبيب، أختي الكريمة، ها نحن نصل إلى خاتمة سورة العنكبوت، الآية التي توج كل ما سبق، وتعلن عن القاعدة الذهبية في العلاقة مع الله: "بقدر ما تجاهد، بقدر ما يُهدى إليك" .بعد أن تحدثت السورة عن الفتنة والابتلاء، وعن الإيمان والعمل الصالح، وعن الصبر والتوكل، وعن الدنيا والآخرة، وعن تناقض المشركين، وعن نعمة الأمن، وعن أظلم الناس... تأتي هذه الآية كـ القمة التي تكلل الجبل ، والثمرة التي تنبت من كل هذه الغراس .يقول تعالى:

}وَالذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللهَ لَمَعَ المُحْسِنِينَ] {العنكبوت:[69

تخيل معي أنك في سباق طويل وشاق .الطريق مليء بالعقبات والمشقة .هناك من يتعب في البداية فيتراجع، وهناك من يواصل .وفي لحظة إعياء شديد، يأتيك صوت من السماء يقول: "كلما اجتهدت وبذلت جهدك في طريقي، سأفتح لك طرقاً جديدة من الهداية لم تكن تعرفها من قبل .وأنا معك، مؤيدك، ناصرك، ما دمت من المحسنين" .هذه الآية هي ذلك الصوت.

إنها وعد إلهي مطلق بالهداية والنصر والتأييد لمن يجاهد في سبيل الله .وهي آية الأمل والعزيمة، التي تجعل المؤمن يواصل السير مهما بلغت الصعاب.

دعنا نغوص في أعماق هذه الآية الخاتمة، ونكتشف لماذا اختارها الله لتكون ختام سورة العنكبوت، وكيف تربط نهاية السورة ببدايتها لتعطينا المنهج المتكامل للنجاة.
المقدمة والأفكار الرئيسية للآية69

هذه الآية هي النتيجة الطبيعية لكل ما سبق في السورة .هي الإجابة عن السؤال الافتتاحي.

أفكارها الرئيسية:

1.الشرط: "والذين جاهدوا فينا" – الجهاد بكل أنواعه) النفس، الشيطان، الكفار.(
2.الجزاء: "لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا" – الهداية إلى الطرق الموصلة إلى الله، وتيسير أسباب الثبات والنصر.
3.التأكيد الإلهي: "لَنَهْدِيَنَّهُمْ" بقسم وتأكيد – لا رجعة فيه.
4.الختم بالمعية الخاصة: "وإن الله لمع المحسنين" – المعية بالنصر والتأييد والرعاية لمن أحسن عملا ً وجهادا.
5.الربط بالافتتاحية: السورة بدأت بسؤال عن الفتنة: أيظن الناس أن يتركوا دون ابتلاء؟ وتنتهي بالإ جابة: من جاهد واجتاز الابتلاء، هداه الله وثبته.

والآن، لنبدأ الرحلة التفصيلية:

أولا ً: دلالات قوله تعالى:} وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا{

} .1وَالَّذِينَ جَاهَدُوا{:

· "الذين" موصولة تفيد العموم والثبات .كل من يتصف بهذه الصفة، أيّاً كان زمانه ومكانه، فهو داخل في هذا الوعد.
· "جاهدوا" من الجهاد، وهو بذل الجهد والطاقة في دفع المشقة .الجهاد أنواع:
· جهاد النفس: مجاهدة الهوى والشهوات، وحملها على الطاعة وترك المعصية .هذا أعظم الجهاد وأولها.
· جهاد الشيطان: دفع وساوسه وشبهاته.
· جهاد الكفار والمنافقين: باليد واللسان والمال والقلب.
· جهاد الظالمين وأعداء الدين.
الجهاد ليس فقط القتال، بل هو كل جهد يبذله المؤمن ليكون أقرب إلى الله، ولإعلاء كلمة الله.

} .2فِينَا{:

· "فينا" أي من أجلنا، وفي سبيلنا، ولوجهنا .الجهاد ليكون مقبولا ً لا بد أن يكون خالصاً لوجه الله، لا للرياء، ولا للسمعة، ولا للوطنية العمياء، ولا للعصبية القبلية ."فينا" تعني: طلباً لمرضاتنا، ونصرة لديننا ، وإعلاءً لكلمتنا.
· اللمسة البلاغية: جاء بـ "فينا" وليس "في سبيلنا" ليشمل المعنى الأعم .الجهاد في الله هو الجهاد الذي تستشعر فيه أن الله معك، وأنك تعمل له .إنها إضافة تشريف وتكريم .المجاهد في الله كأنه في حضرة الله.

.3العلاقة بين "جهاد" و"فتنة" في أول السورة:
السورة افتتحت بـ} أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ] {العنكبوت: .[2 الفتنة هي الابتلاء والاختبار .والجهاد هو أعلى درجات الابتلاء .من يصبر على الابتلاء ويجتازه، يكون من المجاهدين .إذن، الآية الأولى تسأل: "هل تظنون أنكم تتركون دون امتحان؟" والآية الأخيرة تجيب: "من اجتاز الامتحان بالجهاد فينا، نهديه سبلنا" .هذا هو الربط المعجز.

الأثر النفسي والإيماني:

· توسيع مفهوم الجهاد: كثير من الناس يظن الجهاد هو القتال فقط .هذه الآية تفتح الأفق: جهاد النفس عن المعصية، جهاد الصبر على الطاعة، جهاد التعلم، جهاد الدعوة، جهاد التربية .كل حركة تقربك إلى الله وتكلفك جهداً هي جهاد.
· رفع المعنويات: عندما تعلم أن الله يرعى المجاهدين فيه، تزداد قوتك وعزيمتك .أنت لست وحدك في الميدان، بل الله معك.
ثانياً: دلالات قوله تعالى:} لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا{

هذا هو الجزاء العظيم، والأعظم من أي جزاء مادي.

} .1لَنَهْدِيَنَّهُمْ{:

· اللام والنون الثقيلة تأكيدان متتاليان) قسم وتوكيد .(إنه وعد مؤكد مطلق من الله، لا يتخلف أبداً . من يجاهد يهديه الله.
· الهداية هنا ليست مجرد هداية الإرشاد والدلالة، بل هداية التوفيق والثبات والتسديد .هي أن يفتح الله على قلبك من المعرفة والعلم والحكمة ما لم يكن لديك من قبل .هي أن ييسر لك الطريق إلى الخير، ويصرف عنك الشر.

} .2سُبُلَنَا{:

· "سبلنا" جمع سبيل، أي طرقاً متعددة، لا طريقاً واحداً .الهداية تأتي من أبواب شتى:
· طريق العلم والبصيرة.
· طريق الثبات على الحق.
· طريق النصر على الأعداء.

· طريق الخلاص من الشبهات.
· طريق الرزق الحلال.
· طريق السعادة والطمأنينة.
· إضافة "سبلنا" إلى الله يدل على أنها طرق موصلة إليه، وهي الطرق التي شرعها وأحبها .ليست طرقاً ضالة .المجاهد يهدى إلى الطرق التي ترضي الله، وتبلغه الجنة.

.3العلاقة بين الجهاد والهداية:
ليس الجهاد نتيجة الهداية، بل الهداية نتيجة الجهاد .أي أنك إذا بذلت الجهد في طاعة الله، فتح الله عليك من الهداية والتوفيق ما لم تكن تتوقعه .من ترك شيئاً لله عوضه الله خيراً منه .من جاهد هواه ، هداه الله إلى طاعته .من جاهد في طلب العلم، فتح الله عليه .من جاهد في الدعوة، نصر الله قلبه ولسانه.

اللمسة البلاغية:
جاء الفعل "لنهدينهم" مبنياً للمعلوم) الله هو الفاعل(، و"سبلنا" مفعول به .هذا يقطع الطريق على من يظن أن الهداية تأتي باجتهاد العبد فقط .الاجتهاد شرط، لكن الهداية هبة من الله .فاجتهد، واسأل الله أن يهديك سُبله.

الأثر النفسي والتربوي:

· يمنع اليأس: عندما تجاهد ولا ترى نتيجة مباشرة، تذكر أن الهداية تأتي من الله، وقد تأتي متأخرة . لا تيأس، فالوعد مؤكد.
· يشجع على البدء: أحياناً يظن الإنسان أنه لا يستطيع أن يبدأ في الطاعة لأنه ضعيف أو جاهل .الآ ية تقول: ابدأ بالجهاد) حتى لو كان قليلا ً(، والله سيهديك ويزيدك.
· يرسخ مبدأ "من سار على الدرب وصل": هذه الآية هي شعار كل طالب علم، وكل داعية، وكل مجاهد .السير في الطريق الصعب هو الذي يوصلك إلى الهداية الكاملة.
ثالثاً: دلالات قوله تعالى:} وَإِنّ اللهَ لَمَعَ المُحْسِنِينَ{

هذه هي الخاتمة على الخاتمة، أعلى درجات التأييد.

} .1وَإِنّ اللهَ لَمَعَ المُحْسِنِينَ{:

· "إنّ" و"اللام" للتوكيد .لا شك فيها.
· "مع المحسنين" : هذه المعية الخاصة، ليست المعية العامة) العلم والإحاطة (التي تشمل كل الخلق، بل معية النصر والتأييد والرعاية والحفظ والتوفيق .هي معية الله لمن أحسنوا.
· "المحسنين" : هم الذين أحسنوا أعمالهم، وأحسنوا نياتهم، وأحسنوا جهادهم .الإحسان هو "أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك" .المحسن هو الذي يؤدي العمل على أكمل وجه، بإخلاص ومتابعة.

.2العلاقة بين "المجاهدين" و"المحسنين":
كل مجاهد محسن، ولكن ليس كل محسن مجاهداً بالقتال .فالمحسن أعم .الآية تختم بالعموم: الله مع كل من أحسن، سواء كان جهاده قتالا ً أو صبراً أو علماً أو عبادة .هذا يعطي الأمل لكل مسلم يحسن عمله.

.3الفرق بين "معية الله" ومعية الناس:
معية الناس قد تخذلك أو تنقلب عليك .أما معية الله فهي نصر مؤيد، وحفظ لا يخلف، وتأييد لا ينقطع .من كان الله معه، فلا خوف عليه ولا حزن.

الأثر النفسي والإيماني:

· أعظم طمأنينة: أن تعلم أن الله معك .عندما تواجه أعداءً، أو صعوبات، أو ظلماً، تستحضر هذه المعية فتسكن نفسك .قال تعالى للنبي ﷺ في الغار:} لا تحْزَنْ إِنّ اللهَ مَعَنَا.{
· تحفيز للإتقان: لأن الله مع المحسنين، فكلما أتقنت عملك، كنت أقرب إلى هذه المعية .هذا يدفعك ل لإتقان في عبادتك وفي عملك وفي علاقاتك.
· رفع للهمة: الآية تدعوك لأن تكون من المحسنين، فتسمو بنفسك عن الدرجات الدنيا إلى أعلى المراتب.
رابعاً: دلالة اختتام السورة بهذه الآية وربطها بالافتتاحية

السورة بدأت بسؤال:} أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ] {العنكبوت: .[2 ثم انتقلت إلى قصص الأنبياء والمؤمنين السابقين وكيف فُتِنوا وصبروا، ثم تحدثت عن نعم الله وتناقض المشركين، ثم ختمت بهذه الآية.

الربط المعجز:

· الافتتاح: سؤال عن الابتلاء والفتنة .هل يترك الناس دون اختبار؟
· الخاتمة: جواب عن ذلك الاختبار .من يجتاز الابتلاء بالجهاد في الله، يهديه الله سُبله، ويكون الله معه.

معنى هذا الربط:

.1الدنيا دار جهاد وابتلاء، لا دار راحة .من ظن أنه سيؤمن بلسانه ويترك دون أن يمتحن، فقد أخطأ.
.2الطريق إلى الهداية والثبات هو الجهاد .لا توجد هداية بلا جهاد، ولا نصر بلا تضحية، ولا جنة بلا مشقة.
.3الغاية تبرر الوسيلة، ولكن الوسيلة هي الجهاد نفسه .الغاية هي الهداية ومعية الله، والوسيلة هي الجهاد في الله .وهذا شرف عظيم.
.4السورة دائرتها "الفتنة – الصبر – الجهاد – الهداية – المعية" .من دخل فيها خرج منتصراً.

لماذا ختمت السورة بهذه الآية بالذات؟
لأنها تعطي الأمل بعد كل شدة .بعد أن ذكر الله أهوال الفتنة، وصعوبة الصبر، وخطورة الشرك، وعاقبة الكافرين، جاءت هذه الآية كـ باراشوت النجاة، ونور في آخر النفق .تقول: كل هذه الصعوبات موجودة، ولكن لمن جاهد، الطريق مفتوح، والهداية مضمونة، والله معه .إنها تبث الطاقة الإيجابية في قلب المؤمن، وتجعله يواصل السير.
المفاهيم العملية الكبرى من الآية) كيف تحول حياتك(

.1مفهوم "الجهاد الإيجابي اليومي":
الجهاد ليس فقط في ساحات القتال .جهادك اليومي:

· جهاد على الاستيقاظ لصلاة الفجر.
· جهاد على غض البصر عن الحرام.
· جهاد على حفظ لسانك عن الغيبة والنميمة.
· جهاد على الصدق في المعاملات.
· جهاد على تعلم العلم الشرعي.
· جهاد على دعوة غير المسلمين بحكمة.
كل هذه جهاد في سبيل الله .وكلما جاهدت، فتح الله عليك أبواباً من الهداية لم تكن تتخيلها.

.2مفهوم "الهداية الجزائية" وليست الهداية الإرشادية:
الهداية نوعان:

· هداية إرشاد ودلالة: وهي عامة لكل الناس عبر الرسل والقرآن.
· هداية توفيق وتسديد: وهي خاصة بالمؤمنين المجاهدين .هذه الهداية هي التي تجعلك تفهم القرآن فهماً جديداً، وتجد حلاوة في الطاعة، وتتغلب على معاصيك.
الآية تتحدث عن النوع الثاني .فاجتهد لتناله.

.3مفهوم "معية الله" في الحياة العملية:
كيف أشعر أن الله معي؟

· بأن أستحضر أن الله يراني في كل حركة وسكون.
· بأن أتذكر أنه ناصري إذا نصرته.
· بأن أتوكل عليه في كل أموري.
· بأن أستشعر أنه يدفع عني السوء إذا كنت محسناً.
هذه المعية تعطيني قوة خارقة، تجعلني لا أخاف من أحد سواه.

.4مفهوم "الإحسان" كأعلى مرتبة:
الإحسان هو أن تعمل كأنك ترى الله .هذا يرفع جودة عملك إلى أقصى درجة .عندما تصلي كأنك ترى الله، تخشع .عندما تعمل في وظيفتك كأن الله يراك، تتقن .عندما تتعامل مع الناس كأن الله معك، تعدل .الإحسان هو مفتاح المعية الإلهية.

.5دور الآية في بناء الأمة:

· بناء أمة مجاهدة: الأمة التي تفهم هذه الآية لا تستكين، ولا تخضع، ولا ترضى بالذل .هي أمة تجاهد في الله حق جهاده، في العلم، في الاقتصاد، في السياسة، في العسكرية، في التربية .جهاد شامل.
· بناء أمة مهتدية: الأمة المجاهدة يهديها الله سُبله .الطرق الموصلة إلى الله متعددة: طريق العلم، طريق القوة، طريق الحضارة، طريق العدل .الأمة التي تجاهد تفتح عليها هذه السبل.
· بناء أمة معها الله: أعظم ما يمكن أن تحظى به أمة هو أن يكون الله معها .هذه المعية هي سر الا نتصارات في بدر، وفتح مكة، وكل معارك الحق ضد الباطل .عندما تكون الأمة محسنة في عقيدتها وأخلاقها وسلوكها، يكون الله معها، فلا يخيفها جيش، ولا يرهبها عدو.
· الربط بين الافتتاح والختام في بناء الأمة: السورة تعلن للأمة: لا تظنوا أن الإيمان مجرد كلمات . ستمتحنون .فاصبروا، وجاهدوا، وتوكلوا .والنتيجة: سنهديكم سُبل النصر والتمكين، وسنكون معكم . هذه هي صفقة النجاة لأي أمة تريد العزة والكرامة.

.6التطبيق العملي في حياتك اليومية:

· عندما تشعر بالكسل عن الطاعة: تذكر "والذين جاهدوا فينا" .قل لنفسك: سأجاهد نفسي وأبدأ، ولو ب القليل .والله سيهديني.
· عندما تواجه فتنة وشبهة: تذكر أن الجهاد في فهم الدين وطلب العلم هو الطريق إلى الهداية .اقرأ، وتعلم، واسأل أهل العلم .جهادك في طلب العلم سيفتح لك سبلا ً من البصيرة.
· عندما تخاف من عدو أو ظالم: تذكر "إن الله لمع المحسنين" .أحسن عملك وتوكل على الله .لا تخف، فالله معك.
· عندما تيأس من هداية نفسك أو غيرك: تذكر أن الهداية بعد الجهاد .لا تيأس، واصل الدعوة، واصل التوبة، واصل المجاهدة .والله سيهدي.
· اجعل شعارك في الحياة: "جهاد في الله - هداية من الله - معية من الله" .هذا هو المثلث الذهبي للنجاح في الدنيا والآخرة.
الخلاصة النهائية:

أخي الحبيب، أختي الكريمة، ها قد انتهينا من سورة العنكبوت، ووقفنا على آخر آية فيها .السورة بدأت بسؤال: أتحسبون أنكم تتركون دون اختبار؟ وانتهت بجواب: من جاهد واجتاز الاختبار، هديناه سبلنا، وكنا معه.

هذه هي خلاصة الحياة كلها .الدنيا دار جهاد وابتلاء .لا راحة فيها لمؤمن حتى يلقى الله .من آمن بلسانه فقط، ستمتحنه الفتن فينكشف .أما من آمن بقلبه، وجاهد بجوارحه، وصبر على البلاء، وتوكل على الله، فإن الله سيفتح له من الهداية أبواباً، ويكون معه بالنصر والتأييد.

فلا تنتظر الحياة السهلة .واجه التحديات، وجاهد نفسك، وجاهد هواك، وجاهد أعداء دينك بقدر استطاعتك .وكن على يقين: كل خطوة تخطوها في الجهاد، يخطو الله إليك خطوة بالهداية والمعية.

وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ.

هذا وعد الله، والله لا يخلف وعده .فكن من المجاهدين المحسنين، تكن من المهتدين المفلحين.

بسم الله الرحمن الرحيم
اهم المصادر والمراجع
أ .المصادر الرئيسية في التفسير) كتب التراث والموسوعات(

· جامع البيان في تأويل آي القرآن) تفسير الطبري(: الإمام محمد بن جرير الطبري) ت310 ه- .(يعد أم التفاسير وأصلها، وهو مرجع في أقوال السابقين ووجوه الإعراب والتفسير بالرواية.
· تفسير القرآن العظيم) تفسير ابن كثير(: الإمام عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن كثير الدمشقي) ت 774ه- .(وهو تفسير بالأثر يجمع بين الرواية والدراية، ويتميز باختياراته الراجحة واهتمامه بالعقيدة.
· الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل) تفسير الزمخشري(: الإمام جار الله أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري) ت538 ه- .(وهو مرجع أساسي في علوم البلاغة والإعجاز البياني للقرآن، وله الريادة في تحليل الصور الفنية.
· مفاتيح الغيب) التفسير الكبير(: الإمام فخر الدين الرازي) ت606 ه- .(يتميز بالعمق العقلي والتحليل المنطقي والنفسي، وهو مرجع في ذكر الحِكم والأسرار التي تحملها الآيات.
· التحرير والتنوير) تفسير ابن عاشور(: الإمام محمد الطاهر بن عاشور) ت1393 ه- .(جمع بين الأصالة والمعاصرة، ويهتم بمقاصد السور والعلاقات بين الآيات، وبلاغة النظم.
· تفسير القرآن العظيم) تفسير السعدي(: الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي) ت1376 ه- .(يتميز بوضوح العبارة، وسهولة الأسلوب، وعنايته بالمعنى الإجمالي والتربوي.
· موسوعة التفسير) موقع الدرر السنية(: تجمع إلكترونية شاملة لأهم أقوال المفسرين في الآية الواحدة، مع عناية بذكر المناسبات والأحكام.
* في ظلال القرآن (سيد قطب): لاستنباط الروح الحركية والتربوية في سورة العنكبوت، وفهم طبيعة الصراع بين "الفتنة" و"التمكين".

* تفسير المنار (محمد رشيد رضا): في تحليل السنن الكونية والاجتماعية في قصص الأنبياء.
ب .كتب البلاغة والإعجاز البياني

التي استندت عليها لتحليل اللمسات البلاغية في الآيات.

· أسرار البلاغة: الإمام عبد القاهر الجرجاني) ت471 ه- .(وهو من أوائل من أسس لعلم البيان، ويشرح كيف تلتقط العبارات القرآنية الألباب.
· دلائل الإعجاز: الإمام عبد القاهر الجرجاني .متمم لكتابه "أسرار البلاغة"، وهو معين لا ينضب لفهم نظم القرآن وبناء جُمَلِه.
· الفِكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي: للحسيني جلال .وهو مرجع قيم يشرح تطور الأصول الفقهية وعلاقتها بالعلوم البلاغية.
· الإعجاز اللغوي والبياني في القرآن الكريم) موسوعة(: وهي مرجع متخصص يُظهر جوانب الإعجاز في تراكيب السور المختلفة.

ج .كتب التربية والأمثال القرآنية

المصادر التي أفدت منها في الحديث عن الجانب التربوي والتأهيل.

· الأمثال في القرآن: الإمام شمس الدين ابن قيم الجوزية) ت751 ه- .(وهو مرجع أساسي في فقه الأ مثال، ويشرح كيف تصل الصورة القرآنية إلى العقل والقلب معاً.
· الجامع في أمثال القرآن: وهو كتاب متخصص يجمع أمثال القرآن الكريم ويشرحها شرحاً تطبيقياً.
· الدعوة إلى الله في سورة العنكبوت: لعبيد بن عبد العزيز بن عبيد السلمي .وهو مرجع يربط بين آيات السورة وأساليب الدعوة وبناء الأفراد.
· القيم الحضارية في الخطاب القرآني) سورة العنكبوت أنموذجاً(: وهو بحث قيم يوضح كيف تبني الآ يات مفهوماً متكاملا ً للقوة والضعف والبناء الحضاري.

د .كتب علم النفس من منظور إسلامي

التي استخدمت لتحليل الحالة النفسية للإنسان والمجتمع.

· علم النفس في التراث الإسلامي) موسوعة(: لمجموعة من المؤلفين بإشراف محمد عثمان نجاتي وعبد الحليم محمود السيد .وهو مرجع شامل يتناول مفاهيم النفس والقلب والعقل من خلال نصوص الوحي.
· مدخل إلى علم النفس الإسلامي: للدكتور محمد محمود مصطفى .وهو كتاب معاصر يشرح أسس

علم النفس الرباني.
· علم النفس الدعوي: للدكتور عبد العزيز النغميشي .وهو مرجع يربط بين علم النفس وأساليب التأثير والتغيير.

هـ .كتب التزكية والرقائق وأساليبها

المصادر التي أفدت منها في الحديث عن جهاد النفس والثبات على المبدأ.

· استنباطات الشيخ عبد الرحمن السعدي من القرآن الكريم: وهو كتاب يبرز الجانب التزكوي في تفسير السعدي.
· أساليب التزكية المستفادة من شرح الإمام ابن أبي جمرة لحديث بدء الوحي: وهو بحث قيم يربط بين تزكية النفوس وبين القرآن في المراحل الانتقالية.
· التبيان في تفسير القرآن) للشيخ الطوسي(: وهو مرجع يذكر أسرار التزكية في آيات الأحكام.

و .كتب التنمية البشرية بمنظور إسلامي

التي استخدمت لصياغة الدروس التطبيقية.

· التنمية البشرية في القرآن الكريم وأثرها على سعادة الإنسان: لقطر الندى .وهو كتاب يشرح كيفية بناء الإنسان المتوازن من خلال مفاهيم القرآن.
· العقل والعلم في القرآن الكريم: للشيخ يوسف القرضاوي .وهو مرجع يشرح كيفية بناء القوة الفكرية المستمدة من الوحي.
· التنمية البشرية من منظور إسلامي) سلسلة(: وهي مراجع معاصرة تربط بين مفاهيم التطوير الذاتي ومقاصد الشريعة.
المصادر الفكرية وفلسفة الحضارة
* مالك بن نبي: الاعتماد الكلي على نظريته في "دورة حياة الحضارة" (الروح، العقل، الجسد) كما وردت في كتبه: "شروط النهضة" و "الظاهرة القرآنية" و "وجهة العالم الإسلامي".
* د. نايف بن نهار: الاستناد إلى طروحاته حول "الإسلام المجاني" ونقده للتدين الصوري، كما ورد في كتابه "مقدمة في علم السياسة" ومقالاته الفكرية حول بناء الأمم.
مصادر التزكية وعلم النفس التربوي
* مدارج السالكين (ابن القيم): في تحليل القوى النفسية (الحب والبغض، المجاهدة) وكيفية تزكيتها لتتحول إلى قوة دافعة.
* إحياء علوم الدين (الغزالي): في ربط العبادات (الصلاة والذكر) بتعديل السلوك البشري (مرحلة الروح).
قواعد الفقه الكلية: في استنباط القواعد العامة من الآيات (مثل: المسؤولية الجنائية الفردية في "فكلًا أخذنا بذنبه").
* مقاصد الشريعة (الشاطبي): في كتابه "الموافقات" لفهم ضرورة حفظ الضرورات الخمس (الدين، النفس، العقل، النسل، المال) كأعمدة لبناء الأمة.
مصادر علم النفس
* علم النفس المعاصر: في تحليل مفاهيم "الخوف" و"الحزن" كمعوقات نفسية للإنتاجية والفاعلية.
خامساً: مصادر التنمية البشرية والقيادة
* ستيفن كوفي (العادات السبع): في ربط مفهوم "الرقابة الذاتية" ومبدأ "التركيز على الدائرة الداخلية" (المجاهدة الذاتية) قبل التغيير الخارجي.
* كتب الإدارة الاستراتيجية: في فهم "النماذج الفاشلة" وكيفية تحليل الأخطاء البنيوية في المنظمات والأمم (مرحلة الجسد)
ح. مجالس التدبر والذكر

· سلسلة "تدبر سورة العنكبوت" للدكتورة رقية العلواني (ruqaia.com): وهي مجالس فيديو تعالج الآيات بأسلوب نفسي ووجداني، وتستخرج الدروس التربوية بتأثير بالغ في القلوب.
مجالس الذكر لعبد الحميد بن باديس.
المواقع الإلكترونية الموثوقة

التي تمت الاستعانة بها للوصول السريع للمعلومات وتفاصيل الآيات.

· شبكة الألوكة(www.alukah.net) : موقع دعوي علمي شامل، ويحتوي على تفاسير معاصرة بأسلوب

بسيط.
· طريق الإسلام(ar.islamway.net) : موقع يحتوي على مكتبة ضخمة من التفاسير الصوتية و المقروءة.
· الدرر السنية(dorar.net) : موسوعة علمية ضخمة، تقدم الموسوعات الفقهية والتفسيرية بشكل منظم.
· التفاسير العظيمة(greattafsirs.com) : موقع متخصص في جمع كتب التفاسير) حوالي 91 تفسيرا (مع إمكانية البحث والمقارنة.
· المشروع الإسلامي لعلوم النفس(islamicpsychologytheory.com) : موقع متخصص في ربط النظريات النفسية الحديثة بالمنظور الإسلامي.
واخيرا فإن هذا الكتاب من
تاليف/ احمد عبد الرزاق مربوش العامري
وتم مراجعته من قبل الاستاذ منير عبده عثمان الصلوى